

القسط
في العصر المملوكي

تصميم الغلاف وأخطوط : عماد حليم

الطبعة الأولى
القاهرة - ١٩٨٦
جميع الحقوق محفوظة



القاهرة: شمسليب - رقم ٤٢/٢٥
مدينة نصر - المنطقة الثامنة

اهداءات ٢٠٠١

المستشار / رابع لطفي جمعة
القاهرة



القدس في العصر المملوكي

د. علي السيد علي

دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع



To: www.al-mostafa.com

تقديم

القدس ، ليست مجرد مدينة من عشرات الألوف من مدن الأرض ؛ ولكنها رمز دار من حوله الصراع على مدى أجيال عدة في تاريخ المنطقة العربية .

والقدس اليوم رمز في صراع جديد قديم بين القوى العربية في المنطقة وقوى البغى والعدوان الآتية من خارج المنطقة تفرض منطق الاستيطان العنصرى المتسربل برداء الدين .

والقدس في ماضينا القريب كانت رمزاً لصراع بين العرب والقوى الصليبية التى وفدت إلى المنطقة تزرع فيها كيئناً دخيلاً ، فما أشبه اليوم بالبارحة !

والثير للانتباه أن القدس كانت محور الدعوة الصليبية بالأمس ، كما هى محور الدعاوى الصهيونية اليوم . فقد جاء الصليبيون في أخريات القرن الحادى عشر تحت راية الصليب بدعوى تحرير القدس من العرب المسلمين . وادعوا أن فلسطين أرض الميعاد وأنهم شعب الله المختار الذى اصطفاه للمهمة المقدسة لتحرير ضريح المسيح من المسلمين . ولا غرو فقد ورث المسيحيون العهد القديم (التوراة) بكل ما فيها . وها نحن اليوم نواجه العدوان الصهيونى / الأمريكى تحت الراية نفسها ، وفي ظل المزاغم ذاتها ، فالصهاينة يزعمون أنهم شعب الله المختار وأن القدس وفلسطين هى الأرض التى وعدهم الرب بها .

وفي غمار الهجمة الصليبية والعدوان الصهيونى على السواء ، ارتكب الأوروبيون والأمريكيون - قديماً وحديثاً - أبشع صنوف الجرائم والمذابح وهم يرفعون راية الدين ويتمسحون فى القدس ... مدينة السلام . وبعد أن عرف العرب كيف يواجهون الهجمة الصليبية تحت راية واحدة ، نجحوا فى دحر العدوان الصليبي وقضوا على شراذم القادمين من الغرب الأوربي للاستيطان فى أرض العرب . ولن يستطيع العرب هزيمة الصهيونية وحلفائها من قوى العدوان الأوربية والأمريكية سوى حين يعرفون أن وحدتهم هى الطريق ..

وبينا كانت القدس رمزاً وستاراً للعدوان فى كل من الحركة الصليبية والحركة الصهيونية ، كانت

المدينة المقدسة مركزاً للبناء ، وبؤرة حضارية وثقافية هامة في الحضارة العربية الإسلامية .

لم تكن القدس بالنسبة للعرب مجرد مدينة على الخريطة ، وإنما كانت بالنسبة لهم أولى القبلتين وثالث الحرمين . ولم تكن القدس في الحضارة العربية الإسلامية واجهة تخفى النوايا العدوانية ، والمقاصد الهمجية ، والأغراض الاستيطانية ، ولكنها كانت قبلة للعلماء ، ومقصداً للدارسين ، ومناراً مرشداً لصناع الحضارة من كل مكان ..

فتحت القدس العربية قلبها واستقبلت الحجاج والزوار المسيحيين واليهود طوال عصورها العربية ، ولم ترد حاجاً أو تصد زائراً . وتفتحت عيون القدس العربية للعلوم والمعارف لرفعة بنى الإنسان ورقبهم فكانت مجمعاً للمدارس ومزاراً لكل راغب في العلم والمعرفة ، وأثبتت القدس العربية على مدى التاريخ إنها مدينة السلام لكل بنى الإنسان .

ولم تعرف القدس التعصب سوى حين احتلها الصليبيون فطردوا منها المسلمين واليهود ، ومات التسامح في بلد التسامح . وصارت وقفاً على المستوطن الغريب القادم من الغرب الأوربي . ولم تعرف القدس العنف والدمار سوى حين اقتحمها القادمون من أوروبا ، واستشهد السلام في مدينة السلام ، حين جرت سيوف الصليبيين بتلك المذبحة الرهيبة على المسلمين من سكان القدس ؛ مسلمين ويهوداً .

وعاد السلام لمدينة السلام حينما استعادها العرب تحت راية صلاح الدين ، وتدعم السلام حين تم طرد الصليبيين من فلسطين . وعادت مدينة الحب والتسامح تبنى الحضارة وتزرع الثقافة وتعلم الإنسان .

إلى أن كان زمن رديء . تشرذم فيه العرب ، وتباغضوا ، وتنافروا فسقطت مدينة السلام في أيدي أعداء السلام . ومرة أخرى عاد التعصب والرعب لمدينة التسامح والسلام ، وداست أقدام الصهاينة تراب المدينة المقدسة ولا تزال .

ولأن الحب والسلام والحق ينتصر دائماً في النهاية ، فسوف تعود مدينة السلام إلى سابق سيرتها الأولى . ليس بالأمانى ، ولكن بتوحيد الجهد العربى وبمواصلة العمل والكفاح ضد عدونا الحقيقي في الداخل والخارج .



والكتاب الذى بين أيدينا ، يقدم لنا صفحة من صفحات تاريخ مدينة بيت المقدس ؛ حافلة بالمعاني والدلالات الهامة . فهو كتاب يكشف عن القدس « المدينة الحضارة » . يكشف عن القدس العربية في حياتها السياسية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية ويرسم صورة حية لمدينة السلام في حياتها اليومية في حقبة غنية بالحركة من تاريخها الطويل الحافل .

هذا الكتاب الذى يحدثنا عن القدس في عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧ م) يرسم لنا صورة متكاملة وحية عن المدينة المقدسة خلال ما يزيد عن قرنين ونصف قرن من الزمان . وهى

دراسة متكاملة تكشف عن مدى ازدهار القدس باعتبارها من مراكز الحركة الثقافية والسياسية الهامة في ذلك الزمان من ناحية ، كما يوضح ، من ناحية ثانية ، كيف أن الحضارة العربية استخدمت المدينة المقدسة لبناء الحضارة والسلام ، ولم تتخذها ستاراً للعدوان وواجهة للاستيطان مثلما فعل الصليبيون بالأمس وعلى نحو ما يفعل صهاينة اليوم .

والكتاب أطروحة تقدم بها الدكتور على السيد على لنيل درجة الدكتوراة من قسم التاريخ بآداب الزقازيق . واختار المؤلف أن تكون مدينة بيت المقدس محوراً لدراسته التي استهدفت توضيح حقيقة الدور الحضارى للمدينة المقدسة في إطار الحضارة العربية الإسلامية . وقد اتبع منهجاً تحليلياً يقوم على أساس موضوعى يعالج كل فصل على حدة في إطار الدراسة كلها . ولم ينزلق إلى منهج السرد التاريخى الكرونولوجى الذى يقوم على أساس ترتيب الحوادث في سياقها الزمنى وحسب .

ولكن أهم ما يطرحه الكتاب في تصورى ، هو أنه يكشف للعرب - قبل غيرهم - أن المدينة المقدسة ليست بالنسبة لحضارتنا وماضينا وحاضرنا مجرد مدينة احتلها العدو ، وإنما هى قطعة حية من تاريخنا ، ومعرض حى لإنجازات الحضارة العربية الإسلامية . ولست أعتقد أننى قادر على تقديم صورة متكاملة لجهد استغرق عدة سنوات من الدكتور على السيد على ، ولذا فإن الأفضل أن أترك للقارئ مهمة كشف جوانب هذه الصورة بنفسه .

د . قاسم عبده قاسم
أستاذ ورئيس قسم التاريخ
آداب الزقازيق

مقدمة المؤلف

لعله ليس من بين بلدان الدنيا بلد يحق لها أن تفاخر غيرها بما حوته من مقدسات كمدينة بيت المقدس ، فهي موطن كثير من الأنبياء والرسل . يقول عنها القزويني « وهي المدينة المشهورة التي كانت محل الأنبياء وقبلة الشرائط ومهبط الوحي .. وما فيه من موضع شبر إلا وصلى فيه نبي أو قام فيه ملك .. »^(١) كذلك يروي لنا ابن الجوزي أن الكثير من المحدثين يجمعون على أن الله عز وجل منذ خلق آدم إلى الدنيا لم يبعث نبياً إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس ، وقد صلى إليها نبينا ﷺ^(٢) . لذا فهي مهوى أفئدة المسلمين وقرة أعينهم ، هذه المدينة التي يقدسها المسلمون مقدسة أيضاً عند المسيحيين .

ففيها كثير من الأماكن المقدسة التي ترتبط بتراث المسيحيين مثل كنيسة القيامة ، حيث يحج إليها المسيحيون من مختلف الأقطار ، وبها كنيسة صهيون التي يقال أن المائدة نزلت على سيدنا عيسى عليه السلام والحواريين بها ، بل إن المسيحيين الغربيين كانوا يعتقدون في العصور الوسطى بوجه خاص أن زيارة بعض الأماكن بها قد تهب التحلل والتوبة من الذنوب^(٣) .

وما زال اليهود يزعمون نسبة بعض الأماكن بها إلى كثير من أجدادهم الأول . وحسب هذه المدينة أن اجتمعت فيها مقدسات الأديان السماوية الثلاثة ، وشهدت أرضها آثاراً لموسى وعيسى ومحمد عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ، الأمر الذي جعل هذه المدينة تحظى بعناية بعض الكتاب والمؤرخين ، لدرجة أن ما كتب عنها من الفضائل يفوق ما كتب عن غيرها من المدن الأخرى .

وهكذا حظت مدينة بيت المقدس بمكانة خاصة في جميع أنحاء العالم قديمه وحديثه بالرغم من أنه ليس لها كثير من الخواص الطبيعية التي تحالف المدن الكبرى ، فهي لا تقع على مجرى مائى عظيم ، ولا هي ميناء ، ولا هي واقعة على طريق رئيسى أو عند ملتقى عدة طرق ، كما أن أراضيها بركانية فلا

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ، نشر دار صادر بيروت ١٩٦٠ ص ١٥٩ - ١٦٠

(٢) فضائل القدس ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ١١٤

(٣) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة د . السيد الباز العريضي بيروت ١٩٦٩ ج ١ ، ص ٧١

يصلح الكثير منها للزراعة التي كانت عنصراً رئيسياً في قيام كثير من الحضارات القديمة . ومع هذا فهي تعتبر من قديم الزمان ذات مركز ديني أكثر منها ذات وضع سياسي .

ومع انتشار المسيحية والاعتراف بها في أوائل القرن الرابع الميلادي ، صار في وسع المسيحيين في مختلف الأقطار أن يرتحلوا إلى الأرض المقدسة وأضحى من شعائهم الدينية زيارة بيت المقدس من أجل العبادة والعظة والعبرة ، وهكذا حتى ازداد نفوذ الكنيسة الغربية وعندئذ حرصت على فرض سيطرتها على تلك الأماكن المقدسة ، وعلى ضم أبناء الكنيسة الشرقية لنفوذها ، واتخذت من الحروب الصليبية وسيلة لتحقيق أطماعها هذه ، حتى تم استيلاء الصليبيين على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م وظلت تحت حكم الصليبيين حتى استردها السلطان صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م عقب معركة حطين الشهيرة .

وبعودة المدينة إلى الخطيرة الإسلامية عقب الفتح الصلاحي لها ، وبتوقيع معاهدة الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد عام ١١٩١ م ، ساد المدينة نوع من الاستقرار النسبي ، لكن هذا الاستقرار لم يتم له الدوام في عهد خلفاء صلاح الدين من بني أيوب ، وبخاصة من أبناء الملك العادل الأيوبي ، مما ترتبت عليه نتائج خطيرة بالنسبة لمدينة بيت المقدس بحيث غدت كالكرة تتلاقفها أيدي المسلمين تارة ، وأيدي الصليبيين تارة أخرى .

ومع قيام دولة سلاطين المماليك في مصر في منتصف القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، تعرضت بلاد الشام لخطر الغزو المغولي ، وما تلا ذلك من انتصارات المماليك على المغول في عين جالوت ١٢٦٠ م ، مما أدى إلى إنقاذ بيت المقدس من براثن هؤلاء الغزاة الوثنيين ، وبذلك نجت المدينة من التخريب والإحراق وانتهاك مقدسات الإسلام والمسلمين .

ومهما يكن من أمر فإن ظهور المماليك على مسرح الأحداث السياسية في تلك الفترة ، وما ترتب عليها من قيام دولتهم بالدفاع عن الكيان الإسلامي ضد الخطر المغولي والخطر الصليبي ، فضلاً عما أحاط بظروف نشأة هؤلاء المماليك وما لمسوه من نظرة المعاصرين لهم بسبب أصلهم غير الحر ، إلى جانب أنهم اغتصبوا الحكم من سادتهم بني أيوب ، مما كان له أكبر الأثر في رسم سياسة المماليك ، تلك السياسة التي انعكست آثارها على أوضاع مدينة بيت المقدس ممثلة في شقيها الحربي والديني . وعلى هذا الأساس يمكننا القول إن عصر سلاطين المماليك يمثل مرحلة جديدة تماماً في تاريخ مدينة بيت المقدس ، لها طابعها الخاص الذي يتصف بالأمن والاستقرار ، وهو ما لم يتوفر للمدينة في العهد الأيوبي ، فضلاً عن الثراء والازدهار ، مما جعل من المدينة مرة أخرى عنصراً إيجابياً وفعالاً في الحياة الإسلامية .

والله أسأل أن أكون قد وفقت في إبراز بعض مظاهر الحياة في مدينة من أكثر المدن قدسية في عصر سلاطين المماليك والله ولي التوفيق .

دراسة للمصادر الخاصة بهذا البحث

تتناول هذه الدراسة بعض المصادر التي تحدثت عن مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك . وحسب هذه المدينة أن اجتمعت فيها مقدسات الأديان السماوية الثلاثة ، مما جعلها تحظى بعناية كثير من الكتاب والمؤرخين ، كذلك كانت لها جاذبيتها الخاصة عند مثقفي ذلك الزمان ، كما كان لها عشاقها الكثيرون وخاصة بعد تلك الغيبة الطويلة التي انتزعت فيها من بين أحضان الدولة الإسلامية الأم فترة الحكم الصليبي التي قاربت مائة عام . أضف إلى ذلك أن أحوال العالم الإسلامي المتدهورة في المشرق والمغرب ، نتيجة لاستيلاء المغول على بلاد ماوراء النهر والعراق وإيران ؛ والحركة الاسترداد التي شنتها القوى المسيحية ضد مسلمي الأندلس ، مما شجع الكثير من العلماء على الهجرة إليها والاستقرار بها كواحدة من الحواضر العربية الإسلامية المزدهرة في عصر سلاطين المماليك ، تلك الحواضر التي غدت بمثابة الحصن الأخير للحضارة العربية الإسلامية ؛ بحيث تجمع فيها العلماء من شتى البلدان ، مثل العراق ، وإيران ، وتركستان ، وبلخ وشيراز ، واذربيجان ، وهرقة وقرمان ، والمغرب والأندلس ، واليمن ؛ بل إن الكثيرين من كبار العلماء في العصر المملوكي فضلوا الإقامة بها على غيرها من حواضر الدولة المملوكية .

ولقد ارتأيت في كتابة هذه الدراسة طريقة الالتزام بما توفر لدى من معلومات ، والاعتماد عليها اعتماداً مباشراً في تدوين تاريخ مدينة بيت المقدس في ذلك العصر وهو عصر سلاطين المماليك ؛ ذلك لأن العودة إلى ينابيع التراث ضرورة تفرضها هموم اليوم في محاولة لتأصيلها ، دون أن تكون هذه العودة شغفاً بهذا الماضي المجيد ، بل وعياً به وشحذاً لعواطف وإثارة لنفوس دب فيها اليأس - ولو إلى حين - في مواجهة عدو عنصري لا يرحم ، ولا يستحي في السطو على تاريخ أمتنا العربية ، واستغلاله تاريخاً كاذباً يدعم به سيطرته وهيمته على أرضنا العربية في فلسطين وفي قلبها القدس الشريف . ولأن دور التاريخ دور بارز في إنعاش الأمم وتذكيرها بماضيها وتبصيرها بحاضرها لأنه سجل الحياة ، يعكس قصتها ، ويصور صراعها الدائم في سبيل الكمال ، ويقص تجربتها ، وما انضوت عليه أعمالها من خطأ وصواب ، رائده تقصى الحقيقة في كل ما يصدر ويقول ، لذا سنلجأ للتاريخ

لكى يصور لنا جوانب الحياة المختلفة في مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك .

والحقيقة أن التراث التاريخي فيما يتعلق ببيت المقدس يضم العديد من المؤلفات في شتى مجالات المعرفة وأنواع العلوم ، وفي بحثنا هذا عن بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك اعتمدنا على أكثر من خمسين من المصادر العربية منها المخطوط ومنها المطبوع ، بخلاف العديد من المصادر الأجنبية المسيحية واليهودية منها ؛ بالإضافة إلى كثير من المراجع الحديثة العربية والأجنبية ، والتي تضمنتها القائمة الخاصة بمصادر ومراجع البحث الملحق بآخر هذا البحث . ولقد وجدنا أن من العسير أن نتناول بالتحليل كل مصدر من هذه المصادر المختلفة مراعاة لطبيعة البحث ، وعلى هذا الأساس قسمنا هذه المصادر إلى مجموعات مختلفة ، منها بعض الوثائق التي تعنى بمجتمع بيت المقدس في تلك الفترة ، والتي تصور العديد من جوانب حياته ؛ ثم تأتي بعد ذلك مجموعة المصادر التي تتحدث عن جانب واحد من جوانب الحياة مثل الجانب الاقتصادي ، ثم المصادر التي خصصها مؤلفوها للحديث عن عصر من العصور التاريخية أو أسرة حاكمة ، مثل العصر الأيوبي والعصر المملوكي ، ثم المؤلفات الشاملة التي تتحدث عن العديد من أنواع المعارف الموسوعية ، تليها المؤلفات التي تختص بالتاريخ المحلي للمدينة فقط ، ثم الحوليات التاريخية العامة والتي جاء بها ذكر المدينة بشكل عارض أو خصص مؤلفوها جزءاً من حديثهم للمدينة ، وأخيراً تأتي مجموعة الرحلات . وعلى أساس هذا التقسيم سوف نورد بعض الأمثلة لكل نوع من أنواع هذه المصادر .

والحقيقة أن الاطلاع على الوثائق يبدو على جانب كبير من الأهمية ، وخاصة إذا وضعنا في اعتبارنا أن المصادر التقليدية من مخطوطات وكتب مطبوعة ، لم تعد كافية للبحوث الحديثة ، ذلك لأن الاطلاع على الوثائق يضيف إضافات متميزة إلى ما ورد في تلك المصادر التقليدية ، وبخاصة فيما يتعلق بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . ويهمننا أن نشير إلى أن من بين هذه الوثائق التي اطلعنا عليها تلك الحجة الشرعية الخاصة بالأوقاف التي أوقفها السلطان الأشرف قايتباي على مدرسته بالقدس والجامع بغزة ، وهي محفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة تحت رقم ٨٨٧ ، والمؤرخة بتاريخ الحادي والعشرين من شهر شوال سنة إحدى وثمانين وثمانمائة للهجرة . وترجع أهميتها إلى أنها بعد أن عينت حدود المدرسة الأشرفية بالقدس ، وذكرت الأوقاف التي حبسها السلطان عليها ، نراها توضح بعد ذلك الوظائف المختلفة الخاصة بتلك المدرسة ، ومرتب كل منها بالدرهم في الشهر . فضلاً عن أن وثيقة الوقف هذه كانت بمثابة اللائحة التنفيذية والأساسية ، والتي تضم الأسس التي يجب أن تراعى في العملية التعليمية ، والشروط الواجب توافرها في القائمين عليها .

وإذا كانت وثيقة المدرسة الأشرفية تعتبر الوحيدة التي تنص بالكامل على منشآت أقامها أحد السلاطين المماليك بفلسطين ، فإن بين أيدينا الآن وقفية الأمير سيف الدين تنكز أحد كبار أمراء المماليك ، والذي تولى نيابة السلطنة بدمشق في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، في الفترة من سنة ٧٢١ هـ إلى ٧٤٠ هـ . وتقدم وقفية الأمير سيف الدين تنكز معلومات هامة عن بعض المنشآت الدينية والخيرية والاجتماعية التي أقامها في القدس وفلسطين ، منها المدرسة التنكزية بالقدس

الشريف ، ورباط للصوفية ، وحمامان هما المعروفان الآن بحمام العين وحمام الشفا في سوق القطّانين بالقدس ، وكذلك المطهرة أو المتوضأ وغيرها من المنشآت الأخرى . وجدير بالذكر أن هذه الوثيقة بعد وصفها لتلك الأوقاف ، تتحدث بالتفصيل عن المدرسة وأقسامها وصفة العاملين بها والشروط الواجب توافرها فيهم ، كما تحدد لنا واجبات كل منهم ، بالإضافة إلى المبالغ التي كانت تصرف لهم ، وكذلك المبالغ التي كانت تصرف لضيافة الصوفية من الرجال والنساء ، إلى جانب غير ذلك من المعلومات التي تهم الباحثين في تاريخ بيت المقدس في ذلك العصر .

وتجب الإشارة إلى أن الأستاذ الدكتور كامل جميل العسلي قد قام بنشر هذه الوثيقة ضمن مجموعة من الوثائق الأخرى في المجلد الأول من كتابه بعنوان « وثائق مقدسية تاريخية » ، ولا يفوتني أن أتوجه لسيادته بجزيل شكرى لتفضله بإهداء نسخة منه فور اتصالى به لهذا الغرض ، هذا إلى جانب العديد من الوثائق التي قام الأستاذ الدكتور محمد عيسى صالحية بنشرها في حولية كلية الآداب في عددها السادس عام ١٩٨٥ م ، وهى من وثائق الحرم القدسى الشريف ، والتي نأمل أن تتاح الفرصة لكل الباحثين في التاريخ للاطلاع عليها .

ومن المصادر التي تخصصت في دراسة جانب واحد من جوانب المعرفة يأتي كتاب « نزهة النفوس في بيان التعامل بالفلوس » ، لمؤلفه عالم الرياضيات شيخ الإسلام شهاب الدين أبو العباس أحمد المشهور بابن الهائم « ت ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م » . وله العديد من المؤلفات في علوم الحساب والجبر والمقابلة والهيئة وغيرها من العلوم ، لكن مؤلفه هنا قد أمدنا بكثير من المعلومات عن الحياة الاقتصادية في القدس ، وبخاصة المعاملات المالية المختلفة التي كانت مستخدمة في المدينة آنذاك ، وما طرأ عليها من تعديل ، وما تبع ذلك من اضطراب في الأحوال الاقتصادية نتيجة للتضارب في قيمة النقد المستخدم عندئذ ، مما دعاه إلى كتابة تلك المخطوطة ، لكى يستعين بها كل من يهمه الأمر في عقود البيع والشراء ، وفي المعاملات اليومية ، وكذلك في شروط الأوقاف وعقود الزواج ، وكيفية حساب الزكاة من الذهب والفضة . وقد عاش هذا المؤلف بنفسه في مدينة القدس منذ عام ٧٩١ هـ ، وقام بتأليف هذه المخطوطة في القدس عام ٨٠٣ هـ ، وتقع في إحدى وستين صفحة من ذات القطع المتوسط ، قسمها إلى خمسة أبواب ، وهى موجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٨٧١ .

كذلك له مخطوطة أخرى تحت اسم « المناسخت » ، يتحدث فيها عن كيفية توزيع التركات ، والفصل بين الورثة وخاصة إذا تعددت مصادر إرثهم ، ويعتبر ابن الهائم من الرواد في هذا المجال ، إذ يذكر أنه تعلم هذا الفن من أستاذه أبى الحسن الحلاوى رحمه الله ، ولم ير ذلك مسطوراً في مصنف من قبل ، وقد أوضح فيه لطلبته كيفية الفصل في المشكلات التي تعترضهم باستخدام الجداول الرياضية ، حيث عرض لهم عدة جداول لحالات مختلفة من الأشخاص الذين اختلفت مصادر إرثهم وتضاربت ، وقام بحل تلك الحالات باستخدامه للجداول المختلفة التي أوردها . والمخطوطة تتكون من عشرين ورقة ذات القطع المتوسط ، وفي كل ورقة منها سجل العديد من الجداول الرياضية المختلفة

التي يمكن الاستعانة بها في هذا الغرض ؛ وهي محفوظة أيضاً بدار الكتب المصرية تحت رقم ب ٢٣٢٠٥ ؛ وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن ذلك العصر لم يكن كما يصفه البعض من أنه كان عصر جمود فكري ، اقتصر فيه جهد العلماء على مجرد النقل أو الشرح أو التلخيص ، بل هو عصر ابتكار ونبوغ فكري . ويندرج تحت هذا النوع من المصادر كتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لموفق الدين أبي العباس أحمد بن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ .

ومن المصادر التي اهتمت بالحديث عن فترة زمنية موحدة أو أسرة حاكمة يأتي كتاب « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » لمؤلفه ابن واصل « جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ » ، وترجع أهمية هذا المصدر إلى أن مؤلفه كان معاصراً لكثير من الأحداث ، وبخاصة ما ساد أبناء البيت الأيوبي من خلافات ووحشة وعداء وحروب ، وما كان من أثر تلك الأحداث على أوضاع بيت المقدس والمسلمين بها ، وهو في روايته لتلك الأحداث يرويها كشاهد عيان ، فضلاً عن أنه في بعض المعلومات التي ذكرها ولم يشهد بها بنفسه يروي أنه سمعها من رجال مسئولين ممن يحتلون مكانة خاصة في العصر الأيوبي ، هذا فضلاً عن كبار القضاة والعلماء والمعاصرين الذين جالسهم واستمد منهم معلوماته . وهو كتاب لا غنى عنه في التاريخ بصفة خاصة لأحوال بيت المقدس عقب الفتح الصلاحي لها ، وهو من كتب التاريخ التي خصصها مؤلفوها للحديث عن أسرة صلاح الدين الأيوبي ، وكيفية وصوله للحكم وتكوينه دولة موحدة مترامية الأطراف ، واتخاذها من الجهاد وسيلة لتدعيم الأساس الذي قامت عليه دولته لمواجهة أخطر أعداء الإسلام والمسلمين وهم الصليبيون ، ومن خلال سياسة الجهاد يذكر حروب صلاح الدين ضد الصليبيين ، ومعركة حطين واسترداد بيت المقدس ، ثم العناية بها وإقامة كثير من المؤسسات الدينية والخيرية والاجتماعية بها ، وتحصينها . ثم يذكر طوائف السكان بها ، وكيف أن السلطان صلاح الدين الذي عرف بسماحته وعدم تعصبه سمح لليهود بسكنى المدينة بل وفلسطين بعد أن خلت منهم في فترة الحكم الصليبي ، كما سمح لهم ببناء مدارس ودور عبادة .

ويندرج تحت هذا النوع من المؤلفات كتب كل من : العماد الأصفهاني « ت ٥٩٧ هـ » وهي « سنا البرق الشامي » و « الفتح القسي في الفتح القدسي » ؛ وابن شداد « ت ٦٣٢ هـ » كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، وأبو شامة « ت ٦٦٥ هـ » كتاب الروضتين في أخبار الدولتين « و « الذيل على الروضتين » ، وابن عبد الظاهر « ت ٦٩٢ هـ » « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » ، « تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور » ، وابن أبيك الدواداري « ت ٧٣٤ هـ » « الدر الزكية في أخبار الدولة التركية » ، « الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر » ، وابن حبيب ، الحسن بن عمر « ت ٧٧٩ هـ » « تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه » ، والمقرئزي ، أحمد بن علي « ت ٨٤٥ هـ » « كتاب السلوك في معرفة دول الملوك » ، وابن حجر العسقلاني « ت ٨٥٢ هـ » « إنباء الغمر بأنباء العمر » و « الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » ، والبدر العيني « ت ٨٥٥ هـ » « السيف المهند في سيرة الملك المؤيد » ، وابن تغري بردي « ت ٨٧٤ هـ » « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » ، وابن طولون الصالح « ت ٩٥٣ هـ » « إعلام الوري بمن

ولى نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى » و « مفاكهة الخلان في حوادث الزمان » ، وغيرها من المصادر العديدة .

وكنموذج للمؤلفات الشاملة يأتي « كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » لمؤلفه ابن فضل الله العمرى ، شهاب الدين أحمد القدسي الأصل ، كاتب السر بالديار المصرية (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) . وترجع أهمية هذا المصدر إلى أنه شمل معارف وعلوم عديدة ، مع أن عنوانه يعطى انطباعاً بأنه من كتب الجغرافية ، إلا أنه يعتبر بحق موسوعة علمية ، إذ يشتمل على معلومات في الأدب والديانات والتاريخ والآثار ، فضلاً عن المعلومات الوافرة المتعلقة بالحياة الاجتماعية ، والأقليات الدينية ، وعلاقتها الرسمية بالدولة . وعلى عادة كتب تلك العصور نجد العلوم تمتزج بالآداب . ومن الواضح أن موقع ابن فضل الله العمرى كواحد من رجال الإدارة في العصر المملوكي ، وعمله في ديوان الإنشاء هو الذي حدا به إلى اختيار الموضوعات التي عالجها في هذه الموسوعة التاريخية الجغرافية الأدبية ، لكي تكون مرجعاً عاماً لمن يشتغل بالكتابة في ديوان الدولة المملوكية . ولقد أمدنا الكتاب بكثير من المعلومات ، حيث تطرق فيه لذكر مدينة بيت المقدس ضمن فصل عنوانه : « باب عن مملكة مصر والشام والحجاز » ، وقد أفدنا من كتاباته في مجال اهتمام سلاطين وأمراء المماليك بالمدينة ، كما ذكر معلومات هامة عن جغرافية المدينة ومدارسها وأربطتها وحماماتها وموارد المياه فيها .

ويندرج تحت هذا النوع من المؤلفات أيضاً كتاب « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » لمؤلفه أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ت ٨٢١ هـ . وكذلك كتاب ابن شاهين ، غرس الدين خليل ت ٨٧٣ هـ « كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » . وياقوت الحموي ت ٦٢٦ هـ « معجم البلدان » .

كذلك يأتي كتاب « الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل » كمثال. لكتب التراث التي تخصصت في التاريخ المحلي أو في الحديث عن مدينة بعينها ، ومؤلفه هو مجير الدين الحنبلي ت ٩٢٨ هـ ، أحد أبناء بيت المقدس ، وكان معاصراً للفترة الأخيرة من حكم سلاطين المماليك ، وتميزت كتاباته بعدم التصنع ، ونعني بذلك أنه لم يكتب هذا التاريخ حباً في استجلاب الرضا عند سلطان أو أمير ، كما لم تكن كتاباته ذيولاً وتكملات لكتب سبقته زمنياً ، حيث يذكر في مقدمة كتابه هذا ، الأسباب التي دفعته لتأليفه هذا الكتاب بقوله : « وإنما دعاني لذلك أن غالب بلاد الإسلام قد اعتنى بها الحفاظ وكتبوا ما يتعلق بتاريخها مما يفيد أخبارها الواقعة من الزمن السابق ورأيت الأنفس متشوقة إلى شيء من هذا النمط الذي قصدت فعله » . ويعتبر كتابه هذا موسوعة تاريخية لمدينتي بيت المقدس والخليل ، ضمت التاريخ والسير ، والعلم والأدب والمقدسات في العصرين الأيوبي والمملوكي . وفي مجال الحياة الاقتصادية فقد أمدنا بمعلومات قيمة عن الأسواق والخانات والقياس ، وما كان يحدث من اضطراب في الحياة الاقتصادية وأسبابه ، إلى جانب التركيبة السكانية والطوائف المختلفة بها ، والعلاقات بينها . كما تجب الإشارة إلى أنه كان معاصراً للسلطان الأشرف قايتباي ، وذكر لنا الأحداث التي وقعت لنا في فترة حكمه ابتداء من سنة

٨٧٢ هـ إلى سنة ٩٠٠ هـ كشاهد عيان ، وبذلك انفرد بذكره لكثير من المعلومات عن هذه الفترة فيما يختص ببيت المقدس ، وقد أوردنا كثيراً منها في بحثنا هذا .

ويندرج كتاب الواسطي ، أبو بكر محمد بن أحمد من علماء القرن الخامس الهجري « فضائل بيت المقدس » تحت هذا النوع من المصادر ، كذلك كتاب الشيخ أبي فرج ابن الجوزي ت ٥٩٧ هـ « فضائل القدس » ، وابن سرور المقدسي ت ٧٦٥ هـ « مثير الغرام بفضائل القدس والشام » .

ومن أمثلة الحوليات التاريخية العامة المطبوعة يأتي كتاب « الكامل في التاريخ » لمؤلفه ابن الأثير ، الشيخ عز الدين أبي الحسن على ت ٦٣٠ هـ ، والذي يقع في اثني عشر جزءاً ، اعتمدنا فيها على الجزءين الحادي عشر والثاني عشر . وترجع أهمية هذا الكتاب بالنسبة لهذا البحث في أن مؤلفه كان معاصراً لفتح السلطان صلاح الدين الأيوبي لمدينة بيت المقدس ، وأنه وإن أورد بعض المعلومات المبسطة خلال ذكره للفتح إلا أننا قد أفدنا منها كثيراً ، وبخاصة في حديثه عن الطوائف المسيحية المحلية في المدينة واستقرارهم بها عقب الفتح ، وكذلك في حديثه عن اهتمام السلطان صلاح الدين بالمدينة وإقامته لكثير من المنشآت بها عقب الفتح ، وتقويته لأسوارها لتحصينها في مواجهة الخطر الصليبي ، إلا أنه يؤخذ عليه أنه أوجز بشكل ملحوظ فيما كان ينبغي فيه الإطالة ، وهذا راجع إلى حقد ابن الأثير على صلاح الدين باعتبار أنه سلب السلاجقة ملكهم ، وهم الذين يدين لهم ابن الأثير بالولاء .

ويندرج تحت هذا النمط كتاب « المختصر في أخبار البشر » و « تاريخ أبي الفدا » للمؤلف أبي الفدا ، الملك المؤيد اسماعيل الذي توفي سنة ٧٣٢ هـ . وكذلك كتاب « البداية والنهاية في التاريخ » لابن كثير الذي توفي سنة ٧٧٤ هـ ، كذلك كتاب « تاريخ ابن خلدون » لمؤلفه ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن محمد الذي توفي سنة ٨٠٨ هـ .

وأخيراً تأتي كتب الرحالة والحجاج المسيحيين واليهود ، التي دونوها عند زيارتهم لبيت المقدس . فقد كتب بعضهم ذكراً ما شاهده في المدينة من عمران ، كما وصف الحياة الاجتماعية فيها ، والعلاقات بين مختلف الطوائف الدينية بها ، بالإضافة إلى جغرافية المدينة . وإلى هذا الصنف من المصادر يرجع الفضل في ذكر أكثر ما يتعلق بالحياة الدينية والاجتماعية التي كان يحياها كل من اليهود والنصارى ، وتزيد قيمة هذه المصادر عندما نعلم أن المصادر العربية لم تهتم في غالب الأحيان بذكر نشاط غير المسلمين في القدس .

ويجب ألا يغرب عن بالنا أن أجهزة الدعاية الصهيونية حاولت وتحاول عن طريق التشويه المستمر للتاريخ العربي ، أن تحتلق دوراً تاريخياً لجماعة اليهود التي استقرت في المدينة عقب الفتح الصلاحي ، لذلك فقد أعطينا ما أورده الرحالة اليهود الذين زاروا بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك عناية خاصة ، أمثال الرحالة اليهودي « نحمانيديس » الذي زارها سنة ١٢٦٧ م ، وكذلك الرحالة « موشلام الفولتيري » الذي زارها سنة ١٤٨١ م ، وكذلك الرحالة « عوبديا » الذي زارها سنة

١٤٨٨ م ، واتضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك عدم صحة تلك المزاعم ، مع رسم صورة واقعية لوضعهم الحقيقي بلا أى تعصب أو تحيز يتنافى مع المنطق والتاريخ .

ومن بين كتب الرحالة الأجانب اخترنا كتاب الرحالة « بركارد » Burchard of Mount Sion الذى وصل إلى الشرق سنة ١٢٣٢ م ، وعاش فترة في بيت المقدس ، حيث يقال أنه قضى عشر سنوات في جبل صهيون . ويمتاز كتابه بعنايته بالآثار ، ودقة وصفه لطبوغرافية المدينة ، وقد ترجم كتابه من اللغة اللاتينية إلى الانجليزية عام ١٨٩٦ م تحت عنوان : A Description of the Holy land.

كذلك من كتب الرحالة الهامة يأتى كتاب « جوسى وفريسكو بالدى » الذى نشر تحت اسم A visit to the Holy Places ، وقد تمت هذه الزيارة عام ١٣٨٤ م ، وتضمنت الكثير من المعلومات التى لفتت أنظار الرحالة لعدم رؤيتها في الغرب ، وهى معلومات تهتم كل الباحثين في تاريخ فلسطين بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص ، وقد أمدنا هذا الكتاب بمعلومات على جانب كبير من الأهمية عن المعاملات المالية ، وتكاليف الرحلة إلى بيت المقدس ، والمبالغ التى كان يتم دفعها عند زيارة كل مكان من الأماكن المقدسة المسيحية ، إلى جانب أسعار بعض السلع ، فضلاً عن الطوائف المسيحية المختلفة التى وجدت في القدس في ذلك العصر .

كذلك تأتى رحلة « فيلكس فابرى » ، الذى زار بيت المقدس مرتين عام ١٤٨٠ م ، ١٤٨٣ م ، وفي زيارته الثانية عاش فترة في المدينة ، مشاهداً فيها لكثير من معالمها ، وقد دون ملاحظات قيمة عن الحياة التعليمية لدى المسلمين ، والطوائف المسيحية بالمدينة وبخاصة طائفة الرهبان الفرنسيسكان ، وكذلك تحدث كثيراً عن اليهود ، فضلاً عن أنه ذكر كثيراً من المعلومات عن الحياة الاقتصادية في ذلك العصر ، وما كان يقوم الحاج المسيحيون بشرائه من أسواق المدينة في رحلة العودة إلى الغرب الأوربي ، أو عند استعدادهم للتوجه لزيارة دير سانت كاترين ، كما أمدنا بصورة واقعية وحية عن الأماكن المسيحية المقدسة في الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى ، وعن حياة البدو وأحوالهم الاقتصادية ، كما تحدث عن العلاقة بين الحكام المسلمين وأبناء الطوائف المسيحية .

كانت هذه إشارة لبعض نماذج للمصادر التى اعتمدنا عليها في دراستنا للجوانب المختلفة لهذا البحث ، إلا أن القارئ لهذا البحث سيجد العديد من المصادر الهامة ، والتى تلقى كثيراً من الضوء على شتى جوانب الحياة في مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما ذهبت إليه وهو نعم العون ونعم النصير .

د . على السيد على

الفصل الأول

الحياة السياسية

في مدينة بيت المقدس



تمهيد

قبل الشروع في الحديث عن مدينة بيت المقدس تحت حكم سلاطين المماليك لابد لنا من وقفة نستعرض فيها كيف كان تفكك الدولة الأيوبية - التي كانت تركز إلى شخصية صلاح الدين الأيوبي - عاملاً من عوامل عدم الاستقرار في مدينة بيت المقدس ، وكيف أن الصراع الإسلامي / الصليبي من ناحية ، والصراع الأيوبي / الأيوبي من ناحية أخرى قد أثرا على استقرار الحياة في المدينة ، ثم ظهور المماليك كقوة تدافع عن الإسلام ورسوخ قيمة سلطنة المماليك كقوة ضاربة تدافع عن الإسلام والمسلمين وما تلاه من خضوع الأيوبيين في الشام لسلطانهم ، وكيف أدى ذلك إلى خضوع بيت المقدس لهم ، بالإضافة إلى أهمية المدينة في السياسة المملوكية التي اعتمدت على القوة العسكرية والواجهة الدينية ، ثم رصد مظاهر هذا الاهتمام .

من المعروف أن مدينة بيت المقدس عادت إلى الخطيرة الإسلامية بعد فتح صلاح الدين الأيوبي لها عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م عقب معركة حطين^(١) . كما أن اتفاقية الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م أدت إلى حالة من الاستقرار النسبي في المدينة^(٢) ، إلا أن هذا الاستقرار لم يدم طويلاً في عهد خلفاء صلاح الدين مما ترتبت عليه نتائج خطيرة بالنسبة لمدينة بيت المقدس^(٣) ، ويرجع ذلك إلى الصراع الذي نشب بين أبناء البيت الأيوبي المالك ، بسبب اعتبار المملكة إراثاً خاصاً يقسم أنصبة متساوية وغير متساوية بين أبناء البيت الأيوبي ، ولحرص صلاح الدين الأيوبي على أن تكون أهم أقاليم المملكة لأبنائه دون غيرهم ، وأن تكون لبقية أبناء البيت الأيوبي بقية الأقاليم ذات الأهمية الثانوية^(٤) ، هذا الصراع الذي أدى إلى نشوب كثير من الحروب والفتن بين أبناء البيت الأيوبي^(٥) .

وفي الوقت الذي اشتد فيه الصراع بين أبناء صلاح الدين وتناوب على حكم مدينة بيت المقدس الملك الأفضل صاحب دمشق ثم الملك العزيز صاحب مصر ، مما كان له أثر على استقرار المدينة نتيجة لانتقال تبعيتها من حاكم لآخر^(٦) من أبناء صلاح الدين ، وعقب استيلاء الملك العادل أخى صلاح الدين على مصر سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م بقيت بيت المقدس تحت حكم العادل حتى وفاته سنة

٦١٥ هـ / ١٢١٨ م ، وبموت العادل عادت مدينة بيت المقدس تابعة لابنه المعظم عيسى صاحب دمشق حتى سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م حيث استولى عليها الملك الكامل محمد ابن العادل صاحب مصر^(٧) .

وفي وسط تلك الفوضى الضاربة التي عمت العلاقات بين حكام المسلمين في مصر والشام من أبناء البيت الأيوبي ، حرص كل حاكم على تكوين عصبية لنفسه يعتمد عليها في الاحتفاظ بإمارته أو في صد عدوان جيرانه ، وذلك عن طريق الإكثار من المماليك أو الرقيق الأبيض ، فاشترى منهم أعداداً كبيرة ، وغنوا بتدريبهم وتنشئتهم ليكونوا لهم عدة وسنداً^(٨) . والحقيقة المؤلمة في هذا الدور الجديد من الصراع بين أبناء العادل الأيوبي ، أنهم لم يكتفوا في حروبهم ومنازعاتهم الداخلية فيما بينهم بالاستعانة ضد بعضهم البعض بالقوى الجديدة من المماليك ، والذين غدوا الفيصل في تلك المنازعات ، بل إنهم استعانوا ضد بعضهم البعض بقوى خارجية من الصليبيين^(٩) . وإن دل هذا التصرف على شيء فإنما يدل على مدى التشرذم السياسي وعدم الوعي بحقيقة الخطر الذي كان يهدد العالم الإسلامي في ذلك الوقت . ونقصد بهذا الخطر ، هدف الصليبيين وهو القضاء على الإسلام والمسلمين في السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط ، ويبدو أن هذه الحقيقة لم تكن خافية عن أعين المعاصرين ، فمن ذلك ما يرويه لنا المؤرخ المعاصر « ابن واصل » من أنه عندما شرع حنادي برين في غزو مصر سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٨ م ، على رأس الحملة الصليبية الخامسة قال الصليبيون : « إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك ، وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها . فالمصلحة أن نقصد مصر ونملكها وحينئذ لا يبقى لنا مانع من أخذ القدس وغيره من البلاد^(١٠) » . مما يؤكد لنا تلك الحقيقة بما لا يدع مجالاً للشك أنه منذ أواسط القرن الثاني عشر الميلادي سيطرت على الغرب المسيحي الفكرة السائدة أنه مادامت مصر باقية على ما هي عليه من القوة والبأس ، فإن المشاريع الصليبية في الشام فاشلة لا محالة ، ولا بد من حرمان الجبهة الإسلامية من تلك القاعدة الحربية الهامة^(١١) . والتي جعلها لويس التاسع وسيلة لتحقيق نياته وأحلامه الصليبية في حملته السابعة فقد « حدثه نفسه بأن يستعيد بيت المقدس إلى الفرنج وعلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية^(١٢) » ..

وكانت النتيجة الطبيعية لتفريط بعض ملوك بني أيوب من أبناء العادل الأيوبي أن استرد الصليبيون بيت المقدس دون قتال سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م ، في عهد الملك الكامل صاحب مصر ، ذلك أنه نتيجة الخلاف الذي نشب بينه وبين أخيه الملك المعظم صاحب دمشق فقد استعان كل طرف منهما بقوى خارجية حسبما يشير « المقرئ » أنه بعد أن « تأكدت الوحشة بين الكامل وبين أخويه المعظم والأشرف ، وخاف الكامل من انتباء أخيه المعظم إلى السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه فبعث الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية إلى ملك الفرنج^(١٣) يريد منه أن يقدم إلى عكا ووعد أنه يعطيه بعض ما بيد المسلمين من بلاد الساحل ، ليشغل سر أخيه المعظم ، فتجهز الامبراطور ملك الفرنج لقصد الساحل . وبلغ ذلك المعظم ، فكتب إلى السلطان جلال الدين يسأله النجدة على أخيه الكامل ووعد أنه يخطب له ، ويضرب السكة باسمه^(١٤) » ..

وعلى الرغم من وصول فردريك الثاني بعد موت الملك المعظم فإن الملك الكامل على حسب قول المقریزی « لم يمكنه دفعه ولا محاربته ، لما كان تقدم بينهما من اتفاق ، فراسله ولاطفه^(١٥) » .. ولم يكن أمامه « بد من المهادنة وتسليمه القدس^(١٦) » .. وبذلك تم توقيع الاتفاق على أساس تسليم القدس وبيت لحم والرملة وشريط من الأرض بين عكا وبيت المقدس ، مقابل تعهد الامبراطور بعدم قدوم أية حملة من أوروبا لمدة عشر سنوات^(١٧) وقد كانت هذه المعاهدة مكسباً كبيراً لفردريك الثاني ، إذ أتاحت له سرعة العودة إلى الغرب لتسوية مشاكله مع البابوية^(١٨) .

وقد كان لتسليم بيت المقدس للفرنج دوى هائل في نفوس المسلمين ، ويصف لنا أحد المؤرخين المعاصرين ذلك ومدى حزن المسلمين لضياعتها بقوله « ووصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الفرنج فقامت القيامة في جميع بلاد الإسلام واشتدت العظائم بحيث أن أقيمت المآتم^(١٩) » .. وظلت المدينة بعد ذلك كالكرة ، تتلاقفها أيدي المسلمين والصليبيين ، حتى استردها المسلمون نهائياً سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م ، عندما استردها السلطان الصالح أيوب بمساعدة الخوارزمية ، وهو السبب الذي أدى إلى قيام الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة بقيادة لويس التاسع على مصر ، وفي ظل هذه الأوضاع كان لا يمكن أن تعود الحياة الطبيعية إلى المدينة بسهولة ، وإنما استمرت تعيش في حالة من الخوف والقلق والترقب حتى بعد عودتها إلى أحضان الأمة الإسلامية . ذلك أن أهالي بيت المقدس ظلوا لا يأمنون على أنفسهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وفي مواجعتهم على الساحل تقوم مملكة صليبية حاضرتها عكا ، تترقب اليوم الذي تعود فيه عقارب الساعة إلى الوراء لتحيى مجدها القديم على أرض بيت المقدس ، هذا فضلاً عن وجود العديد من الإمارات ، والمدن والقلاع الصليبية المنتشرة في أنحاء بلاد الشام ، والتي كان أهلها جميعاً يتطلعون إلى كنيسة القيامة في بيت المقدس ، ويتحينون الفرصة تلو الأخرى لاستعادتها^(٢٠) .

وفي ظل هذا القلق وعدم الاستقرار الذي شهدته مدينة بيت المقدس في تلك الفترة من تاريخها ، رغب كثير من المسلمين عن الحياة فيها ، الأمر الذي جعل القزويني في النصف الأول من القرن السابع للهجرة - الثالث عشر للميلاد - يردد نفس العبارة التي سبق أن ذكرها المقدسي قبل ذلك بقرنين ونصف تقريباً من أن مدينة بيت المقدس « قليلة العلماء كثيرة النصارى^(٢١) » .

وفي الوقت الذي كانت فيه قوات لويس التاسع تخوض مياه البحر المتوسط قبالة دمياط ، وكانت جمحافل المغول بقيادة هولاكو تطوى بلدان الشرق الإسلامي ، وهي تقترب من عاصمة الخلافة العباسية بغداد ، وكان على العالم الإسلامي أن يلتزم جانب الدفاع إزاء الهجوم الذي كان يتعرض له من الشرق والغرب على حد سواء ، كان انتصار فرسان المماليك في مصر على الصليبيين بين المنصورة وفارسكور سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٥٠ م ، ذلك الانتصار الذي كان بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك^(٢٢) ثم تلا ذلك سقوط بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، وبهذا خيل للمسلمين أن العالم على وشك الانحلال وأن الساعة آتية عن قريب^(٢٣) .

وبقيام دولة سلاطين المماليك في مصر عند منتصف القرن السابع الهجري - الثالث عشر

الميلادى - ظلت بلاد الشام ميداناً لصراعات عديدة بين المسلمين والصليبيين ، وبين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر ، فضلاً عما كان بين ملوك بنى أيوب بعضهم البعض . ومع بداية تلك الفترة التاريخية دخلت مدينة بيت المقدس دائرة الصراع بين الأيوبيين في بلاد الشام ممثلين في الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ، وبين المماليك بزعامة الملك المعز أيك^(٢٤) . وبهنا من هذا الصراع أن كلا من الطرفين حاول الاستعانة بالصليبيين ضد الطرف الآخر ، ويؤكد لنا جوفانفيل - وهو معاصر لتلك الفترة - ذلك بقوله إنه بينما كان الملك لويس التاسع « القديس لويس كما يسميه » في عكا سنة ١٢٥٠ - ١٢٥١ ، فإن حاكم دمشق أرسل بعض مبعوثيه لكي يروا الملك وليشكوا مر الشكوى من أمراء مصر الذين قتلوا ابن عمه ، وقد وعد حاكم دمشق لويس إذا ساعده أن يسلمه مملكة بيت المقدس ، ثم يقول في موضع آخر : « ونسيت أن أذكر لكم رد الملك لويس على سلطان دمشق بأنه ليس لديه النية للانضمام إلى سلطان دمشق ، إلا إذا عرف هل أمراء مصر سوف يقدمون له تعويضاً أو ترضية مقابل المعاهدة التي نقضوها ، ولذا سوف يرسل لهم ، فإذا رفضوا التعويض فإنه سوف يساعده أن يساند سلطان دمشق للثأر من ابن عمه ، وعندما أرسل لأمراء مصر يطالبهم بذلك التعويض ، ردوا عليه أنه يساعدهم أن ينفذوا ذلك على افتراض أن الملك سوف ينضم للتحالف مع سلطان دمشق ، وقد أقنعهم مبعوثه بضرورة تلك الترضية عن طريق افتكاك أسرى الصليبيين المحجوزين لديهم ، وفعل الأمراء كما نصحبهم مبعوث الملك ، ثم عاد مبعوث الملك إلى عكا ومعه مائتان من الفرسان المأسورين بالإضافة إلى عدد آخر من ذوى المراتب البسيطة » . ثم يقول : « إن الملك أعطى رده لمبعوث أمراء مصر بأن أخبرهم ، بأنه لن يتحالف معهم ضد سلطان دمشق إلا إذا أرسلوا له رؤوس القتلى الصليبيين التي علقوها على أسوار القاهرة ، » .. كما يروى أنه في عام ١٢٥٢ م وصلت موافقة أمراء مصر على طلبات الملك ، متعهدين بأن يصل الملك في يوم محدد إلى يافا وهم سيكونون في غزة في ذلك اليوم لكي يسلموه بيت المقدس ، ومعنى هذا أننا عن طريق تمسكنا بإيماننا أصبحنا مرتبطين بمساعدة أمراء مصر ضد سلطان دمشق^(٢٥) » .

وفي هذه الرواية خير دليل على استعانة كل منهما بالصليبيين . كما يرى بعض الباحثين العرب أن السلطان أيك ، لكي يضمن توطيد نفوذه في مصر ، قرر أن يواصل زحفه نحو الشام عقب الصراع الذى نشب بينه وبين الناصر يوسف ، ولكي يضمن النجاح لمشروعه ، حاول أن يضم لويس التاسع إلى جانبه ، ووعد به بيت المقدس بمجرد استيلائه عليه من الملك الناصر يوسف^(٢٦) إلا أن تدخل الخليفة العباسى المستعصم هو الذى أنقذ الموقف ، فأراد توحيد الجبهة الإسلامية ، نظراً لشعوره بخطر المغول ، وتمكن رسوله نجم الدين البادرائى من عقد صلح بينهما سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م على أن يكون للمماليك مصر وجنوب فلسطين بما في ذلك غزة وبيت المقدس . بينما تظل الشام للملك الناصر^(٢٧) . وفى رأينا أن مدينة بيت المقدس لم تخضع طويلاً لسلطنة المماليك نتيجة لهذا الاتفاق ، فبعد ما يقرب من ثلاث سنوات تم توقيع معاهدة بين السلطان أيك والناصر يوسف صاحب دمشق تنازل فيها أيك عن فلسطين بما فيها مدينة بيت المقدس بناء على توسط الخليفة العباسى^(٢٨) ، وبذلك ظلت المدينة في الفترة ما بين ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م - ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م بأيدي الناصر يوسف صاحب دمشق ، وهى السنة التى شهدت اجتياح المغول لبلاد الشام من شمالها إلى جنوبها .

وفي أثناء الغزو المغولي ظهر جليا تقاعس الأيوبيين عن الدفاع عن بلاد الشام ، من ذلك أن الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب أوجس خيفة من هولاكو وجيشه ، وقدر أنهم سيستولون على الشام بين عشية وضحاها ، لذا أرسل ابنه الملك العزيز محمد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م إلى هولاكو بخطبه وده ، ويسأله أن يعينه على أخذ مصر من المماليك^(٣٢) . وفي الوقت الذي بدا فيه تتخاذل الأيوبيين عن الدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد الغزو المغولي ، انهارت أيضاً معارضتهم لقيام دولة المماليك الذين أبدوا ثباتاً وصلاحيه للبقاء لمواجهة هذا الخطر^(٣٣) ، ثم كانت موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م بمثابة تأكيد للدور الذي اضطلعت به دولة سلاطين المماليك منذ مولدها ، وهو دور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامي ، حيث تمكنت جيوش الدولة الجديدة من كسر الموجة المغولية الطاغية ، وبذلك تؤكد دورها كقوة حامية للعالم الإسلامي^(٣٤) . هذا فضلاً عما ترتب على هذه الموقعة من نتائج كان منها خضوع بلاد الشام ومنها بيت المقدس لسيطرة سلاطين المماليك ، وما ترتب على ذلك من تجنب المدينة الكثير مما لحق بغيرها من مدن بلاد الشام من دمار وفناء وإحراق وانتهاك لمقدسات المسلمين ويوتهم ، مثلما أصاب حلب ودمشق وغيرها من المدن الشامية التي وقعت بأيديهم حيث نشروا الرعب والفزع أينما حلوا^(٣٥) .

والأهم من هذا أن انتصار المماليك في موقعة عين جالوت قد حقق لدولة سلاطين المماليك الناشئة مكانة لا يستهان بها في نفوس المعاصرين ، كما دعم نفوذها في بلاد الشام وألقى على كاهلها مهمة إتمام ما قام به صلاح الدين الأيوبي من حركة الاسترداد ، فضلاً عن رسوخ قيمة دولتهم كمدافعة عن المسلمين والإسلام ، فكل غزوة للمغول على بلاد الشام كانت تقابل بجيوش المماليك في بلاد الشام ، وبهجوم مضاد على أرمينيا والأناضول حيث تحالف الأرمن مع المغول ضد السلطات المملوكية ، وفي نفس الوقت فقد طرد سلاطين المماليك البقايا الصليبية من بلاد الشام ، فضلاً عن أنهم تمكنوا من كسر شوكة المغول وحلفائهم من الأرمن بل وأخضعوهم لنفوذهم ، وبذلك أصبحت دمشق كموقع متقدم للدفاع عن مصر ، وحلب للدفاع عن المناطق الداخلية من بلاد الشام ، كما أن قليقية وأرمينية غدت ضمن المناطق الدفاعية الشمالية للبلاد ، فضلاً عن أن المناطق الساحلية قد حشدت بالمحاربين من التركان والأكراد ، وبذلك أصبحت بلاد الشام شبه مغلقة ضد الغزوات والأخطار الخارجية التي هددت أمنها^(٣٦) .

أما عن أهمية مدينة بيت المقدس في السياسة المملوكية فترجع إلى أن طبيعة المدينة الدينية ، باعتبارها أحد الأماكن المقدسة التي تتعلق بها قلوب المسلمين في شتى أنحاء البلاد ، كانت تمثل أحد أركان النظرية السياسية لدولتهم التي اعتمدت على القوة العسكرية من جهة والواجهة الدينية من جهة أخرى . أما عن القوة العسكرية لدولة سلاطين المماليك فيتضح لنا مما سبق وأوردناه أنه قد رسخ في نفوس المعاصرين أن قوة المماليك الناشئة أثبتت فعاليتها في الدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد الأخطار المحيطة بالعالم الإسلامي في ذلك الوقت ، ومع هذا فإن بطولات هؤلاء المماليك في المنصورة وفارسكور وفي عين جالوت لم تكن لتشفع لهم أو تغير نظرة المعاصرين لهم باعتبارهم عبيداً لا يحق لهم الجلوس على عرش البلاد ، حيث من المعروف أن النظرية السياسية الإسلامية تجعل من

شرط الحكم أن يكون الحاكم حراً^(٢٦) ، لذا فمما لاشك فيه أن السلطان الظاهر بيبرس - والذي يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك - لم ينس مطلقاً مدى استياء وتذمر المعاصرين من سلاطين المماليك . بدليل قول ابن تغرى بردى « إن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق ، وظلوا إلى أن مات السلطان أيك وهم يسمعون ما يكره حتى في وجهه إذا ركب ومر بالطرقات ، ويقولون لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة^(٢٧) » . لذا كان على سلاطين المماليك أن يبحثوا لسلطتهم الوليدة عن سند شرعى يدعمون به حكمهم في نظر المعاصرين ، وسارع الظاهر بيبرس إلى تلقي أحد أبناء البيت العباسى واسمه أبو العباس أحمد سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م ومعه حشد من العلماء والأعيان والشهود والمؤذنين حتى اليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم ، ثم عقد له مجلساً بقلعة الجبل بالديوان الكبير ، حضره القضاة والعلماء وجميع كبار الدولة وكبار التجار ووجوه الناس ، وبعد أن أثبتوا صحة نسبه بايعوه بالخلافة ، ثم قلد الخليفة الجديد وهو المستنصر بالله السلطان بيبرس البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار^(٢٨) . كما تم إحياء الخلافة العباسية مرة ثانية عام ٦٦١ هـ بعد مقتل الخليفة العباسى الأول في حربه مع التتار ، بالعراق ، وفي هذه المدة حرص بيبرس على أن تكون الخلافة العباسية بمصر ، فتستفيد الدولة المملوكية من وجودها بالقاهرة ، وبنفس الطريقة السابقة ، عقد مجلساً عاماً بالإيوان الكبير بالقلعة كما حدث للمستنصر من قبل وبايع الخليفة الجديد الذى قام بدوره بتقليد السلطان أمور العباد والبلاد ولقبه بلقب « قسيم أمير المؤمنين » . ويعتبر بيبرس أول من تلقب بهذا اللقب من قبل خليفة ، وهذا اللقب من أجل الألقاب^(٢٩) . واستفاد سلاطين المماليك من إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة حيث شملتهم بالحماية الروحية إذ صاروا منذ ذلك الحين وحتى الفتح العثمانى سنة ١٥١٧ م ، يفرضون لأنفسهم مقاماً سامياً على ملوك العالم الإسلامى ، وينكرون عليهم حق التلقب بلقب سلطان لأنهم وحدهم أصحاب هذا الحق شرعاً باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعته ، وفي ذلك يقول ابن شاهين : « ولا يطلق لفظ سلطان إلا لصاحب مصر نصره الله ، فإنه الآن أعلى الملوك وأشرفهم مرتبة ، سيد الأولين والآخرين ، وتشرفه من أمير المؤمنين بتفويض السلطنة له على الوجه الشرعى بعقد الأئمة الأربعة^(٣٠) » .

كذلك كان على سلاطين المماليك أن يترجموا سياستهم الدينية إلى واقع ملموس لكى يحظوا بتأييد المعاصرين لهم وتغيير نظرهم إليهم ، لذلك ظهرت لهم كثير من التسميات الدينية العديدة والتي وضحت في مكاتباتهم الرسمية وعلى العملة ، مثل « نصير أمير المؤمنين » ، « سلطان الإسلام والمسلمين » ، « محيى العدل فى العالمين » ، « ظل الله فى أرضه » ، « القائم بسنته وفرضه » ، « حامى الحرمين الشريفين والقبليتين » ، وأعلاها « قسيم أمير المؤمنين^(٣١) » ويبدو أن هدفهم من وراء تلك التسميات التى اتخذوها فى مراسلاتهم المختلفة وعلى السكة هو التأكيد على الشرعية التى أصبحوا يتمتعون بها بعد إحياء الخلافة .

وبهنا فى هذا المقام انعكاس سياستهم الدينية على بيت المقدس ومظاهر الاهتمام بها ، وفى الجدول التالى سنورد بعض مظاهر اهتمام سلاطين وأمراء المماليك بالمؤسسات الدينية والاجتماعية والخيرية فى

بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، بما يكفل لنا إعطاء صورة واضحة عن هذا المجال ، باعتبار أن القدس بما لها من مكانة مقدسة لدى المسلمين جميعاً تمثل ركيزة هامة كان عليهم أن يولوها من الرعاية والعناية ما يبرزون به الجانب الدينى من سياستهم .

اسم السلطان	المنشآت ذات الدلالة الدينية التى تمت فى عهده	المصدر أو المرجع
١ - السلطان الظاهر بيبرس	١ - عمر قبة الصخرة سنة ٦١٦ هـ ورتب برسم مصالح المسجد الأقصى فى كل سنة خمسة آلاف درهم ، كما عمر قبة موسى ، وفى سنة ٦٦٨ هـ زار المدينة وعمر خاناً كبيراً وجدد قبة السلسلة ، رمم شعث الصخرة ، وبنى على باب عبيده بن الجراح منها مشهداً ، ووقف عليه شيئاً للواردين .	المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٤٩١ ، الصلاح الكتبى : فوات الوفيات ، طبع بولاق القاهرة ، ١٢٨٣ هـ ، ج ١ ، ص ١١٤ .
٢ - السلطان الظاهر بيبرس	٢ - أوقف على الخان الذى أنشأه وعرف بخان الظاهر نصف قرية لفتا وغيرها من القرى بأعمال دمشق وجعل بالخان فرناً وطاحونا ، وجعل للمسجد الذى فيه إماماً وشرط فيه أشياء من فعل الخير من تفرقة الخبز على بابه وإصلاح حال النازلين به .	ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٧ ، ص ١٢١ ، مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٣٤ .
٣ - السلطان الظاهر بيبرس	٣ - أمر بارتجاع عدة ضياع من أوقاف الخليل عليه السلام كانت قد دخلت فى الإقطاع وعوض الأمراء عنها ، ثم وقف وحبس القرية المعروفة باذنا عليه وفقاً صحيحاً شرعياً .	ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر - تحقيق فاطمة صديق ، اكسفورد ١٩٥٦ ، ص ٨٩ .
٤ - السلطان الظاهر بيبرس	٤ - فى عهده تم إنشاء دار الحديث بجوار التربة الجالقية على طريق باب السلسلة .	عارف العارف : تاريخ القدس ، دار المعارف ١٩٥١ ، ص ٨٧ - ٨٨ .
٥ - السلطان الظاهر بيبرس	٥ - كذلك تم فى عهده إنشاء المدرسة الأباصيرية تجاه الرباط المنصورى بجوار باب الناظر .	عارف العارف : تاريخ القدس ، دار المعارف ١٩٥١ ، ص ٨٧ - ٨٨ .
٦ - السلطان المنصور قلاوون	١ - تم فى عهده إنشاء الرباط المنصورى ، وهو يقع بباب الناظر أحد أبواب المسجد الأقصى ، وهو رباط غاية فى الحسن والبناء المحكم .	مجير الدين : المصدر نفسه ، ج ٢
٢ - السلطان المنصور قلاوون	٢ - عمر سقف المسجد الأقصى من جهة القبلة عند جامع الأنبياء .	مجير الدين : المصدر نفسه ، ج ٢

اسم السلطان	المنشآت ذات الدلالة الدينية التي تمت في عهده	المصدر أو المرجع
برقوق	التي يراها الداخل أمامه إذا ما دخل من باب المسجد الأقصى من الباب القبلي ، تجاه المحراب .	ص ٢٩٠ ، سعيد عاشور « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس » ص ١٦ .
٢ -	كذلك أنشئت في عهده المدرسة الغزية على مقربة من باب الأسباط .	عارف العارف : نفس المرجع ، ص ٩٦ .
٣ -	تم تعمير البركة التي بظاهر القدس من جهة الغرب وهي بركة السلطان .	
٤ -	كما تم تجديد القيسارية الموقوفة على الحرم الشريف بالقدس .	سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٩٦ .
٨ - الناصر فرج بن بروق	١ - على الرغم مما اشتهر به في التاريخ من سوء السيرة ، إلا أنه في زيارته لبيت المقدس فرق على الناس خمسة آلاف دينار ، وهو مبلغ لا شك كبير بالنسبة لمقاييس ذلك العصر وعشرين ألف فضة ، كذلك زار الخليل ، وعلق بالمسجد الستائر الحريرية على الأضرحة التي به .	المقريزي : السلوك ، ج ٤ ، ص ١٠٨ في حوادث سنة ٨١٢ هـ ، سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ١٦ .
٩ - المؤيد شيخ	١ - زار القدس سنة ٨٢٠ هـ و فرق في أهله مالا جزيلاً ، وصلى الجمعة ، وجلس بالمسجد الأقصى بعد الصلاة ، وقرأ صحيح البخاري بين يديه من الفقهاء القادمين إلى لقائه من القاهرة والقدس .	المقريزي : السلوك ، ج ٤ في ذكر حوادث سنة ٨٢٠ هـ .
١٠ - الأشرف برسباي	١ - في عهده عمرت الأوقاف بالقدس الشريف ، واشترت عدة جهات للوقف من القرى والمسقفات برسم المسجد الأقصى والصخرة الشريفة وأصلحت قبة الصخرة .	محير الدين : الأنس الجليل الجليل ج ٢ ، ص ٤٣٨ .
٢ -	كما تم في عهده إنشاء المدرسة الباسطية شمال الحرم بالقرب من باب الغنم ، والمدرسة القادرية بين باب حطة من الغرب ومعدنة إسرائيل من الشرق ، وكذلك المدرسة الحسينية بباب الناظر غربي الحرم فوق رباط علاء الدين البصير ، هذا بالإضافة إلى المدرسة العثمانية بباب المتوضأ تجاه سبيل قايتباي .	عن هذه المدارس راجع : عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٩٦ - ٩٧ .
١١ - الظاهر	١ - أنعم على الحرمين بألفين وخمسمائة دينار	المرجع السابق ،

اسم السلطان	المنشآت ذات الدلالة الدينية التي تمت في عهده	المصدر أو المرجع
-------------	--	------------------

ص ٤٣٥ ، عارف
العارف : نفس المرجع ،
ص ٢٩٦ .

٣ - رسم أن تكون جوالى الذمة بالقدس والخليل
وبيت لحم وبيت جالة مرصدة لعمارة بركة في
بلد الخليل .

المقريزى : نفس
المصدر ، ج ١ ،
قسم ٣
ص ٧١٢ .

٣ - العادل كتبغا ١ - جدد فصوص الصخرة الشريفة كما جدد
عمارة السور الشرقى المطل على مقبرة باب
الرحمة .

سعيد عاشور : بعض
أضواء جديدة على مدينة
القدس ، ص ١٥ .

٤ - المنصور ١ - جدد عمارة محراب داود الذى بالسور
القبلى عند مهد عيسى عليه السلام بالمسجد الأقصى
الشريف .

٢ - بنيت في عهده مأذنة باب الغوانمة في الزاوية
الغربية التالية للمسجد الأقصى .

عارف العارف : تاريخ
القدس ، ص ٢٢٩ ،
سعيد عاشور : المرجع
السابق ص ١٥ .

٥ - الناصر محمد ١ - في عهده تم إنشاء رباط بالقدس وحمامين
بن قلاوون وقياسر .

ابن تغرى بردى :
النجوم ، ج ٩ ،
ص ١٥٨ ، ابن حجر
الدرر الكامنة في أعيان
الماقة الثامنة ، حيدر اباد
١٣٤٨ هـ ، ج ١ ،
ص ٥٢٢ .

٢ - عمر السور القبلى الذى عند محراب داود عليه
السلام ، ورخم صدر المسجد الأقصى ، ومسجد
الخليل عليه السلام ، كذلك فتح في المسجد الأقصى
الشباكين اللذين عن يمين المحراب وشماله وجدد تذهيب
القبتين قبة المسجد الأقصى وقبة الصخرة . وعمر
القناطر على الدرجتين الشماليتين بصحن الصخرة التى

اسم السلطان	المنشآت ذات الدلالة الدينية التي تمت في عهده	المصدر أو المرجع
	إحدهما مقابل باب حطة ، والأخرى مقابل باب الدويدارية أحد أبواب المسجد الأقصى ، كما عمر باب القطانين أحد أبواب المسجد الأقصى بالبناء المحكم .	
٣ -	عمر قناة السبيل الواقعة عند بركة السلطان بظاهر القدس من جهة الغرب .	مخير الدين : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٣٨ ؛ عارف العارف ، نفس المرجع ص ٢٩٦ .
٤ -	في عهده بنى الأمير تنكز نائب الشام مئذنة باب السلسلة ، كذلك جدد مئذنة باب الغوامة .	عارف العارف : نفس المرجع ص ٢٩٩ .
٥ -	وفي عهده أوقف الأمير تنكز نائب الشام عدة أوقاف كثيرة بالقدس وبنى دارا للحديث ، وبنى مدرسة وخانقاه ورباطا وله سوق موقوفة على المسجد الأقصى .	ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٨٧ ، ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ج ٥ ، ورقة ٩٣ .
٦ -	كذلك تم إنشاء المدرسة الجاولية نسبة للأمير علم الدين سنجر الجاولي وكذلك المدرسة الكريمة بباب حطة .	عارف العارف : نفس المرجع ، ص ٩٠ - ٩١ .
٦ - الأشرف شعبان بن حسين	١ - عمر المغارة التي عند باب الأسباط ، كما جدد الأبواب الخشبية المركبة على بوابات الجامع الأقصى .	
	٢ - جددت في عهده القناطر التي على الدرجة الغربية في صحن الصخرة المقابل لباب الناظر .	
	٣ - جددت المغارة التي عند باب الأسباط وهي بين باب الأسباط وباب حطة في الناحية الشمالية الشرقية من الحرم .	
	٤ - كذلك أنشأ بعض أروقة في الحرم من جهة الشمال .	المرجع السابق ، ص ٣٠٠ .
٧ - الظاهر	١ - عمرت في عهده دكة المؤذنين ، تلك الدكة	المرجع السابق ،

اسم السلطان	المنشآت ذات الدلالة الدينية التي تمت في عهده	المصدر أو المرجع
جقمق	ذهب ومئة وعشرين قطاراً من الرصاص لعمارة سقف الصخرة الشريفة .	ص ٢٩٠ .
١٢ - الأشرف إينال	٢ - كما تم في عهده إنشاء المدرسة الأشرفية بجوار باب السلسلة .	المرجع نفسه ، ص ٩٨
١٢ - الأشرف إينال	١ - في عهده تمت عمارة المسجد الأقصى الشريف .	نفس المرجع ، ص ٩٧
١٣ - الأشرف خشقدم	٢ - كذلك أنشأ السيل المعروف بسيل قايتباي في عهده عمرت قناة السيل .	نفس المرجع ، ص ٩٧
١٤ - الأشرف قايتباي	١ - في عهده صنعت الأبواب النحاسية للمسجد الأقصى .	نفس المرجع ، ص ٢٩١ .
	٢ - كما تمت عمارة المسجد الأقصى وكذلك قناة السيل .	ميجر الدين : نفس المصدر ج ٢ ، ص ٦١٩ - ٦٢٠ .
	٣ - وتم إنشاء كل من المدرسة المزهرية بباب الحديد، والمدرسة الزمينية غربى الحرم فوق الإيوان الذى بباب القطانين ، وكذلك المدرسة الأشرفية وهى التى سنتناولها بالوصف فى الفصل الرابع من هذا البحث .	عارف العارف ، نفس المرجع ، ص ٩٨ .
١٥ - قانصوه الغورى	١ - فى عهد قانصوه الغورى وهو آخر سلاطين المماليك بمصر جددت عمارة المسجد الأقصى ، كما أصلحت الفصوص ، وتم بياض الجدران ودهان الأبواب وعمليات الترميم وغير ذلك .	سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ١٩ .

من هذا الجدول تتضح لنا مدى العناية التى أولاها سلاطين وأمراء المماليك للمنشآت الدينية فى مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر ، مما يعطى انطباعاً بأن قيام دولة سلاطين المماليك فى الحكم ، ليس ضرورة لحماية البلاد والعباد من الأخطار الخارجية فحسب ، بل أيضاً لرفع راية الإسلام عن طريق إحياء شعائره ورعاية مقدساته ، هذا بالإضافة إلى أن تلك العناية لم تكن قاصرة على سلاطين المماليك وحدهم ، بل شاركهم فيها كثير من الأمراء .

وفي نفس الوقت يبين لنا الجدول أن سلاطين المماليك قد رصدوا جزءاً من ثرواتهم الضخمة التي عادت عليهم من وراء التجارة في رعاية مقدسات المسلمين ، ليظهروا دائماً في صورة رعاة الدين الساهرين على علومه وأركانه ، المنفذين لأحكامه وشريعته .

كذلك يعكس لنا الجدول أن العناية بمدينة بيت المقدس لم تكن قاصرة على المؤسسات الدينية ، بل كانت عنايتهم بالمؤسسات العلمية والخيرية والاجتماعية لتوفير أسباب الحياة الطيبة في المدينة وتنشيط الحياة فيها ، بعد أن تحررت من الخوف الذي نعيم عليها نحواً من قرنين من الزمان ، كما يعكس لنا أيضاً بعض ما أوقفه المماليك والخيرون على هذه المنشآت من الأوقاف الجليلة ، ذات الإيرادات الوفيرة ، ليضمنوا لها البقاء والاستمرار .

كما يبين لنا الجدول ، أنه على الرغم من حالة الاضطراب السياسي التي كانت تتعاقب على دولة سلاطين المماليك ، مثل الفترة التي أعقبت مقتل الأشرف خليل بن قلاوون ، وكذلك في أواخر عصر سلاطين المماليك أيام قانصوه الغوري ، فإن اهتمام السلاطين ببيت المقدس ورعاية مقدساتها كان واضحاً ، حيث لم يغفلوا أمرها .

هذا إلى جانب أنه بقيام دولة المماليك الثانية سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م ، ازداد حرص سلاطين تلك الدولة على رعاية تلك المقدسات ، ولعل السبب في ذلك راجع إلى حرص سلاطين المماليك في تلك الدولة على ألا يكونوا في نظر معاصريهم أقل مرتبة ممن سبقوهم ، وهذا يتضح بجلاء من حرص الكثيرين منهم على بذل كل جهد ممكن للعناية بالحرم القدسي الشريف وقبة الصخرة المباركة ، سواء بالإضافة أو الإصلاح أو الترميم . وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على أن اهتمام سلاطين المماليك كان دائماً هو أن يرسخوا في نفوس معاصريهم أنهم حماة الإسلام والعقيدة الإسلامية ، وإن كان هذا لا يمنع من وجود بعض السلاطين الذين اشتهروا منهم بالتقوى والصلاح فعلاً أمثال السلطان جقمق .

وأخيراً تجب الإشارة إلى أننا نلاحظ أن المؤسسات الدينية والخيرية كانت كثيرة في عهد سلاطين المماليك البحرية ، أي دولة المماليك الأولى كما يسميها البعض ، بينما نرى أنه في دولة المماليك الثانية أو الجراكسة فقد قلت هذه المؤسسات ، ولم يكن هذا بسبب أن المماليك قد دعموا نفوذهم وسلطانهم ومحو ما في نفوس معاصريهم من شعور نحوهم بقدر ما هو راجع إلى حالة الانهيار الاقتصادي الذي عم دولة سلاطين المماليك منذ القرن الخامس عشر الميلادي .

كما تجب الإشارة أيضاً إلى نقطة بالغة الأهمية بالنسبة للعمارة الدينية المسيحية ، في بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك ، وهي أن بعض المؤرخين يروون دائماً أن سلاطين المماليك كانوا يمنعون الطوائف غير الإسلامية من بناء أي مبنى ديني لهم في القدس^(١٠) . إلا أن الحقيقة التي لا تدع مجالاً للشك هي أن أبناء الطوائف المسيحية المختلفة في ظل حكم سلاطين المماليك تمتعوا بالحرية الدينية ، وممارسة شعائرهم داخل مؤسساتهم الدينية ، كما سمح لهم بإصلاحها وترميمها وإعادة ما تهدم منها ، ليس هذا بالنسبة لأبناء الطوائف المسيحية المحلية فحسب ، بل المسيحيين الغربيين المقيمين في بيت

المقدس . وقد أورد أستاذنا الدكتور أحمد دراج في كتابه « الممالك والفرنج في القرن التاسع الهجرى - الخامس عشر الميلادى »^(١١) - « دراسة وثائقية هامة جداً تفند تلك الآراء وتبين مدى بطلانها ، كما يتضح منها تسامح حكام بيت المقدس معهم ، وكذلك السلاطين ، وحرصهم الدائم على تأمينهم ومؤسستهم التى يقيمون فيها . كما يؤكد لنا المقرئى ذلك بما لا يدع مجالاً للشك في حديثه عن سنة ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م حيث يقول : « .. وفيها قدم إلى يافا مركب فيه فرنج ، معهم أخشاب ، وعجل ، وصناع ، برسم عمارة بيت لحم ، بالقدس ، حيث مولد عيسى عليه السلام ، ويدهم مرسوم السلطان بتمكينهم من العمل . فدعوا الناس للعمل بالأجرة ، فأتاهم عدة من القلعة والصناع ، وشرعوا في إزاحة ما بطريقهم من الأوعار . كان سبب هذا أن موسى - صبي بطرك النصارى الملكانية - سأل السلطان لما قدم إلى القدس ، بعد نوبة صرخد ، في سنة اثنتى عشرة وثمان مائة ، أن يمكن النصارى من إعادة عمارة مولد عيسى - بيت لحم - على ما كان عليه فكتب له بذلك مرسوماً ، فطار به كل مطار ، وبعث إلى بلاد الفرنج فاغتنموا الفرصة ، وبعثوا هؤلاء .. »^(١٢)

الوضع الإدارى لبيت المقدس

سبقت الإشارة إلى أنه تم لسلاطين الممالك بسط سيطرتهم على بلاد الشام كلها عقب موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، فقسموا بلاد الشام إدارياً إلى ستة أقسام كبرى ، أطلقوا عليها اسم نيابات ، لأن كلا منها على رأسها نائب لسلطان الممالك في القاهرة يتبعه وينوب عنه في حكمها ، وقد ظهرت هذه النيابات تدريجياً ، وليس بقرار واحد أو في وقت واحد ، وهى على حسب ترتيب ظهورها : نيابة دمشق ونيابة حلب ونيابة حماة ، ونيابة الكرك والأردن ، ونيابة صفد ، ونيابة طرابلس . وكان على رأس كل نيابة من هذه النيابات أمير كبير من أمراء الممالك ، يتمتع بلقب نائب السلطان ، وأكبرهم مقاماً هو نائب دمشق الذى كانت نيابته أجل النيابات الشامية وأرفعها في الرتبة ، حتى أطلق على نيابته اسم « نيابة الشام » أو « مملكة الشام »^(١٣) . ومن ناحية أخرى فإن كل نيابة من هذه النيابات الكبرى انقسمت بدورها إلى أقسام إدارية صغيرة ، أطلق عليها القلقشندى اسم « ولايات » أو « نيابات صغار »^(١٤) .

أما عن وضع مدينة بيت المقدس فمن المعروف أن إدارتها في العهد الأيوبي كانت تناط بعهدة أمير من أمراء السلطان ويطلق عليه « وال »^(١٥) . ومن المرجح أنها استمرت كذلك في أوائل عصر سلاطين الممالك ، أى أنها كانت ولاية صغيرة تتبع نيابة دمشق ، كما كان يوجد في قلعتها نائب صغير يعينه نائب دمشق^(١٦) . وتذكر بعض المصادر أنه كان بالمدينة « نائب » ، الأمر الذى يوحى بأنها كانت نيابة مثل سائر النيابات ، فعلى سبيل المثال يذكر لنا ابن عبد الظاهر في حديثه عن اتفاقية الهدنة التى أبرمها السلطان قلاوون مع الفرنج عام ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م « مملكة القدس الشريف » مما قد يوحى بأنها كانت نيابة مثل نيابتي الشام وحلب وغيرها من النيابات الكبار^(١٧) . كذلك فإن المقرئى في حديثه عن الظاهر بيبرس يقول : « ... وفي ذى الحجة نزلت بئر السقاية التى بالقدس

حتى اشتد عطش الناس بها ، فنزل شخص إلى البئر فإذا قناة مسدودة ، فأعلم الأمير علم الدين الحاج الركني نائب القدس^(١٨) وعلى الرغم من ذلك فإننا نستطيع أن نؤكد أن القدس كانت ولاية صغيرة أو نيابة صغيرة ، تابعة لدمشق ولعل خير دليل على ذلك ما يرويه لنا ابن تغرى بردى فى قوله : « ولما كان الوالى على نيابة دمشق كان يولى نائب القدس والرملة وصيدا وبغروت وبلبك وغيرها على عادة من تقدمه .. »^(١٩) ويؤكد لنا الدمشقى هذه الحقيقة بقوله : « ... ومن أعمال دمشق وجندى أيضاً البيت المقدس بمدينة القدس ... »^(٢٠) وعلى أية حال ، فإن القدس بوصفها « نيابة صغيرة » - على حد تعبير القلقشندى - جعلت المؤرخين يتحدثون عن واليها باعتباره « نائباً صغيراً » على ما يبدو .

كما تضاربت أقوال المؤرخين فى تحديد التاريخ الذى تحولت فيه إلى نيابة مستقلة بذاتها^(٢١) ، إلا أن المؤرخ ابن حجر فى حديثه عن سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م يقول : « وفيها استقر تميز فى نيابة القدس وهو أول من ولى نيابتها ، وكانت قبل ذلك يكون فيها وال من جهة وال الولاية بدمشق .. »^(٢٢) . ويؤكد القلقشندى - وهو رجل يمثل نموذج الإدارى المورخ والعلم بالشئون الإدارية بحكم عمله فى ديوان الإنشاء - تلك الحقيقة بقوله : « نائب القدس الشريف وهو من استحدثت نيابته فى الدولة الأشرافية » شعبان بن حسين « فى سنة سبع وسبعين وسبعائة ، وكانت قبل ذلك ولاية وهو طبلخاناه ... » ، كذلك قوله فى موضع آخر : « أنها كانت فى الزمان المتقدم ولاية صغيرة يليها جندى ثم استقرت طبلخاناه فى سنة سبع وسبعين وسبعائة ، وأن العادة جرت أن يضاف إليها نظر الحرمين : حرم الخليل عليه السلام ، وحرم القدس ... »^(٢٣) . وعلى هذا فإن تحويل القدس من ولاية إلى نيابة قد حدث زمن الأشرف شعبان وفى سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م على وجه التحديد . ومن الطبيعى أن نميل إلى أقوال كل من ابن حجر والقلقشندى لقربهما الزمنى من تلك الأحداث ، فضلاً عن أن القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » كان يهتم بالنواحي الإدارية بالدرجة الأولى ، هذا بالإضافة إلى أن أقوالهما عن التغير الذى حدث كانت صريحة بما لا يدع مجالاً للشك .

وتعود فنؤكد اهتمام سلاطين المماليك بمدينة بيت المقدس تدعيماً لنفوذهم فى تلك المدينة ، ولربط إدارتها مباشرة بسلطنتهم فى القاهرة ، عقب تحويلها إلى نيابة لها نائب يعينه السلطان ، بعد أن كان واليها يعين من قبل نائب السلطنة فى دمشق ، هذا فضلاً عن ربطهم المدينة بالقاهرة عن طريق أبراج الحمام ، التى تقوم بتوصيل الأخبار بسرعة ، حيث كان بمدينة بيت المقدس أبراج للحمام تخرج منها الرسائل إلى غزة ومنها إلى القاهرة مباشرة ، كذلك ارتبطت مدينة الخليل بغزة ثم القاهرة^(٢٤)

ولا نريد أن نمر على ظاهرة تحويل بيت المقدس من ولاية صغيرة تابعة لنائب دمشق إلى نيابة مستقلة قائمة بذاتها تتبع السلطنة المركزية فى القاهرة مباشرة ، دون أن نحاول تحليلها تاريخياً . ذلك أن النظرية السياسية التى قام عليها التحكم فى دولة سلاطين المماليك يمكن بلورتها فى أن أمراء المماليك اعتقدوا أن عرش البلاد حق لهم جميعاً يفوز به أقوامهم وأقاربهم على الإيقاع بالآخرين ، وقد أدى ذلك إلى اعتماد سلاطين المماليك فى حكمهم على قوة ذات جناحين ، أحدهما يتمثل فى القوة

العسكرية للسلطان ، وهى القوة التى يجسدها بماليكه ، ويتمثل الجناح الثانى فى الواجهة الدينية التى حرص السلاطين على التخفى وراءها طوال العصر^(٥٥) . أما الشق الثانى من هذه السياسة فقد تحقق لهم بما شملوا به مقدسات المسلمين فى المدينة من عناية ورعاية وهو ما سبق أن تناولناه فى الصفحات السابقة ، كذلك كان عليهم لتحقيق الشق الأول من تلك السياسة بالإضافة إلى الإكثار من شراء الممالك ، أن يتقربوا إلى كبار الأمراء بتوزيع الاقطاعات عليهم وكذلك الوظائف^(٥٦) . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نفسر هذا التحول فى ضوء التطور الإدارى الحتمى لدولة سلاطين الممالك ، وخلق مناصب كبيرة للأمراء الطبلخاناه .

كذلك لعله من المرجح أيضاً أن يكون هذا التحول قد جاء نتيجة لما شعر به سلاطين الممالك عقب طردهم للصليبيين من بلاد الشام ، من أن بيت المقدس لم تترح تفكير كل رجل وامرأة فى الغرب الأوروبى^(٥٧) . وتتضح هذه الفكرة صراحة فى أقوال حجاج بيت المقدس من المسيحيين الغربيين ، فمن ذلك ما يرويه لنا سيرجون مانديفيل الذى زارها سنة ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢ م فى قوله : « إن الرب لن يدع بيت المقدس تظل طويلاً تحت حكم الخطاة والمذنبين » يقصد بذلك حكام المسلمين من الممالك^(٥٨) . بل أن الغرب الأوروبى كان لا يفتأ يطالب صراحة وفى جرأة ببيت المقدس ، من ذلك ما يرويه المقرئى فى حوادث سنة ٢٣٠ هـ / ١٣٢٩ م عن وصول سفارة ضخمة من مائة وعشرين رجلاً ، موفدة من قبل ملك فرنسا فيليب السادس دى فالوا « فى طلب القدس وبلاد الساحل ، فأنكر السلطان عليهم ، وعلى مرسلهم وأهاتهم ... »^(٥٩) . كما سجل لنا ابن فضل الله العمري الحديث الذى دار بحضوره بين أحد السفراء الفرنسيين وبين السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، بخصوص طلبهم القدس قال فيه الناصر للرسول الفرنسى : « وما كان يشغلنا عنكم إلا قتال التتار ، ونحن اليوم بمحمد الله صلح ، نحن وإياهم من جنس واحد ، ما يتخلى بعض عن بعض .. »^(٦٠)

هذا إلى جانب النشاط الصليبي فى شرق البحر المتوسط ، وخاصة بعد أن تولى بيت لوزيان عرش جزيرة قبرص ، سنة ١١٩٢ م - هذا البيت الذى أفقد صلاح الدين عرش مملكة بيت المقدس سنة ١١٨٧ بعد معركة حطين الشهيرة - ومنذ ذلك العهد غدت قبرص حجر الزاوية فى الحروب الصليبية ، فقد أسهمت قبرص فى الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة والقاصدة دمياط ، ثم فى عهد بطرس الأول ملك قبرص (١٣٥٩ - ١٣٦٩) م أنشأ الملك القبرصى طائفة من أجل فلسطين أطلق عليها اسم « طائفة السيف » لتخليص الأرض المقدسة من قبضة الممالك ، وفى عهده تمت آخر محاولة صليبية لتنفيذ الفكرة الفرنسية القديمة ، القائلة بوجود الاستيلاء على مصر أولاً وتحطيم قوتها ، تمهيداً لهدم القوى الإسلامية العربية فى الشرق الأدنى واسترجاع بيت المقدس^(٦١) . ونقصد بذلك قيام بطرس الأول بحملته الشهيرة على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م . ويصور لنا القلقشندى مدى خطورة الوضع فى ذلك الوقت فى حديثه عن الرسالة التى بعث بها صاحب غرناطة السلطان أبو عبد الله محمد بن أى الحجاج يوسف بن نصر بن الأحمر ، إلى السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين يقول فيها : « اتصل بنا مارامت الروم من المكيدة التى كان دفاع الله من دونها سداً

والملائكة جنداً ، والعصمة سوراً ، والروح الأمين مدداً منصوراً ، وانها استنفدت الوسع في احتشادها ، حتى ضاقت اللجج عن أعوادها .. حتى غص كافر البحر بكفارها ، يصبح بهم التأليب ، ويذمرهم الصليب / وقد سول لهم الشيطان كياد ثغر الاسكندرية ، شجا صدورهم ، ومرمى آمال غرورهم ، ومُحَوِّم قديمهم ، ومتعلل غريمهم ، ليهتموا ثغر الإسلام بصدمتها ، ويقودوا خبائب الساحل في رمتها ، ويرفعوا عن دينهم المعرة ، ويتلقفوا في القدس كرة الكرة ، ويقلصوا ما امتد من ظلال الإسلام ، ويشيموا سيوف التغلب على الشام ، ويجولوا بين المسلمين وبين محط أوزارهم ، وحجهم ومزارهم ، وبيت ربهم الذى يقصدونه من كل فج عميق ..^(١٣) »

من هذا يتضح لنا أن السلطان الأشرف شعبان كان مدركاً لذلك الخطر المحدق بالإسلام والمسلمين فضلاً عن أن هذه الحادثة كانت « من أشنع ما مر بالاسكندرية من حوادث ومنها اختلت أحوالها ، واتضع أهلها وقلت أموالهم ، وزالت نعمتهم^(١٤) » . وهذا ما حدا به إلى رفع مدينة الاسكندرية إلى نيابة بعد أن كانت ولاية ، ولعل السبب نفسه هو الذى دفعه إلى تحويل بيت المقدس إلى نيابة لأنه خشى أن يحل ببيت المقدس ما حل بمدينة الاسكندرية .

ومما لا شك فيه أنه كان من العوامل التى شجعت السلطان الأشرف شعبان على تحويل بيت المقدس إلى نيابة ، حالة الاستقرار التى تمتعت بها البلاد بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص ، عقب تخلصه من سيطرة الأمراء المماليك وخاصة الأمير طيغا الطويل ، ويبلغا العمرى وهو الأتابك واستمر الناصرى ، والأمير طغيتمر النظامى ، ويؤكد ابن تغرى بردى هذه الحقيقة بقوله إنه ابتداء من سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م « قوى أمر الملك الأشرف فى السلطنة وصار تدبير ملكه إليه يعزل ويولى من غير مشورة الأمراء وصار فى الملك من غير منازع ولا معاند وحسنت سيرته وحبته الرعاية إلى الغاية وصار يقصد المقاصد الجميلة كما سيأتى ذكره ..^(١٥) » . كذلك يؤكد ابن اياس تلك الحقيقة بقوله : « وكانت الدنيا فى أيامه هادئة من الفتن والتجاريد إلى البلاد الشامية وفساد العربان ، هذا فضلاً عن اتصافه بالحكمة وحسن السياسة فقد ساس الناس فى أيام دولته أحسن سياسة^(١٦) » .

فإذا أضفنا إلى العوامل السابقة عاملاً ستحدث عنه بالتفصيل فى الصفحات التالية ألا وهو توافر أعداد من أمراء المماليك بمدينة بيت المقدس ، سواء الذين فضلوا الإقامة بها لبعدها عن العاصمة وتقلبات الأحوال السياسية ، أم الذين نفوا إليها والذين تزخر بهم المصادر المعاصرة ، لأدركنا أنه توفر بالمدينة أحد العناصر العسكرية^(١٧) التى يمكن الركون إليها لحمايتها إذا ما تعرضت لخطر خارجى ، حتى تصلها النجدة من القاهرة أو دمشق .

هكذا رأينا أنه فى ظل التجارب والأحاسيس التى عاشها السلطان الأشرف شعبان بن حسين ، كان لا بد له من الاحتياط والاستعداد ، فاتخذ عدة اجراءات وقائية كان من جملةا رفع مدينة بيت المقدس من الناحية الإدارية إلى نيابة ، على رأسها نائب للسلطان مسئول أمامه عن أمن المدينة وسلامتها ، كما أن هذا التحول كان نتيجة حتمية لطبيعة حكم سلاطين المماليك الذى اعتمد على القوة العسكرية والواجهة الدينية ، والذى انعكس بشكل واضح فى أن التعيين فى الوظائف الدينية

الكبرى فيها بقى من حق السلطان وحده ، وإذا كان تدخل السلطان المباشر فى بعض الأقاليم يرجع لأسباب حربية ، فإن حرصه على التمسك بحقه فى شغل الوظائف الدينية بالقدس يرجع إلى أهميتها الدينية والتي استغلها السلاطين كسند لهم فى ظهورهم بمظهر حماة الإسلام والمدافعين عن مقدساته^(١٧) .

ومن الأمور التي استرعت نظر الباحث فى دراسة تاريخ بيت المقدس طوال عصر سلاطين المماليك ظاهرة النفى إلى القدس ، فلا تكاد تمر سنة أو بضعة سنوات قليلة إلا ونجد فى مصادر ذلك العصر إشارة إلى أن السلطان أمر بنفى أحد المذنبين أو واحد من خصومه إلى القدس . وهنا لابد للباحث من وقفة لتفسير هذه الظاهرة . كذلك تجب الإشارة إلى أن النفى إلى القدس كان لا يعنى السجن وإنما هو نوع من تحديد الإقامة بحيث يعيش الفرد المنفى حراً طليقاً ، كل ما فى الأمر أنه لا يستطيع الخروج منها إلى غيرها أو مغادرتها إلا بإذن السلطان^(١٨) . وليس أدل على أن بيت المقدس لم تكن سجناً وأن النفى إليها كان نوعاً من تحديد الإقامة ما يرويه لنا ابن الصيرفى فى حديثه عن بيبرس بن عبد الله الأمير سيف الدين الأشرقى برسباى خال الملك العزيز يوسف بن الملك الأشرف برسباى أنه « حبس فى الاسكندرية مدة ثم أفرج عنه ورسم له بالإقامة بالقدس بطالاً^(١٩) » ، وأيضاً ما يرويه عن الأمير بكلمش العلأى أمير سلاح وكان معاصراً للناصر فرج ابن برقوق « كان معتقلاً فى الاسكندرية ثم أفرج عنه .. ورسم له بالإقامة بالقدس بطالاً^(٢٠) » ومما يؤكد لنا تلك الحقيقة بما لا يدع مجالاً للشك ما يرويه ابن قاضى شهبه أيام الظاهر برقوق فى سلطنته الثانية من أنه « نفى الأمير قبقباى رأس نوبة إلى القدس وأعطى له خبزاً يعمل فى السنة عشرين ألف درهم ..^(٢١) » والمعروف أن كلمة خبز تعنى الإقطاع ، هذا بالإضافة إلى أن كثيراً من هؤلاء المذنبين ، ومن المغضوب عليهم كانوا قد استصحبوا معهم عائلاتهم وأتباعهم^(٢٢) .

كما تجب الإشارة إلى أن بيت المقدس لم يكن المكان الوحيد الذى يمكن أن ينفى إليه المغضوب عليهم فى ذلك العصر ، وإنما كانت هناك أماكن أخرى فى الدولة ، يغلب عليها البعد عن مركز السلطنة من ناحية وقسوة الحياة فيها من ناحية أخرى ، ومن أهم هذه الأماكن كانت مكة والمدينة المنورة والكرك والشوبك^(٢٣) . هذا بالإضافة إلى أن الحياة فى مدينة بيت المقدس لم تكن أصعب منها فى بقية المواضع السابق ذكرها ، بل كانت أخفها وطأة وأهونها أمراً نظراً لقربها من مصر من ناحية ، ولاعتدال جوها من ناحية أخرى ، وهذا ما سوف يتضح لنا فى الفصل الرابع من هذا البحث . ونسمع عن كثير من الحالات فى عصر سلاطين المماليك التى طلب فيها بعض المنفيين إلى مكة أو المدينة أو الكرك التخفيف عنهم ، فتوسط لهم بعض المقرئين عند السلطان حتى استجاب للالتماس ، وسمح لهم بالانتقال إلى بيت المقدس يقضون عقوبة النفى فى بيئة أقل قسوة .. ومن ذلك ما يذكره المقرئى عن القاضى زين الدين عبد الباسط ، أنه كان منفيّاً وأهله إلى مكة ، حتى سمح له السلطان بالانتقال إلى بيت المقدس « فسكن جأشه لأنه كان كثير القلق وهو بمكة^(٢٤) » . كذلك يؤكد لنا ابن حجر هذه الحقيقة فى حديثه عن سنة ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م فى سلطنة المنصور على بن الأشرف شعبان بقوله : « وفيها أمر بنفى ييدير من صفد إلى طرابلس ثم شفع فيه فأقام بالقدس بطالاً^(٢٥) » .

هذا بالإضافة إلى أن السلطان كان لا يسمح بالنفى إلى بيت المقدس إلا لمن لا يخشى منه خطراً شديداً مباشراً ، فأشد الحالات السياسية خطراً كان صاحبها يسجن ، وغالباً ما يكون سجنه في مدينة الاسكندرية حتى يكون قريباً بعيداً^(٧٦) : قريباً من عين السلطان وملاحظته ومراقبته ، بعيداً عن أن يهدد السلطان تهديداً مفاجئاً ، كأن يقوم بتوجيه ضربة مباشرة سريعة ، يحل بها محل السلطان في قلعة الجبل بالقاهرة . أما الحالات بين الخطيرة والخفيفة فكان أصحابها ينفون إلى الحجاز أو الكرك أو الشوبك^(٧٧) .

ومهما يكن من أمر ، فإنه يبدو أن أكثر من ثمانين في المائة من حالات النفى في عصر سلاطين المماليك استأثرت بها مدينة بيت المقدس وحدها ، وهي نسبة كبيرة دون شك ، وهذا ما يتضح لنا من دراسة بعض المصادر التي ذكرت كثيراً من حالات النفى ، وقد ألحقنا جدولاً في آخر هذا البحث قمنا فيه برصد الكثير من الحالات التي نفى أصحابها إلى بيت المقدس ، كما تجب الإشارة إلى أننا لا نسمع إلا عن حالات محدودة نادرة نفى أصحابها إلى قلعة دمشق أو حلب ، وفي هذه الحالة الأخيرة كان الوضع أقرب إلى السجن منه إلى النفى ، بل كان سجنًا ونفيًا في نفس الوقت^(٧٨) .

وهنا لابد من ذكر حقيقة ، وهي أن دولة سلاطين المماليك مهما يبالغ في تكريمها وتعظيمها والإشادة بالدور الذي نهضت به سياسياً وحضارياً في أواخر العصور الوسطى ، فإن هذه الدولة عاشت عمرها البالغ قرنين ونصف من الزمان ، على أساس أن جميع الأمراء متساوون في حق ولاية العرش ، والأمر متروك للقوة العسكرية والدهاء السياسى لحسم الصراع على تولى العرش ، فالمماليك جميعاً سواء ، وكبار الأمراء كلهم سواسية نشأوا نشأة واحدة ، لا فضل لأحدهم على الآخر ، نشأوا في كنف أساتذتهم الذين نشئهم نشأة واحدة أو متقاربة اعتقوا وتحرروا في مرحلة معينة من أعمارهم . كل منهم شق طريقه بعد ذلك وأدرك نصيباً من الحياة يتفق وإمكاناته الذهنية والاجتماعية وغيرها . وبناء على ذلك ظهر منهم من وصل إلى درجة أمير كبير ، وهي درجة تؤهله للوثوب إلى منصب السلطنة ، ومنهم من ظل أميراً صغيراً .

فإذا مات السلطان القائم أو قتل ، فالباب مفتوح أمام كبار الأمراء ليحاول كل منهم الفوز بمنصب السلطنة ، مستخدماً طرقه وأساليبه الخاصة ، شريفة كانت أم غير شريفة ، وهذا هو السر في كثرة الاضطرابات والثورات التي تعرضت لها دولة سلاطين المماليك بين حين وآخر ، والتي يكمن سببها الحقيقي في إحساس كل أمير بأنه له الحق في السلطنة^(٧٩) ، مما يحرك فيه عوامل الخروج على السلطان القائم . وفي ظل هذا الوضع كان الطامعون في السلطنة والثائرون عليها لا يجدون أفضل من بلاد الشام لتكون مركزاً ومنطلقاً لحركاتهم ، فلهذه البلاد في طبيعتها وموقعها وخيراتها وإمكاناتها البشرية ، ما يجعل منها قوة لمن يتحكم فيها ويسيطر عليها . وكان الخارجون على الدولة في عصر سلاطين المماليك يتخيرون المدن الكبرى في بلاد الشام - وخاصة دمشق وحلب - مركزاً لحركاتهم ، نظراً لما تتمتع به من ثروة وموقع وحصانة وإمكانات متعددة . ومن هذه المراكز كثيراً ما كانوا يشربون في الزحف على القاهرة ، لأن سلطنة أحدهم « لا تتم إلا بدخوله قلعة الجبل »^(٨٠) . ولذا كان سلاطين المماليك يعملون حساباً كبيراً لنوابهم في تلك المدن الشامية الكبرى ، حتى بلغ

الأمر أن كتاب السر في النيابات الشامية كانوا يقومون بمهمة التجسس لحساب السلطان في القاهرة ويطلعون على ما قد يخفيه النواب عنه أو يبيتونه له^(٨١) ويؤكد لنا أحد المؤرخين المعاصرين تلك الحقيقة من أنه في عهد السلطان أبو سعيد جقمق « غضب السلطان على شاد بك الحكيم نائب حماه فعزله عنها وأمره أن يتوجه إلى القدس بطالا وعين مكانه فيها يشبك الصوفي أحد المقيمين بحلب^(٨٢) » وفي نفيه إلى القدس دليل على تخوف السلطان منه ومن بقائه في حماه فربما يتمكن بها من العصيان والثورة ، ولكن إمكانيات القدس كانت لا تسمح بذلك . هذا وإن كنا نسمع عن بعض حالات قليلة تم النفي فيها إلى إحدى المدن الرئيسية في بلاد الشام^(٨٣) . وفي هذه الحالة يبدو أنه كان ينفي إليها من لا يخشى بأسه على السلطنة . كذلك لم يكن هناك أنسب من مدينة مثل بيت المقدس يغلب عليها الطابع الديني ، فضلاً عن أنها محدودة الامكانيات البشرية والمادية ، غير مرغوبة لمن يطلب الغناء والجاه ، غالبية سكانها من أهل العلم والدين وليسوا من أهل الحرب والسلاح^(٨٤) . هذا بالإضافة إلى ما سوف يتضح لنا من خلال حديثنا في الفصول التالية عن الحياة الاقتصادية فيها ، من أنه لم يكن فيها موارد طبيعية ضخمة تعتمد عليها وتستغنى بها عن غيرها ، مما يجعلها عاجزة عن مقاومة حصار طويل يفرض عليها في حالة ثورتها ، لذا لم نسمع في تلك العصور من خلال دراستنا للمصادر المختلفة التي تحدثت عنها والتي استخدمناها في كثير من فصول هذا البحث العربية والأجنبية عن قيام حركة ثورية بها ضد السلطة المركزية في مصر .

ولعل أول ما يسترعى انتباهنا في حكم سلاطين المماليك لمدينة بيت المقدس ، هو حرص السلاطين الدائم على إبطال المظالم من المدينة المقدسة ، من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين أنه في عهد السلطان الظاهر برقوق وفي سلطنته الثانية ، أبطلت المظالم والرسوم والمكوس التي أحدثها النواب بالقدس^(٨٥) . ومن ذلك أيضاً أن السلطان سيف الدين قطز عندما مر بمدينة بيت المقدس عام ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م أمر بإبطال المغارم التي كان نائب المدينة قد فرضها على أهلها ، ونقش ذلك على حجر بالمسجد الأقصى^(٨٦) . وجدير بالذكر أن رفع المظالم في هذه المدينة لم يختص به المسلمون وحدهم بل شمل لإخوانهم المسيحيين أيضاً ، من ذلك أنه في عهد الملك الظاهر أبي سعيد جقمق برز مرسوم السلطان بإبطال ما أحدثه نائب بيت المقدس من ضمان دير الأرمن بالقدس الشريف^(٨٧) . ويرجع أن تكون تلك المظالم التي كان يحدثها النواب بسبب سوء الأحوال الاقتصادية التي شهدتها الدولة بوجه عام ، فضلاً عن السياسة التي اتبعها السلاطين المتأخرون في تولي الوظائف عن طريق البذل والبرطلة ، والتي سنتحدث عنها بالتفصيل في الفصل الخاص بالحياة اليومية والأمراض الاجتماعية .

كذلك مما يؤثر عن سلاطين المماليك اهتمامهم بانتقاء الحكام والقضاة لبيت المقدس ومراقبتهم ، وحرصهم على تغيير هؤلاء الحكام في حالة عجزهم أو تعسفهم ضد الرعية من سكان بيت المقدس ، من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين في حديثه عن أن الأمير « خشدقدم نائب السلطنة بالقدس الشريف ولى النيابة في دولة الملك الظاهر جقمق وياشر بشهامة وحصل منه عسف للرعية فوثب أهل بيت

المقدس وشكوه للسلطان فعزله وطلب إلى القاهرة ..^(٨٨) ، وكذلك ما حدث في عهد السلطان الأشرف قايتباي حيث « رفع سكان القدس شكواهم إلى السلطان ضد نائبه في القدس خضر بك ، لأن هذا كان ظالماً وكان سفاكاً للدماء . فحقق السلطان في شكواهم ، ولما تأكد من صحتها استحضره إليه فضربه ، ثم أقاله . ولم يكن خلفه « دقماق » بأعدل منه ، أو أحكم . بل كان هو أيضاً ظالماً ، فثار المقدسيون ضده ، وظلوا يلحون على السلطان إلى أن أقاله من منصبه ..^(٨٩) » هذا ويؤثر عن هذا السلطان اهتمامه بانتقاء حكام بيت المقدس وتدخله بنفسه لحسم أى خلاف ، من ذلك أنه عندما خرج لزيارة المدينة عام ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م حرص على أن يستمع إلى الأهالي في شكواهم من نائبه جارقطلی الظاهري ، وحكم لهم ، وأمره برد ما أخذه منهم ، كما نفى القاضي غرس الدين خليل من بيت المقدس عندما شكاه أهلها^(٩٠) .

الوظائف في بيت المقدس

كان في مدينة بيت المقدس عدد من الموظفين على عصر سلاطين المماليك ، الذين يمكن أن نصنفهم إلى ثلاثة أنواع هي : أرباب السيوف ، وأرباب الأقلام ، وأصحاب الوظائف الدينية :

١ - أرباب السيوف :

١ - الوالي أو النائب :

سبق لنا أن أشرنا أن مدينة بيت المقدس منذ العهد الأيوبي حتى بداية الحكم المملوكي كانت تناط بعهدة أمير من أمراء السلطان يطلق عليه وال^(٩١) . وظل الأمر كذلك حتى تحولت المدينة عام ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م إلى نيابة ، فأصبح يطلق عليه لقب « نائب »^(٩٢) ، وفي الفترة التي سبقت تحولها إلى نيابة كان هذا الوالي يتم تعيينه من قبل نائب السلطنة في دمشق وإن كانت المصادر لم تشر إلى رتبته^(٩٣) .

أما عن اختصاصات النائب ، فإنه كان يمثل السلطان وينوب عنه في حكم المدينة ، الذي يصوره لنا ابن فضل الله العمري في أنه « سلطان مختصر فيما هو ناء عن الحضرة وأن النائب هو المتصرف المطلق في كل أمر » ، وكان يراجع في كل ما يتعلق بشئون الجيش والمال وهو المسئول عن البريد والأخبار ، وهو رئيس الموظفين في نيابته ومرجعهم « وكل ذى وظيفة في نيابة لا يتصرف إلا بأمره ، ولا يفصل أمراً معضلاً إلا بمراجعته .. ويرتب في الوظائف ..^(٩٤) » . كما نستطيع أن نستخلص من كتب التقليد التي كان يصدرها أحد السلاطين عند تعيينه لنائب جديد ، أن من واجبات النائب أيضاً تنظيم الشرع الشريف والعمل على إعلاء كلمته ، وتأليف قلوب الرعية على حب السلطان ، وحماية المملكة التي يحكمها ، وحماية أهل الذمة فيها ما داموا طائعين ، وتأديبهم إذا خرجوا عن الطاعة ، كذلك كان من اختصاصه تولية ولاية الأعمال ، وتولية صغار النواب كالتولية على القلاع والمدن الصغيرة ، وكذلك للنائب أن يولى من يشاء في الوظائف العادية^(٩٥) . وبالإضافة

إلى تلك الصلاحيات كان نائب القدس يقوم بواجبات أخرى ، منها أنه كان ابتداء من سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م وهي السنة الأولى التي تحولت فيها المدينة إلى نيابة يقوم بمهام نيابة مدينة الخليل إدارياً مضافة إلى نيابة القدس ، علماً بأن إضافة بلد الخليل إلى القدس كانت مجرد عادة جارية حتى قبل تحول القدس إلى نيابة ، كما أضيفت إليه مهمة النظر في الحرمين الشريفين - القدس والخليل .. وبذلك صار يلقب بناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس الشريف وبلد سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام^(١٦) . إلا أنه في عام ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م أيام السلطان فرج بن برقوق في سلطنته الثانية حدث تغيير في اختصاصات نائب القدس ، فقد قرر السلطان « أن نائب القدس لا يكون ناظراً للحرمين الشريفين » وبهذا فصل الوظيفتين^(١٧) . ولكننا نسمع أنه في عهد السلطان نفسه وفي عام ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م « خلع على تاج الدين رزق الله ناظر الجيش بدمشق ، واستقر نائب السلطنة بالقدس ، وناظر أوقاف القدس والخليل ، ولم نعهد مثل ذلك أن كاتباً يلي نيابة السلطنة ببلد .. »^(١٨) . ثم نعود ونسمع أنه في عهد السلطان الأشرف برسباي أن نائب السلطنة بالقدس الشريف عاد ليجمع ما بين النيابة ونظر الحرمين الشريفين في القدس والخليل^(١٩) . بل أكثر من هذا أنه أصبح يجمع بين عدة وظائف مختلفة . من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين من أن الأمير طوغان العثماني نائب السلطنة بالقدس الشريف وناظر الحرمين في القدس والخليل وكاشف الرملة ونابلس ومتولى الصلت وعجلون ، واستادار الأغوار وغير ذلك من التكلم على الجهات السلطانية ، جمع له بين هذه الوظائف في دولة الملك الأشرف برسباي في سنة أربعين وثمانمائة وبعدها في دولة الظاهر جقمق ، وكان من الحكام المعتمدين^(٢٠) .. ولعل الجمع بين تلك الاختصاصات والوظائف كان راجعاً إلى مقدرة بعض الأشخاص ، وإن كان هذا التبديل والتغيير في وظائف الإدارة دليلاً على تدهور البناء السياسي للدولة في الشطر الثاني من ذلك العصر . وهو مأسوف يتضح لنا في الصفحات التالية . وإن كنا نسمع أنه في أواخر عصر سلاطين المماليك كان تولي بعض الوظائف ومنها نيابة القدس والخليل يتم عن طريق الرشوة والبذل للخزانة السلطانية^(٢١) . وليس هناك تفسير لتلك الظاهرة إلا الانهيار الاقتصادي وما أدى إليه من كساد التجارة وبالتالي قلة موارد السلطنة نتيجة للحصار الاقتصادي الذي فرضه البرتغاليون على التجارة المملوكية في ذلك الوقت . ومن المهام التي كانت تناط أيضاً بنائب القدس اجتماعه بالحجاج المسيحيين الذين يفدون إلى البلاد لزيارة الأماكن المسيحية المقدسة ببيت المقدس ، فكان يستقبلهم عند نزولهم من السفن المقلّة لهم في ميناء مدينة يافا ، ويعين لهم حرساً خاصاً لمراقبتهم وحمايتهم أثناء تنقلاتهم في الأراضي المقدسة^(٢٢) .

ومن الجدير بالذكر أنه منذ استحدثت النيابة بمدينة بيت المقدس ، كان نوابها من أمراء البلخانا ، وهي مرتبة عسكرية تتيح لصاحبها أن يكون في خدمته أربعون مملوكاً^(٢٣) . كما كان لأمير الطبلخانا الحق في أن تدق على بابه الطبول كما يفعل السلطان وأمراء الثقات ، ولكن على صورة مصغرة ، وقد تزيد مرتبة أمير الطبلخانا من أمير أربعين إلى إمرة سبعين أو ثمانين ، أي أن يكون في خدمته ما يساوي أحد هذين العددين^(٢٤) . وكما سبق أن أشرنا فإن السلطان المملوكي في مصر كان يحرص دائماً على تعيين ذلك النائب بنفسه ، إلا أنه وجدت بعض الحالات التي نسمع فيها أن السلطان كان

يترك ذلك الحق لنائب دمشق . من ذلك ما يرويه ابن تغرى بردى في ذكره لحوادث سنة ٨٦٥ هـ / ١٤٦٠ م أيام السلطان خشقدم ، من أن السلطان المذكور أذن لجانم نائب الشام أن يولى من يشاء ويعزل من يشاء حتى كاشف الرملة ونائب القدس وأمثالهما ، وأنه ليست على يده يد في ولاية نيابة دمشق ، ولعل السبب في ذلك راجع إلى العلاقة الوطيدة التي تربط السلطان بأحد كبار الأمراء أو كنوع من التكريم وربما لاستئانته أو خشية بأسه^(١٠٥) .

أما فيما يتعلق بدار النيابة بمدينة بيت المقدس في ذلك العصر ، وهى موضع سكن النائب ، فيرى أحد الباحثين أن أول ذكر لها كان عام ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ م^(١٠٦) . غير أنه من المرجح أن نائب القدس كان يتخذ من القلعة بها داراً للنيابة ، حيث وردت إشارة بذلك عند مجير الدين يقول فيها : « وكان الولي بالقدس قديماً ينزل بالقلعة » مما يرجح القول بأنه عندما تحولت إلى نيابة لم يتغير الوضع وظل النائب ينزل أيضاً في القلعة لفترة سابقة للتاريخ المذكور ، وهذا ما يفهم من كلام مجير الدين فيما أورده من حديث عن دار النيابة بقوله : « ثم دخلت سنة ٨٩٢ هـ وفيها عمر الأمير خضر بك نائب القدس بدار النيابة المقعد الملاصق لإيوان الحكم من جهة الشمال وجعله على طريق مجالس الحكام بالدار المصرية وسقفه بالخشب المدهون ، وكان قبل ذلك جلوس النائب بصدر الإيوان فصار جلوسه بالمقعد وهو أولى من النظام الأول .. » ، كذلك أورد لنا في حديثه عن نائب السلطنة الأمير شاهين المشهور بالذباح أنه « أمسك جماعة من العرب وذبحهم عند باب دار النيابة بالقدس .. وكانت ولايته في دولة الملك الأشرف برسباى في حدود الثلاثين والثمانمائة^(١٠٧) » ..

ومن المرجح أيضاً أن دار النيابة في بيت المقدس لم تكن لتستمر في مكان بعينه طوال عصر سلاطين المماليك ، ودليل ذلك ما يرويه مجير الدين نفسه في حديثه عن الأمير الكبير علم الدين أبو سعيد سنجر بن عبد الله الجاولى الشافعى (ت ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م) ، من أنه بنى مدرسة بالقدس صارت في عصر مجير الدين سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٥ م سكناً للنواب بالقدس الشريف^(١٠٨) . أما عن وصف دار النيابة أو سكن النائب في المدينة ، فقد أورد لنا أحد الرحالة الذى زار المدينة عام ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م وهو كازولا وصفاً له في عبارة موجزة قائلاً إن بيت نائب القدس هو أجمل المنازل في المدينة وأتقنها^(١٠٩) .

٢ - والى أو نائب القلعة :

كانت هذه الوظيفة تأتي بعد نائب السلطنة في الأهمية ، ومن المرجح أنه حدث تطور في هذه الوظيفة سواء من حيث اللقب الذى يطلق على متوليها أو رتبته العسكرية ، فبينما يشير القلقشندى في حديثه عن اللقب الذى كان يطلق على متوليها بقوله : « ولاية قلعة القدس ، واليها جندى » .. مما يفهم منه أنه كان يطلق على من يتولاها لقب « وال^(١١٠) » فإن مجير الدين في حديثه عن الوظيفة ومتوليها يقول أنه « كانت تدق فيها الطبلخاناه في كل ليلة بين المغرب والعشاء على عادة القلاع بالبلاد وقد تلاشت أحوالها في عصرنا وتشعثت وبطل منها دق الطبلخاناه وصار نائبها كأحد الناس

لتلاشي الأحوال^(١١١) .. ومنه يفهم أنه كان يطلق على متوليها لقب « نائب » ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لم تشر المصادر إلى رتبة متوليها وعدد الممالك الذين كانوا في خدمته ، مما يرجح معه أنه كان من صفار أمراء الطبلخاناه حيث كان يدق على بابه الطبول . كذلك تجب الإشارة إلى أنه يرجح أنه أطلق عليه لقب « نائب القلعة » بعد تحول مدينة القدس من مجرد ولاية تابعة لدمشق إلى نيابة ، كما سبقت الإشارة بذلك^(١١٢) . كما تجب الإشارة أيضاً إلى أنه في أواخر عصر سلاطين المماليك قل الاهتمام بقلعة المدينة وكذلك واليها وهو ما أشار إليه مجير الدين ، ولعل ذلك راجع إلى شعور سلاطين المماليك بعدم وجود أخطار حقيقية تهدد أمن المدينة بسبب خفة وطأة الحروب الصليبية وانشغال الغرب الأوربي بمشاكله الخاصة ، أو بسبب الظروف الاقتصادية السيئة التي أخذت تعاني منها دولة سلاطين المماليك ، والتي سبق أن أشرنا إليها .

كذلك يفهم مما أورده القلقشندي في حديثه عنها : « وكانت توليتها أولاً من جهة نائب السلطنة بدمشق ثم أخبرني بعض أهل المملكة الشامية أن ولاية والي القلعة وولاية البلد صارتا إلى نائب القدس من حين استقر نيابة » يقصد سنة ٧٧٧ هـ^(١١٣) . وبذلك كان نائب السلطنة في القدس هو الذي يقوم بتولية والي القلعة أو نائب القلعة كما كان يطلق عليه ذلك أحياناً^(١١٤) . ويفهم من المرسوم الصادر لتولى هذه الوظيفة بعض المهام التي كان يكلف بها نائب القلعة بالقدس في ذلك العصر ، وهي أنه يجب عليه أن يواظب على حفظ القلعة ويتفقد أسوارها ورجالها وعددها وأن يدافع عنها ضد الأعداء ، وأن يرعى الله دائماً في كل أحواله حتى يكون له عوناً ونصيراً^(١١٥) . ومن المرجح أن يكون نائب القدس قد وضع نصب عينيه - في اختياره من يشغل الوظيفة - الطابع العام للمدينة بحيث كان يتوسم فيه الصلاح والخير وإن كانت مهام منصبه عسكرية أساساً^(١١٦) .

٣ - والي المدينة :

ومن الوظائف العسكرية أيضاً - أي وظائف أرباب السيوف - تأتى وظيفة والي المدينة ، ويشير القلقشندي أن واليها جندي « أي من أرباب السيوف » ، وكانت توليته من قبل نائب السلطنة بدمشق عندما كانت بيت المقدس ولاية تابعة لها ، وعندما تحولت القدس إلى نيابة أصبح نائب القدس هو الذي يختار من يشغل هذه الوظيفة من بين المماليك^(١١٧) . ومع أن المصادر والمراجع التي بين أيدينا لم تعطنا فكرة واضحة عن وظيفة هذا الوالي ، أو المهام التي كان يقوم بها في مدينة بيت المقدس ، إلا أننا نستطيع القول أنها لم تختلف عن غيرها في المدن التي خضعت لحكم سلاطين المماليك سواء في مصر أم في بلاد الشام ، من حيث أن المهمة الرئيسية لهذا الوالي كانت الإشراف على شئون مدينة بيت المقدس ، وتعقب المفسدين فيها ، وحماية أهلها من الأشرار والعابثين . كذلك كان من اختصاص هذا الوالي « الفحص عن المنكرات من الخمر والحشيش ونحو ذلك ، وسد الذريعة فيه ، والستر على من ستره الله تعالى من أرباب المعاصي ، وإقالة ذوى الهيئات عمراتهم . وليس له أن يتجسس على الناس ويبحث عما هم فيه من منكر ، ولا كبس بيوتهم بمجرد القول والقليل^(١١٨) » ..

ولما كان على الوالى أن يراقب هؤلاء الأشرار مراقبة تامة ، فقد كانت مهمته الأولى هى الحفاظ على الأمن ، الأمر الذى أوجب عليه أن يقوم بنفسه بتفقد الشوارع والحارات فى الليل ، ومن المؤكد أنه كان له أعوان يتنقلون فى أنحاء المدينة لينقلوا إليه الأخبار ، ومن المرجح أيضاً أن يكون هو نفسه صاحب الشرطة فى المدينة حيث نجد إشارة لدى مجير فى حديثه عن أسماء من ولى النظر والنيابة بالقدس والذين لم يستوعب أسماءهم ولا تراجعهم حيث اعتقد أن ذلك « تطويل لا طائل تحته خصوصاً حكام الشرطة من النواب^(١١٩) » .. كذلك كان مسئولاً عن الحجاج الذين يفدون إلى المدينة وسلامتهم طوال مدة إقامتهم^(١٢٠) .

كذلك تجب الإشارة إلى أنه كان من سلطات الوالى أن يعاقب أهل الجرائم وقد حددت بعض كتب المعاصرين بعض طرق العقاب « وليس للوالى غير أن يجلداهم فقط بسوط معتدل بين القضيب « أى الغض « والعصا ، لا رطب ولا يابس ، ويفرق السياط على الأعضاء ، ويتقى الوجه والمقاتل ، ولا يتقى الرأس^(١٢١) » ..

ومن خلال نسخة توقيع بولاية القدس أوردها القلقشندى يتضح لنا أنه ربما كان يفضل لتولى هذه الوظيفة من هم من أبناء القدس أى الذين عاشوا فيها وربما تربوا فيها من المماليك ، حيث يقول أنه كان يشترط فيه أن يكون عارفاً بوجوه المصالح حتى يكون السكن أعرف بشمس بلده^(١٢٢) » ..

٤ - الحاجب :

كانت هذه الوظيفة من وظائف أرباب السيف التى يتولاها أحد أمراء المماليك وكانت مهمة الحاجب متشعبة منها ما يختص بالمماليك أنفسهم ، حيث كان « ينصف بين الأمراء والجنود تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب^(١٢٣) » ، هذا بالإضافة إلى أنه من المرجح أنه كان يعرض على نائب السلطنة من يرد إلى المدينة من المماليك ومن يغادرها منهم وبخاصة من المنفيين إليها أو الذين انتهت مدة نفيمهم فيها وهذا ما يفهم من العبارة التى أوردها القلقشندى فى قوله : « وإليه تقديم من يعرض ومن يرد^(١٢٤) » .. كذلك دخل ضمن اختصاصه بعض الأمور التى تتعلق بأهل المدينة أنفسهم ، من ذلك « أنه كان يحكم بين الناس وترفع إليه الأمور المتعلقة بأرباب الجرائم وغيرها^(١٢٥) » .. ولعل المقصود بذلك أنه كان ينوب عن نائب السلطنة فى النظر فى بعض المظالم حسباً يفهم من العبارة السابقة التى أوردها مجير الدين .

كذلك من المرجح أنه كان فى بيت المقدس أربعة حجاب مثل غيرها من نيابات بلاد الشام ، وعلى رأسهم ما يسمى حاجب الحجاب أو أمير حاجب ، حيث ورد ذكر هذا اللقب عند مجير الدين إذ يقول : « وكان بالقدس الشريف فيما تقدم أمير حاجب على عادة غيره من البلاد وكان يحكم بين الناس ويرفع إليه الأمور المتعلقة بأرباب الجرائم وغيرها^(١٢٦) » . ويبدو أن هذه الوظيفة كانت موجودة فى بداية عصر سلاطين المماليك ثم ألغيت بعد ذلك وبخاصة فى عصر السلطان الأشرف إينال حوالى عام ٨٦٠ هـ حسبما يروى مجير الدين فى حديثه عنها^(١٢٧) . مما يرجح قولنا

السابق أن مهمة الحاجب كانت النظر في بعض المظالم نيابة عن نائب السلطنة ، وهذا ما يشير إليه مجير الدين من أنه بعد أن تم إلغاء هذه الوظيفة - وإن لم يذكر السبب في ذلك - فقد « اختص الحكم بنواب القدس نحو الستين والثمانمائة »^(١٢٨) .

٥ - كاشف بيت المقدس :

والمقصود بكاشف بيت المقدس في ذلك العصر هو تلك الوظيفة التي كان يختص بها أحد أمراء الطبلخانة من المماليك ، الذي كان يتم تعيينه عن طريق نائب القدس ومهمته في أساسها هي التحدث في جسورها وأراضيها وسائر متعلقاتها وأحوالها^(١٢٩) . وعلى هذا الأساس فهي من الوظائف التي توليها أرباب السيوف الذين لا يحضرون مجلس السلطان ، وكانت مهمة متوليها الأساسية هي الإشراف على جميع البلاد التي يتولى كشفها ورعاية الجسور فيها وسائر الأمور المتعلقة بأراضيها ، كذلك كان يطلق عليه أحياناً لقب والي الولاية^(١٣٠) . كذلك كانت هناك بعض حالات كان السلطان يقوم بنفسه باختيار من يتولى هذه الوظيفة وهذا ما يؤكد أحد المؤرخين المعاصرين^(١٣١) .

٦ - ترجمان القدس :

كان في بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ترجمان ، نظراً لأعداد الحجاج المسيحيين الذين يفدون من الغرب الأوربي عليها ، وكان هذا الترجمان هو أحد المماليك الذين اعتنقوا الإسلام ، والذي كانت مهمته استقبال الحجاج والرحالة الأجانب بيافا والقدس ، وإثبات شخصية كل منهم في بطاقة خاصة ، ثم ترسل نسخة منها إلى كبير الترجمة في القاهرة لعرضها على السلطان^(١٣٢) . ومن الطبيعي أن يكون لدى هذا الترجمان معرفة ببعض اللغات حتى يتفاهم مع هؤلاء الزوار ، ويسر لهم الإقامة في المدينة أثناء فترة تواجدهم بها^(١٣٣) ، فضلاً عن أنه كان له مساعد يساعده في مهام أعماله وهو الذي أطلق عليه فيليكس فابري اسم (الفاهالو)^(١٣٤) .

ب - أرباب الأقاليم :

١ - المحتسب :^(١٣٥)

كان المحتسب أيام سلاطين المماليك في مدينة بيت المقدس - وفي غيرها من المدن الإسلامية التي خضعت لحكمهم - واحداً من أوسع موظفي الدولة نفوذاً ، لأنه كان يناط به كثير من المسؤوليات المتعددة والمتشعبة الجوانب والتي نستطيع أن نلخصها من خلال نسخة توقيع أوردتها القلقشندي عن المحتسب في بلاد الشام في ذلك العصر ، حيث عهد إليه بحماية الجمهور من الغش والظلم ، والتأكد من توافر السلع الاستهلاكية ومنع حالات الغش أو الاحتكار فيها ، ومفاجأة الأسواق والتأكد من نظافتها ، إلى جانب العمل على حماية المارة فيها ، فضلاً عن تفقد المساجد للتأكد من أن المشرفين عليها قاموا بنظافتها وحسن استخدامها ، وحماية الأطفال من الضرب على أيدي معلمهم ، فضلاً عن إشرافه على الأطباء والكحاليين والجراثحية والصيادلة بالإضافة إلى أرباب الحرف الأخرى^(١٣٦) ، هذا

بالإضافة إلى إشرافه على سك النقود من الذهب والفضة وكذلك موارد المياه في المدينة^(١٣٧) . كذلك يفهم مما رواه ابن الأخوة عن وظيفة الحسبة ، أن المحتسب كان له بعض الإشراف على أهل الذمة حيث يمنعهم من إحداث الكنائس والبيع ويأخذ منهم الجزية على قدر طاقتهم^(١٣٨) .

كذلك جرت العادة بأن يكون للمحتسب بعض المساعدين والذين يختارهم ممن لهم دراية ببعض الحرف وهم الذين أطلق عليهم لقب « العرفاء » ، وهؤلاء العرفاء كانوا يختارون من بين أصحاب الحرف ، والذين يقومون بمساعدته ، وتقديم النصيحة له بخصوص بعض المعاملات التجارية ، وإعطائه فكرة عن أحوال السوق^(١٣٩) ، كذلك كانوا يبلغون أصحاب الحرف المختلفة كل ما هو مطلوب منهم من واجبات والتزامات ، وربما كانوا يعفون من الضرائب مقابل ما كانوا يقومون به من خدمات أو من جزء منها^(١٤٠) .

كما تجب الإشارة إلى أن المحتسب كانت له سلطة تنفيذية كسلطة القضاء وإن كانت العقوبات التي يفرضها لا تبلغ عقوبات الحدود ، وتختلف بحسب الذنب ، وهو ما أطلق عليه التعزير^(١٤١) . فكان المحتسب يعقد محاكماته في مكان معروف باسم دكة المحتسب ، وقد يكون هذا المكان داخل المسجد الأقصى ، ويتخذ الضرب وسيلة للتعزير وذلك عن طريق آلات الضرب مثل السوط والدرة التي تتخذ من جلد البقر أو الجمل المخروزة ، والمقرعة وهي قطعة غليظة من فرع شجرة^(١٤٢) .

وفي بداية عصر سلاطين المماليك كان المعين لهذه الوظيفة يختار بدقة ، كما كان يعين أولاً وقبل أن تصبح نيابة من قبل نائب السلطنة في دمشق بحيث ينوب عن محتسب دمشق ، ثم لما تحولت القدس إلى نيابة أصبح يتم تعيينه من قبل نائب السلطنة في القدس^(١٤٣) . كما لم يكن في مدينة بيت المقدس إلا محتسب واحد نظراً لصغر حجمها ، فضلاً عن أن تولى هذه الوظيفة قد ظل بيد نائب القدس حتى سنة ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م في عهد السلطان الأشرف قايتباي حيث ألغى تولية الحسبة من نائب القدس لما فرضه عليها من أموال واستمر الحال كذلك مدة ، بحيث كان يتم تعيينه من قبل السلطان « بمرسوم يغير كلفة وبقي هذا مدة ثم اختل النظام »^(١٤٤) . وفي الشطر الأخير من عصر سلاطين المماليك صار من المألوف أن يجمع شخص واحد بين الحسبة وغيرها من الوظائف ، كما صارت وظيفة الحسبة تشتري بالرشوة بعد أن كان يتولاها الفقهاء وصار هذا المنصب « في الشهر الواحد يليه ثلاثة أو أربعة ، وسبب ذلك أنهم فرضوا على المنصب مالاً مقررأ ، فكان من قام في نفسه أن يليه يزن المبلغ المذكور ويخلع عليه ، ثم يقوم آخر فيزن ويصرف الذي قبله »^(١٤٥) . وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن هذه الوظيفة فقدت رونقها وسطوتها في خضم التدهور العام الذي كانت دولة سلاطين المماليك تعاني منه في عصر الجراكسة^(١٤٦) .

٢ - وكيل بيت المال :

وردت إشارة واحدة عند مجير الدين عن وكيل بيت المال بالقدس ، في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي ، حيث يقول : « الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن خضر القدسي وكيل

بيت المال بالقدس الشريف وهو الذى فوض إليه الملك صلاح الدين بيع الأملاك الخاصة ببيت المال بالقدس الشريف ثم اشترى منه كنيسة صند حنا وهى المدرسة الصلاحية والجهات التى وقفها عليها^(١٤٧) .. ومن المعروف أن سلاطين المماليك ساروا على سياسة الأيوبيين ونظمهم الإدارية ، لذا فمن المرجح أن تكون هذه الوظيفة قد ظلت قائمة فى بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ، ولسنا ندرى هل كان تولى هذه الوظيفة يتم عن طريق نائب بيت المقدس أم عن طريق السلطان ، لأن القلقشنندى يعتبر هذه الوظيفة من الوظائف المتوسطة « فتارة يولى فيها السلطان ، وتارة يولى فيها النواب . إلا أن تولية السلطان فيها فى النيابات الكبار كالشام أكثر^(١٤٨) » .. ومن المرجح أنها كانت موجودة ببيت المقدس طوال عصر سلاطين المماليك ، لأننا نراه يتحدث عن هذه الوظيفة فى بلاد الشام بوجه عام فيقول : « وهى وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدر ، وموضوعها التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراض وأدر وغير ذلك ، والمعاقدة على ذلك وما يجرى هذا المجرى .. ولا يليها إلا أهل العلم والديانة ، ومجلسه بدار العدل وتارة يكون دون المحتسب ، وتارة فوقه بحسب رفعة قدر كل منهما فى نفسه^(١٤٩) » .

والمعروف أن القلقشنندى كان معاصراً لعصر سلاطين المماليك حتى الربع الأول من القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، فلو أن هذه الوظيفة ألغيت فى بيت المقدس لوجدناه قد ذكر ذلك .

ومن الطبيعى أن يقوم بمساعدة وكيل بيت المال بعض الموظفين الآخرين فى عمله ، مثل « العامل » الذى كان يتظم الحسابات و « الصيرفى » الذى كان يتولى قبض المال وصرفه بمعاونة الصيارفة ، وكذلك بعض الموظفين الذين كانوا يقومون بعمل ما نطلق عليه فى عصرنا الحاضر الأرشيف وهم كتاب الدرج^(١٥٠) .

٣ - نقابة الأشراف :

يقول القلقشنندى عن هذه الوظيفة « وهى وظيفة شريفة ، ومرتبة نفيسة ، موضوعها التحدث على ولد على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه من فاطمة بنت رسول الله ﷺ - وهم المراد بالأشراف ، فى الفحص عن أنسابهم والتحدث فى أقاربهم والأخذ على يدي المتعدى منهم ونحو ذلك ، وكان يعبر عنها فى زمن الخلفاء المتقدمين بنقابة الطالبين^(١٥١) » .

ويبدو أن ولايتها كانت من نائب بيت المقدس على نحو ما ذكر فى دمشق . ويروى لنا ابن تفرى بردى فى ذكر وفيات سنة ٧٩٨ هـ أن نقيب الأشراف السيد الشريف صدر الدين مرتضى بن الشريف غياث الدين ابراهيم ابن حمزة الحسنى العراقى كان قد « ولى نظر وقف الأشراف مع نقابة الأشراف ونظر القدس والخليل » ، وفى هذا تأكيد أن مهمة نقيب الأشراف لم تكن فقط هى الإشراف على طبقة الأشراف بل ورعاية مصالحهم الاقتصادية أيضاً^(١٥٢) .

٤ - ناظر كنيسة القيامة :

من الوظائف التي عرفت في مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك وظيفة ناظر كنيسة القيامة ، والذي يذكره لنا الرحالة كازولا الذي زار بيت المقدس عام ١٤٩٤ م تحت اسم Abrayano^(١٥٣) ، والذي كان يشرف على أعداد الحجاج المسيحيين الواصلين إلى الكنيسة والزوار ، وهو الذي يقوم بتحصيل ما يسمى « موجب السلطان » بعد أن يدون كل منهم بعض المعلومات الشخصية عن نفسه من ذكره لإسمه واسم عائلته وسنه وجنسيته وطوله والعلامات المميزة له ، كلون العينين ولون الشعر إلى غير ذلك في نسختين ثم يصمم بيده عليهما ، وتحفظ واحدة منهما في القدس والأخرى ترسل إلى القاهرة ، وهذا الناظر كان يتبعه عدد من الحراس يبلغ خمسة عشر حارساً . ويرى بعض الباحثين أن المصادر العربية لم تشر إلى تلك الوظيفة ، كما أنه لم يكن معروفاً هل كان من المسلمين أم من المسيحيين المحليين ؟^(١٥٤) إلا أننا نرى أن هذه الوظيفة نفسها هي التي أشار إليها القلقشندي تحت اسم « شد متحصل قمامة » وأن متوليها كان من المسلمين بدليل ما ورد في نسخة التوقيع الخاصة بتولية هذه الوظيفة بأنه على متوليها أن يبدى « رافة مع ذلك بالظاهري العجز : ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » .. وأن يكون « عاملاً بتقوى الله تعالى فإن أهل معاملته أهل ذمة »^(١٥٥) .. كذلك تؤكد لنا المصادر الأوربية بأنه كان من المسلمين هو والحراس الذين يتبعونه^(١٥٦) . وهم الذين كانوا يقومون بعد الحجاج عند دخولهم كنيسة القيامة وعند الخروج منها . ومما لا شك فيه أن نائب مدينة بيت المقدس هو الذي كان يعين من يصلح لهذه الوظيفة ، لأنها لم تكن من الوظائف الجلية حسبما يذكر القلقشندي^(١٥٧) . كذلك من المرجح أن يكون قد اشترط لتولية هذه الوظيفة أن يكون شاغلها ملماً ولو بلغة واحدة أجنبية حتى يستطيع التفاهم مع الزوار ، وربما كان يستعين في ذلك بأحد الترجمة .

ج - الوظائف الدينية :

١ - القضاء :

لما استرد السلطان صلاح الدين الأيوبي مدينة بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، وكان شافعي المذهب ، لذا فهو أول من أقام المذهب الشافعي في المدينة بعد وقفه المدرسة الصلاحية وجعلها للشافعية^(١٥٨) . ومن المؤكد أن الهدف من إقامة هذه المدرسة كان نشر المذهب الشافعي في القدس ، لأن القدس قبل قدوم الصليبيين إليها كانت قد خضعت للدولة الفاطمية الشيعية في مصر . وبذلك أصبح المذهب الشافعي هو المذهب السائد في القدس منذ العصر الأيوبي ، ومع هذا فإن المراجع تشير إلى وجود مذهب آخر في ذلك العصر في مدينة بيت المقدس ألا وهو مذهب الحنفية . فيروي لنا أحد الباحثين في حديثه عن المدرسة المعظمية التي بناها الملك المعظم عيسى في القدس سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٥ م أنه « أمر بعمله مولانا السلطان الملك المعظم شرف الدنيا والدين أبو العزائم عيسى بن أبي بكر بن أيوب الواقف لهذه المدرسة على الفقهاء والمتفقهة من

أصحاب الإمام الأعظم أى حنيفة رضى الله عنه وأرضاه وذلك فى شهور سنة أربع عشرة وستائة للهجرة النبوية تقبل الله منه وغفر له وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً^(١٦١) . ومن المرجح أن يكون أتباع هذا المذهب أقلية بالنسبة للمذهب الشافعى ، لذا لم يكن لأتباع هذا المذهب قاض ، حيث تجمع المصادر المعاصرة كلها على أن أول قاض حنفى وجد بالقدس هو خير الدين العجمى من صوفية خانكاه شيخو بالقاهرة ، وكان ذلك عام ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م فى عهد السلطان الظاهر برقوق^(١٦٢) . هذا القاضى نفسه الذى يذكره مجير الدين (قاضى القضاة خير الدين أبو المذهب خليل بن عيسى بن عبد الله العجمى البائرى الحنفى الإمام العلامة كان من أهل العلم والدين . قدم من بلاده واختار الإقامة ببيت المقدس وولى قضاء القدس من الملك الظاهر برقوق فى أربع وثمانين وسبعمائة .. توفى بالقدس الشريف فى صفر سنة إحدى وثمان مائة ودفن بمامل^(١٦٣) .. وبذلك كان أول منصب استحدث فى مدينة بيت المقدس لقضاء الحنفية على عصر سلاطين المماليك ، كما سبقت الإشارة بذلك وتلاه منصب قاضى المالكية فى سنة ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م ثم تلاه منصب قاضى الحنابلة عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م^(١٦٤) . هذا وتشير بعض المراجع إلى أن قضاء الحنابلة استحدث فى بيت المقدس سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م^(١٦٥) ، إلا أننا نميل إلى الرأى الأول ، والدليل على صحة ذلك ما يرويه لنا ابن حجر العسقلانى فى ذكره لحوادث سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م أيام الناصر فرج بن برقوق أنه « فى هذه السنة أعيد التجديد بالقدس والرملة للأربع قضاة » وفى هذا تأكيد لوجود قضاة للمذاهب الأربعة فى تلك السنة ولعله قبلها ، هذا فضلاً عن أن ابن حجر كان معاصراً للأحداث التى يرويها هنا فى تلك السنة ، مما يجعلنا نثق فى روايته كل الثقة^(١٦٦) .

كذلك تجب الإشارة إلى أن تولية قضاة المذاهب الأربعة فى مدينة بيت المقدس كان من اختصاص السلطان فى القاهرة . وفى هذا تأكيد لما سبق أن أشرنا إليه من سياسة المماليك الدينية وأثرها فى أوضاع بيت المقدس ، ويؤكد لنا القلقشندى ذلك فى حديثه عن الوظائف الدينية أن تولية قضاة القضاة كانت تعتبر من الوظائف الجليلة وأن توليتها يختص بها السلطان وحده ، أما فيما عدا ذلك من وظائف كقضاة العسكر ، وإفتاء دار العدل ، والحسبة ، ووكالة بيت المال ، ومشيشة الشيوخ ونحو ذلك ، فتارة يولى فيها السلطان ، وتارة يولى فيها النواب^(١٦٧) .

هذا بالإضافة إلى أن قاضى الشافعية فى القدس كان عادة ما يجمع بين قضاء القدس والرملة ، كذلك كان يجمع بين قضاء القدس الشريف ونابلس وفاقون وجنين وأعمالها ، فضلاً عن أن منصب القضاء كان يتوارثه الأبناء عن الآباء^(١٦٨) ، كذلك كان القاضى الشافعى كثيراً ما يجمع بين منصب القضاء والخطابة ببيت المقدس^(١٦٩) . هذا فضلاً عما تشير إليه المصادر المعاصرة من تحول كثير من القضاة بل وطلبة العلم من مذهب إلى مذهب آخر ، كأن يتحولوا من المذهب المالكي إلى الشافعى ، وربما كان السبب وراء هذا التحول هو كثرة ما يحصلون عليه من أموال لكثرة الأوقاف المحبوسة على أبناء ذلك المذهب^(١٧٠) .

وكثيراً ما تطالعنا المصادر المعاصرة بأن بعض القضاة كان يباشر مهام منصبه بهمة ونشاط

وشهامة ، وأن له هبة عند الناس والحكام وأنه نفذ أمره في كثير من الأمور الدنيوية ولدى أرباب الحرف ، ومنهم من كان عفيفاً في مباشرته لا يتناول غير معلومه المرتب على أحد الأوقاف والذي قد يصل إلى عشرة دراهم فضة كل يوم مما كان له أكبر الأثر في نفوس معاصريهم ومهابة لدى السلطات^(١٧٠) . إلا أننا قليلاً ما نسمع عن سعى بعضهم لتولى تلك الوظائف ببذل المال والرشاوى ، مثال ذلك ما رواه المقرئ سنة ٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م أيام السلطان شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون من أن ابن سالم قاضي القدس « ما زال يسعى بالخدام حتى كتب له توقيع بقضاء القدس ، على ألف وخمسمائة دينار حملها للسلطان ، ومثلها لمن سعى له » ، ويبدو أن دفع تلك الرشاوى قد ظهر بوضوح أيام ذلك السلطان إذ يقول عنه المقرئ : « اشتهر أخذ البراطيل للسلطان ، فقصدته كل أحد لطلب الاقطاعات والرزق والرواتب^(١٧١) » .

هذا وتجب الإشارة إلى أن القضاء بين الطوائف المسيحية المختلفة التي عاشت في بيت المقدس من المماليك كان بأيدي أبناء هذه الطوائف ، إلا فيما يتعلق بما كان يوجد من خلاف بين أبناء هذه الطوائف بعضها وبعض ، وخصوصاً فيما يتعلق بالأماكن المقدسة المسيحية ، فإنهم في هذه الحالة كانوا يلجأون إلى قاضي القدس المسلم للفصل فيما ينشأ من منازعات ، وتشهد بذلك سجلات المحكمة الشرعية بالقدس^(١٧٢) . أما ما كان يحدث من خلافات بين المسلمين والمسيحيين على اختلافهم ، فكان الفصل فيه يتم على يد القضاة المسلمين ، ولم نسمع عن انحياز هؤلاء القضاء لإخوانهم المسلمين ، ولعل الوثائق التاريخية الموجودة لدى الرهبان الفرنسيين خير شاهد على مدى ما تمتع به هؤلاء الرهبان من أمن وطمأنينة في رحاب عدالة القضاء الإسلامي^(١٧٣) .

أما فيما يتعلق بالقضاء لدى اليهود ، فيروى لنا الرحالة اليهودي اسحق بن شيلو الذي زار بيت المقدس عام ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م أن جماعة اليهود بها كانوا يشتغلون بكثير من الحرف ، ولكن الجزء الأكبر من علمائهم يصلون الليل بالنهار لدراسة القانون المقدس والحكمة^(١٧٤) . بما يفهم منه وجود قضاة لديهم ، كذلك يذكر الرحالة اليهودي موسى بن مناحم الذي زار المدينة أيضاً عام ٨٧٦ هـ / ١٤٨١ م في حديثه عن اليهود بها ، أنه كان لهم قضاة يفضون المنازعات التي تنشأ بين طوائف اليهود المختلفة ، وكان يطلق على كل منهم لقب « الشيخ »^(١٧٥) . ويؤكد لنا Goitein في مقالة له أن اليهود كان لهم محكمة خاصة بهم والتي كانت قد تركزت حول الكنيس الخاص بهم ، كما أن القضاة اليهود كانوا من علماء اليهود حسبما تؤكد ذلك وثائق الجينيزا ، ويقصد بها الوثائق التي تم العثور عليها في مصر وترجع إلى العصور الوسطى ، والتي كتبها اليهود المقيمون بمصر وتتناول مختلف نواحي حياتهم^(١٧٥) .

كما يذكر في مقالة أخرى في رده على أحد الباحثين قوله « إنني لا أعتقد أن القضاة اليهود كانوا يتلقون أجراً عن أتعابهم عن كل قضية يحكمون فيها .. ولكن عندما يقوم هؤلاء القضاة بتوثيق بعض الوثائق فمن هنا كانوا يتناولون بعض الأتعاب عن كل وثيقة يوثقونها^(١٧٦) » ..

وفي هذا خير دليل على أن اليهود في مدينة بيت المقدس كان لديهم بعض القضاة يتولون القيام

بفض ما قد ينشأ بين أبناء مجموعة اليهود في المدينة من منازعات ، سواء كانوا يحصلون على أجر نظير قيامهم بذلك العمل من الأشخاص الذين يحتكمون إليهم ، أم أنهم عاشوا على ما يقدمه لهم أبناء طائفة اليهود من مساعدات نظير قيامهم بتلك الأعمال^(١٧٧) ..

هذا فضلاً عما تشير إليه المصادر اليهودية من أنهم قد نعموا في ظل الحكم الإسلامي وفي عصر سلاطين المماليك بكثير من التسامح والعدل ، وهذا ما يشهد به كثير من مؤرخي اليهود أنفسهم الذين دونوا مؤلفاتهم عن إخوانهم اليهود في بيت المقدس والذين عاصروا تلك الفترة^(١٧٨) . هذا بالإضافة إلى ما تشير إليه تلك المصادر من أنه كان لهم رؤساؤهم الدينيون في تلك الفترة من حاخامات ، كذلك وجد لهم رئيس أعلى كان يطلق عليه لقب « الناجد » ، إلا أن أغلبية هؤلاء الرؤساء كانوا من الاشكنازيم وهم يهود شرق أوربا^(١٧٩) . هذا فضلاً عما يشير إليه أحد كبار رجال الدين اليهود والذي زار مدينة بيت المقدس عام ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م وهو Elijah of Ferrara بأن عمل هؤلاء الرجال لم يكن قاصراً على مدينة بيت المقدس فقط ، بل إنهم تولوا الرد على كثير من الاستفسارات الفقهية الخاصة بالعقيدة اليهودية وما يتعلق بها ، تلك الاستفسارات التي كانت ترد إليهم من مصر والاسكندرية وبغداد وغيرها من البلاد^(١٨٠) .

٢ - ناظر الحرمين :

ويسمى متولى هذه الوظيفة أيضاً بناظر القدس والخليل ، ومن مهامه النظر في كل ما يحتاج إليه الحرم الشريف بالقدس وحرم الخليل من إصلاح وترميم فضلاً عن رواتب القائمين بالعمل فيهما ، والإشراف والتصرف في الأموال المخصصة للأوقاف الخاصة بهذين الحرمين . كذلك كان من اختصاصه الإشراف على موارد المياه التي تمتد الحرمين الشريفين والقدس والخليل بالمياه اللازمة للمصلين ، مثل قناة السيل التي كثيراً ما نسمع عن خروج هذا الناظر ومعه العمال والصناع والآلات لعمارتها ، كذلك كان من اختصاصه ترتيب الوظائف فيهما^(١٨١) .

وجدير بالملاحظة أن هذه المهام كانت من اختصاص نائب القدس أو واليها منذ سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م ، غير أنها انفردت عنه في سنة ٨٤٣ هـ / ١٤٣٩ م ، وذلك عندما ولى السلطان الظاهر جقمق القاضي غرس الدين خليل بن أحمد بن محمد بن عبد الله السخاوي نظر الحرمين كوظيفة مستقلة عن النيابة^(١٨٢) . وكانت ولاية هذه الوظيفة تصدر عن الأبواب السلطانية بالقاهرة ، وكما سبقت الإشارة بذلك ، إلا أنه يبدو أن التعيين في هذا المنصب وبخاصة في عصر سلاطين المماليك الجراكسة كان يتم بعد دفع مبلغ من المال ، ويؤكد لنا ابن تغرى بردى ذلك في حديثه عن سنة ٨٤٧ هـ / ١٤٤٧ م أيام السلطان أبو سعيد جقمق من أنه « استقر الأمين عبد الرحمن في نظر الحرمين القدس والخليل بمال وعد به بعد وفاة الغرس خليل السخاوي » . وهذا يعكس لنا سوء الأحوال الاقتصادية في دولة سلاطين المماليك ، نتيجة لقلّة الأموال الواردة إلى السلطان من التجارة فضلاً عن ضعف الاقطاعات الزراعية عن الوفاء باحتياجاته مما كان يضطره إلى جمع المال بأية وسيلة^(١٨٣) .

٣ - خطيب القدس :

كانت هذه الوظيفة تسند إلى من يقوم بالخطبة في المسجد الأقصى ، ومن الملاحظ أن القائمين عليها كانوا أحياناً يجمعون بينها وبين وظيفة القضاء ، أو بينها وبين التدريس في المدرسة الصلاحية بيت المقدس ، كذلك يفهم مما رواه مجير الدين أن خطيب بيت المقدس كان أحياناً ما يجمع بين منصب الخطابة والقضاء والإمامة والافتاء مدة من الزمن ، نظراً لما يشتهر به من علم وصلاح ، هذا فضلاً عما عرف عن عائلتي بنى القرقشندى وبنى جماعة بالقدس الشريف من مكانة علمية ، فإن أبناء العائلتين كانوا يشتركون في الخطابة بالتناوب ، وكذلك الحال بالنسبة لمشيخة الخانقاة الصلاحية ، لذا لا عجب عندما نسمع أن أحد أبناء العائلتين قد استمر في نصف وظيفة الخطابة بالمسجد الأقصى ، أو أنه عندما توفي كان بيده الربع والثلث من الخطابة ، ونصف المشيخة بالخانقاه الصلاحية ، واستقر بعده فيما بيده من ذلك ولده أو أنه استقر في نصف وظيفة الخطابة الذي كان بيد أخيه واستمر في يده إلى أن توفي هذا الأخير^(١٨٤) .

كما تجب الإشارة إلى أن تولى منصب الخطابة منذ بداية القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي أصبح عن طريق بذل المال للسلطان ، من ذلك ما يرويه لنا أحد المعاصرين من أنه في سنة ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م وفي عهد السلطان فرج بن برقوق « استقر ابن السائح الرملي في خطابة القدس ، بذل فيها ثمانين ألف درهم فصرف ابن غانم النابلسي » وأن جمال الدين يوسف بن غانم المقدسي تولى الخطابة « بمال بذله ثم سعى عليه القاضي جمال الدين عبد الله ابن السائح قاضي الرملة بمائة ألف درهم ولم يقم بها غير ثلاثة أشهر وعزل بالباعوني^(١٨٥) » .

ومما لا شك فيه أن كثرة التعيين والعزل في ذلك المنصب ، التي يصورها لنا المقرئ في حديثه عن سنة ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م أيام السلطان فرج بن برقوق تعكس لنا سوء الأحوال التي آلت إليها الدولة في تلك الفترة ، حيث يقول : « فكان في مدة تسعة أشهر قد ولي خطابة القدس خمسة أحدهم وليها مرتين^(١٨٦) » . ومن المرجح أن يكون السبب فيما وصلت إليه الحال هو شره السلاطين في المال من جهة ، نظراً لسوء الأحوال الاقتصادية التي كانت تعاني منها البلاد ، فضلاً عن تكالب رجال الدين على هذا المنصب وتنافسهم فيما بينهم في دفع الأموال للحصول عليه ، لما سوف يعود عليهم من أموال ، من جهة ثانية . وثمة ملاحظة أخيرة نوردتها . فقد لفت نظرنا فيما تيسر لنا الاطلاع عليه من مصادر ومراجع أن كل من تولوا منصب خطيب بيت المقدس كانوا من الشافعية ، ولنا ندرى السبب في هذا : هل هو راجع إلى سيادة ذلك المذهب على غيره ، أم أنه كان يشترط فيمن يتولى هذا المنصب أن يكون شافعيًا^(١٨٧) .. كما أننا لم نثر خلال المصادر والمراجع التي تحدثت عن بيت المقدس عن وجود ما يسمى « بخلاوة الخطابة » والتي عرفت في المساجد في مصر في عصر سلاطين المماليك وهي عبارة عن الحجرة المعدة لوضع ملابس الخطيب الخاصة ، وقد يحفظ بها أيضاً بعض المربعات الشريفة ، كذلك لعله خصص لكل خطيب سكن بجوار المسجد الأقصى^(١٨٨) .

٤ - مشيخة المدرسة الصلاحية :

وهى من الوظائف الدينية الهامة فى مدينة بيت المقدس ، وكان يشترط فى القائم بها أن يكون من أبرز علماء عصره ، كما كان شيخ هذه المدرسة يعين من قبل السلطان بالقاهرة ، ويؤكد لنا مجير الدين ذلك فى حديثه عن شيخ الإسلام الكمالى ابن أبى شريف (ت ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م) حيث يقول « وخلق عليه بحضرة السلطان بالحوش وكنت حاضراً ذلك المجلس فى صبيحة يوم السبت فى شهر صفر سنة ست وسبعين وثمانمائة وسافروا جميعاً من القاهرة ودخلوا إلى القدس الشريف^(١٨٩) » . وقد سبقت الإشارة إلى أن التنافس كان شديداً بين رجال الدين على تولى هذه الوظيفة ، وفى الحقيقة أنه لم تصادفنا أية معلومات عن مهمة شيخ المدرسة الصلاحية بالقدس ، إلا أننا نستطيع القول إنها لم تختلف عن غيرها من وظائف شيوخ المدارس الأخرى ، من حيث أن مهمته كانت الإشراف على جماعة المدرسين والمعידين والطلبة والخدام ومن إليهم الذين يقدون على المدرسة الصلاحية ، كذلك توفير كل ما يلزمهم من ضروريات من مأكل وملبس وخلافه ، أو بمعنى آخر تنفيذ وصية الواقفين على هذه المدرسة فضلاً عن رعايته للأوقاف المحبوسة عليها ، والعمل على تنميتها حتى تواجه متطلبات القائمين بالعمل فيها والواردين عليها من طلبة العلم .

٥ - مشيخة الخانقاه الصلاحية :

كانت هذه الخانقاه محلاً لرجال التصوف والمجاورين ببيت المقدس وهى التى أوقفها السلطان صلاح الدين الأيوبي على الصوفية عقب فتحه للقدس سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م . ويؤكد لنا أحد الباحثين أن بناء هذه الخانقاه لازال موجوداً بالمدينة فى الوقت الحاضر^(١٩٠) . ومما لاشك فيه أن وظيفة شيخ الخانقاه الصلاحية كانت من الوظائف الهامة فى مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، والدليل على هذا أن شيخ الخانقاه كان يعين بتوقيع من السلطان المملوكى بالقاهرة^(١٩١) . كذلك يجب أن نشير إلى أنه كثيراً ما نسمع فى المصادر المعاصرة عن تناوب بعض الأشخاص فى تولى مشيخة الخانقاه أو أن تكون مناصفة بين شخصين^(١٩٢) . كذلك تؤكد لنا بعض المصادر أن هذا المنصب كان يتوارثه الأبناء عن الآباء ، من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين فى ذكره لحوادث ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م أيام السلطان الأشرف قايتباى حيث يقول « وفى ذى الحجة توفى الشيخ جمال الدين عبد الله بن غانم شيخ حرم القدس الشريف واستقر ولده الشيخ ناصر الدين محمد فيما كان بيد والده من مشيخة الحرم ونصف مشيخة الخانقاه الصلاحية بالقدس الشريف^(١٩٣) » .

هذا ويجب أن نشير إلى أنه وجدت فى بيت المقدس عدة وظائف مماثلة لمشيخة الصلاحية منها مشيخة المغاربة ومشيخة التنكزية ومشيخة الأمتية ، إلا أنه كان يتم التعيين فى هذه الوظائف من قبل نائب السلطنة بدمشق أولاً ثم من نائب القدس بعد أن أصبحت نيابة ، وكما حدث بالنسبة لمشيخة الصلاحية من قيام أكثر من شخص بتولى مشيختها فى وقت واحد ، حدث أيضاً بالنسبة لهذه الوظائف^(١٩٤) .

٦ - أئمة المساجد :

كانت إمامة المصلين من الوظائف الدينية التي لها ترتيب خاص في الحرم القدسي ، ويروى لنا ابن شاهين الظاهري أنه « يصلى بمسجد بيت المقدس في أذن أربع صلوات على المذاهب الأربعة أول ما يبدأ بمذهب الإمام مالك بنجامع المغاربة ثم بالمسجد الأقصى على مذهب الإمام محمد بن ادريس الشافعي ثم بقبة الصخرة على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ثم بقبة موسى والرواق الغربي ، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل » هذا مع العلم بأن الأماكن المذكورة كلها داخل الحرم الشريف^(١٩٥) . ويبدو أن هذه العادة كانت متبعة فقط في صلاتي الظهر والعصر لأننا نسمع أنه في صلوات المغرب والعشاء والفجر فكل إمام يصلى بجماعته من غير ترتيب ، وأما صلاة الجمعة فإنما تقام بالمسجد الأقصى بحل صلاة إمام الشافعية لا غير ، وأما صلاة العيدين وصلاة الاستسقاء فإنها تقام في الحراب الذي على صحن الصخرة الشريفة ، ويخطب الخطيب على المنبر الذي بجانب الحراب^(١٩٦) . وعلى هذا الأساس يمكننا القول أنه كان هناك أربعة من الأئمة داخل المسجد الأقصى على النحو التالي ، إمام للصخرة أي مسجد الصخرة على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان ، وإمام للمالكية بنجامع المغاربة - أي في المكان المخصص لهم - بالمسجد الأقصى ، وإمام لقبة موسى بالمسجد الأقصى على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وكذلك إمام بالمسجد الأقصى على مذهب الإمام الشافعي . وقد اشترط فيه أن يكون من أهل العلم والصلاح ، حافظاً لكتاب الله الكريم ، مشهوراً بالخير والدين ، وحسن الصوت ، يحسن التلاوة ، عالماً بأحكام العبادات الشرعية ، وأن يحضر إلى المسجد أول الوقت وألا يجمع بين إمامة مسجدين ، وأن ينصح المؤمنين بالإخلاص في صلاتهم وأن يجار في دعائه^(١٩٧) .

٧ - المؤذنون :

من الوظائف الدينية ببيت المقدس المرتبة بمساجدها وظيفة المؤذن ، ويبدو أن عدد المؤذنين كان كبيراً في المدينة ، بحيث أننا نسمع عن وجود وظيفة « رئيس المؤذنين » بالمسجد الأقصى الشريف ومسجد الصخرة ، ويبدو أنه كان يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون حسن الصوت والأداء ، وأن تكون لديه حشمة ووقار^(١٩٨) .

ومن الطبيعي أن تكون مهمة المؤذنين هي القيام بالأذان لكل صلاة في وقتها ، والتسبيح في أواخر الليل في الوقت المعتاد في الحرم الشريف ، ويبلغون خلف الإمام ، ويقرأون بعد الصلاة ما تيسر من القرآن الكريم ويصلون على الرسول الكريم ، ويحتمون بالذكر والتأمين على الدعاء على العادة في ذلك .

٨ - المرقى « المكبر » :

اشترطت وثيقة وقف السلطان قايتباي وجود وظيفة « المكبر » وهو المرقى الذي يتولى وظيفة الترقية للخطيب ويذكر الآية الكريمة « إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا ... »

من سورة الأحزاب آية ٥٦ - عند ظهور الخطيب من خلوة الخطابة ، ويكبر عند صعوده المنبر ، ويروى الحديث الوارد في الإنصات « إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت » ، ولعله اشترط في متولى هذه الوظيفة ما اشترط في غيرها من الوظائف الأخرى من إمامة وغيرها^(١٩٩) . فضلاً عن أنه كان لابد أن يكون جهورى الصوت^(٢٠٠) .

٩ - الوقت والمقرئ :

من الوظائف الدينية التي عرفت بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك وظيفة الوقت ، وهي وظيفة مرتبطة بالأذان ، وكما هو معروف عن طبيعة هذه الوظيفة أن صاحبها كان عليه أن يحدد مواعيد الصلاة بدقة تامة ، ويبدو أنه كان يشترط فيمن يلى هذه الوظيفة أن يكون حاذقاً في هذا الفن ، أو أن يكون عارفاً بالمواقيت والفلك وعلم الهيئة .

كما تطالعنا المصادر المعاصرة أن صاحب هذه الوظيفة كان يستمر فيها مدة طويلة من العمر ، من ذلك ما يرويه مجير الدين عن أحد موقتي بيت المقدس وهو الشيخ « شمس الدين محمد التميمي الموقت بالمسجد الأقصى الشريف كان من أهل الخندق في فنه باشر التأقيت بالمسجد الأقصى مدة أربعين سنة وكان موجوداً في سنة خمس وخمسين وثمانمائة وتوفى بعدها بقليل^(٢٠١) » . وقد يقوم المؤذن نفسه بهذه الوظيفة إذا توفرت فيه الشروط السالفة الذكر ، ولا شك أن « الميقاتي » أو الموقت كان يستخدم بعض الآلات في تحديد أوقات الصلاة ، منها المزولة والساعات الرملية وغيرها من الآلات الزمنية وبخاصة في الليل ، وكانت هذه الآلات موجودة في الجوامع والمساجد والمدارس لتحديد الأوقات ، ويأشهرها الميقاتي بنفسه^(٢٠٢) .

ولم جانب وظيفة الوقت « فقد كانت هناك وظيفة المقرئ ، وهذه الوظيفة لا شك أن متوليها كان يشترط فيه أن يكون على دراية بعلم القراءات . وهذا العلم هو « صناعة مخصوصة وعلم منفرد تنقله الناس بالشرق والمغرب^(٢٠٣) » . كذلك لابد أن يكون حسن الصوت والأداء والترتيل ، حافظاً لكتاب الله ، ومن المؤكد أنه كان في بيت المقدس عدد كبير من القراء بدليل وجود وظيفة « رئيس القراء بالقدس الشريف^(٢٠٤) » .

ومما لا شك فيه أن نائب السلطنة في بيت المقدس كان يقوم بتولية الوظائف السابقة ، نظراً لمعرفته بأهل البلاد من جهة ، ومن جهة أخرى فلم تصل في درجتها إلى درجة الوظائف الكبرى التي حرص السلاطين على توليتها من قبلهم كما سبقت الإشارة بذلك .

ومن هذا العرض يتضح لنا أنه بالرغم من عودة المدينة إلى أحضان الدولة الإسلامية عقب استرداد صلاح الدين للمدينة بعد موقعة حطين الشهيرة ، فإن المدينة شهدت نوعاً من الاضطراب الذي نجم عن الصراع السياسي بين أبناء البيت الأيوبي والصليبيين من جهة ، ثم بين الأيوبيين بعضهم والبعض من جهة ثانية ، وبين الأيوبيين والمماليك من جهة ثالثة ، هذا الاضطراب الذي أثر في مجريات الحياة العامة في المدينة .

فضلاً عن أن قيام دولة سلاطين المماليك في مصر كان بمثابة الضرورة الحتمية لمواجهة الأخطار التي أحدثت بالمنطقة العربية ، تلك الأخطار المثلثة في الصليبيين من جهة والمغول من جهة ثانية ، خصوصاً بعد أن ظهر تقاعس الأمراء والملوك الأيوبيين في الدفاع عن العباد والبلاد أمام الغزو المغولي ، وكانت موقعة عين جالوت بمثابة النهاية للدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك محلها في حكم بلاد الشام ، وما نتج عن شعور سلاطين المماليك من نظرة معاصريهم لهم بسبب أصلهم ، مما كان دافعاً لهم على اتخاذ سياسة ذات شقين ، الشق الحربي أو العسكري وهو الظهور دائماً بمظهر القوة المدافعة عن الإسلام والمسلمين ، والشق الديني وهو الاهتمام بمقدسات المسلمين وحمايتها ، وما كان لهذا الشق من أثر في بيت المقدس .

وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن عصر سلاطين المماليك يمثل مرحلة جديدة تماماً في تاريخ مصر والشام بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص ، مرحلة لها طابعها الخاص الذي يتصف بالأمن والاستقرار والثراء والازدهار ، مرحلة جعلت من مدينة القدس مرة أخرى عنصراً فعالاً في الحياة الإسلامية بجوانبها المختلفة ، وهذا ما سوف يتضح لنا من خلال الفصول القادمة من هذا البحث .

هوامش

- (١) الضماد الأصفهانى : كتاب الفتح القسى فى الفتح القدس ، طبع القاهرة ١٩٠٣ ص ٤٧
- (٢) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ، جزآن ، طبع مطبعة وادى النيل بالقاهرة ١٢٨٧ هـ ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ ، المقرئى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة ثانية ١٩٥٦ ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ١١٠
- (٣) سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على مدينة القدس فى عهد المماليك ، بحث مقدم للمؤتمر الدولى الثالث لتاريخ بلاد الشام ابريل ١٩٨١ ، ص ١ ، ٣
- (٤) المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ قسم ١ ، ص ١١٤ ، ١١٥ ، ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبع دار الكتب المصرية ١٩٣٦ م ، ج ٦ ، ص ١١٣ - ١٢٢ ، أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، طبع الاسكندرية ١٩٨٢ ، ص ٨٨
- (٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، طبع دار صادر بيروت ١٩٦٦ ، ج ١٢ ، ص ٩٧ - ١١٠
- (٦) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٦ : المقرئى : السلوك ، ج ١ ، قسم ١ ص ١١٤ - ١١٧ : ابن تفرى بردى : النجوم ، ج ٦ ، ص ١٢٢ - ١٢٦
- (٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٣٥١ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ : المقرئى : نفس المصدر ، ص ٢٢٦
- (٨) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، طبع القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٩٨
- (٩) على سبيل المثال انظر : المقرئى : السلوك ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٢٢٨ - ٢٣٢ عن استعانة الملك الكامل بالامبراطور فردريك الثالث فى صقلية ضد الملك المعظم صاحب دمشق مقابل التنازل له عن بيت المقدس
- (١٠) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٠ ، ج ٢ ، ص ٣ ، ٢٥٨ : سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على مدينة القدس ، ص ٢ ، ٣ ، أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٠١
- (١١) Lane-Pool: AHistory of Egypt in The Middle Ages, London 1925, P. 218.
- (١٢) ابن واصل : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٥١
- (١٣) يقصد المقرئى بملك الفرنج فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وكان هذا الامبراطور قد نذر يوم تنويجه سنة ١٢١٥ م (٦١٢) هـ أن يرافق الحملة الصليبية ، المعروفة فى التاريخ الأوربى بالخماسة ، والتي كان غرضها الدبار المصرية . غير أن أموراً داخلية عاقته ، فلم يستطع الوفاء ، وسارت الحملة بقيادة حناى برين . لمزيد من التفاصيل راجع المقرئى : السلوك ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٢٢١ ، حاشية ٣
- (١٤) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢
- (١٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٢٢٩
- (١٦) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ٤ أجزاء ، طبع المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٥ هـ ، ج ٣ ، ص ١٤١

- (١٧) المقرئى : المصدر نفسه ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٢٣٠ .
- (١٨) Cam. Med. Hist., Cambridge 1957, Vol 6, P. 147.
- (١٩) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان - القسم الأول والثانى من الجزء الثامن - حيدر آباد الدكن - الهند ١٩٥١ ، ج ٢ ، ص ٤٣٢ .
- (٢٠) سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على مدينة القدس ، ص ٤ .
- (٢١) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، نشر دار صادر بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٦١ ؛ سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٤ - ٥ .
- (٢٢) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، دار المعارف ١٩٧٩ م ، ص ١٠ ، ١٤٥ - ٢٠١ .
- (٢٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ، القاهرة ١٢٥١ هـ ، ص ٣٠٩ .
- (٢٤) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٧ ، ص ١٠ فى ذكر وفيات سنة ٦٤٨ هـ .
- (٢٥) Join Ville and Villehardouin: Chroniches of The Crusades, Penguin Classics, London 1963, pp. 274-296.
- (٢٦) أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٢٥ ويتفق معه فى رأى كذلك رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، نشر دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٩ ، ج ٣ ، ص ٤٧٥ .
- (٢٧) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٧ ، ص ١٢ .
- (٢٨) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٣٩٨ .
- (٢٩) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤١٠ - ٤١١ .
- (٣٠) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٣١ ؛ أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر ، ص ١٦٨ .
- (٣١) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٧١ - ١٧٢ .
- (٣٢) أبو الفدا إسماعيل : تاريخ أئى الفدا ، طبع القسطنطينية ١٢٨٣ هـ ، ج ٣ ، ص ٢١٤ ؛ المقرئى : السلوك ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٤٢٣ - ٤٣٢ .
- (٣٣) Lapidus: Muslim Cities In The later Middle Ages, Harvard Uni. Press, Massachusetts 1967, pp. 11-121., ص ٨٠٥ .
- (٣٤) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر ، ص ١١ .
- (٣٥) النجوم ، ج ٧ ، ص ١٣ ؛ أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٣١ .
- (٣٦) أبو شامة : الذيل على الروضتين ؛ تراجم رجال القرنين السادس والسابع ؛ الطبعة الثانية - نشر دار الجيل بيروت ١٩٧٤ ، ص ٢٣٠ ؛ المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٥١ ، ص ٤٥٧ .
- (٣٧) السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزآن ، القاهرة ١٣٢٧ هـ ، ج ١ ، ص ٨٧ .
- (٣٨) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، حققه بولس راديس - باريس ١٨٩٥ م ، ص ٨٩ ؛ أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٩٠ .
- (٣٩) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القاهرة ١٩١٣ م ، المطبعة الأميرية ، ج ٦ ، ص ١٠٨ - ١٢٤ ؛ عبد المنعم ماجد : دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، طبع القاهرة ، ١٩٧٠ ، ج ١ ، ص ٢٩ .
- (٤٠) رشاد الامام : مدينة القدس فى العصور الوسطى ، تونس ١٩٧٦ ، ص ٧٤ .
- (٤١) طبع القاهرة ، ١٩٦١ م .
- (٤٢) السلوك ، ج ٤ ، قسم ١ ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .
- (٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٠ - ١٨١ .
- (٤٤) المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٦ .
- (٤٥) ببحر الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٦٠٤ - ٦٠٥ .
- (٤٦) أبو الفدا : كتاب تقويم البلدان ، حققه م . رينود ، والبارون ماك كوكين دى سلان ، باريس ، المطبعة الملكية ١٩٠٧ ، ص ١٤٢ ؛ سعيد عاشور / بعض أضواء جديدة على مدينة القدس ، ص ٣٢ .
- (٤٧) تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٣٦ .

- (٤٨) السلوك ، ج ١ ، ص ٥٦٠ في ذكر حوادث سنة ٦٦٥ هـ .
- (٤٩) منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، حررها وليام بيهر - طبع كاليفورنيا ١٩٣٠ - ١٩٤٢ ، ج ٣ ، ص ٥٤٥ .
- (٥٠) نحية الدهر في عجائب البر والبحر ، طبع ليبزج ١٩٢٣ ، ص ٢٠١ .
- (٥١) يرى البعض أن القدس تحولت إلى نيابة في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م استناداً على ما أورده ابن تغرى بردى في حديثه عن الفتنة التي تزعمها الأفرم نائب الشام ضد الناصر بقوله : (وأشار قرا سنقر على الملك الناصر أنه يكاتب الأمير بكتمر الجرجي كندار نائب صفد ، والأمير كراي نائب القدس) وما أورده مجير الدين عن نفس النائب . راجع النجوم ، ج ٨ ، ص ٢٥٨ ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٦٧ ، رشاد الإمام : مدينة القدس ، ص ٩٣ فضلاً عما يرويهِ بعض المؤرخين المعاصرين مما يفيد أنها كانت نيابة سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣ م ، من ذلك ما يرويهِ ابن قاضي شهبة من أنه « استقر الأمير شهاب الدين ابن البريدي في نيابة القدس وأعطى طبلخانه وعزل ابن نائب الصبيبه وكان وليها أياما .. » ، راجع تاريخ ابن قاضي شهبة ، تحقيق عدنان درويش - دمشق ١٩٧٧ ، ص ٥١٣ في ذكر حوادث سنة ٧٩٦ هـ . بالإضافة إلى ما يرويهِ ابن الصيرفي في نفس السنة من قوله : « وخلع على قردم الحسنى واستقر نائب القدس ... » راجع : نزعة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، تحقيق حسن حبشي ، ١٩٧٠ - ١٩٧١ ، ج ١ ، ص ٣٨٧ .
- (٥٢) إنباء الغمر بأبناء الغمر ، تحقيق حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٩ - ١٩٧١ ، ج ١ ، ص ١٠٧ .
- (٥٣) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ١٧٠ ، ج ١٢ ، ص ١٠٥ .
- (٥٤) القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٣ ؛ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ .
- (٥٥) قاسم عبده قاسم : دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، ص ١٤ .
- (٥٦) عبد المنعم ماجد : دولة سلاطين الممالك ورسومهم في مصر ، القاهرة ١٩٦٤ ، ج ١ ، ص ٢٧ .
- (٥٧) رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٧٨٢ .
- (٥٨) Wright (Thomas): Early Travels In Palestine, London 1884, P. 165.
- (٥٩) السلوك ، ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٣١٩ .
- (٦٠) التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٦٤ ؛ نظير حسان سعداوى : الحرب والسلام زمن العنوان الصليبي ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٥٣ .
- (٦١) نظير حسان سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٥٦ - ١٥٩ .
- (٦٢) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ١٠٧ - ١١١ .
- (٦٣) المقرئى : السلوك ، ج ٣ ، قسم ١ ، ص ١٠٨ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٠ ، ص ٣٠ .
- (٦٤) النجوم ، ج ١١ ، ص ٥٣ .
- (٦٥) بدائع الزهور ، ص ٢٠٣ في ذكر حوادث سنة ٧٧٧ هـ .
- (٦٦) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٢٠٠ .
- (٦٧) سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس .. » ، ص ٣٤ .
- (٦٨) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٤٨ - ٥١ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج ١ ، ص ١٥٣ ؛ السخاوى : التبر المسبوك في ذيل السلوك ، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٤٥ .
- (٦٩) يقصد بكلمة بطلال : لفظ جرى في مصطلح دولة المماليك للدلالة على الأمير الذي يزول عنه اقتطاعه بعزله عن وظيفته ونفيه ، راجع : المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، قسم ١ ، ص ٣٧ ، حاشية ٢ ، ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ، ص ٩ ، حاشية ٦ .
- (٧٠) إنباء مصر بأبناء العصر ، تحقيق حسن حبشي ، القاهرة ١٩٧٠ ؛ نزعة النفوس والأبدان ، ج ٢ ، ص ٢٤ ، ٣٧١ .
- (٧١) تاريخ ابن قاضي شهبة : ص ٥٠٢ في حوادث سنة ٧٩٦ هـ .
- (٧٢) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ١١٤ - ١١٥ .
- (٧٣) سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس .. » ، ص ٣٤ .
- (٧٤) السلوك ، ج ٤ ، ص ١٢٠٣ في أحداث سنة ٨٤٤ هـ ؛ سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٣٥ .
- (٧٥) إنباء الغمر ، ج ١ ، ص ١٥٣ .
- (٧٦) المقرئى : السلوك ، ج ٣ ، ص ٦٥ ، ٣٣٢ ، ٣٦٠ ، ٩١٧ ، حوادث سنة ٧٨٠ هـ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١١ ،

- ص ١٦٣ .
- (٧٧) المقرئى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ فى ذكر حوادث سنة ٧٢٣ هـ .
- (٧٨) راجع على سبيل المثال : العيى : السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ الحمودى ، حققه فهم شلتوت ، القاهرة ٦٦ - ١٩٧٧ ، ص ٣٤٦ ؛ ابن الصيرى : نزعة النفوس ، ج ١ ، ص ٦٤ .
- (٧٩) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤٣٥ ؛ سعيد عاشور ، نفس المرجع ص ٣٤ ، ٣٥ .
- (٨٠) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٨ .
- (٨١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٩ .
- (٨٢) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ١٤٥ فى ذكر حوادث سنة ٨٥٠ هـ .
- (٨٣) ابن الصيرى : نزعة النفوس والأبدان ، ج ١ ، ص ٦٤ ؛ العيى : السيف المهند ، ص ٣٤٦ .
- (٨٤) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٩٢ .
- (٨٥) الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٤٤٠ - ٤٤١ .
- (٨٦) المقرئى : السلوك ، ج ٤ ، ص ٥٨٤ .
- (٨٧) Van Brechem: Materiaux Pour un Corpus Inscription um Arabicarum, syrie Du Sud, Jerusalem Ville, le Caire 1922, vol. 43 Pt.1, p. 332.
- (٨٨) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٦١١ .
- (٨٩) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٩٩ .
- (٩٠) عارف العارف : المفصل فى تاريخ القدس ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ .
- (٩١) مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٦٠٤ ، ٦٠٥ .
- (٩٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٧ ، ج ١٢ ، ص ١٠٤ .
- (٩٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩٩ .
- (٩٤) مسالك الأبصار ، ج ٣ ، ص ١٤٤ .
- (٩٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٢ .
- (٩٦) مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٦٠٨ .
- (٩٧) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤١ .
- (٩٨) المقرئى : السلوك ، ج ٤ ، قسم ١ ، ص ٨١ .
- (٩٩) مجير الدين : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤١ .
- (١٠٠) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٦١٠ - ٦١١ .
- (١٠١) الخالدى : رجال الحكم والإدارة فى فلسطين من عهد الخلفاء الراشدين إلى القرن الرابع عشر الهجرى - القدس ، لم يعلم سنة طبعة ، ص ٧٨ - ٧٩ .
- (١٠٢) Newett: Casola's Pilgrimes to Jerusalem In the year 1494, Menchester 1907, pp. 266-80.
- (١٠٣) ابن شامى : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٣ .
- (١٠٤) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣٨ ، حاشية ١ .
- (١٠٥) منتخبات من حوادث الدهور ، ج ٣ ، ص ٤٠٧ .
- (١٠٦) رشاد الإمام : مدينة القدس ، ص ٩٨ .
- (١٠٧) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٠٥ ، ٦٠٩ ، ٦١٨ ؛ الخالدى : رجال الحكم والإدارة ، ص ٧٤ .
- (١٠٨) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٠٧ ؛ الخالدى : نفس المرجع ، ص ٦٢ .
- (١٠٩) Newett: Casola's Pilgrims. P. 251.
- (١١٠) صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٩ .
- (١١١) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٠٥ .

- (١١٢) القلقشندي : نفس المصدر والصفحة السابقة .
- (١١٣) صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٩ .
- (١١٤) المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .
- (١١٥) هناك نص وحيد يتحدث عن المهام التي كانت تناط بنائب القلعة أورده القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .
- (١١٦) حيث أورد ابن أبياس في بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ في حديثه عن أحد الأمراء الذين تولوها أنه كان عالماً فاضلاً حتى عد من علماء الحديث ، وهو الأمير تغرى برمش (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) .
- (١١٧) صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١١٩ .
- (١١٨) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، دار الكتاب العربي بمصر ١٩٤٨ ، ص ٤٣ .
- (١١٩) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٦٠٤ .
- (١٢٠) نقولاً زيادة : دمشق في عصر المماليك ، دمشق ١٩٦٦ ، ص ١٥٤ .
- (١٢١) السبكي : معيد النعم ، ص ٤٤ .
- (١٢٢) صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٣٣١ - ٣٣٠ .
- (١٢٣) القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٩ .
- (١٢٤) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩ .
- (١٢٥) مجمر الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٦١٦ .
- (١٢٦) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٦١٦ ؛ الخالدي : رجال الحكم والإدارة ، ص ٧٤ .
- (١٢٧) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
- (١٢٨) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
- (١٢٩) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٥ ، ١٠٠ ، ١٩٧ .
- (١٣٠) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٤ - ٢٥ .
- (١٣١) عن ذلك راجع : ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٣ ، ص ٧٥ في ذكر حوادث سنة ٨١١ هـ .
- (١٣٢) أحمد دراج : الممالك والقرج ص ٣٨ ؛ Newett: Casala's Pilgrims. pp. 228-20
- (١٣٣) Bernard Von Breydenbach And His Journey To The Holy Land 1483-4, Landon 1911, P. xv; Pero Tafur: Travels And Adventures (1435-39), London 1926, pp. 72-73.
- (١٣٤) P.P.T.S. London 1897, Vol. IX, P. 103.
- (١٣٥) يقصد به الموظف الذي ارتبط اسمه بالإشراف على الأسواق ، وكانت وظيفته من الوظائف الجليلة التي يتولاها المتعممون باعتبارها خدمة دينية في المجل الأول ، ولم يكن يتولاها في بداية عصر المماليك إلا وجوه الناس وأعيانهم من المتعممين ، إلا أن هذا المنصب انحط بسبب فساد أحوال المماليك نظراً للأموال التي فرضوها على هذا المنصب ، وعن تلك الوظيفة ومهامها راجع : ابن الأخوة : معالم القرية في أحكام الحسبة ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ ؛ وكذلك الفصل الخامس من هذا البحث .
- (١٣٦) صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٦٠ - ٦١ .
- (١٣٧) السبكي : معيد النعم ، ص ٦٥ - ٦٦ .
- (١٣٨) معالم القرية في أحكام الحسبة ، ص ٩٧ - ٩٩ .
- (١٣٩) المقرئ : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشره مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠ م ، ص ٢٨ .
- (١٤٠) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٩ ، ص ٤٤ - ٤٦ .
- (١٤١) ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص ١٤٧ ؛ عبد المنعم ماجد : دولة سلاطين المماليك ورسومهم ، ص ١٢٨ .
- (١٤٢) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .
- (١٤٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٦٠ - ٦١ .
- (١٤٤) مجمر الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ .

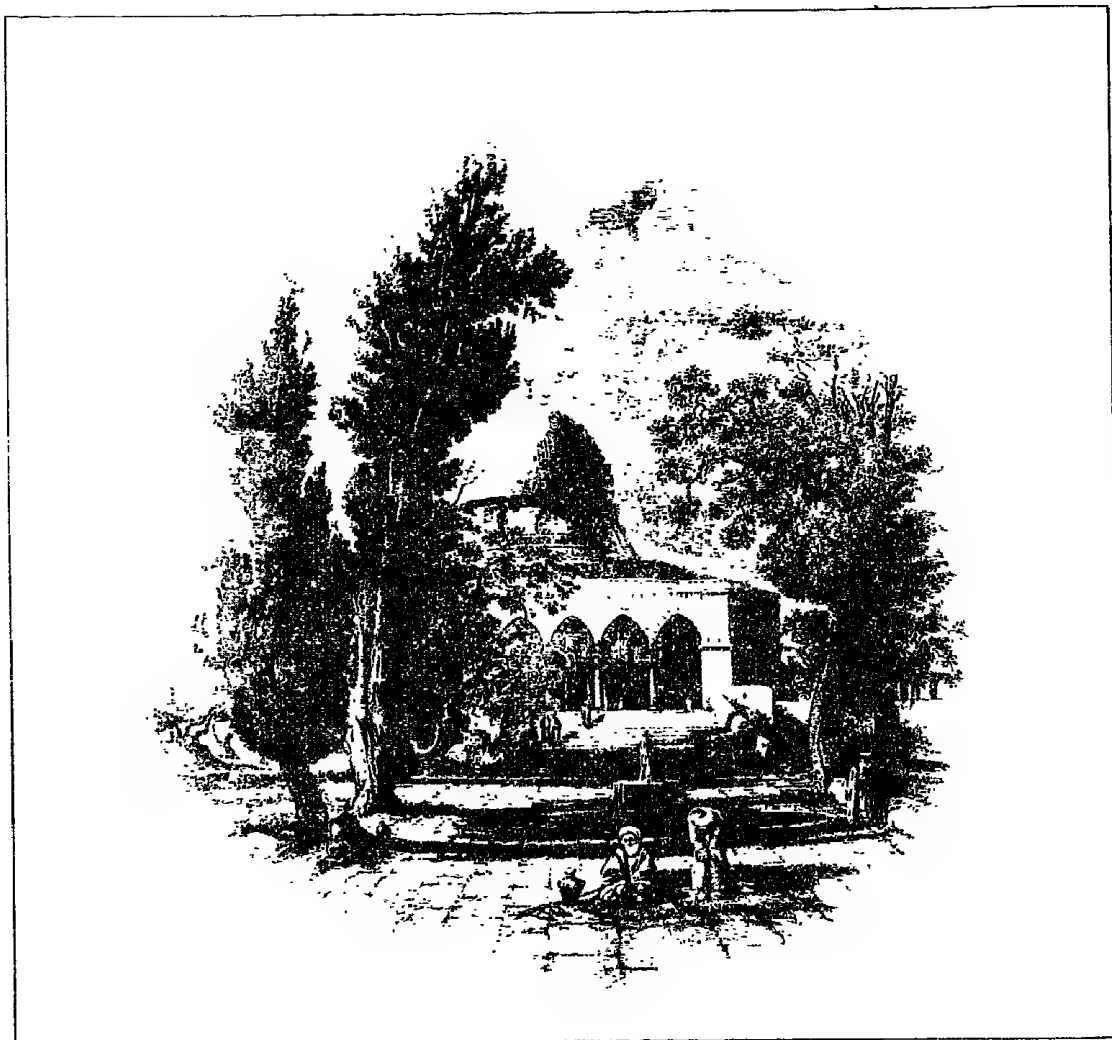
- (١٤٥) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج ٢ ، ص ٣٦٠ .
- (١٤٦) قاسم عبده قاسم : دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، ص ٤٨٠ .
- (١٤٧) ابن حجر : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ .
- (١٤٨) صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٧ .
- (١٤٩) المصدر السابق والصفحة ذاتها .
- (١٥٠) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٤٦٦ .
- (١٥١) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٧ ، ١٩٣ .
- (١٥٢) النجوم ، ج ١٢ ، ص ١٥٣ .
- (١٥٣) Newett: Casola's Pilgrims. p. 249.
- (١٥٤) د . أحمد دراج : وثائق دير صهيون بالقدس الشريف ، طبع مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٨ ، ص ٧٧ - ٧٨ .
- (١٥٥) صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٣٣٩ .
- (١٥٦) Newett: Casola's Pilgrims. pp. 258-59.
- (١٥٧) صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٧ .
- (١٥٨) مجمر الدين الحنبلي : الأنس الجليل ج ٢ ، ص ٤٤٧ .
- (١٥٩) Van Bercham: Op Cit., Vol., 25 pp. 170-171
- (١٦٠) ابن قاضي شعبة : تاريخ ص ٩٢ : المقرئى : السلوك ج ٣ ، قسم ٢ ، ص ٤٨٠ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ج ١١ ، ص ٢٢٨ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ، ص ٢٥٦ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ج ١ ، ص ٥٢ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ، ص ٣٢٤ .
- (١٦١) الأنس الجليل : ج ٢ ، ص ٥٥٧ / ٥٥٨ .
- (١٦٢) الخالدى : أهل العلم ، ص ١٠ .
- (١٦٣) رشاد الإمام : مدينة القدس ، ص ١٠٣ .
- (١٦٤) أنباء الغمر : ج ٢ ، ص ٣٩٨ .
- (١٦٥) صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٧ .
- (١٦٦) مجمر الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٧٤ - ٤٧٨ .
- (١٦٧) ابن تغرى بردى : النجوم ج ٩ ، ص ٢٩٨ .
- (١٦٨) ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ، ص ٥٤ ، مجمر الدين المصدر السابق ج ٢ ، ص ٥٨٥ / ٥٨٦ .
- (١٦٩) مجمر الدين نفس المصدر ج ٢ ، ص ٥٦٢ / ٥٨٨ .
- (١٧٠) السلوك ، ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ٦٩٦ .
- (١٧١) عارف العارف : تاريخ القدس ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ؛ فيليب دى طراوى : خزائن الكتب العربية ، ج ٢ ، ص ٤٧٨ - ٤٧٩ .
- (١٧٢) أحمد دراج : الممالك والفرنج ص ٦٣ .
- (١٧٣) Adler: Jewish Travellers, London 1930 p. 133; The Jewish Ency. Vol 7 p. 132
- (١٧٤) Ibid, P. 196.
- (١٧٥) Ben-Sason: Jewish Society through the ages, New York, 1973 PP. 181-184.
- (١٧٦) Speculum, A Journal of Medi eval Studies (1961-Vol. 36) P. 955.
- (١٧٧) Adler: Op Cit., PP. 151-153.
- (١٧٨) Adler: Op Cit. P. 133.
- (١٧٩) Ibid. P. 196.
- (١٨٠) Ibid: PP. 151-152.

- أحمد دراج : الممالك والفرنج : ص ٢١١ ، حاشية ٥٦ .
- (١٨١) ابن فضل الله العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ، مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٦٠٥ - ٦٤٠ .
- (١٨٢) السخاوى : التبر المسبوك : ص ٢٠٨ - ٣٥١ .
- (١٨٣) منتخبات من حوادث الدهور : ص ١٠ حوادث سنة ٨٤٧ هـ .
- (١٨٤) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٧٩ - ٤٨٦ .
- (١٨٥) ابن حجر : إنباء الغمر : ج ٥ ، ص ٩٢ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٨٣ .
- (١٨٦) السلوك ، ج ٤ ، قسم ١ ، ص ١٤١ .
- (١٨٧) المقرئى : المصدر نفسه ، ج ٣ ، قسم ٢ ، ص ٨٧٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٩ ، ص ٣١٨ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج ١ ، ص ٥١٥ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٨٥ .
- (١٨٨) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .
- (١٨٩) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ .
- (١٩٠) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٥٤ .
- (١٩١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .
- (١٩٢) مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ .
- (١٩٣) نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٦٦ .
- (١٩٤) المصدر السابق نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٧٩ - ٥٨٣ .
- (١٩٥) زبدة كشف الممالك ، ص ٢٣ .
- (١٩٦) عبد الغنى النابلسى : الحضرة الأنيسية فى الرحلة القدسية ، ص ١٩ .
- (١٩٧) عبد اللطيف ابراهيم : نصاب جديان فى وثيقة الأمير ضرغتمسن ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١٦٧ .
- (١٩٨) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج ١ ، ص ٢٨٠ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٢٦ - ٥٣٣ .
- (١٩٩) عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة السلطان قايتباى ، ص ٣٠١ وتحليل المدرسة بالقدس والجامع بغزة ، القاهرة ١٩٦١ م ، ص ٤٣٠ .
- (٢٠٠) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١٠ ، ص ٨٨ .
- (٢٠١) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٢٤ .
- (٢٠٢) محمد محمد أمين : نفس المرجع ، ص ١٩١ .
- (٢٠٣) عبد اللطيف ابراهيم : نصاب جديان ، ص ١٦٨ .
- (٢٠٤) مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٣٣ .

الفصل الثاني

سكان مدينتي طقدس

في عصر سلاطين المماليك



التطور السكاني في المدينة

في بداية الحديث عن التطور السكاني في مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، يجب الإشارة إلى أنه ليس لدينا من الإحصائيات ما يساعدنا على تقرير عدد سكانها تقديرا دقيقا ، منذ فتح صلاح الدين الأيوبي لها ، وما أطر عليهم من تغيير في ذلك العصر ، إذ المعروف أن أول احصاء رسمي تم بها كان مع بداية العصر العثماني وعلى هذا الأساس سنحاول الوصول إلى تقدير معقول لعدد سكان المدينة وسعتها من خلال تتبع روايات بعض المؤرخين المعاصرين منذ الفتح الصلاحي حتى العصر المملوكي ، ثم نستعرض بعد ذلك أهم العوامل التي أثرت في تطور السكان فيها ، مع الاعتماد على أقوال بعض الرحالة الغربيين الذين زاروا المدينة في الفترة التي نتناولها بالبحث .

يرى بعض المؤرخين أن عدد سكان مدينة بيت المقدس « قد بلغ مائتي ألف نسمة أيام الصليبيين في القرن الحادي عشر ، حيث كان نصفهم من السكان العرب الأصليين ، والباقي من الذين وفدوا مع الفتح الصليبي من أوروبا ، ولكن سرعان ما انخفض العدد إلى أربع وأربعين ألف فقط بعد استرداد صلاح الدين المدينة المقدسة وطرده الصليبيين منها ... »^(١) . إلا أننا نقول أن الصليبيين استولوا على المدينة عام ١٠٩٩ م ، أي آخر سنة من القرن الحادي عشر الميلادي ، ثم أعقب ذلك عملية تفرغ للمدينة من أهم عناصر سكانها وهم المسلمون واليهود - لأن المسيحيين المحليين كانوا موضع شك من حكامها المسلمين نظرا لسلوك كثير من المسيحيين في مساعدة الغزاة ، مما دفع الكثير منهم إلى هجرة المدينة قبل الغزو الصليبي لها^(٢) ، ومهما قيل عن عدد الصليبيين الذين سكنوا المدينة عقب الغزو ، فإن أعدادهم كانت قليلة بسبب سكنى معظم الصليبيين في المناطق التي فتحوها في بلاد الشام وعودة الكثيرين منهم إلى الغرب ، بحيث افتقدت المدينة إلى الأمن وإلى من يحرسها في العقد الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي^(٣) . وإذا كان قد سمح للمسلمين واليهود بالعودة إلى بيت المقدس فلم يكن ذلك سوى لتقديم بعض خدماتهم التجارية للفرنج^(٤) ولا يغيب عن الأذهان أن المسلمين

واليهود لم يكن من السهل عليهم أن ينسوا ما حل بإخوانهم من مذابح عقب الغزو ، فضلا عن أنه إذا كان الملك بلدوين الأول الحاكم الثاني لبيت المقدس قد شجع المسيحيين المحليين على الهجرة إلى المدينة ، فمن الصعب تصور وصول أعداد ضخمة منهم تصل إلى ما يقرب مائتي ألف بينما كان الصليبيون أقلية ملحوظة^(٥) .

ويرى بعض المؤرخين أن سكان القدس من الفرنج من الرجال والنساء والأطفال عندما استردها صلاح الدين ربما لم يكن أقل من ثلاثين ألف نسمة^(٦) . بينما يرى فريق ثالث أن عدد السكان بها وقتذاك كان مائة ألف نسمة^(٧) كما يشير العماد الأصفهاني - وهو معاصر لتلك الفترة - أنه كان في المدينة عندما دخلها السلطان صلاح الدين الأيوبي « .. أكثر من مائة ألف إنسان من رجال ونساء وصبيان .. » كما أن عدد المحاربين بها كان « حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل من سائف ونابل .. »^(٨) كذلك تجمع كثير من المصادر العربية المعاصرة لتلك الفترة على أن عدد المقاتلين من الفرنج كان ما يقرب من الستين ألفا ، من ذلك ما يرويهِ لنا أبو شامة من قول : « ولقد تحازر أهل الخيرة عدة من كان فيه من المقاتلين بما يزيد على ستين ألفا ما عدا النساء والصبيان »^(٩) كذلك يقول سبط ابن الجوزي في حديثه عن الفتح الصلاحي أيضا أن القدس « كان مشحونا بالبطارقة من الخيالة والرجال ما يزيد على ستين ألفا غير النساء والذرية .. » كذلك يذكر ابن خلدون ما يؤكد هذا العدد بقوله : « وكان فيه على التحقيق ستون ألف مقاتل غير النساء والولدان ... » وفي موضع آخر يفسر لنا السبب في تلك الزيادة في أعداد الصليبيين بالقدس من أنهم « أزرؤا إليه من كل جانب لما افتتحت عليهم حصونهم وقلاعهم ... »^(١١) وهو تفسير منطقي لتلك الكثرة العددية في المدينة في ذلك الوقت .

ويمكننا أن نقدر عدد سكان مدينة القدس عند الفتح الصلاحي لها بحوالى مائة وعشرين ألفا من السكان ، على أساس أن الصليبيين كانوا يشكلون حوالى مائة ألف منهم ستون ألفا من المقاتلين حسبما تشير المصادر بذلك ، والذين كانوا يشكلون أغلبية عدد الصليبيين ، حيث قام باليان دى ابلين عندما حاصر صلاح الدين المدينة بتنصيب كل صبي تجاوز السادسة عشرة من عمره فارسا^(١٢) ، بعدما أحس بنقص الرجال المقاتلين بصورة مخيفة ، حتى قيل أنه كان في بيت المقدس عندئذ رجل واحد من الصليبيين مقابل كل خمسين من النساء والأطفال^(١٣) بالإضافة إلى حوالى أربعين ألفا من النساء والأطفال والشيوخ ، أضف إلى هذا العدد بضعة آلاف من الأرمن ، حيث « استطلق صاحب البيرة زهاء خمسمائة أرسنى أدعى أنهم من بلده وأنهم حضروا للزيارة وطلب مظفر الدين كوكبورى ألف أرمى ادعى أنهم من الزهاد فأطلقهم السلطان ... »^(١٤) هذا بالإضافة إلى عدة آلاف من المسيحيين المحليين وبخاصة من الأرثوذكس ، والذين وعدوا بفتح أبواب المدينة لصلاح الدين عندما قام بمحاصرتها^(١٥) والذين تقدرهم بعض المراجع بحوالى عشرين ألفا من السكان^(١٦) . هذا إلى جانب ما يشير إليه ابن شداد من وجود ما يزيد على ثلاثة آلاف أسير من أسرى المسلمين في المدينة عند الفتح الصلاحي لها^(١٧) .

وإذا نظرنا إلى هذا العدد نجد أنه معقول جدا وخاصة وأن سبط ابن الجوزي - صاحب مرآة

الزمان يشير إلى أنه كان باستطاعة المدينة أن تستوعب أكثر من مائتي ألف من السكان^(١٨) .

ويخرج الصليبيون منها أصبحت المدينة شبه خاوية من السكان ، وليس أدل على ذلك أنه حدث عام ٥٨٧هـ / ١١٩١م عندما توجه صلاح الدين لتفقد أحوال المدينة أنه اكتشف جماعة من المسيحيين المحليين يحملون كتباً بعث بها وإلى القدس إلى صلاح الدين وأدرك أنهم سوف يطلعون عليها ريتشارد قلب الأسد فيسهمون بذلك في إعادة القدس إلى الصليبيين فأمر بقتلهم^(١٩) وإن كانت بعض المصادر تشير إلى أنه حضر مع صلاح الدين زهاء عشرة آلاف من الفقهاء ، ولعل بعضهم فضل الإقامة في بيت المقدس بعد ذلك ، إلا أن ذلك كان البداية لتدفق السكان عليها لسكنائها^(٢٠) . كما أنه قد سبقت الإشارة في الفصل الأول إلى ما عاناه سكان المدينة في فترة القلق والاضراب في عصر خلفاء صلاح الدين ، وأن المدينة غدت كالكرة تتلاقفها أيدي الصليبيين تارة وأيدي المسلمين تارة أخرى حتى موقعة عين جالوت ، ودخول المدينة تحت حكم سلاطين المماليك وهم الذين حققوا السلام الحقيقي لبلاد الشام ومصر بوجه عام والقدس بوجه خاص .

أما عن عوامل النمو السكاني في المدينة بعد استرداد المسلمين لها ، فقد كان أول هذه العوامل هو دخول المدينة تحت حكم سلاطين المماليك ، والذين سبق أن أشرنا إلى سياستهم في الحكم والتي اعتمدت على الشق الحربي وهو الدفاع عن المسلمين والاسلام ، فضلا عن الشق الديني وهو رعاية المقدسات الاسلامية وشعائر الاسلام حتى يحوا من نفوس معاصريهم ما لحق بهم من تجريخ ، وكان من نتيجة دخول المدينة تحت حكم سلطنته المماليك أن تمتعت المدينة لأول مرة منذ عدة قرون بالاستقرار التام ، وغدت مركزا حضاريا هاما في الدولة المملوكية ، كذلك لعل من العوامل التي ساعدت على تطور عدد السكان بها كثرة الهجرة من العراق وبعض البلدان الاخرى إلى بلاد الشام ، ومنها بيت المقدس ، تلك الهجرات التي نجمت عن المذابح الرهيبة التي ارتكبها المغول في البلاد التي فتحوها ، إلى جانب أن هذه الهجرات قد استمرت حتى بعد استقرار المغول في البلاد التي فتحوها وخاصة العراق فإن الكثيرين من المسلمين الذين رغبوا العيش تحت ظل الحكم الاسلامي تركوا العراق واتجهوا إلى بلاد الشام ومصر ، إما طلبا للعلم أو أنه قد جذبهم مدى ما تتمتع به سكان تلك البلاد من رخاء تحت حكم المماليك^(٢١) . ويؤكد لنا مجير الدين أن كثيرا ممن هاجروا من الشرق إلى بلاد الشام قد استقروا في القدس على اعتبار أنها مركز ديني هام ، وباشروا فيها كثيرا من الوظائف الدينية ، مثل تولى القضاء أو مشيخة بعض الخوانق والمدارس الهامة في ذلك العصر^(٢٢) . ولم تكن الهجرة إلى بيت المقدس مقصورة على أهل الشرق ، بل إننا نسمع طوال عصر سلاطين المماليك عن كثير من علماء الغرب الذين استقروا في القدس وأقاموا بها حتى وافتهم المنية ، وتولوا كثيرا من المناصب الدينية ، وبخاصة مشيخة المغاربة بالقدس الشريف وامامة المالكية ، كذلك لعل الظروف السياسية التي سادت بلاد المغرب ، سواء الفتن والاضطرابات واختلاف ملوكها ، أو حركة الاسترداد التي قام بها الغرب الأوربي كانت من العوامل التي شجعت على تدفق أعداد كبيرة من المغرب إلى مصر وبيت المقدس في تلك الفترة التاريخية من حياة مدينة بيت المقدس^(٢٣) .

وبالإضافة لعامل الهجرة فقد كان هناك سبب آخر للتطور السكاني في مدينة القدس منذ بداية عصر سلاطين المماليك ، ويوجه خاص طوال عصر سلاطين المماليك البحرية أو دولة المماليك الأولى كما يطلق عليها بعض المؤرخين ذلك ، ففي تلك الفترة يبدو أنه كان هناك تطور ملحوظ في الأحوال الصحية العامة ، فالمؤرخون المعاصرون يذكرون فقط حالتين للأمراض المعدية أو الأوبئة في كل من بلاد الشام وفلسطين في سنتي ٦٥٨هـ/١٢٥٨م ، ٦٧٣هـ/١٢٧٤م ، وهذا الوباء كان بمثابة الخلل الوحيد في تلك الفترة ، أعقبته مجاعة ، ثم تبعته فترة حوالى نصف قرن لم نجد فيها ذكرا لهذا المرض أو هذا الوباء^(٢٤) .

كذلك نعمت بلاد الشام بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص بالاستقرار الاقتصادي والذي غالبا ما يؤدي إلى تزايد عدد السكان - ففي عهد دولة المماليك الأولى أو البحرية ، والذي دام حوالى مائة وثلاثين سنة تمتعت البلاد بالاستقرار النسبي ، ولم يحدث ما يسبب ارتفاع الأسعار أو اضطراب الأحوال الاقتصادية ، كما أن المعاملات المالية كانت مستقرة في أوزانها وقيمتها وكميتها من حيث الدينار والدرهم ، واستخدمت في صكها سبائك ممتازة من المعادن ، وكان من نتيجة ثبات العملات والنظم المالية أن حدث ارتفاع في أسعار الحبوب ونقصان في الأجور ، ولأن أسعار الضروريات قد ارتفع فذلك راجع الى تزايد الطلب عليها ، وما هذا الارتفاع في الأسعار الا نتيجة للتزايد السكاني ، وهذا العامل نفسه وهو تزايد السكان كان له أثره المباشر في انخفاض الأجور ، فعندما يزيد عدد الأيدي العاملة ، فان الأجور لابد وأن تقل^(٢٥) .

هكذا رأينا أنه كان لدخول مدينة بيت المقدس تحت حكم سلاطين المماليك أثره الكبير في ازدياد عدد السكان بها ، نظرا لما تمتعت به المدينة من أمن واستقرار ، كانت قد حرمت منها منذ أمد طويل ، فضلا عما أحاط بظروف العالم الاسلامي آنذاك من ظروف سياسية ساعدت على الهجرة إلى المدينة ، إلى جانب العوامل الصحية وتحسنها فضلا عن الظروف الاقتصادية وما كان لها من شأن ملحوظ في التطور السكاني في بداية عصر سلاطين المماليك .

الا أننا نلاحظ أنه منذ منتصف القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي فإن عدد سكان بيت المقدس أخذ في النقصان ، وهذه الحقيقة هي التي لفتت أنظار بعض الرحالة من الحجاج المسيحيين الغربيين وكذلك بعض الرحالة اليهود الذين زاروا البلاد في تلك الفترة التي نتحدث عنها . نذكر منهم على سبيل المثال الرحالة فيليكس فابري الذي زار المدينة عام ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م وظل بها فترة ، حيث يذكر لنا أنه كان بالمدينة أكثر من خمسمائة من اليهود وأكثر من ألف من المسيحيين من الطوائف المختلفة والبلاد المختلفة ، الا أنه لم يذكر لنا شيئا عن عدد المسلمين بها ، ولكن من المؤكد أنه لاحظ أن عدد سكانها كان قليلا بشكل واضح ، حيث يذكر لنا أن كثيرا من منازلها كانت خربة وليس بها سكان ، وأنها كانت تستخدم لرمى جثث الحيوانات النافقة ، كذلك يؤكد في حديثه عن المناطق التي كانت تحيط بالمدينة ، أنه كان يمكن تحويلها إلى أراضي جيدة وخصبة لو أن هناك من الناس من يزرعها أو يسكنها^(٢٦) . كذلك يؤكد لنا موشلام الفولتيرى أحد الرحالة اليهود والذي زار المدينة سنة ٨٨٦هـ / ١٤٨١م أن عدد السكان المسلمين كان يبلغ عشرة آلاف^(٢٧) . كذلك يصف لنا الرحالة اليهودي عوبديا الذي زار المدينة سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م ، ان بيت المقدس في معظم أجزائها مهجورة وخراب ويبلغ عدد سكانها كما أخبر بذلك حوالى أربعة آلاف أسرة أما عدد اليهود بها فكانوا يشكلون سبعين أسرة ، معظمهم من الشيوخ والأرامل والذين أتوا من المانيا وأسبانيا

والبرتغال والبلاد الأخرى ، وكانت النسبة بينهم هي سبع سيدات إلى رجل واحد(٢٨) . كذلك يذكر لنا الرحالة كازولا الذى زار المدينة عام ١٤٩٤هـ/١٤٩٤م ، أن المدينة بها عدد متواضع من المنازل وأن سكانها ليسوا كثيرين ، وهذا يؤكد لنا التدهور السكاني الذى شهدته المدينة في عصر سلاطين المماليك الجراكسة(٢٩) ، وبخاصة إذا قدرنا عدد السكان حسب أقوال هؤلاء الرحالة السابقين ، فسوف نجد أن أعدادهم لن تزيد عن عشرين ألف بأى حال من الأحوال .

وهنا لابد للباحث من وقفة لو قصيرة لتحليل هذه الظاهرة - وإن كانت ظاهرة عامة في كل سلطنة المماليك بمعنى أنها لم تكن قاصرة على بيت المقدس وحدها حسبما تشير بذلك المصادر المعاصرة(٣٠) .

ومن المؤكد أن انخفاض عدد السكان بمدينة بيت المقدس في ذلك العصر يرجع إلى عدة عوامل متشابكة معا ، لعل في مقدمة هذه العوامل تكرار انتشار الأوبئة ، وبأى في مقدمة هذه الأوبئة . والذى يعتبر المقدمة الحقيقية للتدهور السكاني العام والذى بدأ واضحا مع مطلع القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى .، ذلك الوباء المروع والذى احتاج الأرض من أقصاها إلى أقصاها ليخرب البناء السكاني في العالم المعروف آنذاك(٣١) ، ذلك الوباء الذى أطلق عليه الغربيون اسم « الموت الاسود » والذى حدث عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م واستمر حتى سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م ، والذى كان السبب في هلاك حوالى ثلثى سكان مصر وبلاد الشام(٣٢) والذى أطلق عليه المؤرخون المسلمون اسم « الفناء الكبير » ، والذى استمر يمزق في الكيان السكاني ما يقرب من عامين ، وامتألت الطرقات والمساجد بجثث ضحاياه ، وكان فتاكا لدرجة أن الأدوية لم تكن تجدى نفعا لسرعة الموت ، وامتد أثره إلى الطيور والحيوانات حتى البرية منها والأسماك وغيرها(٣٣) ولقد عانت مدينة بيت المقدس من هذا الوباء وأثره عليها أكثر من غيرها من البلاد الأخرى ، كما أن الخسارة الناجمة عنه لم يكن ليعوضها بأى حال من الأحوال معدل النمو السكاني أو كثرة الأنجاب(٣٤) .

ويعد هذا الوباء المروع تعرضت المدينة لعدة أوبئة كان لها تأثيرها الواضح على البنية السكانية فيها ، ولنأخذ مثلا على ما يرويه لنا مجير الدين عن الطاعون الذى استمر في القدس من عام ٨٨١هـ/١٤٧٦م إلى ٨٨٢هـ/١٤٧٧م وأنه « أفنى خلقا من الشباب والنساء وأهل الذمة ولم يكن طال ببلد أكثر من بيت المقدس ... »(٣٥) . كذلك يصور لنا ابن الصيرفى كثرة أعداد الموتي من الطاعون بأنه « يصير الميت ثلاثة أيام لا يجد من يحمله الا على سلم أبواب » وفي هذه العبارة تأكيد لكثرة أعدادهم بحيث يعجز حملهم الا على سلم أبواب أو لوح من الخشب لعدم كفاية الأعداد الموجودة من خشب حمل الموتي(٣٦) كذلك يؤكد لنا الاب سوريانو الذى عاش في بيت المقدس زمنا طويلا كرئيس لطائفة الرهبان الفرنسيين ، أن وباء الطاعون كان يتكرر حدوثه في المدينة كل عشر سنوات تقريبا ، مما ساعد على التدهور السكاني بها(٣٧) .

هذا بالإضافة إلى حدوث وتكرار الزلازل في المدينة في تلك الفترة بشكل خفيف ، وما كان ينتج عنها من هلاك كثير من السكان ، فيذكر أحد المؤرخين أن أحد تلك الزلازل وهو الذى حدث عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م لم يترك بيتا علويا في بيت المقدس الا هدمه(٣٨) .

ومن العوامل التي ساعدت على التدهور السكاني في بيت المقدس في ذلك العصر ، سوء الاحوال الاقتصادية الذي عم دولة سلاطين المماليك منذ القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي ، وما نجم عنها من اضطرابات عانى منها الناس جميعا في ذلك الحين ، ومهما قيل عن محاولات سلاطين المماليك للتخفيف من تلك الأزمات والذي سيتضح لنا في الفصل الخاص بالحياة الاقتصادية في بيت المقدس فيمكننا القول أن سلاطين المماليك لم تكن لهم سياسة ثابتة نحو استغلال - الارض الزراعية والعناية بها ، مما جعل الظروف الطبيعية تتحكم بشكل مؤثر وفعال في حياة الكثيرين ، ولعل خير ما يصور لنا ذلك حديث المقرئ عن سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م من أنه « أجذبت أرض بلاد حوران والكرك والقدس والرملة وغزة ، لعدم نزول المطر في أوانه ، ونزح كثير من سكان هذه البلاد عن أوطانهم ، وقلت المياه عندهم .. » (٣٩) وكان من نتيجة الأزمات الاقتصادية وسوء الأحوال الاقتصادية أثرهما الكبير في أوضاع المدينة ، بحيث عم الغلاء البلاد ، وهلك من البهائم مالا يحصى ، وأتفر أكثر الأغنياء من الناس من أرباب العيال ، مما جعلهم نهبا للمرض والأوبئة المختلفة والفتاكة في نفس الوقت (٤٠) .

كذلك لعله كان من ضمن العوامل التي ساعدت على قلة عدد السكان في مدينة بيت المقدس في تلك الفترة التي نتحدث عنها ، الغزوة التي قام بها تيمورلنك لبلاد الشام عام ٨٠٢هـ/١٤٠٢م والتي احتل فيها دمشق ، وعلى الرغم من أنه لم يصل إلى مدينة القدس ذاتها ، إلا أنها أدخلت على سكان تلك المدينة من الخوف والفرع ما ذكرهم بما سبق وأحدثه المغول ببلاد الشام من فتك ودمار وتخريب ، إلى جانب خوفهم من استمرار الغزو التيموري ، كل ذلك كان دافعا لكثير من السكان على هجرة المدينة واللجوء إلى مصر (٤١) . ويمكننا أن نفسر هذه الظاهرة في ضوء التدهور السياسي الذي عم سلطنة المماليك الجراكسة بوجه عام ، الذي نلمسه من عدم وجود سلاطين عظام أمثال الظاهر بيبرس وسيف الدين قلاوون والناصر محمد ، والذين أحكموا قبضتهم على مقاليد البلاد ، وخصصوا شطرا كبيرا من جهودهم لتوفير الأمن والطمأنينة بعكس ما نلاحظه من اضطراب وفوضى في عصر الجراكسة ، هذا العصر الذي كثرت فيه فتن العربان وتعرضهم الدائم لسكان المدينة بالسلب والنهب مما أدى إلى انعدام الأمن في المدينة عدة مرات (٤٢) ويذكر المقرئ أن هؤلاء البدو قد أفسدوا المنطقة المتاخمة للقدس من تكرار الفتن التي كانت تقوم بين مختلف قبائلهم ، ويبدو وأن السبب الرئيسي من وراء تلك الغارات التي قاموا بها في تلك المنطقة وحتى على المدينة نفسها راجع بالدرجة الأولى إلى مدى ما وصلت إليه الدولة من تدهور سياسي (٤٣) . هذا بالإضافة إلى أن كثيرا من أصحاب الحرف قد هاجروا إلى مصر لسوء الأحوال في المدينة ، آملين في أن يجدوا مجالا أكبر لممارسة نشاطهم ، وحياة أفضل وأمنا أكثر مما كان في المدينة نفسها ، مما كان سببا واضحا في قلة وتناقص اعداد السكان بها في ذلك العصر (٤٤) .

هكذا رأينا أنه كان نتيجة لدخول المدينة تحت حكم سلاطين المماليك أثره الكبير على تطور السكان بها ، بما تحقق لها من أمن واستقرار ، فضلا عن أن العوامل السياسية المحيطة بالعالم الاسلامي كانت ذات أثر كبير في تطور السكان في المدينة في عصر سلاطين المماليك البحرية طوال فترة

حكمهم وهى التى تقارب القرن والنصف ، ثم رأينا أنه فى دولة المماليك الجراكسة فان معدل السكان أخذ فى التدهور بسبب انتشار الاوبئة التى عانت منها منطقة الشرق الادنى بل والعالم المعروف آنذاك ، فضلا عن الاسباب الاخرى التى ساعدت على ذلك التدهور السكانى .

والمثلة فى التدهور الاقتصادى والسياسى للدولة ومدى انعكاس كل منهما على حياة السكان فى مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر .

سكان مدينة بيت المقدس

كانت مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك تضم أبناء الديانات السماوية الثلاث ، باعتبارها مقدسة عندهم جميعا ، وبالإضافة إلى وضعها الدينى لديهم جميعا ، وعلى هذا الاساس رأينا أن نقسم السكان إلى ثلاث قطاعات دينية كبرى ، سنتحدث عن كل قطاع منها على حدة ، ونبدأ حديثنا عن القطاع الاسلامى على اعتبار أنه يشكل غالبية السكان فى ذلك الحين .

١ - القطاع الاسلامى :

لم يصادفنا فى المصادر والمرجع التى اطلعنا عليها ما يساعدنا على تقدير عدد المسلمين فى بيت المقدس فى تلك الفترة التى نتحدث عنها بشكل واضح ، الا أننا نستطيع القول اعتمادا على ما سبق وأشرنا اليه من أنهم كانوا يشكلون أغلبية السكان ، ويجب الإشارة إلى أن القطاع الاسلامى شمل العديد مما يمكن أن نسميهم تجاوزا عناصر سكانية ، حيث ضم المماليك وعرب الجزيرة العربية والمغاربة والاكرد والتركمان والهنود وهم الذين سنتحدث عن كل منهم على حدة .

(١) المماليك :

يأتى المماليك على رأس القطاع الاسلامى فى مدينة بيت المقدس باعتبار أنهم شكلوا الطبقة العسكرية الحاكمة ، وهم معظمهم من الأتراك والجراكسة ، والذين لم يكونوا فقط مختلفى الجنسية بل من حيث الاصل واللغة ، واعتمدت تربيتهم أساسا على شعورهم بالولاء لأمرهم الذى يدرهم ويعولهم وإخوانهم فى السلاح ، وكان اهتمام تلك الطبقة الرئيسى عو تدعيم نظامهم العسكرى ، واستغلال الشعوب التابعة لهم ، وبما أنهم كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة ، فإن الأرض كانت توزع عليهم ليجنوا منها نفقاتهم كل حسب مرتبته ومكانته وعدد ممتلكاته الذين يتبعونه ، وكان على أفراد هذه الطبقة عبء الدفاع عن البلاد ضد الاخطار الخارجية من جهة ، وحماية عرش السلطان ضد الاخطار الداخلية من جهة ثانية ، كما كانت هذه الطبقة تقوى نفسها على الدوام بما يجلبه تجار الرقيق إلى البلاد من المماليك^(١٥) .

ويتضح لنا الدور البالغ الأهمية الذى لعبه المماليك فى مدينة بيت المقدس من خلال تحكمهم فى

الأراضي الزراعية ، وبذا كانوا المهيمنين على الحياة الاقتصادية ، فضلا عن أنه عن طريق سيطرتهم على الحياة الدينية بتعيينهم لرجال الدين ، فقد مدوا نفوذهم على كل المجتمع الاسلامى فى ذلك العصر^(٤٦) كما يجب ألا نقتل من شأن هذا العنصر فى مدينة بيت المقدس باعتبار أن الصبغة الدينية كانت هى الغالبة فيها ، لأننا من خلال إحصائية أجر بناها - وهى ملحقة بآخر البحث - عمن تم نفيه إلى مدينة بيت المقدس من أمراء ، المماليك ، وجدنا أنه لا تكاد تخلو سنة الا ويأتى ذكر النفي إلى القدس ، فاذا عرفنا أن بعض هؤلاء الامراء كان يصطحب معه عائلته وأتباعه ، لادرنا مدى كثرة المماليك فى القدس بالنسبة لحجم سكانها أو بالنسبة لحجم المدينة نفسها ، فضلا عمن كان يطلب الإقامة فى المدينة من كبار الامراء لكى يكون بعيدا عن تقلب الاحوال السياسية .

ومن الطبيعى أن كل أمير من الأمراء كان يصطحب معه أتباعه وأفراد أسرته ، فمن ذلك ما يرويه لنا ابن تغرى بردى فى ذكره لحوادث سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م فى سلطنة الملك المنصور محمد بن المظفر حاجى بن الناصر محمد بن قلاوون من قوله « وحضر طاز وعلى عينيه شعرية فأخلع عليه وسأل أن يقيم بالقدس فأجيب وسافر إلى القدس وأقام به إلى أن مات ... » وكان الأمير اليوسفى الناصرى هذا قد اعتقل فى الاسكندرية أيام السلطان الملك الناصر حسن الذى أكحله^(٤٧) . كذلك يؤكد لنا ابن شاهين الظاهرى أن بعض كبار الامراء قد فضلوا الإقامة بالقدس لكى يكونوا بعيدين عن مجريات الاحداث السياسية ولينعموا بالهدوء والاستقرار فى المدينة ، بل ان منهم من تفرغ للعبادة وعاش مجاورا بالقدس الشريف^(٤٨) . هذا بالإضافة إلى ما يرويه كثير من المؤرخين المعاصرين من تفضيل الكثيرين من كبار الامراء الحياة فى مدينة بيت المقدس ، مثال ذلك ما حدث فى سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م أيام السلطان الظاهر برقوق فى سلطنته الثانية ، فعندما قرر السلطان أن يتولى الأمير شيخ الصفوى نيابة غزة فان « الأمير شيخ سأل السلطان أن يعفيه من نيابة غزة وأن يقيم بالقدس فأجابه السلطان إلى سؤاله ورسم له بالضياع التى كانت مع قنقبای الاحمدى وهى نصف بيت لحم ونصف بيت جالة وتوجه إلى القدس ... »^(٤٩) وكذلك ما يرويه لنا ابن طولون من أن نائب الشام اليحيوى فى عهد السلطان الاشرف قايتباى فى سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م كان مقيما بالقدس بطالا ثم أنعم عليه باعادته واستقراره فى نيابة الشام^(٥٠) . وبهذا فضل كثير من الامراء الإقامة بالمدينة لينعموا بالهدوء .

٢ - القبائل العربية :

وهم الذين يرد اسمهم فى كثير من المصادر والمراجع تحت اسم « العشير » أو البدو أو « العرب » ويرجع استيطان القبائل العربية مدينة القدس والمناطق التابعة لها إلى بداية العهد الاسلامى ، كما يرجع أصلهم إلى ثلاث بطون ، كل منها ينتسب إلى قبيلة من القبائل الآتية :

١ - قبيلة بنى عمر : ويقال لها العمرىون ، وهم بطن من بنى عدى ابن كعب ابن قريش من العدنانية ، وهم بنو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وقد تفرع عنها فرقة بوادى بنى زيد وهو من

أعمال الرملة وهم بنوزيد . وكذلك وجدت منهم فرقة بمدينة بيت المقدس نفسها^(٥١) والتي لها حى في الجزء الشمالى من المدينة بالقرب من باب الأسباط ، ظل يحمل اسمهم حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، كما تشير المراجع إلى وجودهم أيضا في عدة قرى تابعة لبيت المقدس في القرن السادس عشر الميلادى^(٥٢) .

ب — قبيلة بنى جرم : وهم من العرب القحطانية ، وقد تفرع عنهم كثير من البطون مثل بنو غانم والعبادلة ، والاحامدة ، عقبة بن جزام ، وبنو قدامة ، وبنو عوف ، وبنو فيض ، وقد سكن كثير من هذه القبائل مدينة القدس^(٥٣) مثل بنو غانم الذين سكنوا المنطقة التى تعرف بوادى الطواحين من جهة الشرق ، ولهم بها حارة تسمى حارة الغوانمة وهى مجاورة للمسجد الأقصى من جهة الغرب^(٥٤) .

ج — الجعافرة : وهم بطن من بنى الحسين السبط ، من بنى هاشم ، من العدنانية والجعافرة ينتسبون إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر وقد استوطنت فرقة منهم مدينة بيت المقدس^(٥٥) . وتجب الإشارة إلى أن كل القبائل العربية كانت تتكاثر غالبا في المناطق القريبة من الصحراء وبخاصة في فصل الشتاء ، حيث تكثر المراعى ، إما في فصل الصيف فإنهم يعيشون حول المرتفعات المحيطة بالمدينة ، هرباً من حرارة الصيف ولكثرة الاعشاب ووفرة المياه في تلك المناطق^(٥٦) .

أما عن حياة هؤلاء البدو فيصفها لنا الرحالة سير جون مانديفيل الذى زار بيت المقدس عام ١٣٢٢م بقوله : انهم يعيشون في خيام يصنعونها من جلود الحيوانات ، مثل جلود الجمال والحيوانات الاخرى ، وهم يعيشون في المناطق التى يجدون بها المياه ، وهؤلاء البدو لا يزرعون الارض ، وقد لا يؤدون أى عمل ، كما أنهم لا يأكلون الخبز الا إذا نزلوا احدى المدن ، فهم يشوون لحوم الحيوانات والاسماك على الصخور الساخنة على إشعة الشمس ، وهم رجال أقوياء ومحاربون اشداء ، بلغوا من كثرة العدد حد الا يحصى^(٥٧) كذلك يصفهم لنا الأب سوريانو بقوله : وهم ينحدرون من العرب ، ويؤمنون أن اليوم المحدد لوفاة أى شخص منهم لن يتأخر ، ولهذا فهم لا يخشون الموت ، وهم يضعون غطاء للرأس ويلبسون جلبابا بدون قميص ، كما يشعرون بالخزي من حملهم الاقواس والنبال ، ولكنهم يستخدمون فقط الرماح والسيوف ، كما أنهم يعيشون متنقلين هنا وهناك على ما يقومون به من اغارات ، ويرعون الحيوانات من أجل لبنها ولحومها^(٥٨) .

كما تجب الإشارة إلى أن هذه القبائل الضاربة في المناطق المتاخمة لمدينة بيت المقدس ، كانت مصدرا للاضطرابات ومبعا للفتن ، ويبدو أن تلك الاضطرابات التى كانوا يقومون بها كانت وسيلة رزق يلجأون إليها ، والدليل على ذلك ما يذكره لنا المقرئى في حديثه عن سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٥م عندما انتشر الغلاء وارتفعت الاسعار في المناطق المجاورة للقدس ، فقام هؤلاء البدو بغارات شديدة على مدينة بيت المقدس ذاتها ، وأحدثوا فيها من النهب والسلب شيئا كثيرا^(٥٩) . كذلك ما يرويه لنا فابرى الذى زار بيت المقدس سنة ١٤٨٠م أنه عقب وصول الحجاج المسيحيين إلى ميناء يافا ، فقد راعهم حضور عدد كبير من المماليك بأسلحتهم وخاصة أن الحجاج أتو عزلا من السلاح ، فكان

الرد عليهم بأن البدو قد أتوا إلى البلاد من الصحراء بأعداد كبيرة ، وأنهم نهبوا كل مصادفهم ، وأنهم تجمعوا في المناطق الجبلية المحيطة لمعرفتهم بقرب قدوم الحجاج المسحيين ، ولهذا فقد حضر الامراء ومعهم عساكرهم بأسلحتهم حتى يقوموا بمحاربتهم حتى وصولهم إلى بيت المقدس (٦٠) .

وتعددت الفتن التي كان يقوم بها هؤلاء العشير أو البدو في بيت المقدس والمناطق المجاورة لها ، ولعل السبب في ذلك راجع إلى سوء أحوالهم الاقتصادية ، والتي يؤكد لها الرحالة فابري بأنه عندما تصدى المماليك لهؤلاء البدو والذين حاولوا الهجوم على ركب الحجاج عن طريق العنف ، فإنهم أخذوا يتوسلون إليهم أن يعطوهم شيئا يأكلونه أو يقتاتون به (٦١) . فضلا عن ضعف النواب أنفسهم واستعانتهم بهؤلاء في الخلافات التي تنشأ من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٣م أيام الأشرف قايتباي أن نائب مدينة بيت المقدس ونائب مدينة غزة ، حدث بينهما بعض الخلافات « فكان نائب غزة يسلط بعض العرب المفسدين ويغريهم على نائب القدس ويجرضهم على الفساد » (٦٢) . هذا إلى جانب ما جلب عليه هؤلاء العشير من عدم الخضوع للحكام . كما يلاحظ أيضا أنه إلى جانب الدوافع السابقة ، فقد كان هناك دافع سياسى وهو إلغاء حكم المماليك واعادته إلى العرب الأحرار أصحاب السيادة القديمة على البلاد (٦٣) . ومن المؤكد أن البدو في بيت المقدس قد تأثروا بثورات اخوانهم في مصر شبه المستمرة والتي يلاحظها الباحثون طوال عصر المماليك .

وتجدر الإشارة إلى أنه بمرور الوقت حدث تغير في حياة هؤلاء البدو ، لأننا نسمع من الرحالة الذين زاروا بيت المقدس أن هؤلاء البدو أصبحوا يقومون بخدمتهم وارشادهم وحمايتهم وتقديم المساعدات لهم نظير ما يحصلون عليه من مبالغ يدفعها هؤلاء لرؤسائهم (٦٤) كذلك من المؤكد أن بعض القبائل التي استوطنت بيت المقدس أخذت تتحول تدريجيا إلى شعب زراعى مستقر ، ولاسيما في القرى المحيطة ببيت المقدس ، غير أنه ربما تمتع هؤلاء العرب بمركز اجتماعى أعلا مرتبة من الفلاحين بسبب المساعدات الحربية التي كانوا يؤدونها للدولة وقت الحرب ولاسيما في الحروب الصليبية ، وفي الحروب الداخلية التي شنتها قوى المماليك في الاطراف الشمالية لدولتهم ضد التركان ، كما كان مشايخ العربان تقع عليهم تبعة حفظ الامن والنظام في المناطق التي سكنوها (٦٥) وخير دليل على التطور الذى طرأ على حياة بعض القبائل ما نشأ هذه من اختلاف نظم الضرائب التي كان يدفعها البدو ، فهناك بعض الجماعات التي كانت تدفع ضرائب على القمح وبعض المحاصيل الحقلية الأخرى بنفس الطريقة التي كانت متبعة في القرى ، كما أننا نسمع عن تناقص اعداد هؤلاء البدو أواخر القرن السادس عشر الميلادى بشكل ملحوظ (٦٦) .

أما عن الالتزامات التي كانت مفروضة على هؤلاء البدو ، والتي يؤكد لها ابن شاهين بأن هؤلاء العرب كانوا يسجلون في ديوان الجيش لمعرفة قبائلهم وأعدادهم ، والخدمات الحربية التي يمكن أن يقدموها للدولة ، وهى التجاريد والمهمات الشريفة « فالتجاريد تنقسم على نوعين نوع إلى الغزوات ونوع إلى المحارين البغاة سواء كان في ذلك السلطان بنفسه أو يعين من يختاره من جيشه

فيكونون على يرق واستعداد من الخيالة والرجالة والرماة بحيث أنهم إذا صاروا إلى العدو المخزول هزموه مع الفروع والاصول . وأما المهمات الشريفة فهي كلما طرأت ضرورة لحراسة ثغر من الثغور أو لشيء من الاطراف أو حفظ ما يقتضى حفظه أو ما يناسب ذلك «(٦٧)» .

إما عن الالتزامات غير الحرية فيروى لنا المقرئ أن السلطان الظاهر بيبرس وهو المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك ، خلع على أمرائهم ، وضمنهم البلاد وألزمهم القيام بالعداد ، والعداد هي زكاة مفروضة للسلطان سنويا على قطعان القبائل العربية والتركمانية والتي تقدر بالآلاف تؤخذ منهم كل سنة ، كما شرط عليهم خدمة البريد واحصار الخيل برسمه(٦٨) . ويبدو أن هذه الالتزامات لم تتغير طوال عصر سلاطين المماليك ، فهذا مجير الدين يحدثنا عنها أيام الاشراف قايتباي في حديثه عن أمير عرب جرم بأنه لم يعد يصلح للامرية « لعجزه عن القيام بالقود وما هو عليه للخزائن الشريفة »(٦٩) ومن هذا يفهم أنه بالاضافة إلى ما كان يجب أن يخضره امراء العرب إلى السلطان من خيول وحيوانات كان عليهم دفع بعض الاموال سنويا

٣ — المغاربة :

ترجع هجرة المغاربة إلى الشرق بوجه عام إلى أيام الدولة الفاطمية ، فمن المعلوم أن الفاطميين قد اعتمدوا في تأسيس دولتهم في المغرب على قبائل البربر المتعربة ، وكان في جيشهم فرق منهم ، ومن الطبيعي أن تنتقل جموع منهم إلى مصر أولا بانتقال الفاطميين إليها ، لذا يعد العصر الفاطمي مرحلة هامة في تاريخ الهجرات المغربية إلى مصر ، حيث انتقلت موجات كبيرة من المغرب ، واستقرت في الجانب الغربي لمصر ، في غرب الدلتا ، والبحيرة والفيوم ، والواحات ، وسائر الجهة الغربية من صعيد مصر وربما اتجهت بعض قبائل المغرب شرقا ، كما فعلت قبيلة لواته فتجاوزت شرقا وعبرت منقطع الرمل ، وعلى هذا الاساس وبما أن بيت المقدس كانت قد خصعت للفاطميين في مصر فمن المرجح أن تكون هجرات المغاربة ترجع إلى هذا العهد(٧٠) . ويرجع أن يكون عدد هؤلاء المغاربة في بيت المقدس قد ازداد عقب فتح صلاح الدين الايوبي لها ، نظرا لما تمتع به هؤلاء المغاربة أولا في مصر على أيامه ، فضلا عن أن عددا كبيرا منهم ربما فضل الإقامة بها عقب قضائهم مناسك الحج ، ولعله قد حدث لهم عند اقامتهم بها ما حدث لهم في مصر وما يرويه لنا ابن جبير من أن السلطان صلاح الدين الايوبي قد « جعل احكامهم اليهم ، ولم يجعل بدا لاحد عليهم »(٧١) . ومن المرجح أن هذا الوضع قد استمر فيما بينهم بالقدس ، حيث تؤكد بعض المراجع أن المغاربة في بيت المقدس قد عاشوا في شبة عزلة عن غيرهم من الجماعات ، وكعنصر منفصل عن السكان المحليين ، كما كان لهم شيخ يسمى شيخ المغاربة والذي لم يكن مجرد لقب للتكريم أو لقب شرفي لهم كطائفة بل أكثر من هذا أنهم كانوا ينتمون إلى مذهب المالكية(٧٢) كما تشير بعض المراجع إلى أنه عقب وفاة صلاح الدين ، وفي أيام ابنه الافضل كانت لهم في تلك المدينة حارة تنسب إليهم ويسكنونها ، وقفها على اختلاف اجناسهم ، كما كانت لهم زوايا تعرف باسمهم ، وشيخ يُسمى شيخ المغاربة أو متولى مشيخة المغاربة بالقدس(٧٣) . كما يروى أحد الباحثين أن الملك الافضل بن صلاح الدين قد بنى جامعا

للمغاربة بجوار مربط البراق وقرب باب النبي لدخوله عليه الصلاة والسلام منه يوم الاسراء ، ومن ذلك الوقت سماه المجاورون باب المغاربة^(٧٤) الا أن ابن فضل الله العمرى يصحح لنا ما وقع فيه هذا الباحث من خطأ بأن هذا الجامع لم يكن سوى مكان خصص لصلاتهم داخل المسجد الأقصى ، ولهم فيه امام ويصلى فيه الصلوات الخمس لاغير ، وانما اطلق هذا الاسم « جامع المغاربة » لغلبة الاسم على الجمهور فقط^(٧٥) .

هذا وقد حفظت لنا كتب الأدب والتاريخ أسماء مئات من رجال العلم والدين والادب الذين رحلوا من المغرب الى الشرق في طلب العلم والتفقه ، وهذا كتاب « نفح الطيب » يشغل ذكر هؤلاء العلماء نحو ثلثه ، وفي بيت المقدس نجد أنهم كانوا يسمعون في المسجد الأقصى هذا فضلا عن عدد من المدارس والزوايا ، وقد تولى كثير من المغاربة مناصب رفيعة في المشرق بوجه عام وفي بيت المقدس بوجه خاص كالقضاء وغيره^(٧٦) .

وتجب الإشارة الى أن أعداد المغاربة في بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، من المرجح أنها قد ازدادت عما كانت عليه من قبل ، وذلك راجع الى تدفق اعداد كبيرة منهم لسبب الاحوال السياسية التي مرت بها بلدان المغرب العربى والاندلس في تلك الفترة ، وترجع هجرة هذه الاعداد من المغاربة الى دولة سلاطين المماليك على أساس نظرة سكان المغرب والاندلس الى الدولة المملوكية في ذلك العصر على أساس أن سلاطينها هم حماة الاسلام والمسلمين ، ويتضح ذلك من المراسلات التي كان يرسلها أهل مدن الاندلس والمغرب الى سلاطين مصر من المماليك يطلبون فيها النجدة^(٧٧) .

ومما لاشك فيه أن الحروب التي شنها المسيحيون في بلاد الاندلس ضد المسلمين وهي التي تسمى بحرب الاسترداد ، كان لها اكبر الأثر في هجرة اعداد ضخمة من أهل الاندلس والمغرب على السواء الى الشرق ، وبخاصة بعد خضوع كثير من الثغور في المغرب لنفوذ المسيحيين القادمين من قشتالة وأرغونة ، هذا الى جانب أن ظروف بلاد المغرب العربى ، وما ساد فيها من تفكك وضعف نتيجة لتفكك الاسرات الحاكمة وتصارعها ، كان من العوامل التي شجعت على الهجرة الى دولة سلاطين المماليك في الشرق حيث الاستقرار^(٧٨) .

وزيما فضل كثير من هؤلاء المهاجرين الحياة في بيت المقدس لغلبة الطابع الدينى عليها ، ولعل ما يتسر لآخوانهم المغاربة من رغد العيش والحياة الكريمة فيها كان عاملا مشجعا لجذبهم اليها في تلك الفترة ، والحقيقة التي يجب أن نذكرها أن سلاطين المماليك في مصر في تلك الفترة لم يستطيعوا المساعدة بشكل مؤثر نظرا لانشغالهم بالاحوال السياسية المحيطة بهم من غارات الكتلان على السواحل والموانى المصرية والشامية ، فضلا عن ثورات التركان في شمال البلاد ، إلى جانب ما قام به ملوك الحبشة من محاولات للاشتراك في المحاولات الصليبية مهددين سواحل بلاد الحجاز^(٧٩) ، وبهذا نستطيع القول أن ما قامت به القوى المسيحية في غرب أوروبا من استرداد بلاد الاندلس ، ومهاجمتها موانى بلاد المغرب ، مع عدم استطاعة القوى الاسلامية الصمود لها ، كان من العوامل التي ساعدت

على هجرة اعداد كبيرة من المغرب والاندلس إلى بيت المقدس في تلك الفترة من تاريخها ، وليس أدل على كثرة هؤلاء المغاربة في القدس مما يذكره مجير الدين وهو معاصر لتلك الفترة عن كثير من علماء المغاربة الذين تولوا كثيرا من المناصب الهامة في المدينة ، كان من أهمها القضاء ، ومشيخة زواية المغاربة بالقدس ، وامامة المالكية بالمسجد الاقصى ، ومشيخة القادرية ، وهي إحدى الطرق الصوفية بالقدس (٨٠) .

٤ - الأشراف :

يفهم مما رواه مجير الدين في حديثه عن الأشراف أنه كان بالقدس ويظهرها بوادي النصور الذي يبعد قليلا عن القدس ، عدد من السادة الاشراف الذين ينتسبون إلى نسل رسول الله ﷺ من نسل الحسين بن علي رضي الله عنه ، وكانت لهم زواية يقيمون بها ، ويوزورهم الناس للتبرك بهم ، ويبدو وأنه كان يتم اختيار واحد منهم بالوراثة ليلي رئاسة هؤلاء الاشراف ، وكان هؤلاء الاشراف يحظون برعاية سلاطين المماليك ونوابهم ، من ذلك أنه قد وقف منجك نائب الشام عليهم قرية شرفات بالقدس ، كما استوطن عدد منهم مدينة بيت المقدس نفسها عندما ضاق بهم وادي النصور ، كذلك كان يطلق على هؤلاء الاشراف الذين سكنوا المدينة اسم البدرية « نسبة إلى السيد بدر بن محمد بن يوسف الذي ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن ابي طالب والمتوفى سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥١م . (٨١) . ويروى بعض الباحثين أن بالقدس منهم بعض الاسرات التي تنتمي إلى هؤلاء الاشراف حتى العصر الحديث ، مثل أسرة آل العلمي التي يرجع نسبها إلى الحسن السبط رضي الله عنه (٨٢) .

ومن المؤكد أن هؤلاء الاشراف لم يكن يميزهم عن غيرهم من سكان مدينة بيت المقدس شيء ، وبخاصة الملبس حتى عهد السلطان الاشراف شعبان بن حسين بن قلاوون ، ففي سنة ٧٧٣هـ / ١٣٧١م رسم السلطان المذكور أن « الاشراف بالديار المصرية والبلاد الشامية كلهم يسمون عمائمهم بعلامة خضراء بارزة ، الخاصة منهم والعامه اجلالا لحقهم وتعظيما لقدرهم ليقابلوا بالقبول والاقبال ويمتازوا عن غيرهم من المسلمين ، فوق ذلك ولبس الاشراف العلام الخضر ، التي هي الان مستمرة على رؤسهم .. » (٨٣) - والدليل على أن هذه الميزة في ملابسهم لم تكن موجودة من قبل قول ابن تغري بردي « ولقد احدث شيئا كان الدهر محتاجا إليه ولا ألهم الله تعالى الملوك ذلك من قبل .. » (٨٤) .

هذا وتتضح لنا سياسة سلاطين المماليك الدينية من حرصهم على التقرب إلى هؤلاء السادة الاشراف ، وتقليدهم بعض المناصب الهامة في مدينة بيت المقدس ، فيما يرويه لنا ابن الصيرفي في حديثه عن سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩١ أيام السلطان الظاهر برقوق في سلطنته الثانية من أنه « خلع على السيد الشريف صدر الدين مرتضى بن غياث الدين ابراهيم بن صدر الدين حمزة الحسيني واستقر في نظر القدس والخليل عليه الصلاة والسلام بعد وفاة قطلو بغا الطشقمري » وكذلك تتضح لنا مكانة هؤلاء من خلال الألقاب التي أطلقت عليهم مثل « صدر الدين » و « غياث الدين » (٨٥) .

٥ — الهنود :

من بين الجماعات الاسلامية التي كانت تسكن مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك جماعة الهنود ، وكان هؤلاء الهنود يترددون على زاوية في المدينة نسبت اليهم وسميت باسمهم أى زاوية الهنود^(٨٦) . ويرى بعض الباحثين أن تأسيس زاوية الهنود في بيت المقدس يرجع إلى أواسط القرن السادس الهجرى ، والتي كانت تقع إلى جوار باب السامرة أحد ابواب المدينة ، وعلى بعد خطوات من سورها الشمالى ، وكانت أولا مخصصة لفقراء الطريقة الرفاعية ، ثم راح الهنود ينزلون فيها ، كما أن لهذه الزاوية أملاك موقوفة عليها بباب حطة^(٨٧) .

والدليل على وجود هؤلاء الهنود في عصر سلاطين المماليك وحتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ما يرويه لنا مجير الدين في حديثه عن « الشيخ الصالح عبد الله الهندى من الاولياء المشهورين توفى بالقدس الشريف ليلة الجمعة سابع عشر ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ... » ، هذا وان كانت المصادر التى بين أيدينا لم تذكر شيئا عنهم وعن اعدادهم ، مما يرجح أنهم كانوا قليلي العدد في ذلك العصر^(٨٨) .

٦ — الأكراد والتركمان :

يرجع وجود الاكراد في بيت المقدس إلى عهد السلطان صلاح الدين الايوبي ، حيث يروى لنا ابو شامة أنه عقب فتح المدينة على يديه ، خلف الامير سيف الدين على بن احمد الهكاري المعروف بالمشطوب « بالقدس من جملة العسكر المقيمين به ولم يكن وإليه انما كان واليه عز الدين جرديك وتوفى المشطوب رحمه الله بالقدس يوم الاحد الثالث والعشرين من شوال ودفن في داره بعد أن صلى عليه في المسجد الاقصى »^(٨٩) . والمعروف أن الهكارية طائفة من الاكراد ، وكان المشطوب هذا أحد أمرائهم ، وفي هذا دليل كاف على أن الاكراد سكنوا القدس منذ فتحها صلاح الدين ، وأنهم أقاموا بها كجنود للدفاع عنها .

هذا ولم ينقطع تدفق الاكراد على بيت المقدس طوال عصر سلاطين المماليك ، ويؤكد لنا مجير الدين ذلك في حديثه عن بعض الاكراد الذين وفدوا اليها بأن منهم من « أقام بين القدس والخليل في أرض اختارها وعنى بها وزرع فيها ... ورزق أولادا صالحين » كذلك كان منهم « من أهل الفضل ومن الفقهاء بالمدرسة الصلاحية ... »^(٩٠) . كما تؤكد بعض المراجع أن الاكراد كانوا موجودين بيت المقدس حتى أواخر عصر سلاطين المماليك ، وأنه كثيرا ما كانت تنشب بينهم الفتن وبين بعض القبائل العربية ، والتي نتج عنها مقتل كثير من رجال الفريقين^(٩١) . وأنه كان للاكراد حى خاص بهم يسكنونه في المدينة عاشوا فيه عيشة منفصلة عن غيرهم من السكان ولم يندمجوا معهم ، وظلوا محافظين على عاداتهم الموروثة في أحيائهم الخاصة بهم ، كما أن سياسة سلاطين المماليك كانت تشجع على استيطان تلك العناصر المحاربة من الاكراد بهدف العمل على حماية السواحل الفلسطينية من أية

اغارات جديدة من الغرب الأوربي^(٩٢) .

وما قيل عن الاكراد يمكن أن يقال عن التركان ، من حيث سكناهم بيت المقدس في أحد الاحياء الخاصة بهم ، وأن سلاطين المماليك حرصوا على الاستفادة منهم كعنصر محارب يمكن الاعتماد عليه في الدفاع عن المدينة ، أو للدفاع عن المدن الساحلية الفلسطينية ، هذا وإن كنا نرجح أن اعداد التركان ربما كانت اقل من الاكراد لان المصادر التي بين أيدينا لم تشر إليهم سوى اشارات عابرة ، فهذا مجير الدين والذي اهتم بصفة خاصة بالتاريخ لبيت المقدس ، لم يورد سوى ذكر لعدد قليل من العلماء التركان الذين عاشوا في المدينة في عصر سلاطين المماليك^(٩٣) . ولسنا ندرى هل تأثر وضع هؤلاء التركان بما حدث من اخوانهم في شمال بلاد الشام ، وقيام بعض قبائلهم بكثير من الفتن والثورات ضد حكم المماليك ، وإلى أى الفريقين انحازوا ، وهل نظر لهم السلاطين على أنهم مجرد رعايا لهم ولم يسيئوا لهم .

(ب) القطاع المسيحي :

بما أن مدينة بيت المقدس تعتبر مقدسة عند المسيحيين بقدر ما هي مقدسة عند المسلمين ، فإننا نجد بها طوال عصر المماليك العديد من المذاهب الدينية المسيحية المختلفة ، والحقيقة أنه لم ترد سوى إشارة واحدة - عند احد الرحالة الذين زاروها أواخر القرن الخامس عشر - عن عدد المسيحيين بها والذي يقدرهم بأكثر من ألف من كل المذاهب الدينية المسيحية المختلفة ، الا أننا نشك في صحة هذا التقدير^(٩٤) اذ تذكر لنا بعض المراجع أن عدد المسيحيين الذين كانوا في بيت المقدس عند فتح صلاح الدين الايوبي لها كان اكثر من عشرين الف كما سبقت الإشارة والمعروف « أنهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا ولا يزعمجوا ويؤمنوا ولا يخرجوا ... »^(٩٥) كذلك يؤكد لنا ابن الاثير انهم طلبوا من السلطان صلاح الدين « أن يمكنهم من المقام في مساكنهم ويأخذ منهم الجزية ، فأجابهم إلى ذلك .. »^(٩٦) .

كذلك من المرجح أن تكون اعداد هؤلاء المسيحيين قد ازدادات عقب الفتح الصلاحي للمدينة ، ذلك أن هذا الفتح أعاد للمسيحيين ذلك النوع من الحكم الذاتي عن طريق توليهم شئونهم الداخلية فيما بينهم ، ومنحهم السيطرة على كنائسهم وشئونهم الدينية ، تلك السيطرة التي افتقدوها أيام الحكم الصليبي ، حيث سلبهم الصليبيون ، ما نسميه بالحكم الذاتي^(٩٧) . هذا بالاضافة إلى أن المسيحيين المحليين كانوا يشكلون أغلبية سكان القرى المحيطة بالقدس مثل بيت لحم وبيت جالا وغيرها وهي تابعة لمدينة بيت المقدس في ذلك العصر^(٩٨) كما كانوا يشكلون الاكثية المطلقة لبعض ضواحي المدينة ، مثل جبل صهيون فهو كما يصفه لنا فيلكس قابري ... سكن المسيحيين فقط وليس به مسلم أو يهودي^(٩٩) .

ومهما قيل عن انتشار الأوبئة والأمراض المعدية ونكبات الطبيعة ، فضلا عما تعرض له المسيحيون المحليون في بيت المقدس أثناء غزو الخوارج لبيت المقدس من الصليبيين في عهد

خلفاء بنى أيوب ، فان كل هذه العوامل لم تكن لتؤثر في اعدادهم بهذه الصورة التى يحدثنا عنها فليكس فابرى ، كما أننا لم نسمع طوال عصر سلاطين المماليك ، عن حدوث هجرات للمسيحيين المحليين من القدس سواء فى المصادر العربية أم الاجنبية ، اذا المعروف أن بيت المقدس كانت وستظل مهوى أفئدة المسيحيين فى كل مكان وزمان .

والجدول التالى يبين لنا أهم الطوائف المسيحية بالقدس والمؤسسات الدينية التى كانت تمتلكها فى ذلك العصر .

اسم الطائفة	بيان بالمنشآت الدينية الخاصة بها	المصدر أو المرجع
أولاً : الأرثوذكس (١) الروم الأرثوذكس	عاشت جماعة الروم الأرثوذكس فى القدس منذ العصور المسيحية الاولى ، وكان لها المكانة الرئيسية فى كنيسة القبر المقدس باستثناء فترة الحكم الصليبي للمدينة ، ومن أديرتهم وكنائسهم بها : (١) ولهم ديرنا ابراهيم ، ويقع فى ساحة كنيسة القيامة . (٢) ولهم فى نفس المكان كنيسة : احدهما صغيرة وتسمى « أيننا ابراهيم » والاخرى تكبر عنها وتسمى « الرسل الاثني عشر » . (٣) دير مار يوحنا المعمدان . (٤) كنيسة العذراء مريم ، فى وادى القدرين كما يسمونها ديرستنا مريم . (٥) دير مار سابا أقامه القديس سابا حوالى عام ٤٨٤ م . (٦) دير العذراء ، أقيم عام ٤٩٤ م ، ويقع جنوبى كنيسة القيامة . (٧) دير القديس ثيود و سيوس ما بين بيت لحم ومارسابا . (٨) دير المصلبة ، ويقع غربى القدس . (٩) دير البنات - بنى فى أواخر القرن الخامس وبه كنيسة . (١٠) دير مار الياس ، أقيم سنة ٦١٠ م	

وهو يقع على طريق بيت لحم وأعيد
بناؤه عام ١١٦٥ م .

(١١) دير الجليل ، وهو يقع فوق جبل
الطور .
عن هذه الكنائس والاديرة
راجع :

(١٢) دير القطمون ، ويقع غربي
القدس ، في حي القطمون ، كان بيد
الكرج ثم صار إلى الروم الارثوذكس ،
وفيه كنيسة وفي داخل الكنيسة قبر
القديس سمعان ، وكانوا يسمونه دير
سمعان .

(١٣) الدير الكبير ، ويعرف بدير
قسطنطين « وفيه ثلاث كنائس وهي
كنيسة القديسة هيلانه ، وكنيسة
القديسة تقلا ، وكنيسة مار يعقوب .

وهناك أديرة صغيرة نذكر منها :
(١٤) دير حبس المسيح ، على طريق
الآلام .

(١٥) دير مارخر الامبوس بالقرب من
الخانقاه الصلاحية من الجهة الشرقية .

(١٦) دير مار أفثيموس وهو ملاصق
لدير السيدة من الشمال .

(١٧) دير العدس ويسمونه دير مار
نيكوديمس فوق حبس المسيح في حارة
السعدية .

(١٨) دير صهيون ، فوق جبل
صهيون .

(١٩) دير مار جرجس وهو ملاصق
لدير اللاتين من الشرق .

(٢٠) دير مار ميخائيل .

(٢١) دير مار ديمتری في حارة

- | | | |
|-------------|--|--|
| النصارى . | (٢٢) دير مار تادرس . | |
| (٢) السريان | جاءوا إلى القدس في القرن الاول
الميلادى ومن ممتلكاتهم بها :
(١) كان لهم مكان في كنيسة القيامة ،
ودير ينسب لهم باسم دير السريان .
(٢) كما كان لهم ابرشية مركزها بيت
المقدس .
(٣) دير مار مرقس ، ويقع بين حارة
الارمن وحارة اليهود .
(٤) دير القدس .
(٥) دير مار توما في الشارع المؤدى إلى
حى النبی داود .
(٦) معبد صغير في كنيسة القيامة باسم
يوسف ونيقود يموس .
(٧) معبد في الكنيسة المعروفة باسم ستنا
مريم
(٨) معبد على جبل الزيتون .
أما السريان الكاثوليك فيبدو أنهم لم
ينزلوا القدس في هذه الفترة نظرا لعدم
وجود اماكن دينية لهم الا في القرن
التاسع عشر الميلادى .
(١) لهم دير في بيت المقدس يعرف بدير
الارمن
(٢) دير مار يعقوب ويسمونه دير
القديس جيمس الكبير وهو قديم البناء
وتم تجديده أواسط القرن الثاني عشر
الميلادى .
(٣) دير الزيتون .
(٤) دير حبس المسيح .
(٥) ولهم كنيسة الجلجلة - الثانية وهى | راجع عن ممتلكاتهم : مجير
الدين : الأنس الجليل ، ج٢ ،
ص ٤٤٣ -- ٤٤٤ ؛ عارف
العارف : نفس المرجع ، ص
٥٥ عبد الحميد زايد : القدس
الخالص ص ٢٦٠
Suriano: Op: Cit. P. 391
Newett. Casla,s P bgrims
P; 276. |
| (٣) الأرمن | | راجع : مجير الدين ، نفس
المصدر ج٢ ، ص ٤٠١ ؛
عارف : تاريخ القدس ص
٢٥١ ؛ رشاد الإمام مدينة
القدس ، ص ١٢٤ . |

كنيسة صغيرة في كنيسة القيامة امام
القبر المقدس .

(٦) كنيسة المريمات

(٧) كنيسة مار يوحنا وهي تقع في
ساحة كنيسة القيامة

(٨) كنيسة القديسة هيلانة .

(١) كانت لهم كنيسة الجلجلة في أواخر

عصر سلاطين المماليك .

(٢) كما كانت لهم كنيسة المصلبة أو

المصلية

(٣) دير الصليب المقدس .

(٤) دير في القبر المقدس داخل كنيسة

القيامة

(٤) الكرج

مجير الدين : الأنس الجليل ،

ج ٢ ، ص ٤٠٢ ، عارف

العاريف : تاريخ القدس ،

ص ٢٦٩ ، محمد جمال الدين

سرور : دولة بني قلاوون في

مصر ، ص ٢٦٠ ؛

Nicola of Poggibonsi

Visited the Holy Land

from 346 To 1350 A. D.

A Voyage Beyond the Seas

Jerusalem 1945. P. 22.,

Newett: Op. Cit P. 275

جاءت أول جماعة منهم في منتصف

القرن الرابع الميلادي بمناسبة تدشين

كنيسة القيامة ، ولهم أديرة وكنائس

بالقدس منها :

(١) دير السلطان ، وهو ملاصق

لكنيسة القيامة من الناحية الجنوبية

الشرقية ، وفيه كنيسة كنيسة

الملاك ، وكنيسة الحيوانات الاربعة .

(٢) دير مار أنطونيوس ، ويعرف بالدير

الكبير ، وهو ملاصق لكنيسة القيامة

من الناحية الشمالية الشرقية ، وفيه

(٥) الأقباط

عارف العارف : تاريخ القدس ،

ص ٢٥٢ -- ٢٥٣ ، عبد

الحميد زايد : القدس الخالدة ،

ص ٦٠ رشاد الامام : مدينة

القدس ، ص ١٢٤ ،

Suriano: Op Cit P. 391;

كنيستان هما كنيسة القديس
أنطونيوس ، وكنيسة الملكة هيلانة .
(٣) دير مارجرجس في حارة الموارد
على مقربة من باب الخليل .
(٤) ولهم كنيسة باسم السيدة
بالجسمانية .
(٥) ولهم هيكل على جبل الزيتون .
(٦) كنيسة باسم مار يوحنا خارج
القيامة .

(٧) كنيسة في داخل كنيسة القيامة
صغيرة ملاصقة للقبر المقدس من
الغرب كما كان لهم رهبان في كنيسة
القيامة ، غير أن مكانهم كان يخلو منهم
بسبب سفرهم إلى القاهرة أحيانا .

الاحباش

مجير الدين : الأنس الجليل
ج-٢ ، ص ٦٩٠ ؛ عارف
العارف تاريخ القدس ، ص
٢٥٣ ؛ عبد الحميد زايد :
القدس الخالدة ، ص ٢٥٨ —
٢٦٠ ؛ رشاد الامام : مدينة
القدس ص ١٢٣ ؛
Fra Nicola Op. Cit. p. 22;
اعتنقوا المسيحية في القرن الرابع وجاءوا
إلى القدس في هذا التاريخ ، وفي عام
٦٦٠هـ / ١٢٦٠م كان في مدينة بيت
المقدس عدد من الرهبان السود يقيمون
في دير السيدة ماري اللاتينية ، أما
فرانيكولو الذي زار الاراضي المقدسة
في السنوات ٧٤٧هـ — — —
٧٥١م / ١٣٤٦ — ١٣٥٠ فقد ذكر
هؤلاء الرهبان السود بأنهم يتعبدون في
كنيسة القيامة .

كما ذكرهم مجير الدين بأنهم ماتوا بسبب
الوباء الذي اجتاح المدينة سنة
٨٩٧هـ / ١٤٩١م . وكان لهم دير
الحبش ملاصق لكنيسة القيامة ، فوق
مغارة الصليب ، وقيل أنه جزء من دير
السلطان للاقباط . كذلك كان لهم
كنيسة الحبش والتي تقع في ضواحي

المدينة خارج السور .

ثانيا الكاثوليك

- (١) الروم الكاثوليك كانت لهم كنيسة القديسة حنة ، وهي التي تحولت بعد الفتح الصلاحي إلى المدرسة الصلاحية بالقدس .
عبد الحميد زايد : القدس الخالدة ، ص ٢٥٩ .
- (٢) الفرنسييسكان ومن أملاكهم في القدس :
(١) دير المخلص ، ويعرف بدير اللاتين وهو واقع في الجهة الغربية الشمالية من حارة النصارى ، ابتاعوه من الكرج .
(٢) حبس المسيح ، حيث جلد واهين السيد المسيح حسب اعتقادهم .
(٣) كان لهم مكان مخصص في كنيسة القيامة أيضا .
(٤) ولهم كنيسة مخصصة بهم هي كنيسة صهيون ، والتي يذكرها مجير الدين بأنها في آخر المدينة من جهة القبلة .
(٥) ولهم دير كبير في جبل صهيون .
(٦) كذلك كان لهم كنيسة خاصة بهم وهي التي بها قبر السيدة مريم أم المسيح عليه السلام .

كانت هذه هي أهم الطوائف المسيحية التي سكنت مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، ومن هذا الجدول يتضح لنا أن المسيحيين في ذلك العصر في المدينة كانوا ينقسمون إلى طوائف وشيع ومذاهب مختلفة ، بل وأجناس مختلفة أحيانا ، ولكل طائفة من هذه الطوائف مؤسساتها الدينية والاجتماعية ، الا أنها تشترك كلها في كنيسة القيامة وهي الكنيسة التي يقدسها الجميع .

كذلك يتضح لنا من دراسة هذا الجدول أن طائفة الروم الأرثوذكس كانت تمثل أغلبية الطوائف المسيحية بالقدس ، وليس أدل على ذلك من أنها الطائفة الوحيدة التي أستأثرت بأكبر عدد من

المؤسسات الدينية المسيحية في المدينة ، والمعروف أن هذه الطائفة قديمة العهد بالمدينة ، فقد كانت موجودة قبل الفتح الصلاحي للمدينة ، وقد وعد أبنائها السلطان صلاح الدين بالمساعدة وفتح أبواب المدينة عندما حاصرها (١٠٠) كما أن هذه الطائفة كانت تابعة للكنيسة البيزنطية ، وهم نفس الملكانية الذين وجدوا في مصر ، وقد كانوا من أصل عري (١٠١) ولاشك أن أبناء هذه الطائفة قد استفادوا من الفتح العري للمدينة عقب طرد الصليبيين منها ، حيث استعادوا هيمنتهم على الاماكن المسيحية المقدسة . كما تشير بعض المراجع إلى أن أبناء هذه الطائفة كانوا يتبعون بطريرك بيت المقدس ، الذي غالبا ما نسمع عن اقامته في مدينة القسطنطينية (١٠٢) .

أما عن الأرمن فيبدو وأن أعدادهم كانت تأتي في المرتبة الثانية عقب الروم الارثوذكس والدليل على ذلك الكثرة النسبية لعدد المؤسسات الدينية التي امتلكوها في المدينة ، الا أننا نرجع أن تكون اعدادهم طوال عصر سلاطين المماليك كانت آخذة في النقصان بسبب تشدد سلاطين المماليك في معاملتهم للأرمن ، بوجه عام طوال القرن الرابع عشر الميلادي على اعتبار أنهم أصدقاء الفرنج والمغول ، فضلا عن حسدهم لهم على الثروة التي تمتاز بلادهم بالطرق التجارية التي تصل البحر عند اياس (١٠٣) .

وفيما يختص بطائفة الكرج ، وهم الذين ينسبون إلى بلاد الكرج وهي اقليم القوقاز الان (١٠٤) والتي ربما يرجع وجودها في القدس الى القرن الخامس الميلادي أو قبله . (١٠٥) إلا أنه من الملاحظ أن أعدادهم كانت آخذة في التناقص بشكل واضح ، والدليل على ذلك ما سمعنا من يبعهم لبعض ممتلكاتهم الى أبناء الطوائف الاخرى . وكذلك الحال بالنسبة لطائفة السريان ، حيث من الواضح أنها كانت قليلة جدا ، على الرغم مما يقال أنهم جاءوا الى القدس في القرن الاول الميلادي ، وكانوا موجودين أثناء الفتح العمري للمدينة (١٠٦) ويعلل أحد الباحثين هذا التناقص بأنه راجع الى أيام الصليبيين ، فيخروج الصليبيين من المدينة فقد رحلوا معهم وقل عددهم بها بعد ذلك (١٠٧) .

أما عن الاقباط فقد كانوا أقل الطوائف المسيحية عددا في بيت المقدس ، والدليل على هذا ما تشير إليه بعض المراجع من أن مكانهم في كنيسة القيامة كان يخلو منهم بسبب تغيهم وسفرهم الى القاهرة (١٠٨) كذلك تجب الإشارة الى أنه وجدت اعداد ضئيلة جدا من أبناء بعض الطوائف المسيحية الاخرى مثل الموارنة واليعاقبة والنساطرة ، إلا أن أعدادهم لم تكن لتذكر لذلك أهملنا الحديث عنهم .

ومع تعدد الطوائف المسيحية في بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، والتي أشرنا اليها في الجدول السابق ، سواء ما يختص منها بطوائف الارثوذكس أو الكاثوليك ، الا أننا في الصفحات التالية سنتناول بشيء من التفصيل الكلام عن طائفتي الرهبان الفرنسيسكان والاحباش ، وذلك لما لهما من دور سياسي بارز فرضته ظروف اقامة أبناء تلك الطائفتين عليهما وكذلك الظروف السياسية التي احاطت بدولة سلاطين المماليك في تلك الفترة التي تتناولها بالبحث . هذا فضلا عن أن سياسة سلطنة المماليك وعلاقتها بالدول المحيطة بها ، كان رد فعل لها على أحوال هاتين الطائفتين بوجه خاص .

الاحباش :

من المعروف أن الاحباش قد تنصروا خلال القرن الرابع الميلادي ، وجاءوا إلى القدس حيث دفعهم الايمان الجديد إلى زيارة بيت المقدس والعيش فيها منذ ذلك الحين ، وكان لهم فيها كنائس وأديرة كثيرة الا أنهم اضاعوا اكثرها من ايديهم ، ولم يبق في أيديهم منها سوى دير الحبش وهو ملاصق لكنيسة القيامة فوق مغارة الصليب وقيل أنه جزء من دير السلطان للاقباط ، ذلك الدير الذي لم ينقطع الخلاف حوله بين الاقباط والاحباش (١٠٩) .

هذا وتصف كثير من المصادر المعاصرة وبخاصة الاوربية منها ، هؤلاء الاحباش الذين شوهوا في بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك ، بأنهم كانوا سود البشرة قبيحي المنظر سواء الرجال منهم أم النساء ، وأنهم كانوا يرتدون ملابسهم بطريقة رديئة ، وأن لهم لغتهم الخاصة بهم وكذلك أعجديتهم التي كانوا يستعملونها في كتاباتهم ، ورجال الدين لديهم يحبون حياة قاسية ، وهم يظلون طوال الليل داخل كنيسة القيامة ، يرددون ترانيمهم الدينية الخاصة بهم ، يصفقون ويقفزون في الهواء أثناء اندماجهم في تلك التراتيل ، وهم يعيشون في كنيسة القبر المقدس ، وفي بعض الكنائس الأخرى حول كنيسة القبر المقدس (١١٠) . كما أنهم كانوا يغطون رؤوسهم سواء الرجال أم النساء منهم بقماش من اللون الازرق ، ويرتدون ملابس ملونه ، وفي سلوكهم فهم متواضعون جدا ، ويمشون حفاة الاقدام ، ويشربون وجوههم منذ طفولتهم بحيث يظهر الصليب على جباههم ، وحيانا على أنوفهم أو حدودهم معتقدين أن هذا نوع من المعمودية لغفران الذنوب والخطايا ، وفي عيد فصحهم يلتقي الرجال والنساء معها ، ويقومون بأداء بعض الرقصات والأغاني بطريقة خرافية وبصخب شديد ، حيث يقضون الليالي على هذه الحال ، ويبدأون رقصهم بضرب الأكف ، وكثيرون منهم يرقصون في دائرة ، ويقومون بالرقص بعنف لدرجة أن بعضهم يسقط مغشيا عليه ، وكما أنهم يتحدثون بلغتهم الخاصة ، فهم يعرفون العربية أيضا (١١١) .

هذا وتشير بعض المراجع إلى أن الاحباش في بيت المقدس ، كانوا اذا بدأوا صومهم حوالى عيد الفصح مثل الأرمن فلا يأكلون الا الفاكهة والنباتات ، أما رجال الدين لديهم فكانوا لا يأكلون اثناء فترة الصوم الا الخبز والماء ، وباقي افراد الطائفة يفعلون مثلهم في أيام الاربعاء والجمع على مدار السنة ، كما أن رجال الدين لديهم يتزوجون ، كما أنهم لا يعترفون بخطاياهم أمام احد الا الرب (١١٢) . وتشير بعض المصادر إلى أن هؤلاء الاحباش قد تمتعوا بكثير من الامتيازات في بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك ، منها أنهم كانوا يعفون من دفع الجزية ومن كل الضرائب الاخرى ، فضلا عن أنه سمح لهم بالتنقل في البلدان التي خصصت لدولة سلاطين المماليك دون فرض أية قيود عليهم ، بحيث أن منهم من كل يحمل جواز سفره ويتنقل في الشرق كله دون عائق ، بل ويشير الاب سوريانوا الذي عاش في القدس في الفترة من ١٤٩٣م / ٨٩٩هـ — ١٥١٥م / ٩٢١هـ إلى أنه عندما يصل مبعوث ملكهم لديهم في بيت المقدس فانهم يعطون مفاتيح كنيسة القيامة ، ويجعلونها مفتوحة طوال الليل ويستطيع كل واحد أن يدخلها دون دفع أية مبالغ ، ويعلل ذلك بأن سلاطين المماليك كانوا

يفعلون ذلك لكى يحظوا بالقبول لدى ملكهم وحتى لا يحرمهم من مياه النيل ، على الرغم من أنه لا يمكن أن يمنع مياه النيل من الوصول إلى مصر ، كذلك لا يمكنه تحويله (١١٣) .

كما أن المصادر والمراجع لم تشر إلى عدد هؤلاء الاحباش في عصر سلاطين المماليك في مدينة بيت المقدس ، فبينما يرى أحد الباحثين أنه لم يكن يقيم بالقدس سوى عدد بسيط فإن فابري الذى زار بيت المقدس في أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، يروى أن كثيرا من الاحباش كانوا يقيمون في المدينة وفي المناطق المجاورة لها (١١٤) . إلا أن ابن طولون في حديثه عن سنة ١٤٨١هـ / ١٤٨١ - وهى تقريبا نفس المدة التى بدأ فيها فابري زيارته الاولى للمدينة - يروى لنا « أن جماعة من نصارى الحبش ، نحو ثلاثة الاف نفس دخلوا القدس لزيارة القيامة ... » (١١٥) . ولعل هذا العدد الكبير من الاحباش والذين أتوا لزيارة كنيسة القيامة كما هو واضح من النص ، وهو الذى جعل فابري يردد أن عددهم كان كبيرا ، كذلك يذكر لنا مجير الدين في حديثه عن الطاعون الذى انتشر في بيت المقدس عام ٨٩٧هـ / ١٤٩١ بأنه « أفنى طائفة الهنود عن آخرهم وة كذلك الحبش ... » (١١٦) وهذا دليل وأضح على قلة اعدادهم في المدينة في تلك الفترة .

أما عن علاقة سلاطين المماليك بالحبشة وأثر هذه العلاقة على الأحباش المقيمين بالقدس ، فيبدو وأنه منذ بداية عصر سلاطين المماليك كانت العلاقة ودية ، حرص فيها ملوك الحبشة المسيحيون على توطيد الصداقة بينهم وبين المماليك نظرا لارتباط الحبشة بالكنيسة المصرية وبطاركة الاسكندرية (١١٧) فبطريك الاسكندرية هو الذى يرسل إلى الحبشة مطرانها الذى هو رأس الكنيسة هناك ، ورئيس هيأتها الدينية ، وهو الذى يتوج الامبراطور وهو الذى يعين القسس المنتشرين في أنحاء البلاد والقرى ، ولقد أدرك ملوك الحبشة في بداية عصر سلاطين المماليك أهمية مصر بالنسبة لهم ، لذا نرى الامبراطور « يكونو أملاك » أول ملوك الاسرة السليمانية (١٢٧٠ - ١٢٨٥) يرسل إلى السلطان الظاهر بيبرس يطلب منه أن يأذن للبطريك المصرى في تعيين مطران للحبشة ، ونراه يعين في اذلال نفسه في مخاطبته للسلطان بيبرس بقوله « أقل المماليك يقبل الارض .. » فأجيب إلى طلبه (١١٨) . كذلك في عهد ابنه « مجبأ صهيون » (١٢٨٥ - ١٢٩٤م) نراه يكتب إلى السلطان قلاوون يجدد الطلب في تعيين مطران مصرى ، بل أنه يخطو خطوة أكثر ايجابية من أبيه ، فيطلب من السلطان أن يحسن معاملته المسيحيين في مصر كما يحسن هو معاملته المسلمين في الحبشة ، كى تقوم على الدوام بين البلدين صلات الود والصداقة (١١٩) . وتشير بعض المصادر العربية الى الاثر الذى ترتب على تلك الاتصالات والعلاقات الحسنة ، فابن عبد الظاهر يروى لنا في حوادث سنة ٦٨٩هـ / ١٢٨٩م أن رسول ملك الحبشة « مجبأ صهيون » قد وصل برسالة إلى السلطان قلاوون مضمونها « أنه أرسل رسولا بسبب السلام ، ومعه لا جل البيت المقدس : ثوب عمل الحبشة ، ومائة شمعة للوقود في الهياكل وسأل انفاذ ذلك للرهبان الحبوش المقيمين بالقدس الشريف ، ويوصى عليهم الا يمنعوا من دخول الهياكل ... » كما يؤكد لنا حرص ملوك الحبشة - وبخاصة عند توليهم الحكم - على ارسال كتبهم إلى الاحباش المقيمين بالمدينة يطلبون منهم ذكر اسمائهم في القداس اليومى وفي الصلوات اليومية التى يقيمونها ، ولم يكن سلاطين المماليك يمانعون في ذلك مادامت هناك

علاقات ودية^(١٢٠) ففي السنة نفسها حل رسول ملك الحبشة بالقدس الشريف وفي يده مرسوم من السلطان قلاوون يأمر فيه بأن يسمح لجميع النصارى بالدخول إلى كنيسة القيامة ، فتسلم مفاتيح الكنيسة ودخل هو وجميع طوائف النصارى بغير كلفة ولا بذل ، وهذا دليل على مدى تأثير وضع الاحباش المقيمين بالقدس ، واستفادتهم من تحسن العلاقات بين سلطنة المماليك والحبشة^(١٢١)

وفي عهد « عمد صهيون » الذى خلف يخباً صهيون توترت العلاقات بين سلطنة المماليك والحبشة نظرا لقيام ملك الحبشة منذ تولية لحكم سنة ١٣١٢م إلى سنة ١٣٤٣م بشن كثير من الحروب ضد مسلمى الحبشة ، والمعروف أنه كان يعاصره فى تلك الفترة السلطان الناصر محمد بن قلاوون والذى تسلم منه احتجاجاً شديداً باللهجة كان يتضمن على حد قول المقرئى « إعادة ما خرب من كنائس النصارى ومعاملتهم بالاكرام والاحترام ، ويهدد بأنه يخرب ما عنده ممن مساجد المسلمين ، ويسد النيل حتى لا يعبر إلى مصر ، فسخر السلطان منه ، ورد رسله ... »^(١٢٢) كذلك طلب السلطان من بطريك الاسكندرية أن يكتب رسالة إلى ملك الحبشة ، نظرا لا عماله الحرية ضد الامارات الاسلامية فى الحبشة ، ولوصول سفارة من مسلمى الحبشة برئاسة عبد الله الزيلعى ، ليتدخل السلطان فى الأمر لحماية مصالح المسلمين فى الحبشة^(١٢٣) .

وتشير بعض المراجع إلى أنه عندما كانت تسوء العلاقة بين الحبشة وسلطنة المماليك فى مصر ، فاننا نسمع كثيرا عن التهديد الذى غالبا يردده مملوك الحبشة بقطع مياه النيل عن مصر ، ومنع النيل من الوصول اليها^(١٢٤) ومن المرجح أن سلاطين المماليك قد أدركوا عدم قدرة الاحباش على ذلك ، والدليل على ذلك قول المقرئى فى رد السلطان الناصر محمد بن قلاوون على رسالة « عمد صهيون » « فسخر السلطان منه ، ورد رسله ... »^(١٢٥) كذلك من المرجح أن وضع الاحباش فى بيت المقدس كان يتأثر من سوء العلاقات هذه ، ويؤكد لنا احد الباحثين هذا من أن ملوك الحبشة كانوا دائما يخشون من رد الفعل لدى سلاطين المماليك الذى قد ينعكس على الرهبان الاحباش فى بيت المقدس^(١٢٦) .

كذلك تجدر الاشارة إلى أن وضع الاحباش فى مدينة القدس قد تأثر بمجريات الاحداث السياسية ، بخاصة بعد طرد الصليبيين من بلاد الشام ، حيث حرصت البابوية منذ القرن الرابع عشر الميلادى بالذات على تقوي صلتها بالحبشة لاتخاذها عونا للغرب الفرنجى لا غلاق الباب الجنوى للبحر الاحمر ، ومنع تجارة الشرق الاقصى من السير فيه إلى مصر وموانئها الشرقية^(١٢٧) . ويبدو أن الاتصالات المتكرره بين الغرب الاوربى من ناحية وبين ملوك الحبشة من ناحية اخرى ، قد نجحت فى استثارة ملوك الحبشة ضد المسلمين وفى جذبهم إلى داخل مجال الحروب الصليبية ، ومن ذلك ما ذكره لنا دى لا بروكبير من أن ملك الحبشة عندما بلغه نبأ إغارة بطرس لوزجنان « لوزيتان » ملك قبرص على الاسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م أعد جيشا ضخما من ثلاثة ملايين وزحف على رأسهم شمالا لمواجهة دولة سلاطين المماليك من الجنوب ، ولكنه لم يكد يقترب من تلك الحدود حتى علم بانسحاب بطرس لوزجنان ، فقفل راجعا إلى بلاده بعد أن خسر فى تلك العملية زهاء

مليونين من رجاله ، الرغم مما في هذه الارقام من مبالغة واضحة . الا أنها تشير الى وجود اتصالات بين ملكي قبرس والحبشة ، كذلك تظهر هذه الاتصالات بشكل واضح في عهد الملك اسحق الاول ملك الحبشة (١٤١٤ — ١٤٢٩ م) والذي فكر في القيام بحملة صليبية كبرى ضد المماليك في مصر ، ولعل هذه الاتصالات بين ملوك الحبشة وملوك الغرب الاوربي هي التي جعلت سلاطين المماليك في مصر يحتاطون لا أنفسهم ويراقبون البحر الاحمر مراقبة دقيقة ولا يسمحون للاوربيين باجتيازه الا بتصريح خاص من السلطان^(١٢٨) . ولعلمهم راقبوا طائفة الاحباش المقيمين بالقدس مراقبة دقيقة ، ذلك لانه على رغم من أن السلطات المملوكية كانت تعمل جاهدة على منع الاتصال بين ملوك الحبشة والفرنج ، فان الفرنج كانوا على علم تام بتطور العلاقات بين المماليك والحبشة ، وذلك عن طريق الاتصال بين الرهبان الاحباش والرهبان الفرنسيين المقيمين سوا في بيت المقدس ، أوعن طريق حجاجهم الذين يفدون إلى فلسطين ، وتجارهم الذين يترددون على أسواق مصر والشام . وكان الفرنج بالمرصاد لكل محاولة للتقارب بين الحبشة ومصر ، كما كانوا يتحينون الاوقات التي تحدث فيها القطيعة بين البلدين للعمل على تحقيق مشروعاتهم ، من ذلك أن البابوية انتهزت فرصة سوء العلاقات بين مصر والحبشة عقب وفاة السلطان برسباي ، بأن وجهت الدعوة لزراع يعقوب ملك الحبشة للاشتراك على يد البابا ايوجين الرابع ، والذي نجح في تحقيق مسعاه عن طريق الاتصال برئيس رهبان الاحباش بالقدس نيقوديموس Nicodemus الذي أوفد راهبين من الاحباش لحضور هذا المجمع . ويقال في هذا الصدد أن الراهبين وافقا على مبدأ توحيد الكنيسة المسيحية ، وسارع البابا إلى اتخاذ الخطوات الايجابية لتحقيق هذه الوحدة ، فأوفد في نفس العام لدى زراع يعقوب أحد الرهبان الفرنسيين يدعى البرتود اسارتانو Alberto de Sartano وجاء الرسول البابوي رتشفوف بمقابلة السلطان متلمسا منه أن يمنحه هو ورفاقه جوازا للمرور إلى الحبشة ، ولكن السلطان جقمق رفض اجابة طلبه ، ومن ثم عدل الراهب ألبرتو عن الوصول إلى الحبشة عن طريق مصر فغادرها إلى شبة جزيرة القرم ، ومن هناك اتبع طريق طرايزون والخليج العربي ثم البحر الاحمر ، ولكنه توفي في الطريق ، وترك اتمام المهمة إلى زميل له في الرحلة وهو راهب آخر من الفرنسيين يدعى توماسو Tommaso ، حيث لم يقدر له هو ورفاقه دخول الحبشة حيث وقعوا اسرى في أيدي السلطات المملوكية اثناء عبورهم البحر الاحمر^(١٢٩) .

ومع هذا فقد فشلت جهود البابا في تحقيق الوحدة ، وفي نفس الوقت ازدادت العلاقات بين زراع يعقوب والسلطان جقمق توترا بسبب أنه عاد إلى مشروع أبيه اسحق للتحالف مع الفرنج للقيام بحملة صليبية عامه ضد مصر . فالحرب التي شنها ضد المسلمين بالحبشة استمرت بضع سنوات ، كذلك اتجه إلى الفونسو الخامس ملك ارغونة ، لتحقيق مشروعه الصليبي ، الا اننا نلاحظ أن زراع يعقوب انصرف عن مشروعه هذا وأثر المسألة مع مصر واعادة علاقات حسن الجوار والمودة بين الدولتين ، ولعل السبب في ذلك راجع الى الضغط الذي مارسه السلطان جقمق عليه عن طريق بطريك الاسكندرية وربما عن طريق الرهبان الاحباش — المقيمين بالقدس أيضا ، فضلا عن أن الحرب بين الحبشة وملوك الطراز الاسلامية كانت قد هدأت ، مما ساعد على تحسن العلاقات بين البلدين ، مما

ساعد على عودة العلاقات الطبيعية بين البلدين في عهد السلطان عثمان بن جقمق الذى خلف أباه على العرش سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م (١٣٠) .

وما لا شك فيه أن وجود علاقات طبيعية بين البلدين كان له انعكاسه على الاحباش المقيمين بالقدس ، وهذا ما يؤكد لنا مجير الدين في حديثه عن أحد أفراد هذه الطائفة ، بأنه أخطأ في حق النبي ﷺ فرفع أمره إلى قاض القضاء الحنبلى شمس الدين العليمى « واعترف عنده بما صدر عنه فخوفه بعض الناس قال له أن هذه الطائفة للدولة بها اعتناء ونخشى عاقبة هذا من جهة السلطان ... » (١٣١) كذلك يشير ابن اياس في ذكره لحوادث عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م عندما زار وفد حبشى القاهرة في طريقة إلى بيت المقدس ، فقد أكرم السلطان قانصوه الغورى أعضاء هذا الوفد وأمر بالمحافظة على سلامتهم أثناء تواجدهم وسفرهم الى بيت المقدس لزيارة كنيسة القيامة (١٣٢) .

من هذا العرض السريع عن طائفة الأحباش بمدينة بيت المقدس ، يتضح لنا أن هذه الطائفة قد لعبت دورا سياسيا هاما في مجريات الامور ، سواء عن طريق اتصال افرادها بجماعات الرهبان الفرنسيسكان اما لتحقيق الاتصال بين الغرب الاوربي والحبشة لتنفيذ بعض المشاريع الصليبية ضد المماليك ، واما لاهداف دينية كما سبقت الاشارة بذلك مثل محاولة اتحادهم مع كنيسة روما الامر الذى لم يتحقق ، وكان من الطبيعى أن يتأثر وضع ابناء هذه الطائفة تبعا لتطور العلاقات بين سطنة المماليك والحبشة .

الفرنسيسكان :

من المعروف أن طائفة الرهبان الفرنسيسكان تنسب إلى مؤسسها فرنسيس الاسيسى (١١٨٢ — ١٢٢٦م) ، الذى نشأ في اقليم آسيسى Assisi في شمال ايطاليا ، والذى كان يدعو الناس لان يحيا حياة السيد المسيح عليه السلام بما فيها من بساطة وزهد وتقشف قدر طاقتهم ، وتجمع حوله الكثيرون من الاتباع ، وسرعان ما تحولت هذه الجماعة إلى جماعة ديرية على نسق الجماعة الدومينيكانية (١٣٣) . وهؤلاء الرهبان هم الذين يلقبهم المقدسيون « برهبان ألى حيلة » ولعل السبب في تلك التسمية راجع لكونهم كانوا يلفون حول وسطهم قطعا من الحبل ، ويرى بعض الباحثين أن البابا جريجورى التاسع (ت ١٢٤١م) قد عهد اليهم بخدمة كنيسة القيامة عام ٦٣٥هـ/١٢٣٦م وانهم تزعموا حراسة الاماكن المقدسة اللاتينية منذ سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م (١٣٤) بينما يرى فريق آخر أن اقامة هؤلاء الرهبان الفرنسيسكان في بيت المقدس انما ترجع إلى عام ٦١٨هـ/١٢١٩م ، ففى ذلك العام سمح لهم المعظم عيسى سلطان دمشق بناء على طلب أخيه الملك الكامل صاحب مصر - بالاقامة في مقر متواضع فوق جبل صهيون ينقطعون فيه للعبادة والحماية الاماكن المسيحية المقدسة القائمة فوق الجبل والمتعلقة بحياة السيد المسيح ، وهى على وجه التخصيص : عليه صهيون ، وقاعة الحوارين ، وقد تمكن الرهبان الفرنسيسكان من أن يحصلوا من السلطات الأيوبية عام ٦٤٥هـ/١٢٤٥ على حق توليهم رعاية الأماكن المقدسة ، وفي عام

١٧٣٦هـ/١٣٣٥م أتيحت لهم فرصة توسيع مقرهم الاول وبناء دير صهيون الذى ضم عليه صهيون وكنيستها وكذلك الأماكن المسيحية الأخرى المجاورة لها فوق الجبل (١٣٥).

بينما يرى فريق ثالث من المؤرخين أن هؤلاء الرهبان قد قتلوا على أيدي الخوارزمية عندما جاءوا إلى المدينة واجتاحوها سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٤م ، ولم يبق لهم أثر بها وحتى سقوط مدينة عكا وطرده الصليبيين من بلاد الشام ، وكذلك في الفترة التي تلت ذلك إلى الربع الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ، فقد أجبروا على الإنسحاب من بيت المقدس ، ولم يظهروا في المدينة إلا على شكل حجاج فقط (١٣٦).

والحقيقة أننى أميل إلى هذا الرأى الأخير لأن الأب سوريانو وهو الذى تولى رئاسة هذه الطائفة ، وكما سبقت الإشارة بذلك يقول فى تأريخه لهم ، أنه بسقوط عكا عام ١٢٩١ م فى أيدي المسلمين وخروج الصليبيين من بلاد الشام ، فقد أجبر الفرنسيسكان على أن ينسحبوا إلى جزيرة قبرس ، وظلوا يتحينون الفرصة لكى يعودوا إلى الأرض المقدسة ، وقد تم لهم ذلك عام ١٣٣٥ م ، ومن خلال ما حصلوا عليه من تصريح استطاعوا أن يؤسسوا لهم ديراً فى جبل صهيون ، وعند عودتهم أخذ الرهبان الفرنسيسكان يقدمون خدماتهم للمسيحيين فى بيت المقدس يقصد بذلك الحجاج الغربيين - وبيت لحم ويساعدون الأوربيين من الحجاج فى فلسطين ، وقد اختار أبناء هذه الطائفة رئيساً لهم أطلق عليه لقب « حارس جبل صهيون » ، وقد كانت له السلطة العليا فوق كل أفراد الطائفة فى الأماكن الأخرى ، وكان الأب سوريانو أحد رؤساء الطائفة الذين حملوا هذا اللقب سنة ١٤٩٣ م (١٣٧) فضلاً عن أن الرحالة سيرجون مانديفيل الذى زار القدس عام ١٣٢٢ م لم يشر إلى وجود أولئك الرهبان الفرنسيسكان فى حديثه عن الطوائف المسيحية التى شاهدها داخل كنيسة القيامة وأثناء زيارته للمدينة ، فى حين أنه تحدث عن وجود بعض الرهبان اللاتين من طائفة الدومينيكان الذين شاهدهم داخل كنيسة القيامة (١٣٨) . أضف إلى ذلك أن ملك أرغونه Jaime II أرسل إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فى سبتمبر عام ١٣٢٢ م رسالة يطلب فيها أن يعهد السلطان إلى الرهبان الدومينيكان الأرجونيين بحراسة القبر المقدس وإدارة شعونه ، وأن السلطان وافق على قيامهم بذلك العمل ، ثم فى أغسطس عام ١٣٢٧ أرسل خادمه المخلص Pero de Mijaville وزوده برسالة إلى السلطان رجاء فيها أن يعمل على إحلال الفرنسيسكان الأرجونيين محل الدومينيكان فى القيام بخدمة القبر المقدس (١٣٩) . وهذا خير دليل على صحة الرأى القائل بأن الرهبان الفرنسيسكان لم يكونوا موجودين فى بيت المقدس فى الفترة من ١٢٤٤ عقب اكتساح الخوارزمية للمدينة وحتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى . ويؤكد لنا فابرى تلك الحقيقة بما لا يدع مجالاً للشك بقوله ، أنه عقب طرد الصليبيين من بلاد الشام ، فإن البابا نيقولا الرابع (ت ١٢٩٢ م) والذى كان ينتمى إلى طائفة الفرنسيسكان* أرسل عقب سقوط عكا سنة ١٢٩١ م يطلب من السلطان الأشرف خليل بن قلاوون أن يسمح لبعض رجال الدين اللاتين أن يقيموا فى بيت المقدس لحماية القبر المقدس ، وقد طلب منه ذلك لكى ينتشر ذكره العظيم فى كل الغرب كما هو فى الشرق ، وقد أجاب السلطان هذا الطلب للبابا ، وسمح له بأن يرسل بعض الرهبان إلى بيت المقدس ، وحتى اعلى العرش البابوى سنة ١٢٨٧ م .

عام ١٣٠٣ م لم يكن لهؤلاء الرهبان مكان يقيمون فيه (١٤٠) .

ويؤكد لنا كل من فريبكو بالدى وجوسى اللذان زارا بيت المقدس عام ١٣٨٤ م أنه كان لهؤلاء الرهبان الفرنسييسكان كنيسة لطيفة يسكنونها ، ولهم رئيس وحوالى ثمانية من الراهبات من الطائفة الفرنسييسكانية ، وقد قاموا بخدمة الحجاج المسحين (١٤١) .

وارتبط تاريخ الرهبان الفرنسييسكان فى بيت المقدس باقامتهم فى جبل صهيون فى هذا الدير الذى يضم المقدسات المسيحية فوق الجبل ، وبالإضافة إلى بعض الكنائس والادير الاخرة والتي سبقت الإشارة إليها (١٤٢) .

ومن المرجح أن اعداد الرهبان الفرنسييسكان آنذاك كانت قليلة بالنسبة لغيرهم من أبناء الطوائف المسيحية المختلفة ، وخير دليل على هذا ما يرويه لنا بعض المؤرخين الغربيين أنفسهم ، من أنه كان بكنسية القيامة اثنان فقط من الرهبان الفرنسييسكان ، كما أن عدد الرهبان فى دير صهيون كان اثنين وأربعين راهبا ، وفى بيت لحم كان عددهم ستة رهبان ، كما وجد عدد مماثل فى كنيسة بيت لحم (١٤٣) . أما عدد الراهبات الفرنسييسكان فى جبل صهيون فقد بلغ احدى عشرة راهبة (١٤٤) ومن المرجح أن تكون اعداد هؤلاء الرهبان قد زادت بشكل ملحوظ ابتداء من القرن الخامس عشر ، اذ نسمع فى المراسيم الصادرة اليهم من كل من السلطان برسباى فى سنة ٨٣١هـ / ١٤٢٧ م والسلطان خشقدم فى سنة ٨٦٩هـ / ١٤٦٤ م بأن من حق رئيس الطائفة فى جبل صهيون اختيار اثنين وثلاثين أو اربعين من رهبان دير جبل صهيون ليحظوا ببركة الخدمة والتعبد داخل كنيسة القيامة ، وأن بيد لهم بغيرهم (١٤٥) كذلك تشير بعض المصادر إلى أن عدد أولئك الرهبان قد تناقص بشكل ملحوظ فى أواخر عصر السلاطين المماليك ، ففى سنة ٩١٣هـ / ١٥٠٧ م كان عددهم فى ديرهم فى جبل صهيون لا يزيد على العشرين ، وفى دير اللاتين فى القدس كان خمسة أو ستة من الرهبان ، وفى بيت لحم خمسة من الرهبان (١٤٦) .

وتشير بعض المصادر إلى أنه كان يفرض على أولئك الرهبان أن يظلوا فى جزيرة كريت مدة ثلاث سنوات قبل أن يتوجهوا إلى بيت المقدس ، وإذا حدث ومات أحدهم قيرسل بدله شخص آخر ويحل فى حجرته ومكانه (١٤٧) كما تجب الإشارة إلى أن سلاطين المماليك حرصوا على حماية أولئك الرهبان ، وحماية من ينزل فى ضيافتهم ، فقد جرى العرف أن يقيم معهم فى ديرهم بجبل صهيون اثنا عشر مملوكا بصفة دائمة (١٤٨) . أما عن راهبات الفرنسييسكان فكان من السيدات الايطاليات المستنات ، وكن يقمن بخدمة الرهبان عن طريق غسل وحيابة ملابسهم ، فضلا عن أنهن كن يتعبدن فى كنيسة الرهبان ، ويبدو أنهن كن يقمن أيضا بخدمة بعض الحجاج المسحين وبخاصة رجال الدين منهم ، يروى لنا فابرى أنهن كن يغسلن له رداءه ويقدمن له بعض الخدمات فترة تواجده فى المدينة (١٤٩) .

ويبدو أن أولئك الرهبان عاشوا عيشة فقيرة تتسم بالبؤس والشقاء فى بداية وجودهم ببيت المقدس ، حيث اعتمدوا فى طعامهم وثيابهم على سخاء واحسان الكرماء الغرباء الذين يفدون إلى

الأرض المقدسة ، والدليل على فقرهم أنهم في رحلاتهم وتنقلاتهم لم يكن لديهم سوى بغلة واحدة يركبها رئيس الطائفة ، بالإضافة إلى ثلاثة من الحمير ، وكان يعتبر حدثا اذا لوحظ احضارهم لخمير جديد ، كما أن حجرات الرهبان لديهم كانت قليلة (١٥٠) ، والتي كانوا يعيشون فيها كل راهب في حجرة بمفرده ، الا أنه في عيد الفصح نظرا لزيادة عدد الحجاج ، ولأنهم كانوا مضطرين لا ستضافة ربانة السفن التي تقل الحجاج مع بعض معاونهم ، بالإضافة الى رجال الدين من الحجاج ، فكان الرهبان يتركون حجراتهم وينامون كل ثلاثة أو اربعة في حجرة واحدة (١٥١) .

أما عن رئيس الطائفة ، فقد كان يطلق عليه لقب حارس أو كفيل جبل صهيون ، وحارس الأرض المقدسة ، وكان يشترط فيه أن يكون من ابناء الطائفة ، غالبا ما يكون ايطاليا حسبا يروى الاب سوريانو ، ويعينه البابا كل ثلاث سنوات ، وله نائب يتم اختياره ، ايضا ، كذلك كان لديهم وكيل للطائفة أسباني الجنسية ويعين مدى الحياة ليدبر ممتلكاتهم اما عن اختصاصات رئيس الطائفة فإنه كان يرأس أبناء الطائفة ، ولا يستطيع أحد من الرهبان مهما كان أن يعيش مع الطائفة دون اذن الرئيس ، كما كان من حقه فصل أى راهب لا ينفذ اوامره ، ومن سلطته أن يرسل الرهبان لجمع الصدقات والتذوق والعشور إلى جميع انحاء العالم ، ولا أحد يستطيع عصيان هذا الامر ، كذلك من حقه أن يقبل في الطائفة كل من يريد الانضمام إليها من الرجال والنساء ومن حقه أن يرفضهم ، كما من حقه أيضا تعيين المبشرين أو الدعاة ، ومن اختصاصاته كذلك تخلص المسيحيين من الآثام أو منحهم الغفران فيما عدا القتل والتزوج من امرأة أخرى ، وكذلك ابطال بعض حالات الزواج ، وكان من سلطته فرض بعض ايام للصوم ، الى جانب تأسيس بعض الكنائس ومنح البركة ، ومباركة الزواج ، كذلك من حقه اصدار قرارات الحرمان على أفراد الطائفة ، ومعاقبة رجال الدين الذين يحضرون الى الأرض المقدسة دون إذن من رؤسائهم ، كما كان من حقه ممارسة الطقوس الدينية من منتصف الليل وحتى الصباح (١٥٢) .

ومن أهم الأعمال التي قام بها أبناء طائفة الفرنسيسكان بالإضافة الى الخدمات التي أشرنا اليها - التبشير ، فمنذ وطئت أقدامهم الأرض المقدسة فقد عمد هؤلاء الرهبان الى التبشير بين أكبر عدد ممكن من الناس ، ويبدو أنهم قد نجحوا في اجتذاب بعض العناصر المسيحية المحلية اليهم ، حيث يحدثنا الاب سوريانو أنه في عام ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م ، حدث اتصال بينهم وبين الأرمن في القدس لكي يخضعوا لكنيسة روما ، وفعلا خضعوا لمدة عشر سنوات ، فضلا عما يرويه من أن الرهبان الفرنسيسكان - لعبوا دورا هاما في التقارب الذي حدث بين البابوية وبين طائفة الموارنة في بلاد الشام وهذا خير دليل على الدور التبشيري لهم . الا أنهم قد فشلوا في تلك المهمة بالنسبة للمسلمين ، حيث يقول سوريانو أيضا أن الرهبان قد لا قوا الكثير من معارضة المسلمين المتحمسين في بيت المقدس ، كما أنهم كانوا معرضين دائما لان يتجرأ الكثير من المسلمين لدخول بيوتهم في جبل صهيون ، وأن يأخذوا ما يحلو لهم من طعام وفاكهة ، وأن يسكبوا النبيذ الذي يبذل الرهبان جهدا كبيرا في اعداده ، وكان هذا هو وضعهم في عصر سلاطين المماليك (١٥٣) .

ومن المرجح أن يكون ما تعرض له أبناء هذه طائفة ، في بيت المقدس من عداء وما لاقوه من معارضة كان السبب ما ذكره لنا الاب سوريانو من أنهم في عهد رئيسهم السابق عليه Br John الالمانى قد كونوا جماعة من الفرنسان لحماية أبناء الطائفة والدفاع عنها ، وكذلك للدفاع عن الحجاج المسيحيين الذين وكل لهم حمايتهم (١٥٤)

أما عن دروهم الخاص بالحجاج المسيحيين الغربيين ، فكانت مهمة استقبال هؤلاء الاوربيين ومرافقتهم في الاراض المقدسة ، وفي زياراتهم مدة حجهم ترجع الى رئيس دير جبل صهيون بالقدس ، حيث لم يكن في استطاعة هؤلاء الحجاج مباحرة السفينة المقلّة لهم الى ميناء يافا الا بعد حضوراً أمير الرملة ونائب السلطنة بالقدس ورئيس دير جبل صهيون ، حيث كان الاخير بمثابة الكفيل لهؤلاء الحجاج ، فضلا عن كونه المرشد لهم من يافا الى بيت المقدس (١٥٥) كذلك كان يصحبهم لزيارة نهر الاردن ، ثم الى بيت لحم وعين كارم ثم في طريق العودة الى يافا ، وكان يقوم بهذا العمل مع الحجاج الذين يتحدثون باللغة الايطالية بنفسه أو اللاتينية اذا كان ايطالى الجنسية ، اما غير ذلك من الحجاج فكان له مساعدون يقومون بهذا العمل (١٥٦) كما كان يشترط على هؤلاء الحجاج منذ البداية ، في التعليمات التى كان يصدرها لهم عند استقباله لهم ضرورة اظهار احترامهم لدير الرهبان الفرنسيسكان في جبل صهيون ، وأن يقدموا مساعداتهم من صدقات وهبات للدير ، فضلا عن مساعدة الرهبان الذين يخدمونهم والذين يقيمون بين المسلمين من أجل راحتهم (١٥٧) كما تحب الاشارة الى أن أولئك الرهبان كانت لديهم أماكن مخصصة لنزول الحجاج في الأرض المقدسة في كل من الرملة وبيت المقدس (١٥٨) .

أما عن مواردهم المالية ، فكان افراد طائفة الرهبان الفرنسيسكان يعيشون على مبالغ الصدقات والعشور والنذور التى كانت تجبى لهم من أوربا ، فضلا عما يقدمه لهم الحجاج من هبات وأموال ، بالإضافة إلى ما يرويه لنا بعض الرحالة الذين زاروا بيت المقدس أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، من أنهم كانوا يعتمدون على المبالغ التى كانت ترسل لهم كهدايا وهبات ، فان الدوق فيليب دوق برجنديا أوقف على الاماكن المقدسة سنويا مبلغا يقدر بألف دوكات طوال حياته ، كما فعل أيضا ابنه شارل الشجاع وكذلك ما كسيميلان الاول ، فقد استمروا في تدعيم ومساندة أولئك الرهبان الفرنسيسكان بالأموال والهبات والنذور (١٥٩) .

الإ أننا نلاحظ أنه في أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، فإن دخلهم الرئيسى أصبح يعتمد على المبالغ التى ترد إليهم عن طريق التجار الاوربيين في كل من بيروت ودمشق وحماة والاسكندرية والقاهرة ، كما يشير بوم جارتن الذى زار القدس سنة ١٥٠٧م إلى أن هؤلاء الرهبان أصبحوا يدينون بالكثير للبنادقة ، وهو الذين يحصلون من كل سفينة عند ابحارها على دوكات ذهب ، وهذا بدوره يشكل مبلغا من المال كبيرا ، ثم يدفع البنادقة تلك المبالغ لا خواتم الرهبان الذين يعيشون في Candy والذين يقومون بدورهم بتحويل تلك المبالغ إلى اخوانهم في بيت المقدس ، كذلك يشير إلى أن لويس ملك فرنسا أرسل لهم خمسمائة دوكات مع أحد الاشخاص المسافرين معه (١٦٠) .

كذلك يشير أحد الباحثين إلى أنه قد عثر على وثيقة حررها الملك هنرى الثامن ملك إنجلترا مؤرخة بتاريخ ١٥١٦م يتبرع فيها بارسال صدقة سنوية تبلغ قيمتها ألف جنيه ذهبي أو مبلغا يعادلها من المال للرهبان الفرنسيين في بيت المقدس ولم يكن هنرى وحده الذى يرسل تلك المبالغ ، بل اننا نجد كثيرا من النبلاء فى فرنسا وأسبانيا والبرتغال وألمانيا وبولنده والبندقية ونابلى وروما ، ومن البلاد الأخرى يتنافسون لإرسال تلك الاموال والهبات ، كذلك يحتفظ الرهبان بسجلات لديهم بها أسماء كبار الشخصيات من الامراء والنبلاء والفرنسيين من الذين زاروا ادبرتهم فى بيت المقدس وغيرها من المدن فى الارض المقدسة ، وكذلك من الحجاج ورجال الدين ومقدار ما تبرعوا به من أموال (١٦١) .

وفى هذا العرض خير دليل على مدى ما تمتع به اولئك الرهبان من ثروة عقب استقرارهم فى بيت المقدس وعلى وجه التخصيص منذ القرن الخامس عشر الميلادى ، ولعل تلك الاموال التى تدفقت عليهم كانت عاملا مؤثرا فى تغيير حياتهم من فقر إلى غنى ورغد من العيش بسبب تلك الاموال ، فضلا عما نالوه من عطف البابوية عليهم ، وتأييد ملوك الغرب الفرنجى لهم فى ذلك الوقت حيث خصصوا لهم الكثير من الاموال ، وليس أدل على تلك السعة من العيش مما يرويه لنا الاب سوريانو من حرص بعض رؤساء الطائفة بما فيهم هو ، على أن يشتروا بعض المنازل والاراضى المحيطة بالدير الخاص بهم فى جبل صهيون (١٦٢) ، وكذلك ما كانوا ينفقونه من أموال كثيرة للعناية بالاماكن التى آلت إليهم من كنائس وأديرة ، وعلى المستشفى المخصص للغرباء (١٦٣) .

وترجع أهمية الحديث عن أبناء هذه الطائفة لا بوصفهم رهبانا منقطعين للعبادة لهم ما لغيرهم من طوائف الرهبان من حق الرعاية التى تتمثل فيما توفره الدولة لهم من أمن وطمأنينة ، لكن بوصفهم من الفرنج المقيمين فى بيت المقدس يجمعهم واخوانهم فى أوطانهم فى الغرب هدف سياسى واحد ، وينعكس عليهم صدى علاقات دولة سلاطين المماليك بدول الفرنج ، فإذا أدركنا هذه الحقيقة الخاصة بوضعهم فى بيت المقدس لادررنا أنه يجب علينا الا تقتصر فى دراسة أوضاعهم على الناحية الدينية فقط ، وبعبارة أخرى أنه كان هؤلاء الرهبان دور سياسى هام طوال عصر سلاطين المماليك .

ويتضح لنا الدور السياسى لطائفة الرهبان الفرنسيين فى بيت المقدس فى ذلك العصر ، مما قام به هؤلاء الرهبان من اتصالات بين ملوك الفرنج والبابوات من جهة وبين ملوك الحبشة من جهة أخرى لتحقيق اتصالاتهم بالبابوية وملوك الغرب الاوربي اما لكونهم جواسيس لهم فى القدس ، أو لتحقيق بعض مصالح الرهبان الخاصة ، أو كسفراء سياسيين لسلاطين المماليك ، حيث لم يكن لدولة سلاطين المماليك تمثيل دبلوماسى أو سفراء سياسيين مع دول الغرب (١٦٤) . وسنورد هنا بعض الامثلة التى تؤكد هذا الدور السياسى المتنوع .

لعب الفرنسيين دورا تجسسيا لحساب الغرب ، فقد كان رئيس هذه الطائفة هو الذى تولى ابلاغ البابا نيا فشل السفارة الكاثوليكية للحبشة والقبض على أعضائها سنة ١٤٤٣م وفشل زرع يعقوب فى اعادة العلاقات الودية مع السلطان جقمق ، وكان الفرنسيين هم الذين نقلوا إلى

الاستبارية في رودس أنباء استعدادات جفمق للهجوم على الجزيرة عام ١٤٤٠م مما جعل السلطان ينتقم منهم (١٦٥) .

وقد استغل الفرنسيون التطورات السياسية لتحقيق مصالحهم الخاصة ، فقد نجح اليهود في اقناع السلطان برسباى في تملك القبو الذى يوجد به قبر داود ، مما أثار ثائرة الرهبان الفرنسيون الذين أبلغوا هذا النبأ إلى البابا مارتن الخامس ، الذى قام بدوره باصدار منشور يحرم على المسيحيين نقل يهود اوربا الى الاراضى المقدسة على سفنهم ، وهدد المخالفين منهم بحرماتهم من الكنيسة ، واستجاب مجلس الشيوخ البندقي ، فأصدر قرارا في يونيو ١٤٢٩ يحرم على ربانة سفن البندقية نقل اليهود إلى فلسطين ، ويهدد كل من يخالف ذلك القرار بتوقيع غرامه كبيرة ، كما كتبوا إلى ملك البرتغال الفونسو الخامس (١٤٣٨ — ١٤٧١) وطلبوا منه توقيع اجراءات انتقامية على المسلمين القاطنين في بلاده بسبب النزاع الذى نشب بينهم وبين اليهود في القدس حول القبو الذى يقال أن به قبر سيدنا داود ، وكان من نتيجة رسالتهم إلى الفونسو الخامس أن دفع رعاية من المسلمين غرامة لشبونة إلى مكاتبة السلطان المملوكى الأشرف اينال أوائل ربيع الثانى ٨٥٨هـ / ابريل ١٤٥٤م يرجونه السماح للرهبان الفرنسيون ببناء ما هدم من كنائسهم وأديرتهم واستعادة القبو الذى انتزع منهم اذا ما ثبت أنه من حقوقهم ، ولكن السلطان رفض الاستجابة (١٦٦) . كذلك فشل الفرنسيون في دفع القراصنة الاوربيين لشن الهجمات ضد السفن والموانى الاسلامية كما فشلوا في استغلال ظروف لجواخى السلطان بايزيد إلى روما لتحقيق مطالبهم بشأن قبر داود (١٦٧) .

كذلك تجب الإشارة إلى أن تطور الحركة الصليبية منذ أواخر القرن الثالث عشر ، وحتى نهاية عصر سلاطين المماليك ، وما ترتب عليه هذا التطور من إيجاد كثير من المشاريع والمحاولات الصليبية لاستعادة الارض المقدسة ، وما نجم عن ذلك من غزوات وهجمات على المدن والموانى الاسلامية لدولة سلاطين المماليك ، كان له أكبر الاثر على وضع هؤلاء الرهبان ، اذا أصبحوا يمثلون في نظر السلطات المملوكة أمم الفرنج مجتمع ، واضطرت سلطنة المماليك وبخاصة عندما تحيق بها الاخطار ان ترسل منهم الرسل والسفراء إلى البابوية وملوك الفرنج لتحقيق نوع من الضغط السياسى على ملوك الغرب والبابوية (١٦٨) .

هذا بالإضافة إلى ما تشير إليه المراجع من أن هذا الطائفة من الرهبان كانت الطائفة الوحيدة من طوائف الرهبان التى لها قنصل يمثلها لدى السلطات المملوكية في ذلك العصر (١٦٩) . ففي حصولهم على حق التمثيل الدبلوماسى ، وتعيين قنصل لهم لدى السلطات المملوكية خير دليل على أن نشاطهم السياسى قد طغى على غيره من الأنشطة ، وبحيث لم يعد النشاط الدينى هو كل ما يشغل بال ابناء هذه الطائفة .

جـ — اليهود :

المجموعة الثالثة من سكان مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك هي مجموعة اليهود ،

وهم يعتبرون بيت المقدس مدينتهم المقدسة واليهما يحجون (١٧٠) ومن الواجب أن نشير أن أحوال اليهود بالنسبة لمختلفة المجالات وفي جميع الاحوال كانت تحت حكم سلاطين المماليك أحسن منها لما كانت مدينة بيت المقدس تحت حكم الصليبيين (١٧١) . إذ المعروف أنه بقدوم الصليبيين إلى بيت المقدس فإنهم لم يبقوا بها يهوديا واحدا على قيد الحياة ، فقد جمعوا اليهود في الكنائس الخاص بهم واشعلوا النيران فيه بمن فيه (١٧٢) . وتحكى لنا المراجع العربية والاوربية عن المعاملة القاسية التي عامل بها الصليبيون سكان فلسطين بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص ، وفيما يختص باليهود ، فقد روى أنه عقب احراق الصليبيين عليهم معبدهم الذي اجتمعوا فيه مات منهم عدد كبير ، وأسر من فر من النار ، وسيقوا لبيعوا في أسواق النخاسة ، وروى أن ثلاثين يهوديا بيعوا بدينار واحد ، وبرر الصليبيون ذلك بأنهم ينتقمون منهم لقتلهم السيد المسيح ، ولقد عانى اليهود من الاضطهاد الصليبي في كل مدن فلسطين ، وشملهم القتل والاسر ، ونتيجة لهذه المذابح الصليبية ، فقد هرب من تبقى من اليهود من مدن فلسطين ناجين بحياتهم إلى أماكن أكثر أمناً ، حتى كادت مدن فلسطين تخلو تماما من اليهود (١٧٣) .

وذكر الرحالة اليهودي بنيامين التپلى الذى زار فلسطين عام ١١٧٣م أنه رأى مدن فلسطين تكاد تكون خالية من اليهود ، حيث يذكر أن مدينة نابلس لم يكن بها من اليهود سوى مائة من السامرة ، وأن بيت المقدس كان بها مائتان من اليهود الذين يسكنون في أحد أركان المدينة تحت برج داود ، أما أغلب سكانها فقد كانوا من اليعاقبة والأرمن والكرج والفرنج ، كذلك يذكر أن بيت لحم لم يكن بها سوى اثني عشر يهوديا كما أنه لم يذكر وجود أى يهودى في مدينة الخليل عند حديثه عنها ، أما في بيت جبريل فقد كان هناك ثلاثة فقط من اليهود ، والرملة كان بها ثلاثة فقط من اليهود ، كما أن يافا كان بها يهودى واحد فقط ، وأنه مر على بعض مدن فلسطين فلم يشاهد بها يهوديا واحدا (١٧٤) .

وتشير بعض المراجع إلى أن أعداد اليهود في بيت المقدس في فترة الحكم الصليبي كانت آخذة في التزايد ، بخاصة منذ بداية القرن الثانى عشر الميلادى ، وذلك نتيجة لكثرة هجرات اليهود من اسبانيا وشمال إفريقيا والذين اتخذوا من فلسطين موطناً لهم بسبب حركة الاضطهاد الدينى (١٧٥) الا اننا نرى أن الصليبيين وأن كانوا قد أظهروا نوعاً من التقارب مع المسلمين واليهود بعد استيلائهم على بيت المقدس ، فلم يكن ذلك الا لحاجتهم لما يقدمه لهم هؤلاء من خدمات ، سواء لجلب المواد الغذائية وهو ما قام به بعض المسلمين ، أو الخدمات التجارية والتي قام بها عدد محدود من اليهود ، وعلى هذا الاساس فان الحاجة إلى التجارة هى التي دفعت الصليبيين للتصريح لعدد معين من اليهود بالحياة في مدينة بيت المقدس اثناء الحكم الصليبي ، ولم يحدث أن كثرت أعدادهم في تلك الفترة (١٧٦) . أما ما يقال عن الهجرات اليهودية إليها ، فلم نسمع من المصادر التي بين ايدينا عن أية هجرة إلى بيت المقدس في العصر الصليبي ، انما كانت الهجرات في القرن الرابع عشر الميلادى والخامس عشر (١٧٧) . هذا فضلا عما سبق وأشرنا إليه في حديثنا عن رحلة بنيامين التپلى الذى زارها ١١٧٣ من قلة أعدادهم ، ويؤكد لنا الرحالة اليهودى بتاحيا تلك الحقيقة وهو الذى زارها قبل الفتح الصلاحى بسنوات قليلة ، حيث زارها سنة ١١٨٠م ووجد بها يهوديا واحدا (١٧٧) .

وبفتح صلاح الدين لمدينة بيت المقدس عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م تبدأ فترة جديدة بالنسبة لحياة اليهود في المدينة ، فقد رفع حظر سكنى اليهود في المدينة ، وفي فلسطين ، وعندما سمع اليهود بسماحة أخلاق هذا الفاتح العظيم وعدم تعصبه الديني أخذوا في العودة من مخابثهم إلى أرض فلسطين والقدس ابتداء من سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٠م (١٧٩) حيث أمر السلطان بأن يعلن في كل مدينة بالسماح لليهود بالعودة الى بيت المقدس . ولنا أن نسأل مالذي دفع السلطان صلاح الدين لتشجيع اليهود على الإقامة بالقدس عقب فتحها ؟ وللإجابة على هذا التساؤل نستطيع القول أن أعداد المسلمين كانت قليلة في ذلك الوقت في المدينة ، فضلا عن أن ظروف المدينة ووجود عد ورايض على مقربة منها يتحيز الفرصة للوثوب عليها كما سبق وأشارنا كان من العوامل التي لم تشجع كثيرا من المسلمين على سكنها ، حيث مازالت ذكرى المذابح التي نفذها الصليبيون ماثلة في أذهانهم ، بالإضافة إلى أن غالبية من بقى بها بعد الفتح كان من المسيحيين الذين أظهروا الولاء للصليبيين سواء عند قدومهم لاحتلالها ، أو عقب فتحها على يد صلاح الدين وكما سبق وأوضحنا .

هذا وتشير بعض المراجع إلى تدفق أعداد من اليهود على بيت المقدس ، سواء من المدن التي خضعت للحكم الاسلامي في ذلك الوقت أو بلدان أوروبا ، حيث وفدت إليها أعداد من اليهود من عسقلان التي دمرها صلاح الدين ، كما أن بعض اليهود المغاربة فروا إليها سنة ١١٩٨م كما أتت إليها أعداد من المهاجرين من فرنسا سنة ١٢١٠ — ١١ ، بالإضافة إلى بعض اليهود من المانيا (١٨٠) . وفي سنة ١٢١٥ فان صوثيل بن سيمون وهو يهودى وصل الى فلسطين وذكر أن أكثر من ٣٠٠ من الربابة من جنوب إنجلترا وفرنسا ذهبوا إلى الارض المقدسة سنة ١٢١١ (١٨١) .

كما يؤكد لنا الشاعر اليهودي الاسباني يهودا الحارزي الذي زار بيت المقدس سنة ١٢١٦ — ١٢١٧م ، أن فتح صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس أعقبته هجرة عدد كبير من اليهود إليها ، وأن صلاح الدين نفسه لم يمنعهم من الإقامة في المدينة (١٨٢) .

وفي خلال سنوات قليلة من حكم هذا السلطان أعيد المجتمع اليهودي في القدس وتجمع اليهود من كل صوب وحذب عائددين إلى المدينة ، كما أتى مع هؤلاء الوافدين عدد كبير من علماء اليهود وربانهم ، ولقد ذكر مؤرخ يهودي أن الملك العادل أخا صلاح الدين استقبل الوافدين من اليهود عام ١٢١١ ، وسمح لهم ببناء مدارس ودور عبادة يهودية ، ويأتى على رأس المجتمع اليهودي في تلك الفترة الرايان الفرنسيان شمشون بن ابراهيم الشنازى ويوناثان اللونلى ، كما استمرت هجرة هؤلاء اليهود إلى بيت المقدس طوال عصر صلاح الدين وعهد أسرته من بعده (١٨٣) .

وأخيرا تجب الإشارة إلى أنه على الرغم مما يقال عن كثرة المهاجرين اليهود إلى بيت المقدس في العصر الأيوبي ، الا أننا نلاحظ أن عدد اليهود في القدس كان ضئيلا ، في أواخر العصر الأيوبي وبداية عصر سلاطين المماليك ، فالرحالة اليهودي نحمانيدس الذي زار بيت المقدس عام ١٢٦٧م قد وجد بها اثنين من اليهود فقط ، وكانا يعملان بالصباغة وهما اخوان (١٨٤) . وتشير المراجع اليهودية إلى أن السبب في قلة أعدادهم في بيت المقدس في تلك الفترة راجع الى ما تعرضت له بلاد الشام من

غزوات المغول (١٨٥). إلا أن أحد الباحثين يفسر لنا السبب في تضاعف أعداد اليهود بالقدس بقوله إن كثيراً منهم اعتنقوا الإسلام نظراً للتسامح وحسن المعاملة التي لقيها هؤلاء من الحكام ، حيث لم يمض نصف قرن من عودة المدينة للحكم الإسلامي إلا وكان عدد اليهود بالقدس ضئيلاً لهذا السبب (١٨٦). وعلى الرغم مما تشير إليه كثير من المراجع عن هذا التناقص في أعداد اليهود في تلك الفترة والتي استمرت ليس فقط في أواخر العصر الأيوبي وبداية عصر سلاطين المماليك ، بل نستطيع القول حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، حيث شهدت المدينة هجرة أعداد كبيرة في السنوات التي تلت عام ١٤٩٢ م ، تلك الهجرات التي زادت من حجم الجماعة اليهودية في فلسطين والقدس (١٨٧). وقد ظل هذا التناقص واضحاً على الرغم من أن مدينة بيت المقدس لم تتعرض للغزو المغزلي ، كما أنها نعمت بالاستقرار عقب دخولها تحت حكم المماليك كما سبق وأشرنا ، مما يرجع إليه دخول الكثيرين منهم دين الإسلام .

ومن الطبيعي أن ينهج سلاطين المماليك نهج ساداتهم من الأيوبيين في معاملتهم لليهود ، لاننا نراهم يحذون حذوهم في كثير من الأمور ، والدليل على أنهم لم يمنعوا إقامة اليهود في بيت المقدس وأنهم استمروا في نفس الاتجاه الذي سلكه الأيوبيون ، اننا نسمع في سنة ١٢٦٧م عن رابي موشي بن نحمان الذي أتى الى بيت المقدس وأعاد إحياء الطقوس الدينية اليهودية بها وبني كنيسة يحمل اسمه ، ثم في سنة ١٤٨٨م يقيم في بيت المقدس رابي عوبيديا دابر تينور Rabi Obadiah de Bertinero ويرأس جماعة اليهود فيها ، وهذا يؤكد لنا استمرار هجرة اليهود إليها طوال عصر سلاطين المماليك (١٨٨) إلا أنه يلاحظ أن تلك الهجرات كانت قليلة ولم يكن لها شأن يذكر إلا أواخر القرن الخامس عشر كما سبقت الإشارة بذلك ، وليس أدل على ذلك من أنه في عام ١٤٨١م فقد ذكر موسلم الفولتيري Mushallam de Voltera أن في القدس ٢٥٠ يهوديا ويسكنون بيوتا يملكونها ، لكن لم يذكر أي شيء عن أي معبد (١٨٩). وبعد عامين يذكر الرحالة فابري الذي زار بيت المقدس عام ١٤٨٣م أن عدد اليهود بالمدينة كان أكثر من خمسمائة (١٩٠). ثم ما يذكره الرحالة اليهودي عوبيديا من بلدة بيرتينور والذي زارها عام ١٤٨٨ ، من أن سبعين عائلة يهودية تسكن بيت المقدس ، ولقد انفرد بذكره معبدا معتمدا لليهود لا يدخله الضؤ إلا من الباب وهو ملاصق لمسجد للمسلمين ، وهذا الوصف يتفق مع ذكره المؤرخ المعاصر مجير الدين ، فقد ذكر أن في القدس نحو ثلاثمائة يهودي يعيشون في حي خاص ، يفصلهم عن الحرم أحياء إسلامية صرفة ، وأنه وقع بين المسلمين واليهود خلاف على الدار الواقعة بين كنيسة اليهود ومسجد المسلمين في حارة اليهود (١٩١). ولعل السبب في قلة أعداد اليهود في مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك راجع إلى ما قد أصاب المدينة من كثرة الاوبئة والطواعين وبخاصة في عصر دولة سلاطين المماليك الثانية ، هذا من جهة ومن جهة أخرى إلى ما يذكره استاذنا د . دراج من أن اليهود بالقدس كانت تجبى منهم جزية الرؤوس بطريقة جماعية ، وكانت محددة بمبلغ ٤٠٠ دينار أو « دوكات » سنوياً مما كان السبب في اضطرابهم الى هجرتها بسبب هذا الاجراء التعسفي ، إلا أن السلطان جقمق اصدر في السنة الاولى من حكمه مرسوما يقضى بجبايتها من كل فرد على حدة ، الامر الذي أدى الى عودة كثير من اليهود

اليها ، هذا إلى جانب اسلام الكثيرين منهم حتى يتسنى لهم تولي بعض الوظائف الهامة في الدولة ، مثل وظيفة كبير التراجمة بالبلاط المملوكي (١٩٢) .

وأخيرا تجب الإشارة إلى أن هذه الجماعات اليهودية التي نشأت في بيت المقدس فقد نشأت إما لأغراض دينية مثل مجيء رجال الدين منهم للتعبد ، أو هربا من الاضطهاد الديني الذي تسبب في هجرة اليهود « السفرديم » بعد طردهم من أسبانيا ، كذلك جدير بالملاحظة أن هؤلاء اليهود الذين وفدوا على مدينة القدس وبخاصة من أوروبا لم يكونوا من نسل « يهود التوراه » ولكن من سلالة الأوربيين ، وبخاصة المتقدمين في العمر ، جاؤا إلى فلسطين للتعبد والتبرك بالدفن في الاماكن المقدسة ، وكما هو ملاحظ من تلك الهجرات .

أما عن حياة اليهود في بيت المقدس على عصر السلاطين المماليك ، فقد كان لهم حي في المدينة يسمى باسمهم - حي اليهود أو حارة اليهود - وإليها نسب احد ابواب القدس المسمى بباب حارة اليهود (١٩٣) . ويصف لنا احد الباحثين هذا الحي ، بأن الشارع الرئيسي في هذا الحي يسمى شارع اليهود وعلى جانبيه توجد منازل يسكنها اليهود وهو يصل ما بين شارع دواو الى سور المدينة ، وليس بعيد عن بوابة صهيون (١٩٤) . وقد ورد ذكرها عند مجير الدين بأنها بجوار حارة الصلوتين من جهة الغرب وضمنها حارة الريشه وحارة صهيون الجوانبة (١٩٥) . وتشير كثير من المصادر إلى أن هؤلاء اليهود عاشوا في حيهم هذا حياة فقيرة ، فهذا هو فابري يؤكد لنا تلك الحقيقة بقوله أنه وجد في القدس عددا من اليهود وقد كانوا يعرفون من خلال فقرهم الظاهر للعيان (١٩٦) .

ولقد عاش هؤلاء اليهود الذين هاجروا إلى بيت المقدس على الصدقات التي ترسل إليهم من بلادهم الاصلية باعتبار أن مساعدتهم واجب ديني ، وتولى هذه المساعدات الخيرية نظام « الخالوقاة » أو « التوزيع » وشمل الجزء الاكبر من الجماعات اليهودية في فلسطين ، ونظام « الخالوقاة » هذا قد بدأ في القرن الخامس عشر ، عندما تكونت جمعية تحت هذا الاسم ثم تلتها جمعيات مشابهة توزيع الهبات على اليهود الذين يجمع بينهم الانتماء الى بلد واحد ، وكان يسافر مبعوثون يقومون في بلادهم الاصلية لجمع التبرعات للمقيمين في بيت المقدس وغيرها من المدن الفلسطينية (١٩٧) . هذا ويشير أحد الباحثين إلى أن نظام « الخالوقاة » أو كما يسميه هو « هالوكا » نشأ أولا بغرض مساعدة اليهود الذين هم من أصل الماني ، حيث كان مجال نشاطه هو أوروبا ، ثم أنشئت بعد ذلك هيئة مثلها لمساعدة اليهود الذين هم من أصل أسباني ، وبمجيء القرن السادس عشر الميلادي أصبح هناك مجموعتان لجمع التبرعات من يهود أوروبا والعالم (١٩٨) . هذا وتجب الإشارة الى أن المنظمات اليهودية لجمع التبرعات والاموال كانت معروفة ومنتشرة وفي انحاء مصر والشام والمغرب العربي والغرب الاوربي أبان العصر الفاطمي ، وكان الغرض منها الانفاق على الاكاديميين اليهوديين الكيبرتين في بغداد وفي القدس (١٩٩) . وعلى هذا الاساس يمكننا القول أن نظام « الخالوقاة » والذي ظهر في القرن الخامس عشر الميلادي كان امتدادا لتلك الجماعات التي كانت موجودة من قبل ، لكن ربما بشكل أكثر تنظيما .

أما عن الجماعات اليهودية التي وجدت في بيت المقدس فيمكننا تقسيمها إلى قسمين كبيرين ، هما السفرديم والاشكنازيم ، والسفارديم كلهم من أصل اسباني وهم الذين طردوا من أسبانيا أو البرتغال أيام الملك فرديناند سنة ١٤٩٧م ، ولقد احتفظ هؤلاء اليهود بلغتهم الأسبانية ، إلا أنهم بمرور الوقت تعلموا اللغة العربية ، وتخلقوا بعبادات وتقاليدهم العرب في الملبس والسكن والعادات والتقاليد . أما الاشكنازيم فهم يهود شرق اوربا ، وهم يهود المانيا وبولنده ، وتشير بعض المراجع إلى أنهم كانوا يتحدثون اللغة الألمانية ، واحتفظوا بعباداتهم وتقاليدهم الغربية في السكن والملبس وغيرها (٢٠٠) . إلا أنه بمرور الوقت فقد تأثر هؤلاء اليهود جميعا بالطابع العربي ، فارتدوا للملابس العربية ، وبنوا منازلهم على الطابع العربي في شكلها الخارجى واثاثها وادواتها ، وأخذوا بعبادات العرب في الطعام والشراب ، وتذوقوا الموسيقى العربية ، واستمرت مظاهر الحضارة العربية تسود حياتهم حتى بداية الهجرة اليهودية المنظمة في العصر الحديث (١٠١) . وبالإضافة إلى المجموعتين الكبيرتين يمكننا اضافة بعض اعداد قليلة من يهود المغرب أو اليهود العرب الذين كانوا قد عاشوا في المدن التي خضعت للحكم الاسلامي ، ثم هاجروا إلى بيت المقدس ، كما سبقت الإشارة بذلك .

أما عن التقسيم الديني لليهود في بيت المقدس ، فيحدثنا الأب سوريانو عنهم فيقول ، وهناك أيضا اليهود من مذاهب مختلفة وهم بالتحديد اليهود الربانيون واليهود القرائين واليهود السامرة ، أما السامرة فلم يكن في استطاعتهم أن يعيشوا في بيت المقدس بسبب القانون السماوى « ربما يقصد بذلك معتقداتهم الدينية » ولكن اذا حدث وأتوا إلى بيت المقدس لقضاء بعض المهام أو الاعمال ولم يستطيعوا اتمام عملهم واتى الليل فكان عليهم أن يغادروا المدينة بالليل ويناموا خارجها ، لمدة طويلة لا حظت أنهم منقسمون على بعضهم البعض وكل واحد يكره الآخر (٢٠٢) .

هذا ونجب الإشارة إلى أن كل مجموعة من هذه المجموعات كان لها رؤساء دينيون يسمى كل منهم راي ، وعلى رأس كل مجموعة من الربانية حاخام أو الخاخام ، كذلك كان لهم معابدهم الخاصة بهم التي مارسوا فيها طقوسهم الدينية بحرية تامة (٢٠٣) .

أما عن الاعمال التي مارسوها في بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، فتشير الكثير من المصادر والمراجع إلى أن بعض اليهود قد اشتغلوا كمرشدين سياحيين لمصاحبة الحجاج المسيحيين في زيارتهم لبعض الاماكن المقدسة أو كتراجمة ، ونخير دليل على ذلك ما يرويه لنا الرحالة فابرى سنة ١٤٨٣م من أن اليهود كانوا يشتغلون بخدمة الحجاج المسيحيين القادمين من الغرب ، وكان منهم التراجمة والمرشدون السياحيون وكذلك ما يرويه لنا الرحالة بوم جارتن Baumgarten الذى زار القدس سنة ١٥٠٧م حيث يقول ، وتوجهنا تحت حماية اليهودى الذى كان يعمل ترجمانا لنا والعربى الذى كان يقوم بحراستنا ، لكى نرى تلك الاماكن المقدسة (٢٠٤) . وكذلك ما يرويه Rev. Henry Formly من أن أحد اليهود وهو ألماني الاصل والذى صحبه في مشاهدة مدينة الخليل هو والحجاج المسيحيين ، كان يعمل كمرشد سياحى بالنسبة لهم ، كذلك كان يحضر لهم النيذ ويبيعه لهم (٢٠٥) كما يشير أحد اليهود وهو اسحق بن يوسف بن شلو الذى هاجر الى بيت المقدس عام ١٣٣٣م مع

أسرته في رسالة بعث بها إلى أبيه وأصدقائه يصف لهم أحوال اليهود في القدس ويذكر بعض الأعمال التي يمارسها هناك يقول فيها « وكثيرون من أفراد الطائفة يعملون في الصناعة كالدباغة والخياطة وصنع الأحذية وغير ذلك ، وغيرهم يعملون في التجارة ولهم حوانيت أنيقة ... » (٢٠٦) . كما تشير بعض المراجع إلى أن اليهود في بيت المقدس كان بعضهم يشتغل بالصناعة وسك النقود والصيرفة (٢٠٧) . ومن هذا يتضح لنا أنه لم يكن لهم دور مميز عن غيرهم من الطوائف الأخرى والتي سكنت بيت المقدس من المسلمين أو المسيحيين* .

العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة

ان نظرة سلاطين الممالك الى مدينة بيت المقدس على انها احدى الاماكن المقدسة الهامة سواء بالنسبة للمسلمين أم لغير المسلمين من مسيحيين ويهود ، وأنها يجب أن تحظى برعايتهم وعنايتهم ، كان لها أثر كبير بلا شك في معاملتهم لسكانها من أهل الذمة ، تلك المعاملة التي يشهد بها كثيرون من كتاب الغرب الأوروبي ، وبما اتسمت به من روح التسامح والعدل نحو أهل الذمة ، هذا على الرغم من تعدد الطوائف الدينية لكل من المسيحيين واليهود . واختلافهم فيما بينهم ، إلا أن سلوك سلطنة الممالك تجاه أهل الذمة جميعا ، كان يتسم بالتسامح ، وبما لاشك فيه أنهم تلقوا معاملة أفضل بكثير تحت حكم الممالك مما لا قوة تحت حكم الفرنج (٢٠٨) كذلك الحرس السلاطين الممالك أشد الحرص على تحقيق أكبر قسط من الأمن والاستقرار للطوائف الدينية القاطنة في القدس ، ولقد عاش كل من أهل الذمة والمسلمين في أمن وحرية تحت لواء الحكم المملوكي الاسلامي (٢٠٩) وليس أدل على حسن العلاقة التي كانت قائمة بين المسلمين من حكام وبين أهل الذمة مما يرويه لنا أحد اليهود الذين هاجروا الى بيت المقدس من اسبانيا سنة ١٣٣٣ م ، وهو اسحق بن يوسف بن شلو في رسالته إلى والده يقول فيها « ويعيش اليهود هنا في سعادة وطمأنينة ، كل بحسب وضعه وموارده وذلك لان الحكومة عادلة .. » (٢١٠) . ويؤكد لنا الرحالة الاوربيون الذين زاروا القدس في عصر سلاطين الممالك ذلك التسامح الذي لقيه أهل الذمة ، بل والمسيحيون القادمون لزيارة المدينة ، فمن هؤلاء فابري حيث يذكر لنا أنه أثناء تجموله مع بعض الحجاج الغربيين في المدينة ، وكان العمل في المدرسة الاشرفية التي بناها السلطان الأشرف قايتباي على وشك الانتهاء، فان الحجاج سألوا في السماح لهم بدخولها في هذا الوقت ولم ينعوا ، لكن قيل لهم أنه لا بد من الحصول على تصريح بذلك من القاضي ،

• عرفت مدينة بيت المقدس نظام الطوائف الحرفية ، الذي يتوارث فيه الأبناء حرف الآباء ، مثلها مثل أى مدينة إسلامية أخرى ، لدرجة أن بعض الحرف المتخصصة قد اقتصر في الواقع على عائلة واحدة ، وكان لكل طائفة من الطوائف الحرفية شيخ ينظم العلاقات بين أفرادها ، وفي ظل نظام الحرف بلغت الصناعة درجة كبيرة من التقدم والكمال بفضل نظام التخصص زمنيا طويلا . كما كانت الطائفة المهنية عنصرا أساسيا في حياة المدينة ، فقد كانت تمثل بالنسبة للسلطات إطارا يمكنها من الاشراف على معظم الشعب العامل بالمدينة من صناع وتجار ، وعندما يتوسط شيوخ الطوائف المهنية في المشاجرات التي قد تنشأ بين أبناء طوائفهم ، وعندما ينظمون المناقشة ، فإنهم بذلك يساهمون في إدارة المدينة ، وفي حفظ النظام ، كما كان على الحكام أن يلدجوا هذه الطوائف وشيوخها لانجاز بعض أعمال البناء ، أو لجمع المبالغ النقدية أو المشاركة في تجهيز المحاربين . كذلك كانت هذه الطوائف تشكل قاعدة جغرافية وإدارية هامة ، حيث أسست كثير من الأسواق أسماء الطائفة التي تقطن فيها مثل بائعي الصابون ، وبائعي الأقمشة ، وتجار البهارات ، وتجار الغلال ، وبائعي القطن . كذلك كانت هناك حرف مقصورة على المسلمين والأمر نفسه للمسيحيين وكذلك اليهود .

حيث سمح لهم وأرسل معهم أحد الأشخاص لكي يرشدهم داخل المدرسة ، وهناك شاهدوا العمال يقومون بتركيب الرخام على حوائط المدرسة الداخلية مما أثار دهشتهم . وقد استطاع الحجاج مشاهدة أكثر الأماكن قداسة عند المسلمين من داخل المدرسة ، حيث شاهدوا المسجد الأقصى بفتح الجيم خلال نوافذها ، وخرجوا من زيارتهم هذه راضين لأنهم رأوا أكثر مما كانوا يأملون ، كذلك كان العمال سعداء بما منحهم الزوار من الحلوان عند مغادرتهم المكان (٢١١) . هذا إلى جانب ما يرويه أيضا ويشير فيه إلى قيام نوع من العلاقات الودية التي تتسم بروح التسامح ، حيث يذكر لنا أنه جرت عادة نواب بيت المقدس وبعض أعيانها أن يأتوا إلى جبل صهيون للتنزه ، وأنهم متى وصلوا إلى دير الرهبان الفرنسيين فإن الأخوة الرهبان كانوا يستضيفونهم لقضاء بعض الوقت ، حيث يفرش لهم الرهبان الأرض بالسجاد ويضعون لهم الوسائد حيث يستلقون لأنهم ليس من عادتهم الجلوس على المقاعد أو الكراسي ، ثم يحضر لهم الرهبان بعض البسكويت المصنوع بالتوابل وأرغفة الخبز ، والكعك والفواكه من العنب واللوز والبطيخ والماء المثلج لكي يشربوا ، لأنهم لا يشربون الخمر ، ويقوم الأخوة الرهبان بخدمتهم ، وانهم تحدثوا معهم وسألوه عن أشياء كثيرة وتحدثوا فيما بينهم بشأنهم ، ولا غرابة أن يعتوا بكل شيء فهم حكام المدينة المقدسة ، كما سأله بعض الاسئلة عن طريق المترجم وسمعوا أجوبته عليها بتعجب (٢١٢) . هذا بالإضافة إلى ما يرويه الرحالة كازولا الذي زار بيت المقدس سنة ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م من أن نائب السلطنة في المدينة عين حارسا يرافق الحجاج النصارى ويحميهم من البدو أثناء تنقلاتهم ، وفي هذا خير دليل على مدى تسامح المماليك (٢١٣) . هذا بالإضافة إلى ما يرويه الاب سوريانو من أنه في عهد السلطان قايتباي فقد تمتع ابناء طائفة الفرنسيين بعتف السلطان ، لدرجة أنبهم شكوا إليه من كثرة الأموال التي يبيعها منهم حاكم مدينة بيت المقدس ، فأرسل يحضره مكبلا في الحديد وعزله وألقاه في السجن مدة خمس سنوات ، كذلك شكوا إليه رئيس الطائفة من كل من قام ضدهم بأى عمل تعسفى ، فأحضرهم السلطان مكبلين في الحديد وعاقبهم عقابا شديدا ، وفرض عليهم كثيرا من الغرامات (٢١٤) .

ولقد عاش أهل الذمة وسط المجتمع الاسلامى فى شوارع خاصة بهم داخل مدينة بيت المقدس ، كما كان لهم كنائسهم ومعابدهم الخاصة بهم يمارسون فيها عبادتهم بحرية تامة (٢١٥) . ولم يسمح سلاطين المماليك بالتعدى على دور العبادة الخاصة بهم ، وإذا حدث فإننا سرعان ما نسمع عن صدور مرسوم من سلطان آخر بوضع الحق فى نصابه ، نصابه من ذلك ما يرويه لنا بعض المؤرخين المسلمين المعاصرين من أن كنيسة المصلبة أو المصلبية الخاصة بطائفة الكرج وهى بظاهر القدس « كانت قد اخذت منهم فى دولة الناصر محمد بن قلاوون وجعل فيها مسجد ، فلما كان فى سنة خمس وسبعمائه وصلت رسالة من جهة ملك الكرج ورسل من جهة صاحب قسطنطينية إلى نائب الملك الناصر المشار إليه وسألوه فى إعادة الكنيسة لهم فلما توصلوا وتشفعوا فى ذلك أعيدت لهم وسلمت إلى رسلهم » (٢١٦) هذا بالإضافة إلى أنه حدث فى عهد السلطان جقمق أن أرسل له رهبان الفرنسيين سنة ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م - ٤٧م رسالة ذكروا فيها أن شخصا من بيت لحم قد وضع يده على قطعة أرض ملاصقة للدير ومن جملة حقوقه ، كانوا ينتفعون بها فى زراعة ما يلزمهم من

الخضروات ، فأمر لهم السلطان بتسليم الأرض الملاصقة للدير والتي ثبت أنها من حقوقه إلى رئيس الرهبان^(٢١٧) . هذا إلى جانب ما تشير إليه بعض المصادر من أنه في سنة ٦٧٨هـ/١٤٧٣م حدث خلاف بين المسلمين واليهود في مدينة بيت المقدس حول دار واقعة بين مسجد المسلمين وكنيس لليهود ، انتهى هذا الخلاف بهدم الكنيس على أنه محدث ، ولما تحقق السلطان الأشرف قايتباي من الامر نتيجة لقيام ذلك النزاع ، فقد أصدر مرسومه إلى نائبة في القدس باعادة بنائها بعد هدمها وذلك في سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م ، وتشير بعض المصادر أن اعادة بنائها لم يكن حبا في اليهود ، ولكن كان للوفاء بعهدهم كأهل ذمة^(٢١٨) . بل يقول ابن العماد في ذكر هذه الحادثة « ولم ينتقد عليه أحد عظيم أمر سوى ما كان من أمره باعادة كنيسة اليهود بالقدس الشريف بعد هدمها وعقوبته لعالم القدس البرهان الانصارى وقاضيا الشهاب بن عبية وغيرهم بسبب هدم الكنيسة حتى حملوا اليه وضرب بعضهم بين يديه^(٢١٩) . وفي هذا خير دليل على حرص سلاطين المماليك على شمول رعاياهم من أهل الذمة بأقصى درجات التسامح والعدل .

أما فيما يختص بالسماح لأهل الذمة بالقيام بأعمال الصيانة اللازمة للمحافظة على مؤسساتهم الدينية حتى تقوم بدورها في خدمتهم ، فسوف نورد بعضا من الأمثلة العديدة بما يشهد على مدى ما نعم به أهل الذمة من تسامح في ظل الحكم المملوكي ، وليس أدل على التسامح الذي عامل به سلاطين المماليك رعاياهم من أهل الذمة في بيت المقدس ، من أن طائفة الرهبان الفرنسييسكان عندما تقدموا بطلب الاذن لهم بعمارة سقف كنيسة المهد ببيت لحم الذي أوشك على السقوط بسبب كثرة الامطار وتمادى السنين ، سارع السلطان قايتباي إلى تلبية هذا المطلب ، فأصدر في ١٣ ربيع الأول ٨٨٥هـ/ ١٣ أبريل ١٤٨٠م مرسوما إلى نائب القدس يأمره بتمكينهم من عمارة سقف الكنيسة على الوجه الشرعي وعلى هيئة ما كان عليه أولا ، ووفقا للفتاوى التي أفتى بها القضاة والفقهاء من قبل زمن السلطان برقوق وابنه فرج كما قام قضاة القدس في ٦ شوال/ ٩ ديسمبر بتحرير حجة بذلك لتكون بمثابة أمر تنفيذي ببدء العمل^(٢٢٠) . كذلك تشير المصادر المعاصرة أنه في عهد السلطان قايتباي أيضا قد سمح لهم باصلاح قبة كنيسة القبر المقدس على الرغم من معارضة الكثيرين في بيت المقدس والقاهرة من رجال الدين المسلمين^(٢٢١) . هذا بالاضافة إلى كثرة المراسيم الصادرة إلى طائفة الرهبان أنفسهم في عهد كل من السلاطين برقوق وابنه فرج وبرزباي وقايتباي والغوري بعمارة كنيسة بيت لحم ، بعمارة الأجزاء المتداعية بكنيسة عليه صهيون ودير صهيون ودير الراهبات بظاهر القدس ، بل أن السلطان الغوري سمح لهم ببناء دير لهم بالرملة ، ويتضح لنا من استعراض ما جاء في هذا المجموعة من الوثائق خاصا بترميم الكنائس والاديرة التي تحت رعايتهم وفي حوزتهم أن حرمة وقداسة هذه الاماكن المسيحية كانت فوق كل اعتبار ، فالسلطات الاسلامية كانت دوما تسمح لهم بالقيام بترميمها وعمارتها وفقا للقاعدة الشرعية التي جرى الامر على اتباعها في هذا الصدد بمقتضى عهد عمر بن الخطاب لبطريك بيت المقدس^(٢٢٢) .

هذا قليل من كثير يمكن ذكره في هذا الصدد ، لكن قصدنا ايراد بعض الامثلة خشية الاطالة ، أما فيما يختص بوضع أهل الذمة في بيت المقدس فيمكننا القول أن وضعهم داخل مدينة بيت المقدس

لم يشذ عن وضع اخوانهم من المسلمين من حيث فرض بعض الرسوم والمكوس التي تتطلبها ظروف الدولة الحربية ، والتي سرعان ما كانت تزول بزوال السبب الذي فرضت من أجله أو بقدم سلطان جديد ، فمن ذلك ما يرويه لنا المقرئى أن السلطان سيف الدين قلاوون عندما تولى السلطنة « أبطل ما كان يجبي من أهل الذمة وهو دينار سوى الجالية برسم نفقة الاجناد فى كل سنة » (٢٢٣) كذلك ما يرويه لنا احد الباحثين من « أنه برز المرسوم الشريف السلطانى الملكى الظاهرى أبو سعيد جقمق عز نصره بأن يبطل ما على الذمة بالقدس الشريف من الخدمة والقدم عند حضور النائب الجديد وعند إباسة خلعة وأن يكون ناظر الحرمين الشريفين متكلماً عليهم بتاريخ شهر جمادى الآخر سنة ثلاث وخمسين وثمانائة » (٢٢٤) ، كذلك فى المرسوم السلطانى الشريف الصادر عن السلطان الغورى فى شهر المحرم سنة ٩١٩هـ / ١٥١٣م أى فى أواخر عصر سلاطين المماليك بأن لا يكره « جماعة الرهبان النصارى والرهبانيات (هكذا) الملكين واليعاقبة بموجب ولا خفر ولا بظلم عند دخولهم قمامة القدس الشريف أسوة رهبان الكرج والحبوش ولا عند دخولهم إلى مينا يافا ولا عند خروجهم من يافا ولا فى مدينة غزة ولا فى رملة لد الواردين من الرهبان والرهبانات (هكذا) ، من المذكورين فى البر والبحر وكل ناحية لزيارة بيت المقدس مستمر حكم ذلك من تقادم السنين من غير احداث حادث ولا تجديد مظلمة وأن ينقش شرح ذلك برخامة وتلصق بباب القمامة وليصير ذلك تذكرة بعدل مولانا المقام الشريف عز نصره على مر الدهور والأيام ... » (٢٢٥) .

وأخيراً تجب الإشارة إلى أنه طوال عصر سلاطين المماليك ، وهى فترة دون شك طويلة اذ تمتد لأكثر من قرنين ونصف من الزمان ، يمكننا أن نلاحظ أنه حدثت بعض الخلافات بين المسلمين من ناحية وأهل الذمة من ناحية أخرى ، إلا أن هذه الخلافات كانت قليلة وثنائية جداً بصفة عامة ، كما كانت تدور حول تملك بعض الأماكن ، أو بعض الخلافات الدينية التى تتمثل فى بعض المناظرات الدينية والتى سرعان ما كانت تنتهى إما لتدخل قضاءه بيت المقدس للبت فيها إن كانت عادية ، أو إلى السلطان نفسه إذا تضرر أحد الأطراف منها ، ومع هذا يمكننا القول بأن المسيحيين واليهود كانوا يعيشون فى أمن وحرية مع السكان المسلمين تحت لواء الحكم المملوكى الاسلامى (٢٢٦) ومع هذا لا بد من ذكر حقيقة هامة وهى أن سلاطين المماليك كانوا عندما تتعرض سلامة وأمن ممتلكاتهم للتهديد من قبل الغرب الأوربى ، إما عن طريق المحاولات التى لم تنقطع بغزو السواحل الشامية والمصرية ، أو المشاريع الصليبية المتعددة لا ستعادة الارض المقدسة كانوا يستخدمون عنصر التهديد بغلق كنيسة القيامة والتتكيل بالمسيحيين وبخاصة طائفة الرهبان الفرنسيسكان على أساس أنهم يمثلون الغرب الأوربى ، وذلك للضغط على البابوية وملوك الغرب الأوربى لعدم التعرض لدولتهم « أو تجارتهم ، وقليلاً ما كانوا ينفذون تلك التهديدات ، وإذا حدث هذا ونقذت الدولة بعض تهديداتها مثل القبض على الرهبان الفرنسيسكان والتهديد بشنقهم ، أو التهديد بغلق كنيسة القيامة كوسيلة من وسائل الضغط السياسى ، فقد كانت تلك الوسيلة لا بديل عنها أمام قسوة الأحداث التى تتعرض لها الدولة ، مثل المطالبة باستعادة أسرى المسلمين والاموال والمتاجر التى كانت تقع غنيمة فى أيدي القراصنة الغربيين ، أو عندما تكون قد أعوزتهم السبل والوسائل لرد تلك الهجمات أو

الاغارات (٢٢٧) . هذا بالإضافة إلى أن خروج هؤلاء الرهبان عن طبيعة رسالتهم الدينية ، وتزايد نشاطهم السياسى - كما سبقت الإشارة - غلب عليهم الصفة السياسية ، وهذا يبرر معاملة السلطات المملوكية لهم على هذا النحو البغيض . كما اننا لم نسمع بأنه اتخذت مثل تلك الاجراءات العنيفة لدى الطوائف المسيحية المحلية الاخرى والتي عاشت في بيت المقدس في ذلك العصر . فضلا عن أن تلك الاجراءات الانتقامية لم يكن لها صفة الدوام ، اذ سرعان ما تزول لتحسن العلاقات بسبب حرص كثير من دول الغرب على اقامة علاقات طيبة مع سلطنة المماليك وبخاصة المدن الايطالية حرصا منها على مصالحها التجارية .

هذا إلى جانب ما كان يقوم به بعض السلاطين من حملات تفتيسية للكشف على الاديرة والكنائس بالقدس وبيت لحم الخاصة بطائفة الفرنسيسكان ، فلم يكن هذا الاجراء له ما يبرره سوى ازدياد شعور الكراهية والبغضاء ازاء الفرنج عامة ، والذي انعكس اثره على هؤلاء الرهبان ممثلين عنهم ، كما أن السلاطين كانوا مجبرين أو مضطرين لهذا نتيجة لما يقترفه الفرنج ضد الدولة من أعمال إجرامية ماثلة في أعمال القراصنة ، فضلا عما تحدثه هذه الاعمال من ضغوط بعض رجال الدين المسلمين على بعض السلاطين كرد فعل لتلك الاعمال (٢٢٨) . وليس أدل على ذلك من أنه كان من نتيجة شن القراصنة البروفنساليين الغارة على ميناء الاسكندرية سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م وقيامهم بأسر بعض كبار تجارها وتوجههم بهم في عهد السلطان قايتباى ، أن امر بالقبض على جميع تجار الفرنج المقيمين بالاسكندرية مع مصادرة أموالهم ومتاجرهم والزامهم بمكاتبة ملوك الفرنج لا طلاق سراح المسلمين . غير أن هذه الاجراءات التحفظية ضد تجار الفرنج وهذا السعى من جانبهم لم يؤدى إلى تسوية الازمة ، مما دفع السلطان الى زيادة ضغطة فأمر في أول المحرم ٨٨١هـ/٢٦ أبريل ١٤٧٦م بالقبض على جميع الرهبان الفرنسيسكان المقيمين بدير صهيون وبيت لحم وكنيسة القيامة وارسالهم إلى القاهرة . وكان لهذه الخطوة الثانية أثرها السريع ، اذا استجاب البروفنساليون لرئيس الاستيارية وأطلقوا سراح المسلمين بعد أن اشتروا انفسهم - على حد قول ابن اياس - بمال له صورة ... وعندما زال خطر القراصنة أطلق سراحهم وعادوا إلى أديرتهم يباشرون دينهم ودنياهم في ظل التسامح الذى يعاملون به (٢٢٩) .

هذا إلى أنه يجب على الباحث أن يفسر تلك الاجراءات في ضوء الحقيقة التى آلت إليها حالة دولة المماليك ، حيث أنها كانت في خريف عمرها ولا تقوى على الانتقام بعمل حرى نظرا لتأثرها ماديا وحريريا نتيجة لكثرة الحروب التى شنتها في رودس وقبرس ثم في شمال البلاد ضد التركان مع ظهور الخطر العثماني الذى أخذ يتهدها والخطر البرتغالى .

ويجب أن نشير إلى حقيقة هامة وهى أن السلطات المملوكية كانت مضطرة أيضا إلى اتخاذ بعض الاجراءات العنيفة ضد هؤلاء الرهبان الفرنسيسكان لمقاومة التيار التبشيري الذى اتخذته الرهبان سبيلا لاستعادة النفوذ الفرنجي في الارض المقدسة ، وأنه لم يكن بوسع السلطات المملوكية السكوت على تلك الاعمال وبخاصة فيما يتعلق بنشر التبشير بين المسلمين ، خوفا من حدوث فتنة بين

المسلمين والمسيحيين بصفة خاصة (٢٣٠). كذلك لم يكن بوسعها السكوت على تلك الاعمال التبشيرية باعتبار أنها حامية الاسلام والمسلمين .

ومن هذا العرض نستطيع القول أن أهل الذمة في بيت المقدس وقد نعموا بالحياة والتسامح والعدل تحت لواء الحكم المملوكى الاسلامى ، ولم يحدث ما يعكر صفو حياتهم الانذاراً ، واذا تصادف وحدث ذلك فسرعان ما يزول ، وأن الصفة الغالبة على المدينة هى حرص سلاطين المماليك على تأكيد نفوذهم الدينى عن طريق نشر العدل والتسامح بين طوائف السكان المختلفة من مسلمين ويهود ومسيحيين .

هوامش

- (١) ميخائيل مكس اسكندر : القدس عبر التاريخ ، مراجعة وتقديم الأنبا غريغوريوس ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٢ .
- (٢) Jusha Prawer: « The settlement of the Latins in Jerusalem » Speculum (1952, Vol, 27) PP. 490- 505.
- (٣) Ibid, pp. 493- 494.
- (٤) Ibid, P. 494.
- (٥) Condr: The city of Jerusalem, London 1909, p. Ibid: p. 496511.
- (٦) Conder: the City of Jerualem, London 1909, P. 311.
- (٧) Morgoliouth: Cairo, Jerusalem, Damascus London 1907. PP. 205- 206.
- (٨) الفتح القسبي في الفتح القدسي ، طبع القاهرة ١٩٠٣ ، ص ٥٢ — ٥٥ .
- (٩) الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٢ .
- (١٠) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، طبع حيدر آباد الدكن - الهند ١٩٥١ م ، ج ٨ ، ص ٢٥٤ .
- (١١) تاريخ ابن خلدون ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ١٩٥٦ — ١٩٥٩ ، ج ٥ ، ص ٣١٠ .
- (١٢) رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، بيروت ١٩٦٩ ، ج ٢ ، ص ٧٤٩ — ٧٥٠ .
- (١٣) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، من سلسلة أعلام العرب ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٢٠٢ .
- (١٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٥ ؛ بحير الدين : الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٤٩١ — ٤٩٢ .
- (١٥) رنسيما : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٧٧٩ — ٧٥٠ .
- (١٦) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ١٢١ .
- (١٧) RHC. H. OR., III, P. 101.
- (١٨) أنظر أيضا : عارف العارف تاريخ القدس ، ص ١٩٢ ؛
- (١٩) السيد الباز العريني : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، نشر دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ٩٦٩ ؛ Jbn Shaddad. RHC. H. OR III, PP. 268- 269.
- (٢٠) سبط ابن الجزوي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٥٤ .
- (٢١) Aahtor: Asocial and Economic History of the Near East in the Middle Ages, London 1976, PP. 288- 290.
- (٢٢) الانس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٦٩ ، ٥٩٧ ؛ ويتفق معه في ذلك ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٣ .

- Jbid, PP. 259- 290. (٢٣)
- Jbid, P. 290. (٢٤)
- Jbid, PP. 290- 297. (٢٥)
- The Book of the Wondering of Brother Felix, Trans. by Aubry Stewart. London 1892, Vol. I.P. (٢٦)
- 245, Vol. II, p. 226.
- The Jewish Ency. Art Jerusalem, Vol. III, PP. 132.: Adler. Jewish Travellers, London 1950, Lst (٢٧)
- Pullished, P. 234.
- Adler. op. Cit. PP. 234- 235. (٢٨)
- Newett. Casola,s Pilgrims. P. 251. (٢٩)
- (٣٠) راجع على سبيل المثال : المقرئى : السلوك ، ج٣ ، ص٧٢٦ — ٨٩١ ، ١٠٠٣ ، ابن تغزى بردى : النجوم ، ج١٣ ، ص٥٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٣٠٣ .
- (٣١) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر ، ص ١٥٥ .
- Ashtor: Asocial and Economic Hist. PP. 301, FF. (٣٢)
- (٣٣) عن هذا الرباء راجع . المقرئى : السلوك ، ج٢ ، ص٣٢١ ، ابن تغزى بردى : النجوم ، ج١٠ ، ص٢٠٤ فى حوادث سننى ٧٤٩هـ/٧٥٠م .
- Jbid, P. 301; (٣٤)
- (٣٥) مجير الدين : الانس الجليل ، ج٢ ، ص٦٥٠ .
- (٣٦) إنباء المصر بأبناء العصر ، تحقيق حسن حبشى - القاهرة ١٩٧٠ ، ص١١٨ فى ذكر حوادث سنة ٨٧٤هـ .
- Treatise On The Holy Land, Trans. by Bellorini, Jerusalem 1949, P. 10. (٣٧)
- (٣٨) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ١٧٤ .
- (٣٩) السلوك ، ج٤ ، قسم ٢ ، ص ٦٠٩ فى ذكر حوادث سنة ٨٢٥هـ .
- (٤٠) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ١٠٤ فى ذكر حوادث سنة ٨٢٩هـ .
- (٤١) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ٨٥
- (٤٢) رشاد الامام : نفس المرجع ، ص ٨٦ .
- (٤٣) عن ذلك راجع : المقرئى : السلوك ، ج٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٤٠ — ٨٠٤ ؛ مجير الدين : الانس الجليل ، ج٢ ، ص ٦٥٦ .
- Ashtor Op. Cit., p. 290. (٤٤)
- Aahtor. Op. Cit. P. 282. (٤٥) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر ، ص ١٩ ؛
- Lapidus. Muslim Cities. PP. 44- 51 (٤٦)
- (٤٧) النجوم ، ج١١ ، ص ٤ .
- (٤٨) زبدة كشف الممالك ، ص ١١٢ .
- (٤٩) ابن قاض شهبة : تاريخ ، ص ٦٤٩ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج١ ، قسم ٢ ، ص ٤٩٣ .
- (٥٠) إعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى ، تحقيق عبد العظيم حامد خطاب ، مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٣ ، ص ٧٤ .
- (٥١) الفلقشنبدى : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، عنى بنشره وتحقيقه على الخاتانى بغداد ١٩٥٨ ، ص ١٤٣ — ١٤٥ ؛ المقرئى : السلوك ، ج٤ ، قسم ١ ، ص ٤١ ؛ مجير الدين : الانس الجليل ، ج٢ ، ص ٦٥٦ .
- Amnon .Cohen and Bernard Lewis : Population and Revenue in the Towns of palestine in the Sixreenth Century, New Jtnay 1978, P. 82. (٥٢)

- (٥٣) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ١٣٦ — ١٩٥ ، ص ٣٣٦ — ٣٦٢ .
- (٥٤) مجير الدين : الانس الجليل ، ج٢ ، ص ٤٠٤ .
- (٥٥) القلقشندى : نفس المصدر ، ١٢٣ — ١٢٤ ؛ رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ١١٢ .
- (٥٦) Wolf- Dieter Hutteroth. Historical Geography of Palestimne Transjordan and Southern Sgria in the 16 th- Century, Erlangen 1977, P. 48
- (٥٧) Wright (Thomas). Early Travels in Palestine, P. 43.
- (٥٨) Trearise on the Holy Land. P. 209.
- (٥٩) السلوك ، ج٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٤٠ .
- (٦٠) The Book of The Wandering. Volo, I, P, 219.
- (٦١) Jbid, Op. Cit Vol, I, P, 268 .
- (٦٢) الانس الجليل ، ج٢ ، ص ٧٠٣ .
- (٦٣) السخاوى : التبر المسبوك في ذيل السلوك ، ص ١٠٢ في حوادث سنة ٨٤٨هـ ، نشر مكتبة الكليات الازهرية - القاهرة ١٩٧٤ .
- (٦٤) The Rev. Henry: Avisit to The East. London 1843, pp. 328- 29.
- (٦٥) العبادى : قيام دولة المماليك الاولى ، نشر مؤسسة شباب الجامعات اسكندرية ١٩٨٢م ، ص ١٢٩
- (٦٦) Wolf- Dieter: Op. Cit. pp. 27- 28-
- (٦٧) زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٣ — ١٣٦ .
- (٦٨) السلوك ، ج١ ، قسم ٢ ، في حديثه عن سنة ٦٦١هـ .
- (٦٩) الانس الجليل ، ج١ ، ص ٦٩٨ — ٦٩٩ .
- (٧٠) المقرئى : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين - الطبعة الأولى - القاهرة ١٩٦١م ، ص ١٣٣ — ١٣٢ .
- (٧١) رحلة ابن جبير ، ص ١٠ ، ٢١ ز نشر دار صادر بيروت سنة ١٩٦٤ ؛ سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٨٢
- (٧٢) Amnon Cohen and Bernard: Papulation and Revenue P. 34.
- (٧٣) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ١١٣ .
- (٧٤) محمود العايدى : قدستا ، ص ١٢٣ .
- (٧٥) مسالك الأبصار ، ج١ ، ص ١٥٣ .
- (٧٦) نقولا زيادة : لحات من تاريخ العرب ، ص ١٧١ — ١٧٢ طبع بيروت ١٩٦١ م .
- (٧٧) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٧ ، ص ١٢٤ .
- (٧٨) لمزيد من المعلومات راجع ، عنان : نهاية الأندلس ، الطبعة الثانية ، مطبعة ، مصر ، ١٩٥٨ ، ص ٢٩٤ — ٢٩٨ .
- (٧٩) أحمد دراج : المماليك والفرنج ، ص ٧٠ .
- (٨٠) الانس الجليل ، ج٢ ، ص ٥٠٥ — ٥٩٠ .
- (٨١) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٤٨٩ — ٤٩٢ .
- (٨٢) الرفاعى : محمد ابو الهدى : : الروض البسام في أشهر البطون القرشية بالشام الاسكندرية ١٨٩٢ ، ص ٣٠ — ٣٩ .
- (٨٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١١ ، ص ٥٦ .
- (٨٤) المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٥٧ .
- (٨٥) نزهة النفوس والأبدان ، ج١ ، ص ٣٤٢ .
- (٨٦) مجير الدين : الانس الجليل ، ج٢ ، ص ٣٩٩ ، رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ١١٤ .

- (٨٧) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٢٨١ .
- (٨٨) الانس الجليل ، ج٢ ، ص ٤٩٠ .
- (٨٩) الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٠٩ .
- (٩٠) الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٤٩٥ — ٥٣٧ .
- (٩١) عمر صالح البرغوثي : تاريخ فلسطين ، ص ٢٢٥ ، طبع القدس ١٩٢٣ .
- Amnon Cohen and Bernard Lewis: Population and Revenue PP- 34 35 (٩٢)
- (٩٣) الانس الجليل ، ج٢ ، ص ٥٠٢ .
- Felix Fabri: The Book Of The Wandering. Vol. 1. P. 226. (٩٤)
- (٩٥) العماد الاصفهاني : منا البرق الشامى ، تحقيق د . فتحية النبروى ، القاهرة ١٩٧٩ ، ج١ ، ص ٣١٦ — ٣١٧ .
- (٩٦) الكامل في التاريخ ، طبع دار صادر بيروت ، ١٩٦٦ ، ج ١١ ، ص ٥٥٢ — ٥٥٣ .
- Runciman: The Christian Arabs of Palstine, Longman 1970, P. 12. (٩٧)
- Wolf- Dietr. Op. Cit. P. 54. (٩٨)
- The Book of The Wandering. Vol. 1. P. 339. (٩٩)
- (١٠٠) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٠١ — ٢٠٢ .
- Conder: The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1897, P, 223. (١٠١)
- Fabri Felix; The Book Of the Wandering. Vol. 1, P, 433. (١٠٢)
- (١٠٣) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص ٧٥٢ .
- (١٠٤) ابن عبد الظاهر : تشریف الايام والعصور ، ص ٢٣ حاشية ١ .
- (١٠٥) يوشع براور : عالم الصليبين ، ترجمة وتقديم د . قاسم عبده قاسم د . محمد خليفة من ، دار المعارف ١٩٨١ ، ص ١٠٩ -- ١١٤ .
- (١٠٦) عبد الحميد زايد : القدس الخالدة ، ص ٢٦٠ .
- (١٠٧) ميخائيل مكس : القدس عبر التاريخ ، ص ١٢٥ .
- (١٠٨) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ١٢٤ .
- (١٠٩) عارف العارف : تاريخ القدس : ث ٢٥٤ ؛ ميخائيل مكس : القدس عبر التاريخ ، ص ١٢٤ ؛ Arther Percivol; Oa. Cit. P. 185. (١١٠)
- Suridno: Op. cit, PP. 89- 90. (١١١)
- Boumgarten: The Travels of Vol; 1, P, 465. Fabri: The Book Of, Vol 1, P. 436 (١١٢)
- Ray John: ACollection of Curiois Travels and Voyages London 1693, P. 355. (١١٣)
- Suriono. Teatist On The Holy Land. PP. 89- 90. (١١٤)
- Tht Book Of The Wandering. Vol. 1. p. 265. (١١٥)
- (١١٥) مفاكهة الخلان ، القسم الاول ، ص ٣٩ .
- (١١٦) الانس الجليل ، ج٢ ، ص ٦٩١ .
- (١١٧) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون في مصر ، ص ١٥٦ — ١٥٩ .
- (١١٨) لمزيد من التفصيل عن هذا الرسالة راجع : المقرئى : السلوك ، ج١ ، قسم ٢ ، ص ٦٢٥ ، ص ٦١٦ ، حاشية ١ ، الخيمى الحسن بن احمد : سيرة الحبشة تحقيق مراد كامل ، مطبعة دار العالم العربى بالقاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٩ ، ٢١ .

- (١١٩) الحيمى الحسن بن احمد : المرجع السابق ، ص ١٩ — ٢١ .
- (١٢٠) تشریف الأيام والمصور ، ص ١٧٠ — ١٧٣ .
- (١٢١) مجير الدين : الانس الجليل ، ج٢ ، ص ٦٥٧ ، رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ٨٠ .
- (١٢٢) السلوك ، ج٢ ، قسم ١ ، ص ٣٧٠ .
- (١٢٣) ابراهيم على طرخان : الاسلام والممالك الاسلامية في الحبشة ، المجلة التاريخية ، عدد ٨ لسنة ١٩٥٩ .
- (١٢٤) Speculum, Wolf Leslau (ed.), « Ethiopian Itineraries » Vol. 34, 1919, PP. 125- 140.
- (١٢٥) السلوك ، ج٢ ، قسم ١ ، ص ٢٧٠
- (١٢٦) Ibid, P. 140.
- (١٢٧) أحمد دراج : الممالك والفرنج ، ص ١١ — ١٢ .
- (١٢٨) Arrher Percival Travels and Travellers. P 180. ؛ ١٢١٢ — ١٢٠٩ ، ج٢ ، ص ١٢١٢
- (١٢٩) واحد دراج : الممالك والفرنج ، ص ٣٦ — ٥٤ .
- (١٣٠) المرجع السابق ، ص ٦٤ — ٨٨ .
- (١٣١) الانس لجليل ، ج٢ ، ص ٦٠١ .
- (١٣٢) بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ١٢ ؛ كذلك أنظر : رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ٨١ — ٨٢ .
- (١٣٣) فورمان ف . كانتور : التاريخ الوسيط ، ترجمة قاسم عبيد قاسم ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٣ ، ج٢ ، ص ٦٧٦ — ٦٧١ .
- (١٣٤) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٢٤٥ ، ميخائيل مكس : القدس عبر التاريخ ص ١٢٢ .
- (١٣٥) أحمد دراج : وثائق دير صهيون ، ص ٢٢ — ٢٥ .
- (١٣٦) Fabri. The Book of The Wandering Vol I, P. 438,, Jomes Porkes. AHist. of Palestine. P. 144; De Saulcy: Jerusalem, Paris 1882, P. 290.
- (١٣٧) Treatise On The Holy Land. P. 3.
- (١٣٨) Wright (Thomas): Early Travels in Palestine. P. 167.
- (١٣٩) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون في مصر ، ص ٢٧٠ — ٢٧٣ .
- (١٤٠) لمزيد من التفصيل راجع : P.P.T.S. Vol. X, PP. 348- 382.
- (١٤١) Avisit To The Holy Land. PP. 75- 127.
- (١٤٢) Pero Tafur: Trvels And Adventures. P. 58, Wright, Early Travels. P, 287, Prescott: Once To Sinai PP. 118- 120.
- أحمد دراج : وثائق دير صهيون ، ص ٤٧ .
- (١٤٣) Wright. Op. Cit P. 287, Prescott; Op, Cit. P. 119.
- (١٤٤) Suriano. Treatisa On The Holy Land. P, 131.
- (١٤٥) عن تلك المراسيم راجع ، احمد دراج : وثائق دير صهيون ، ص ٣٦ حاشية ٤٦ .
- (١٤٦) The Travels of Martin Boumgarten , Vol. I, P, 464.
- (١٤٧) وانظر أيضا أحمد دراج : وثائق دير صهيون ، ص ٢٦ ؛ Jbid, Vol, I, P. 468,
- (١٤٨) Suriano. Op. Cit. P. 3.
- (١٤٩) The Book Of The Wondernig. Vol. I PP, 311- 315, Prescott, Op Cit. O, 120
- (١٥٠) Suriano: Op. Cit P, 6.
- (١٥١) Jbid, PP, 75- 84.

- Ibid, pp. 4-88 (١٥٢)
- Ibid, p. 14. (١٥٣)
- Ibid, p. 5; Frescobaldi: A visit to the holy Places. P. 16. (١٥٤)
- Suriano: Op. Cit. P.5. (١٥٥)
- Fabri: the book of the wanderings. Vol. I, P. 254. (١٥٦)
- Maundrell: A journey from Aleppo to Jerusalem in 1697, Beirut 1963, P. 90. (١٥٧)
- Fabri: Op. Cit. Vol. I, P.431; Breydenbach and his journey to the holy land (184-4), London 1911, (١٥٨) P.X. V.
- Suriano; Op. Cit P. 5. (١٥٩)
- The Travels. Vol. I, P, 404. (١٦٠)
- Suriano: Op. Cit. PP. 6- 11. Maric Josph. Apilgrimage To Palestime, Egypt and Syria, London (١٦١) 1840, PP. 11- 14.
- Suriona. Op. Cit. T. S. Vol. X 9- 11- (١٦٢)
- Fabri: P.P T. S. Vol; X P. 382. (١٦٣)
- (١٦٤) لمزيد من التفاصيل عن هذا الدور راجع في احمد دراج : الممالك والفرنج ، ص ٥١ - ٥٤ .
- (١٦٥) المرجع السابق ، والصفحات نفسها .
- (١٦٦) احمد دراج : الممالك والفرنج ، ص ٥٦ .
- (١٦٧) لمزيد من التفاصيل عن هذا الدور راجع : المرجع السابق ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٨٢ - ٨٥ ، محمد عبد الله عنان : نهاية الاندلس ص ٢٠٦ - ٢٠٨ .
- (١٦٨) لمزيد من التفاصيل راجع : محمد عبدالله عنان : نهاية الاندلس ، ص ٢٠٦ - ٢٠٨ ؛ نعيم زكي : طرق التجارة النولية ، ص Suriano Op. Cit pp. 8- 9; ؛ ٧٨ - ٦٦
- (١٦٩) احمد دراج : وثائق دير صهيون ، ص ١٣٩ - ١٤٠ حاشية رقم ٥٥ .
- (١٧٠) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، ج٣ ، ص ١٤٧ ، مخطوط .
- (١٧١) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ١٣١ .
- (١٧٢) كرد علي : خطط الشام ، ج١ ، ص ٢٨٢ .
- (١٧٣) المقدسي : نزهة الناظرين في تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٣٠٣ تاريخ تيمور ، ورقة ٤٧ ؛ الباز العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج١ ، ص ٢٧١ ؛ Wright: Op. Cit. PP. 85- 92: Joshua ؛ ٢٣٦ ؛ Praver. :Latim Kingdom, London 1973, P, 236.
- (١٧٤) Wright. Op. Cit. PP. 81- 87;
- (١٧٥) Goitein. Jews And Arabs- Their Contacts Through the Ages; New York 1974.PP. 114- 115. (١٧٦)
- Morgolioulh: Cuiro, Jerasalem And Damacus. P. 203, Palestine digest. Nol. 8. P. 24. (1978). (١٧٦)
- وليم فهمى : الهجرة اليهودية الى فلسطين المحتلة ، ص ١٦ ، من منشورات جامعة الدول العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١ .
- (١٧٧) The Jewisf Ency . Vol Vii. P. 132 Art Jerusalem
- (١٧٨) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٢٣٥ ؛ Henry Catttan. Jermusalem. P, 95.
- (١٧٩) عطية القوصى : صلاح الدين واليهود ، المجلة التاريخية ، المجلد ٢٤ ، ص ٤٠ ؛ محمود المايدى : قدسنا ، ص ١٢٢ .
- (١٨٠) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٤٢ ؛ Joshua Praver: Op, Cit, PP. 244 246

- (١٨١) Jewish Ency. Vol. VII, P. 131 Art Jerusalem
- (١٨٢) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٠٨ ، Jbid, Vol. VII, P, 132, ،
- (١٨٣) عطية القوصى : صلاح الدين واليهود ؛ ظفر الاسلام خان : تاريخ فلسطين القديم ، ص ١٧٨ .
- (١٨٤) Jewish Ency. Vol. VII, P. 132.
- (١٨٥) Jbid, Vol VII, P. 132.
- (١٨٦) وليم فهمى : الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، ص ١٦ .
- (١٨٧) Standshut. Jewish Communities And The Muslim Countries of The Middle East, P, 2, London 1956, Bartlett: Jerusalem; p. 43.
- (١٨٨) عبد الحميد زايد ، القدس الخالدة ، ص ٣١٠ ، محمود العابدى : قدسنا ، ص ١٢٤ .
- (١٨٩) محمود العابدى : المرجع السابق ، ص ١٢٥ .
- (١٩٠) The Book of the Wanderings, Vol, 11, P. 226.
- (١٩١) محمود العابدى : قدسنا ، ص ١٢٥ .
- (١٩٢) احمد دراج : الممالك والقرنج ، ص ٣٦ — ٤٥ .
- (١٩٣) رشاد الامام : مدينة المقدس ، ص ١٣١ .
- (١٩٤) Marmorasch: Old And New Places Jn Palestine, Syria, And Lebnon. Jerusalem 1946, P. 72.
- (١٩٥) الانس الجليل ، ج٢ ، ح٢ ، ٤٠٣ .
- (١٩٦) P.P T. S. Vol. X. P. 39;
- (١٩٧) وليم فهمى : الهجرة اليهودية ، ص ١٨ — ١٩ .
- (١٩٨) على محمد على : فلسطين في ماضيها العربي وحاضرها الصهيوني ، ص ١٢١ ، طبع الدار القومية للطباعة والنشر بدون تاريخ .
- (١٩٩) صابر دياب : داراسات في عالم البحر المتوسط في العصور الوسطى — « المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع والعشرون لسنة ١٩٧٧ .
- (٢٠٠) Murray. Syria and Palestime. Vol. P. 83; Marmorsch. Op PP. 72-73.
- (٢٠١) وليم فهمى : الهجرة اليهودية ، ص ٢٠ .
- (٢٠٢) Treatise on the Holy land. PP. 101-102.
- (٢٠٣) Murray: Syria and Plaestine. P. 83.
- (٢٠٤) P.P.T.S. Vol. IX, P. 105; The travels of artin Buamgarten Vol. I,P. 459.
- (٢٠٥) Avisit to the East. PP. 326-328.
- (٢٠٦) نقولا زيادة : رواد الشرق العربي ، ص ١١٠ .
- (٢٠٧) ظفر الاسلام خان : تاريخ فلسطين القديم ، ص ١٦١ — ١٦٣ .
- (٢٠٨) Morgaliouth: Op. Cit P. 208.
- (٢٠٩) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ٢٣٢ .
- (٢١٠) نقولا زيادة : رواد الشرق العربي ، ص ٢١٠ .
- (٢١١) The Book Of The Wandering Of, Vol, 11. P. 125.
- (٢١٢) P,P.P. T. S. Vol. V, P, 112.
- (٢١٣) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ١٢٩ .

Treatise On The Holy Land. PP. 127- 128.

(٢١٤)

Ray John. Op. Cit, Vol. i, P. 340.

(٢١٥)

(٢١٦) ابن فضل الله العمري : التعريف بالمصالح الشريف ، ص ٥٤ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٤٠٢ .

(٢١٧) احمد دراج : الماليك والفرنج ، ص ٦٢ — ٦٣ .

(٢١٨) تاريخ الأمير بشبك ، ص ٢٠ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٦٣٤ — ٦٣٧ ؛ عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة السلطان قايتباي ص ٣٩٧ .

(٢١٩) احمد دراج : الماليك والفرنج ، ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٢٢٠) أحمد دراج : الماليك والفرنج ، ص ١٠٧ — ١٠٨ .

Suriano; Op Cit. PP. 120- 130.

(٢٢١)

(٢٢٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه الوثائق ، راجع : احمد دراج : وثائق دير صهيون ص ٦٧ — ٦٨ .

Van Berchem: Jerusalem Ville 2me P. F,P; . 150.

(٢٢٣) المخطط ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ؛

(٢٢٤) احمد دراج : وثائق دير صهيون ، ص ١١٤ — ١١٥ .

(٢٢٥) احمد دراج : المرجع نفسه والصفحة .

(٢٢٦) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ٢٣٢ .

(٢٢٧) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٩٢ — ١٩٥ ، في ذكر حوادث سنة ٩١٦ هـ .

(٢٢٨) مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ .

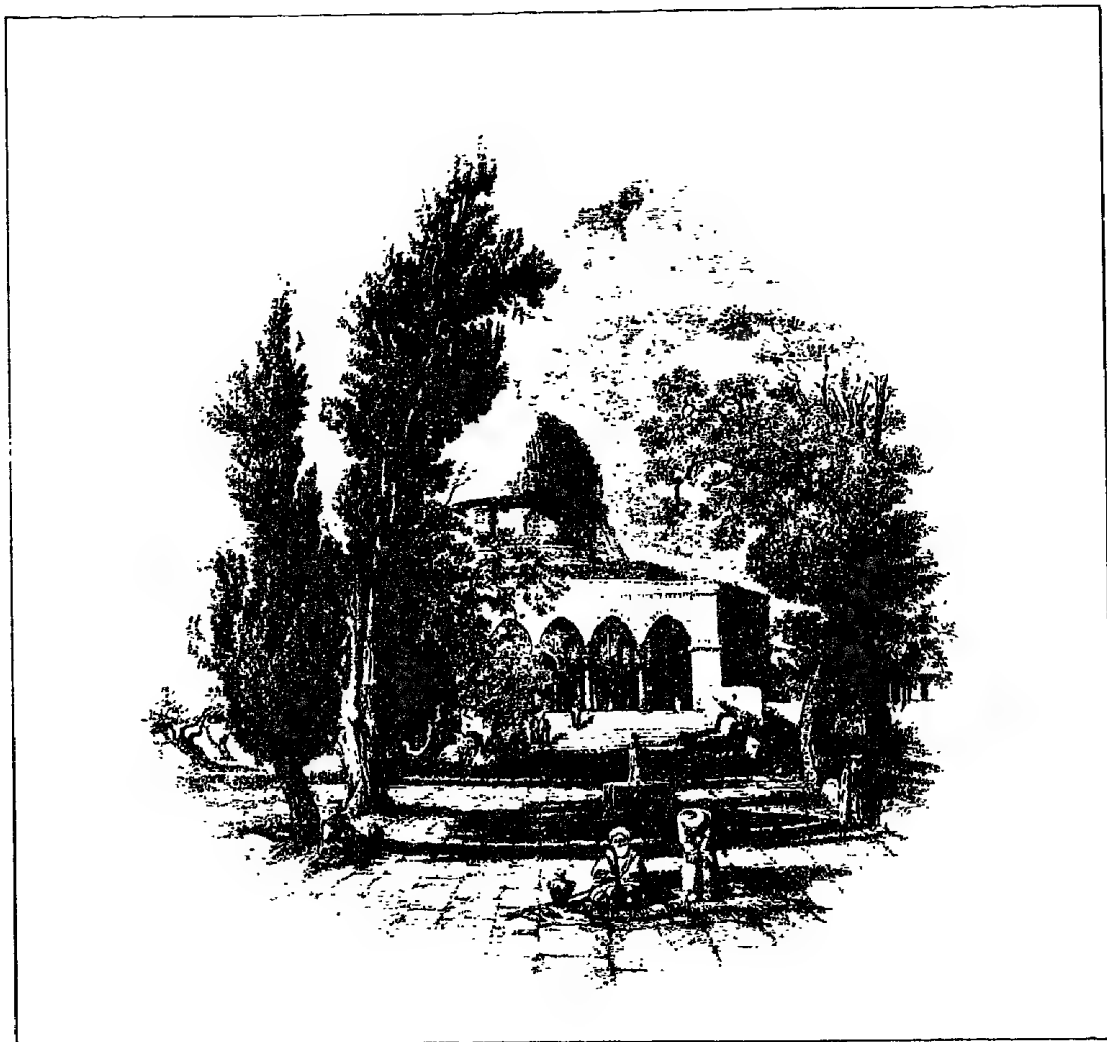
(٢٢٩) احمد دراج ، الماليك والفرنج ، ص ١٠٦ — ١٠٧ .

(٢٣٠) المقرئزي : السلوك ، ج ٣ ، قسم ٢ ، ص ٧٩٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج ٦ ، ص ٣٣٧ ، ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والأبدان ، ج ١ ، ص ٣٦٧ .

الفصل الثالث

الحياة العامة

في مدينة بيت المقدس



من المعروف أن النشاط الدينى والعلمى فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية كان يتكاثف قرب الخلافة أينما حلت . فحول الخليفة يلتف العلماء ، وإذا انتقل الخليفة من مكان لآخر ، سار فى ركابة العلماء تيركا وتيمنا بصحبته ، فضلا عما كان يقدقه هؤلاء الخلفاء عليهم من أموال شجعت الكثيرين منهم على الالتفاف حولهم . كذلك من المعروف أن اهتمام سلاطين المماليك بالواجهة الدينية لدولتهم كان هو الدافع الرئيسى لهم على احياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ٦٥٩ / ١٢٦١ على يد السلطان الظاهر بيبرس ، بعد سقوط بغداد فى أيدي المغول وقتلهم للخليفة العباسى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م . ويرجع اهتمام سلاطين المماليك بالواجهة الدينية لدولتهم الناشئة ، فضلا عن الاهتمام بمقدسات المسلمين ورعايتها ، الى انهم كانوا مجرحين بسبب أصلهم ، الى جانب نظرة المعاصرين لهم على أنهم استأثروا بالحكم دون سادتهم من أبناء البيت الأيوبي .

وسرعان ماأخذت الخلافة العباسية بالقاهرة تستقطب علماء المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ، لينعموا بما هيأه ، لهم سلاطين المماليك من أمن واستقرار إلى جانب محازوه من تشجيع أدبى ومادى . وإذا كان كثير من العلماء قد آثروا الإقامة فى القاهرة على مقربة من الخلافة ونفوذ السلطان المملوكى ، فإن نسبة لا يستهان بها منهم قد دأبوا على التنقل بين الاماكن المقدسة المشمولة برعاية سلاطين المماليك وحمايتهم ، نعى بذلك مكة والمدينة وبيت المقدس طلبا للبركة ، بل أن بعضهم فضل أن يجاور موضعا من هذه المواضع الثلاثة الشريفة ليواصل حياته العلمية فى هدوء ، بعيدا عن أضواء العاصمة وسلطان الحاكم .^(١)

أسباب انتعاش الحياة الثقافية وإقامة العلماء ببيت المقدس

ومع عظم المكانة الدينية لمكة المكرمة والمدينة المنورة ، فإن الحياة فيهما كانت قاسية ، لذا فإن كثيرين من العلماء لم يستسيغوا الإقامة الطويلة فيهما ، فضلا عن بعدهما عن مركز النشاط الحضارى فى العالم الاسلامى فى عصر سلاطين المماليك .

أما مدينة القدس فكانت الحياة فيها اطيب نسبيا لاعتدال جوها - وهذا ماسوف نلاحظه في حديثنا في الفصل الرابع عن الحياة الاقتصادية - فضلا عن وقوعها داخل دائرة النشاط الحضارى للدولة الاسلامية عندئذ ، كذلك كان لها عشاقها الكثيرون وخاصة بعد تلك الغيبة الطويلة التي انتزعت فيها من أحضان الدولة الاسلامية الأم ، ونقصد بذلك تلك الفترة التي عاشتها في ظل الحكم الصليبي منذ عام ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م وحتى عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م حين استرجعها صلاح الدين الأيوبي . كذلك كانت لمدينة بيت المقدس جاذبيتها الخاصة في عيون المسلمين مثلها مثل مكة والمدينة - فلقد ارتبطت في الوجدان الاسلامي بكونها أولى القبلتين وثالث الحرمين ، فضلا عن ارتباطها بقصة الاسراء والمعراج . تلك الجاذبية الخاصة التي تتضح أشد الوضوح عند مثقفي ذلك الزمان ، ولاسيما من تخصص منهم في العلوم الدينية .

ولاشك أن تلك الفترة من تاريخها شهدت وفود كثير من الاسرات العربية المسلمة من المشرق والمغرب إلى بيت المقدس ، نظرا لوضعها الجديد والذي حظيت خلاله بنوع من الامن والاستقرار كما أشرنا في الفصل الاول من هذه الدراسة ، مما شجع الكثيرين على الهجرة إليها والاستقرار بها ، بالإضافة إلى الهجرات الناجمة عن تدهور أحوال العالم الاسلامي في المشرق والمغرب ، مما جعل سلطنة المماليك في مصر والشام بمثابة الحصن الأخير للحضارة العربية الاسلامية . وقد سبق لنا في الحديث في الفصل الثاني عن وفود كثير من المغاربة إليها في عصرى سلاطين الأيوبيين ثم المماليك ، وأنه كانت لهم حارة تسمى باسمهم . وقد حفظت لنا كتب الأدب والتاريخ أسماء مئات من رجال العلم والدين ولأدب الذين رحلوا من المغرب إلى المشرق في طلب العلم والثقفة . وهذا كتاب « نفح الطيب » الذي يختص جزءا يقترب من ثلث حجمه لذكر أولئك العلماء . ومما نفح عليه هناك أن العلماء الذين كانوا يقدون إلى بيت المقدس كانوا يسمعون التفسير والحديث والفقہ في المسجد الاقصى ، فضلا عن عدد كبير من المدارس التي وجدت بالمدينة .

كما تنولى الكثيرون منهم بعض الوظائف الرفيعة مثل القضاء وغيره ، إلى جانب ماأورده لنا مجير الدين من أن مدينة بيت المقدس كانت حافلة بكثير من علماء المغاربة الذين وفدوا إليها في عصر سلاطين المماليك ، وكانت لهم مشاركة في كثير من العلوم الدينية .^(٢) كما أن الرحلة إلى بيت المقدس تطلع إليها كثير من علماء المغرب أيضا ، فهذا هو المقرئ صاحب كتاب نفح الطيب يعتز بأنه نزل بيت المقدس طلبا للعلم والاستزادة حيث يقول : « لما حلت ببيت المقدس وعرف به مكاني من الطلب ، وهذا دليل على مكانه بيت المقدس العلمية .^(٣) »

لم تقتصر هجرة العلماء ورجال الدين إلى بيت المقدس على العلماء المغاربة ، بل شملت كثيرا من العلماء من كل أنحاء المشرق ، وليس أدل على ذلك مما يذكره لنا ابن اياس في وفيات سنة ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م ، أيام السلطان الأشرف قايتباي ، يقوله أن الأخبار جاءت من القدس بوفاة الشيخ سعد الله الهندي الحنفي أمام المسجد الاقصى^(٤) ، وفي قوله « الهندي » إشارة إلى أنه من الهند ، وهذا يؤكد لنا أن بيت المقدس في ذلك العصر جذبت العلماء من مختلف الجنسيات . كما تشير المصادر

المعاصرة إلى كثرة العلماء الذين وفدوا إلى القدس من العراق ، ولا شك أن هذا راجع إلى ما تمتع به هؤلاء من أمن واستقرار يعكس ما كانت عليه الحال في بلادهم التي كانت خاضعة لحكم المغول الوثنيين . إلى جانب هجرة كثير من العلماء من تبريز نتيجة لغزوات المغول أيام هولاكوخان ، وما تذكره المصادر عن كثير من العلماء الذين وفدوا من بلاد الروم ومن التركان والذين لمع ذكركم ، وكانت لهم مشاركة في كثير من العلوم الدينية . ومن الملاحظ أن عددا كبيرا من هؤلاء كانوا من الحنفية بينما كان القليل منهم من الشافعية ، ولعل ذلك راجع إلى انتشار المذهب الحنفي بالبلاد التي قدموا منها ، بينما كان المذهب الشافعي أكثر انتشارا في بيت المقدس ومصر وبلاد الشام ^(٥) .

وتشير كثير من المصادر والمراجع إلى أن مدينة بيت المقدس غدت في عصر سلاطين المماليك مهوى أفئدة كثير من العلماء وطلبة العلم في ذلك الوقت ، بجانب صبغتها الدينية ، مع تعدد مدارسها التي حظيت برعاية وعناية الحكام من سلاطين وأمراء والكثيرين من أهل البر ، والذين جادوا لها بالأموال والعقارات التي خصصت لأعمال الخير وكان ينفق من ريعها على العلماء وطلبة العلم . فضلا عن تعدد مساجدها وزواياها التي تعقد فيها حلقات التدريس كذلك انجبت مدينة القدس الكثير من العلماء الذين أثروا الحياة العلمية بنتائجهم والذين ستتحدث عن بعضهم في الصفحات التالية ، كما أنهم انتشروا في أنحاء الدولة المملوكية ، وتولوا الكثير من المناصب الهامة في البلاد المختلفة . ^(٧) .

وليس أدل على أن بيت المقدس كانت إحدى المراكز العلمية الهامة في عصر سلاطين المماليك ، وأنها كانت قبلة العلماء وطلاب العلم والمعرفة ، من أن كبار علماء ذلك العصر وفدوا إليها وتلقوا جانباً من تعليمهم بها ، مثال ذلك مؤرخ الشام شمس الدين الذهبي الذي توفي سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ، وشهاب الدين ابن حجي فقيه الشام « ت ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م ^(٨) » كذلك يروى لنا البدر العيني أنه سافر إلى بيت المقدس عام ٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م حيث لازم شيخ علماء مصر في ذلك الوقت والذي كان مقيماً بالقدس وهو علاء الدين علي بن أحمد بن محمد السيرامي ^(٩) .

ويروى ابن العماد في حديثه من ابن حجر أنه رحل وانتقل وحصل ببيت المقدس على أيدي الكثيرين من علمائها أمثال شمس الدين القلقشندي ويدرا الدين بن مكى وغيرهما . ^(١٠) وما يرويه ابن حجر نفسه من أن القدس كانت محط انظار كثير من العلماء وطلبة العلم للاخذ على شيوخها ، والحصول على الاجازات العلمية منهم فضلا عن أن كثيرا من العلماء رحل إليها لكي يسمع أولاده بها ^(١١) .

فضلا عما تشير إليه بعض المصادر من أن مشاهير العلماء كانوا يفضلون الحياة فيها على العاصمة ، من ذلك ما يروى عن الشيخ جمال الدين عبد الله محمد بن سليمان بن حسن بن حسين البلخي « ت ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ » والذي كان يشتغل بالعلم في القاهرة ، ثم انتقل إلى القدس إلى أن توفي به ، وكان شيخا وله مصنف حافل كبير جمع فيه خمسين مصنفاً من التفسير . ^(١٢) كذلك يؤكد المقرئ في

حديثه عن ابن الهائم المصرى « ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م » من أنه درس بالقدس وكان قد تحول إليه من القاهرة وبرع في الحساب والفرائض^(١٣) .

ويجب أن نشير إلى أنه كانت من نتيجة هجرة كثير من العلماء إلى البيت المقدس في ذلك العصر ، أن نشأت كثير من الاسرات العلمية التى أثرت الحياة العلمية في القدس بما أنجبته من علماء ، وما كان هؤلاء من جهود علمية ومؤلفات . وفي الجدول التالى سنكتفى بالإشارة إلى مؤسسى تلك الأسرات مع نبذة عن أهم مؤلفاتهم العلمية حسبما أشارت إليه بعض المصادر التى تحدثت عنهم .

الأسرة	نبذة عن مؤسسها وأهم مؤلفاته أو مؤلفات أفراد الأسرة
--------	--

(١) بنو كيكلى	ويأتى على رأس هذه الاسرة صلاح الدين ابو سعيد خليل بن كيكلى بن عبد الله العلائى « ت ٧٦١هـ / ١٣٥٩م » ومن أهم مؤلفاته :
-----------------	--

(١) فهرست مسموعاته في كتاب سماه الفوائد المجموعة في الفرائد المسموعة .

(٢) تحفة الرائض بعلوم آيات الفرائض .

(٣) الاربعين في أعمال المتقين

(٤) شرح حديث ذى اليمين في مجلد

(٥) الوشى المعلم فيمن روى عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ .

(٦) عقيلة الطالب في ذكر أشرف الصفات والمناقب .

(٧) تنقيح المفهوم في صيغ العلوم .

(٨) المجموع المذهب في قواعد المذهب .

(٩) مختصر جامع الأصول لأحاديث الرسول .

(١٠) الاشباه والنظائر في فروع الفقه الشافعى .

(١١) تفصيل الاجمال في تعارض الاقوال والافعال .

(١٢) برهان التيسير في عنوان التفسير .^(١٤)

هذا وقد ورث عنه ذريته في العلم ، وكان منهم كبار العلماء ورحلة عصرهم والذين تتلمذ عليهم كثير من مشاهير ذلك العصر^(١٥) .

(٢) بنو القلقشندى	يأتى على رأس الأسرة الشيخ تقى الدين القرشندى « ت ٧٧٨هـ /
---------------------	--

١٣٧٦م ، وقد أنجبت أسرة القلقشندى كثيرا من العلماء والفضلاء الذين تولوا عددا من المناصب الهامة في بيت المقدس طوال عصر سلاطين المماليك ، منها الافتاء والتدريس ، ويبدو أن ابناء هذه الأسرة كان لهم ولع خاص بعلم الحديث^(١٦) .

(٣) بنو جماعة	يأتى على رأس هذه الاسرة الشيخ برهان الدين أبو اسحاق ابراهيم بن ابى
-----------------	--

الفضل سعد الله بن جماعة « ت ٥٧٥هـ / ١٢٧٦م » ، وقد أنجبت لنا هذه الأسرة كثيرا من الابناء منهم القضاة والعلماء الاجلاء طوال عصر سلاطين المماليك . كذلك يبدو لنا أنه كان لابنائها ولع بدراسة الفقه والحديث بوجه خاص . (١٧) .

٤ (بنو الديري

نسبة إلى قرية يقال لها الديري من بلاد نابلس ، ويقال أن أول من استوطن منهم القدس هو شيخ الاسلام شمس الدين ابو عبد الله محمد بن جمال الدين بن عبد الله سعد بن عبد الله بن مصلح الديري الخالدي العيسى الحنفى من علماء القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى . ومنهم الشيخ سعد الدين بن محمد بن عبد الله الديري الحنفى « ت ٨٦٧هـ / ١٤٦٢م » وكان على رأس الحنفية بالقاهرة كما ولى القضاء بها وله تصانيف منها : « تكمله شرح الهداية للسروجى » . (١٨) .

٥ (بنو قدامة

ويأتى على رأس هذه الاسرة الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة « ت ٦٠٧هـ / ١٢٠٨م » وقد كان لهذه الاسرة شأن يذكر في مجال الحياة العلمية ، سواء داخل القدس أن في بلاد الشام عامه ودمشق خاصة ، حيث استوطن عدد كبير من أبنائها صالحية دمشق ومنهم الشيخ تقى الدين أبو الفضل سليمان بن قدامة « ت ٧١٥هـ / ١٣١٥م » وله معجم في مجلدين ، وقد شارك في العربية والفرائض والحساب ، وهو مسند الشام وقاضى القضاء والذي تخرج به الفقهاء وتفرد في زمانه كما يقول عنه المقرئى . (١٩)

٦ (بنو غانم

ويرجع نسب هذه الاسرة إلى الشيخ غانم المقدسى ، شيخ الخانقاه الصلاحية بالقدس ، زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله ، وقد كان منهم كثير ممن تولى كثيرا من الوظائف الدينية الهامة في بيت المقدس ، حيث تولى منهم مشيخة الحرم جماعة يزيدون على العشرين طوال عصر سلاطين المماليك . (٢٠)

من هذا العرض الموجز عن بعض الاسرات العلمية التي نشأت في مدينة بيت المقدس ، في عصر سلاطين المماليك يتضح لنا جانب من جوانب ازدهار الحياة الثقافية في مدينة بيت المقدس في ذلك العصر ، وكيف أن نشأة هذه الاسرات كان ضمن العوامل التي ساعدت على إثراء الحياة العلمية في ذلك الوقت . كذلك يجب أن نشير إلى أن تلك الاسرات قد أنجبت الكثير من السيدات الشهيرات في ذلك العصر ، بما لهن من مشاركة علمية وبخاصة في مجال علم الحديث ، نذكر منهن على سبيل المثال لا الحصر أسماء ابنة الحافظ صلاح الدين خليل بن العلاتى (ت ٧٩٥ هـ) ، وكانت قد سمعت

على والدها وغيره ، وحدث بالكثير من مسموعاتها ، وكذلك المسندة آمنة ابنة العلامة تقى الدين اسماعيل القرقشندى (ت ٨٠٩ هـ) ، وكانت قد سمعت على والدها وجدها لامها وغيره ، وحدث بالقدس الشريف ، وعائشة بنت محمد بن عبد الهادى بن عبد الحميد بن قدامه ، وهى محدثه دمشق ، وكانت قد حضرت فى أوائل الرابعة من عمرها جميع صحيح البخارى على مسند الافاق الحجار وروى عنها الحافظ ابن حجر وقرأ عليها كتباً عديدة وتوفيت سنة ٨١٦ هـ^(٢١) .

ومن المرجح أنه كانت ثمة منافسة علمية بين أبناء تلك الاسرات ، وإن كان وجه المنافسة الواضح طوال عصر سلاطين المماليك هو تطلع كل أسرة منها لكى تحوز الجانب الاكبر من الوظائف الدينية الهامة مثل الخطابة والقضاء وغيرها من الوظائف . ويبدو أن السلاطين والامراء والمماليك ، لكى يرضوا تلك النزعة لديهم ، كانوا يشركون أبناء هذه الاسر فى المنصب الواحد ، ويؤكد هذا رأى مايرويه مجير الدين فى حديثه عن خطابه بيت المقدس بقوله : « وكان اشترك بنى القرقشندى وبنى جماعة فى الخطابة بالقدس الشريف من زمن الملك المؤيد شيخ قبل العشرين والثمانمائة^(٢٢) »

وأخيراً تجب الإشارة إلى أن تلك المنافسة ، والتي حاول أفراد كل أسرة أن يحوزوا من خلالها الصدارة العلمية فى بيت المقدس ، كانت ضمن العوامل التى جعلت مدينة القدس احدى المراكز العلمية الهامة والنشطة ، حيث قدم اليها كثير من العلماء لكى يأخذوا عن أبناء تلك الاسرات وغيرهم من العلماء ، وليس أدل على ذلك مما يرويه لنا السحاوى فى حديثه عن الشيخ شمس الدين النحريرى « ت ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م » من أنه أرتحل إلى القدس فأخذ عن النجم بن جماعة والبدر العليمى والاخوين الشمس والبرهان ابنى القلقشندى وسمع على أبى الخير العلائى الجزء الأول من مسلسلات والده الشيخ الحافظ .^(٢٣) هذا إلى جانب مايرويه مجير الدين فى حديثه عن الشيخ زين الدين عبد الكريم القرقشندى « ت ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ م » من أنه كان من أعيان العلماء بالقدس الشريف ، وله اليد الطولى فى علم الحديث ، وأخذ منه جماعة من الأعيان وله أحاديث مخرجه .^(٢٤)

مظاهر ازدهار الحياة العملية فى بيت المقدس

١) علماء بيت المقدس ونتائجهم العلمى : -

أما ثمرة هذه الانتعاش فى الحياة العملية الواسع النطاق ، فقد تمثلت فى عدد كبير من المؤلفات والرسائل والمصنفات ، والتي ارتبطت ولادتها بيت المقدس لتجعل من هذه المدينة مركزاً خصباً من مراكز الفكر الاسلامى فى عصر سلاطين المماليك .

والجدول التالى يوضح لنا مدى هذا النشاط وبخاصة فى مجال العلوم الدينية :-

علوم الحديث والتفسير والفقه : -

- | | | |
|--|---|--|
| (١) ابن غانم المقدسي
% ت ٦٧٨ هـ /
١٢٧٩ م | هو الحافظ عز الدين عبد السلام أحمد بن غانم المقدسي ، حكيم ، صوفي ، واعظ من تصانيفه : حل الرموز ومفاتيح الكنوز ، الروض الانيق في الوعظ الرشيق ، كشف الاسرار عن الحكم المردعة في الطيور والازهار ، كشف الاسرار ومناقب الابرار ومحاسن الاخيار بجميل العبارة ولطيف الاشارة ، والفتوحات الغيبية في الاسرار القلبية . | كحالة : معجم المؤلفين ، ج ٥ ، ص ٢٢٣ . |
| (٢) بن قدامة الحنبلي | هو الامام شمس الدين ابو محمد عبد الرحمن بن محمد احمد ابن محمد بن قدامة الحنبلي المقدسي ، كان إماما فقيها - ورعا زاهدا كبير القدر جم الفضائل ، انتهت إليه رئاسة مذهب الامام احمد بن حنبل في زمانه ، وشرح كتاب « المقنع » في الفقه تأليف عمه شيخ الاسلام موفق الدين رحمه الله . | ابن تفرى بردى : النجوم ج ٧ ، ص ٣٥٨ . |
| (٣) شهاب الدين أبو العباس الخوئي ت ١٢٩٣ / ٦٩٣ | وله شرح « الفصول لابي معطي ، ونظم علوم الحديث لابن صلاح ، والفصيح لثعلب ، وكفاية المتحفظ » يقول عنه ابن كثير : « هو الشيخ الامام الخطيب المدرس المفتي ، شرف الدين ابو العباسي احمد بن كمال الدين احمد بن نعمة بن احمد بن جعفر بن حسين بن حماد المقدسي الشافعي ، ولد سنة ثنتين وعشرين وستائه وسمع الكثير وكتب حسنا وصنف فأجاد وأفاد ، وولى القضاء نيابة بدمشق والتدريس | سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على مدينة بيت المقدس ص ١١ . |
| (٤) شرف الدين المقدسي « ت ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م » | ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ، ص ٣٤١ . | |

والخطابة بدمشق ، وكان مدرس الحديث بالنورية مع الخطابة ، ودرس في وقت بالشافعية البرانية وأذن في الافتاء لجماعة من الفضلاء منهم الشيخ الامام العلامة شيخ الاسلام أبو العباس بن تيمية ، وكان يفتخر بذلك وكان يتقن فنونا كثيرة من العلوم وله شعر حسن ، وصف كتابا في أصول الفقه جمع فيه شيئا كثيرا ، وهو عندى بخطه الحسن » .

- (٥) ابن النقيب « ت ٦٩٨هـ / ١٢٩٩م » هو الشيخ الامام العالم الزاهد جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان ابن الحسن بن الحسين البلخي ثم المقدسي الحنفى المعروف بأبن النقيب ، مولده في النصف من شعبان سنة إحدى وعشرين وقليل إحدى عشر وستائه بالقدس الشريف اشتغل بالقاهرة واقام مدة بالجامع الازهر ، ودرس في بعض المدارس في القاهرة ثم انتقل إلى القدس ، واستوطنه إلى أن مات به ، كان شيخا فاضلا في التفسير له فيه مصنف حافل كبير جمع فيه خمسين مصنفا من التفاسير بلغ تسعة وتسعين مجلدا ، وقد لاقى كتابه هذا في التفسير رواجاً كبيراً ، إلى أن صار ينعت مؤلفه بصاحب التفسير الكبير .

- (٦) نجم الدين الطوخى هو العلامة نجم الدين الطوخى ت ٧١٠هـ / ١٣١٠م الصرصرى الحنبلى ، كان قد سافر إلى القاهرة وولى الإعادة بالمدرستين الناصرية والمنصورية بها ، وله تصانيف

الخالدى : اهل العلم بين مصر وفلسطين ، ص ١٠ - ١١ .

منها : بغية السائل في أمهات المسائل في أصول الدين ، ومختصر الروضة في أصول الفقه ، شرحة في ثلاث مجلدات ، ومختصر الحاصل في أصول الفقه والقواعد الكبرى والصغرى ، والاكسير في قواعد التفسير ، والرياض النواضر في الأشباه والنظائر ، وبغية الواصل إلى معرفة الفواصل ، وغير ذلك من المصنفات في الادب والجدل .

(٧) ابن جبارة ت ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧ م	هو شهاب الدين احمد بن جبارة المرادوى الحنبلى الزاهد الفقيه الاصولى المقرئ النحوى ، أحد شيوخ ابن الوردى ، اقام في مصر دهرا ، وجاور بمكة ، ثم قدم دمشق واشتغل الناس عليه بها مدة ، ثم اقام بجلب ثم بالقدس وكان صالحا صادقا زاهدا ، وله مصنفات منها شرح الشاطبية في أربع مجلدات . -	ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ج ٢ ، ص ٤٠٦ .
-----------------------------------	--	---

(٨) بدر الدين ابن جماعة ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م	هو قاضى القضاة شيخ الاسلام بدر الدين أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن سعد الله ابن جماعة ، ولى الخطابة - بالمسجد الاقصى الشريف وأمامته وقضاء القدس ، جمع له بين ذلك في شهر رمضان سنة سبع وثمانين وستائه ، وله النظم والنثر والخطب والتصانيف منها التبيان لمهمات القرآن ، وغرر التبيان ، والفوائد اللائحة من سورة الفاتحة ، والمنهل الروى في علوم الحديث النبوى ، والفوائد الغزيرة في أحاديث بريرة ، وتنقيح المناظرة في تصحيح المخامرة ،	مجير الدين : الانس الجليل ، ج ١ ص ٤٨٠ .
---	--	---

- وتحرير الاحكام في تدبير جيش الاسلام
ومستند الاجناد في الات الجهاد ،
والطاعة في فضيلة صلاة الجماعة ،
وحججه السلوك في مهادة الملوك ،
وكشف الغمة في احكام أهل الذمة .
- ٩- ابن عبد الهادي « ت هو محمد بن احمد بن عبد الهادي بن
٧٤٤هـ / ١٣٤٣م » عبد الحميد بن عبد الهادي ، شمس
الدين أبو عبد الله ابن قدامة المقدس
الجماعيلي الاصل ، ثم الدمشقي
الصالحى حافظ للحديث ، عارف
بالادب ، من كبار الحنابلة أخذ عن ابن
تيمية والذهبي وغيرهما ، وصنف
ما يزيد على سبعين كتابا ، يزيد ما أكمله
منها على مائه مجلد ومات قبل بلوغ
الأربعين ، من كتبه : العقود الدرية في
مناقب شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ،
والمحرر في الحديث اختصره من الامام
فجوده جدا ، وفضائل الشام ، وقواعد
أصول الفقه ، والصارم المنكى في الرد
على ابن السبكي ، وشرح التسهيل في
مجلدين ، وشرع في كتاب العلل على
ترتيب كتب الفقه ، والاحكام في فقه
الحنابلة في ثمان مجلدات ، وتراجم
الحفاظ واختصر التعليق لابن الجوزي
وزاد عليه ، وجمع التفسير المسند ولم
يكمله ، وله كلام على أحاديث مختصر
ابن الحاجب ، وله مناقشات لابي حيان
فيما اعترض به على ابن مالك في الالفية
وغير ذلك .

وكذا التزم في كتاباته الامانة في
النقل والتحرر من اراء الرجال مما يجب

أن يلتزمة كل مخالف مع من يخالفه .

١٠) ابن كيكلدى هو صلاح الدين ابو سعيد خليل بن كيكلدى بن عبد الله العلائي الشافعي المحقق بقية الحفاظ ، جد واجتهد حتى فاق أهل عصره في الحفظ والاتقان ودرس بدمشق بالأسدية وغيرها ، ثم انتقل إلى القدس مدرسا للصلاحية ، وأقام بالقدس مدة طويلة ، وقد كان اماما في الفقه والنحو والاصول مفننا في علم الحديث ومعرفة الرجال ، علامة في معرفة المتون والأسانيد وقد سبقت الاشارة إلى مؤلفاته العديدة في الصفحات السابقة .

١١ - ابن مفلح « ت محمد بن مفلح بن مفرج ابو عبد الله ، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحى . أحد كبار علماء الحنابلة في عصره . ولد ونشأ في بيت المقدس ، وتوفي بصالحية دمشق . ومن تصانيفه كتاب الفروع ، ثلاثة مجلدات في الفقه ، والنكت والفوائد السنية على مشكل الحرر لابن تيمية في الفقه ، وأصول الفقه ، والآداب الشرعية الكبرى في ثلاث مجلدات ، وله شرح على المقنع لابن قدامة في الفروع ثلاثين مجلدا .

١٢ - الحسن بن عبد الله ت ٧٧١هـ / شرف الدين ابن شرف الدين قاضي الجبل طلب بنفسه بعد العشر ، وخرج له ابن سعد مشيخة من ثمانية عشر شيخا حدث بها

واشتغل بالعلم فبرع في الفنون ، وكان بارعا في العلوم بعيد الصيت قديم الذكر ، وله نظم بديع وذهن سيال ، وكان يزدهم الفضلاء والعامة في مجالس علمه . ومن تصانيفه القصص المفيد في حكم التوكيد ، ومسألة رفع اليدين والكلام على قوله تعالى « أأنت قلت للناس أتخذوني وأمى الهين من دون الله ... » وله نثر فائق في المذهب .

١٣) محب الدين ابن الهائم ت ٧٩٨هـ / ١٣٩٥ .
هو محمد بن احمد بن عماد المصري المقدسي محب الدين ابن الهائم ، حفظ القرآن وهو صغير جدا وكان آية في سرعة الحفظ وجودة القريحة ، اشتغل بالفقه والعربية والقراءات والحديث ، ومهر في الجميع في أسرع مدة ، ثم صنف وخرج لنفسه ولغيره وقد رافق ابن حجر في سماع الحديث كثيرا وسمع ابن حجر بقراءته المناهج على شيخهما برهان الدين وهو أذكى من رآهم ابن حجر مع الدين والتواضع وحسن الخلق والصيانة .

١٤ - ناصر الدين زريق ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠
هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن احمد بن التقى سليمان بن حمزة المقدسي ثم الصالحى ، ناصر الدين المعروف بزريق سمع الكثير من بقية اصحاب الفخر ومن بعدهم ، وكان يقظا عارفا بفنون الحديث ذاكرا للأسماء والعلل ، ولم يكن له اعتناء بصناعة الرواية من تمييز العالى والنازل بل على طريق المتقدمين ، رتب المعجم الأوسط على

- الأبواب ورتب صحيح ابن حبان ،
وقد رافق ابن حجر كثيرا بحيث يقول
عنه انه لم ير من يستحق أن يطلق عليه
أسم « الحافظ » غيره بالشام .
- ١٥ - ابن الهائم ت ٨١٥هـ / ١٤١٢ م ..
احمد بن محمد بن عماد الدين بن علي
المقدسي المعروف بابن الهائم ، شهاب
الدين ابو العباس الشافعي الغرضي ،
وله من التصانيف ابراز الخفايا ، في فن
الوصايا ، والبحر والعجاج في شرح
المنهاج للنووي والبيان في تفسير القرآن
أربع مجلدات وتحرير القواعد العلائية
وتمهيد المسالك الفقهية والتحرير لدلالة
نجاسة الخنزير والتحفة القدسية منظومة
في الفرائض ، وتحقيق المنقول والمقول
في نفس الحكم الشرعي عن الافعال قبل
بعثة الرسول ، ورفع الكلام عن القائل
باستحباب القيام والعجالة في استحقاق
الفقهاء أيام البطالة والعقد في تحقيق
كلمة التوحيد ، وغاية السؤل في
الافرار في الدين المجهول ، والفصول
المهمة في موارث الامة ، وكفاية
الحفاظ في الفرائض واللمح في اجتناب
البدع ، والمغرب في استحباب
الركعتين قبل المغرب ، والممتع في شرح
المقنع شرحه الكبير وغير ذلك في العلوم
الرياضية من حساب وجبر ومقابلة ...
- ١٦ - عبد الرحمن
القلقشندي ت ٨٢٦ م / ١٤٢٢ م ..
هو عبد الرحمن محمد بن اسماعيل
القلقشندي المقدسي ، الشافعي زين
الدين ، محدث ، مفسر سمع بدمشق
ونابلس والقدس ، وتوفي بالقدس ،
ومن آثاره : تفسير الفاتحة ، وتعليقات
- البغدادى : هدية العارفين ، ج ٢ ، ص ١٢٠ ، إسماعيل باشا
ايضاح المكنون ، ج ١ ، ص ١٠ ، ١٦٥ .
- كحالة : معجم المؤلفين ج ٥
ص ١٧١ ، إسماعيل باشا :
ايضاح المكنون ج ١ ، ص ٣٠٦ .

- على شرح السراج البلقيني للجامع
الصحيح البخارى .
- ١٧ - عبد العزيز عبد العزيز على بن عبد العزيز عبد
المقدسى ت ٨٤٦هـ / المنشأ البكرى الحنبلى عز الدين أبو
١٤٤٢م البركات مفسر وفقهه ، أصولى
مقرئ ، محدث ، نحوى ، بيانى ، ولد
ببغداد ، وولى القضاء ببيت المقدس
وبدمشق ، وتوفى بدمشق من
تصانيفه : الفنون الجلية فى معرفة
حديث خير البرية ، شرح مختصرا
الخرقى فى فروع الفقه الحنبلى بديع
المعانى فى علم البيان والمعانى ، مسلك
البررة فى معرفة القراءات العشر والقمر
المنير فى أحاديث البشير النذير ..
- ١٨ - المقدسى ت محمد بن أحمد بن سعيد ، عز الدين
٨٥٥ هـ ١٤٥١ م المقدسى فقيه حنبلى ، من القضاة ،
أصله من بيت المقدس ولد فى كفر لبدة
من جبل نابلس ، وتنقل بين صالحية
دمشق وحلب وبيت المقدس ، كما
جاور بالمدينة ومكة حيث توفى بها ومن
كتبه : الشافى والكافى فى الفقه ،
والآداب ، وسفينة الأبرار فى ثلاث
مجلدات .
- ١٩ - ابن الديري سعد بن محمد بن عبد الله بن سعد بن
ت ٨٦٧ هـ أنى بكر بن سعد النابلسى الأصل
١٤٦٢ م المقدسى ، نزيل القاهرة الحنفى ،
ويعرف بابن الديري سعد الدين أبو
السعادات ، مفسر ، فقيه ، متكلم ،
أديب من تصانيفه : الكواكب النيرات
فى وصول ثواب الطاعة الى الأموات ،
- كحالة : نفس المرجع ج ٥ ،
٢٥٤ .
- الزركلى : الاعلام ج ٦ ،
ص ٢٣٠ .
- كحالة : معجم المؤلفين ، ج ٤
ص ٢١٣ .

- تكملة شرح الهداية للسروجي ، شرح
المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة ،
السهام المارقة في كبد الزنادقة وقصيدة
مخمسة في مدح النبي ﷺ .
- ٢٠ - أبو مساعد
ت ٨٧٣ هـ /
١٤٦٨ م .
- محمد بن عبد الوهاب بن خليل بن
غازي المقدسي الشافعي ، ولد سنة
تسع عشر وثمانمائة ببيت المقدس ونشأ
بها ، فقرأ القرآن وجوده على الشمس
القباقبي وأبى القسم النويري ، وحفظ
التنبيه وألفية النحو والشمسية ،
والتلخيص ، وتصدر بالأقصى ، وأشير
اليه بالفضل ، وأقرأ الطلبة وأفتى بل
واختصر الملهمات للبلقيني في نحو رباعها
والنكت للولي العراقي فكتب منه نحو
الثلث وعمل كتاب في الأصول سماه
الارشاد وشرحه في مجلد لطيف ،
وشرع في جمع شروح المنهاج في
تصنيف وصل فيه الى التيمم .
- ٢١ - - المقدسي
ت ٨٧٨ هـ /
٢٤٧٣ م .
- ابراهيم بن علي بن ابراهيم بن يوسف
ابن عبد الرحيم برهان الدين أبو الصفا
ابن أبي الوفا العراقي ، الحسن المقدسي
الشافعي ، صنف من الكتب ابتهاج
الناسكين في طريق المحققين ، اللطائف
في بعض صفات العارف ، الرسالة
القدسية في الالهامات الأنسية في أصول
الدين ، الشفاء لصدور الصدور
والدواء لداء المصدور عمدة الطالبين
الى معرفة أركان الدين ، الفتح البرهاني
في شرح الدين الايماني ، فتح الله
حسبي وكفى في مولد المصطفى محاسن
الأعمال ومعادن الأقوال ، ومنهاج
- السخاوي : الضوء اللامع
ج ١١ ، ص ١٤٢ باسماعيل
باشا : ايضاح المكنون ج ١ ،
ص ٦٢ .
- البغدادى : هدية العارفين ،
ج ١ ص ٢٣ - ٢٤ ؛ اسماعيل
باشا : ايضاح المكنون ج ٢ ،
ص ٥٨٦ .

- السالكين إلى مقام العارفين ، وصية
الوالد والأب من الثلب والقلب وغير
ذلك من المصنفات في التصوف .
- ٢٢ - محمد ابن جماعة محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن جماعة
الكناني المقدسي ، الشافعي ، نجم الدين
أبو البقاء فقيه ، أصولي اخباري ، ولد
بالقدس ونشأ به ، ومن تصانيفه :
النجم اللامع في شرح جمع الجوامع في
الأصول مجلدين ، تعليق على الروضة في
مجلدات ، تعليق المنهاج في مجلدات لم
يكمل ، والدر النظيم في أخبار موسى
الكليم .
- ٢٣ - ابن أبي شريف هو محمد بن محمد بن أبي بكر بن علي
بن مسعود رضوان المرى القدسي ،
الشيخ كمال الدين أبو المعالي ابن أبي
شريف الشافعي ، أخذ عن الشهاب بن
رسلان ، والحافظ ابن حجر والشيخ
عبد السلام البغدادي وغيرهم ولازم
خدمة العلم ، فبرع في الفقه ،
والأصول ، والعربية وغيرها ، وتصدى
للتدريس والافتاء ، ومن تصانيفه
حاشية على شرح العقائد للتفتازاني ،
وحاشية على شرح جمع الجوامع للجلال
الحلي .
- ٢٤ - السيوطي : نظم العقيان
ص ١٥٩ - ٢١٦٠ ؛ الأنس
الجليل ج ٢ ص ٤٦٢
ص ٧٠٨ ، ٧١٠ ؛ الزركلي :
الاعلام ج ٧ ، ص ٥٣ ؛ فهرس
المخطوطات العربية بدار الكتب
تحت رقم ٣٤ تفسير تيمور

كان هذا عرضاً لبعض نماذج من علماء بيت المقدس في مجال العلوم الدينية المختلفة ، من حديث
وتفسير وفقه ، أو بعبارة أخرى هذا قليل جداً من كثير ، ففي احصائية قمنا بها لكتاب الأنس الجليل
والذي يعتبر من المصادر الهامة التي اعتمدنا عليها في هذا البحث ، وفي نفس الوقت يعتبر المصدر
الوحيد الذي اهتم فيه مصنفه بذكر علماء بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك بصفة خاصة ،
حيث قسم العلماء حسب مذاهبهم الدينية وهم الذين اطلع على ترجمتهم فقط بصرف النظر عن من لم

يطلع على ترجمتهم وكانت النتيجة على النحو التالي :

أولاً : بالنسبة لعلماء الشافعية فقد ذكر وقف مجير الدين في كتابه هذا ترجمة ٢٩٨ فقيها من فقهاء الشافعية والذين على تراجمهم ، أما بالنسبة للحنفية فقد ذكر لنا ترجمة خمسة وستين فقيها من علماء الحنابلة ، أما المالكية فقد أورد تراجم لثلاثة وثلاثين فقيها ، وفي النهاية أورد تراجم الأربعة عشر فقيها من فقهاء الحنابلة .^(١٥)

وبذلك يكون أجمالى هذا العدد ٤١٠ فقيها من مختلف المذاهب ، هؤلاء هم فقط الذين وقف على تراجم لهم ، فإذا أضفنا إلى هؤلاء الذين لم يقف على تراجم لهم وقارنا بين ذلك العدد من الفقهاء وبين مساحة المدينة من جهة لأدركنا كثرة عدد الفقهاء بالنسبة لصغر حجم المدينة ، أما عن تلك المساحة والتي يذكر أحد الباحثين أنها لم تكن تزيد عن ٨٦٨ ألف متر مربع^(٢٦) . والحقيقة أن كثيرا من المصادر تشير إلى صغر حجم المدينة ، فعلى سبيل المثال يقول عنها الرحالة بنيامين التطلى والذى زارها في أواخر القرن الثاني عشر الميلادى : « أن القدس مدينة صغيرة .^(٢٧) كذلك يعترف مجير الدين بهذا الصغر في حديثه عن مبانى المدينة بقوله : « والبناء مشحون بحيث لو تفرق على حكم غالب مدن مملكة الاسلام لكان حجم المدينة ضعف ما هو الآن ...^(٢٨) كذلك يتفق كل من كوندر وريتشارد بكوك على أن محيط المدينة لايزيد بحال من الأحوال عن أربعة أميال ، بل ربما يقل عن ذلك .^(٢٩)

ومن جهة أخرى فإذا قارنا هذا العدد من العلماء أو الفقهاء بالنسبة لعدد السكان والذى سبق أن أشرنا إليه في الفصل الأول من هذه الدراسة ، لتأكد لنا أيضاً أن العلوم الدينية بوجه خاص قد حظيت بسهم وافر في تلك البيئة التى يغلب عليها الطابع الدينى ، ومن الطبيعى أن ينبع ذلك الاهتمام بتلك العلوم مما اتسمت به الحياة في مدينة بيت المقدس من سمات دينية ، جعل من هذه المدينة إحدى المراكز الخصبه للفكر الاسلامى في ذلك العصر .

التصوف :

كذلك شهدت مدينة بيت المقدس نشاطاً ملحوظاً في مجال التصوف ، ونبغ كثير من أبنائها في هذا المجال ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ابن غانم المقدسى والذى سبقت الإشارة إليه ، وله مخطوط في التصوف بدار الكتب المصرية يقول أنه سماه حل الرموز وفواتيح الكنوز ، وقد كتبه ليبيين للناس أنهم يجب أن يتبعوا من الكلام معانيه ، ومن الحكم ما يبلغون به امانهم ، حيث رأى أن كثيراً من الألفاظ في عصره قد ارتبك في غموضها كثير من أهل الاعتراض ، وذكر في مقدمة كتابه كيفية حل الاشكالات التى تواجه الناس في فهم رموز القرآن والاحاديث ، ثم تحدث عن الظاهر والباطن ، وما يجب على الشخص أن يفعله حتى يصل إلى مرتبة القرى إلى الله وحتى يوصف بمحبة ربه ، وقد اتبحت لنا فرصة الاطلاع على هذا المخطوط اثناء دراسة بعض المصادر الخاصة بهذا البحث في دار الكتب^(٣٠) .

ومن مشاهير المقادسة في التصوف « ابن المقدسى (والذي يقول عنه المقرئى : « توفى شيخ الشيوخ بخانكاه سرىا قوس شهاب الدين احمد بن سلامة ابن المقدسى الشافعى . وكان قبل ذلك شيخ خانكاه بشتاك وخطيب جامعة وصنف كتاباً مفيداً في التصوف » وتوفى سنة ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م^(٣١) . ومنهم أيضاً عبد اللطيف بن عبد الرحمن . ابن احمد بن العزبن احمد بن غانم السعدى الخزرجى الانصارى المقدسى ، ويعرف بابن نباته ، وبابن غانم ، له مخطوط في علم التصوف بدار الكتب تحت عنوان تحفة واهب المواهب في بيان المقامات والراتب .^(٣٢) ومنهم أيضاً الشيخ برهان الدين ابراهيم بن على بن ابراهيم ابن يوسف الحسنى العراقى المقدسى الشافعى ، له كتاب في علم التصوف تحت اسم « تحفة الطلاب ومنحة الوهاب في الآداب من الشيخ والاصحاب^(٣٣) . » ومن المرجع الا يختلف التصوف في بيت المقدس عما عرف عن التصوف الذى ساد مصر في ذلك العصر .

علم القراءات : -

كذلك برع كثير من أبناء بيت المقدس في ذلك العصر في هذا العلم ، نذكر منهم على سبيل المثال ، شمس الدين الجزرى ، من علماء القرن الثامن الهجرى ، والذي يقول عنه مجير الدين : « اعتنى بالقراءات فأتقنها ومهر فيها وله مصنفات جلية منها كتاب النشر في القراءات العشر ونظم العشرة وذيل على طبقات القراء للذهبي والحصن الحصين في الادعية والاذكار ، والتوضيح في شرح المصاييح وغير ذلك وجميع مصنفاته مفيدة نافعة وعين لقضاء الشام فلم يم له ذلك ..^(٣٤) . ومنهم أيضاً ابن جبارة المقدسى توفى سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م ، والذي استوطن القدس وتصدر لأقراء القراءات والعربية ، وصنف تفسيراً وأشياء في القراءات ، ذكره الذهبي في معجم شيوخه فقال عنه : « كان اماماً مقرأً بارعاً فقيهاً نحويًا نشأ إلى اليوم في صلاح ودين وزهد سمعت منه مجلس البطاقة وانتهت اليه مشيخة بيت المقدس ..^(٣٥) » ومنهم أيضاً ابن القباقي « ت ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥م » فيقول عنه السيوطى : « المصنف في القراءات الاربعة عشر ، وناظم الثلاث الزائدة على العشر . تصدى للأقراء ، وانتفع به الناس ، وولى مشيخة الجوهريّة بيت المقدس . وله بديعية ، ونخميس البردة ، وبانت سعاد ، وغير ذلك ...^(٣٦) » .

الأدب والنحو :

كان لعلماء بيت المقدس فضل يذكر في هذا المجال ، حيث كان لهم نشاط كبير واضح طوال عصر سلاطين المماليك ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، نجم الدين الطوخى المصرى ، والذي سبقت الاشارة اليه ، وله عدة مصنفات في الادب منها الرحيق المسلسل في الادب ، وتحفة أصل الادب في معرفة لسان العرب ، وشرح مقامات الحريري ، وموائد الحيس في شعر امرئ القيس . ويقال أنه له بمدينة قوص بصعيد مصر خزانة كتب من تصانيفه حيث أقام بها مدة ، ثم نزل الخليل وتوفى بها .^(٣٧) ومنهم أيضاً ابن جبارة المقدسى والذي سبقت الاشارة اليه أيضاً ، وقد توفى

بالقدس ، واشتغل فيها بعلوم العربية ، وصنف شرحا كبيرا للشاطبية ، وشرحا آخر للرائية في الرسم ، وشرحا لالفيه ابن معطى ، وكان من العلماء الصالحين .^(٣٨) ومنهم أيضا الشيخ الامام العلامة أبو العزم محمد ابن محمد بن الخلاوى الشافعى النحوى « ت ٨٨٣ هـ / ١٤٧٨ م » ، كان من أهل العلم والدين ، وهو من تلامذة الشيخ شهاب الدين بن أرسلان ، وكانت له بد طولى في العربية ، صنف شرحا على الجرومية ، وكان يقرئ العربية بالمسجد الاقصى الشريف ، وكان عنده قيام فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر .^(٣٩) ومنهم أيضا أبى اللطف « ت ٩٢٨ هـ / ١٥٢٢ م » وهو محمد بن على الحصفكى المقدسى ، شمس الدين ، فاضل من أهل بيت المقدس مولدا و وفاة ، وله « الموضع المبين لأقسام التنوين » مخطوط فى النحو ، وعقد اللآلى لبدء الامالى « مخطوط فى خزنة حمزة بدمشق ، و « سائل السائل الى المعرفة الاوائل » مخطوط .^(٤٠) ومنهم أيضا برهان الدين ابراهيم بن محمد بن أبى شريف « ت ٦٣٢ / ١٥٢٥ م » الذى كانت له عدة كتب منها : « شرح قواعد الاعراب لابن هشام » و « منظومة فى القراءات » و « نظم النخبة » وله عدة قصائد^(٤١) .

وجدير بالذكر أن الكثيرين ممن اشتغلوا بالأدب كان لهم ميل لقرض الشعر كذلك توجد لهم دواوين شعرية مازال معظمها مخطوطا حتى الآن ، وفى حاجة إلى من يقوم بنشرها واخراجها إلى حيز الوجود^(٤٢) .

علم التاريخ :

أما علم التاريخ فقد كان له نصيب بارز من نشاط وازدهار الحياة العلمية فى مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، يشهد بذلك بروز عدد من الأعلام الذين أنجبهم المدينة وارتبطت حياتهم بها . ولايفوتنا أن نشير أن غالبية مؤرخى بيت المقدس فى ذلك العصر كانوا يمثلون المدرسة الشامية ، والتى تميزت باهتمامها الكبير بتسجيل أهم الأحداث المحلية والسياسية منها بوجه خاص ، إلى جانب اهتمامها بالعلماء ورجال الدين من أصحاب المذاهب المتنوعة .^(٤٣) لذلك تميزت كتاباتهم باهتمامها الفائق بالاجم والوفيات ، والشئون الدينية ، ونشاط علماء الدين ، وذلك لأن معظم هؤلاء المؤرخين كانوا من علماء الدين ، ومن الطبيعى أن تفرض عليهم خلفيتهم الثقافية الاهتمام بهذه النواحي وتلك الأمور .^(٤٤) نعى بالخلفية الثقافية لمؤرخى بيت المقدس ، أن نوعية التعليم التى كانت فى العالم الاسلامى آنذاك ، هى ذلك النوع من التعليم الذى قام فى اساسه على دراسة العلوم الدينية أولا ، ثم علوم اللغة وتقويم البلدان ، بالاضافة إلى بعض العلوم الأخرى من دراسة للتاريخ والفلك والحساب .^(٤٥)

كذلك يمكننا أن نقسم مؤرخى بيت المقدس فى ذلك العصر إلى قسمين رئيسيين ، هما رجل الإدارة المؤرخ ، وعالم الدين المؤرخ ، ونقصد برجل الإدارة المؤرخ كل من اشتغل فى الجهاز الإدارى للدولة من أرباب الأقلام ، والذين تولوا النظر فى دواوين الدولة التى كان العمل بها يتطلب

مقدرة ثقافية وتعليميا رفيعاً بمفاهيم ذلك العصر ، والذين كانوا في نفس الوقت من علماء الدين بحكم نوعية التعليم التي كانت سائدة في ذلك الوقت . كان هناك من المؤرخين الذين تصدق عليهم هذه التسمية عدد من عرفوا في مصطلح العصر بأولاد الناس .^(٤٦)

وهي تلك الفئة من أبناء أمراء المماليك الذين لم يسهم الرق ،، والذين كانوا غالبا ينصرفون عن الحياة السياسية العسكرية التي يعيشها آباؤهم إلى حياة السلم والدعة ، ذلك لان مفاهيم ذلك العصر لم تعترف بمبدأ الوراثة في الحكم مما كان السبب وراء ظهور تلك الفئة ، وقد كان لبعضهم اهتمام بالنشاط الثقافي ولهم مساهمة فيه ، وإن كانت الحقيقة أنهم يحكم المولد من طبقة أهل السيف .^(٤٧) وقد يكون منهم من يسعده الحظ بأن يمنحه أحد السلاطين إحدى الرتب الحربية الهامة مثلما حدث لخليل ابن شاهين .^(٤٨) ، لكن تعليمهم الديني واشتغالهم ببعض المناصب الادارية هو الذي حدا بنا إلى ادراجهم في القسم الاول من المؤرخين ، فضلا عن أن بيت المقدس لم تعرف الا واحداً فقط من هذا النمط وهو ابن شاهين ، وهذا النمط من المؤرخين في عصر سلاطين المماليك كانت تستهويه الموضوعات ذات الصلة بالادارة وشئون الحكم ، ولكن أهم مايلفت نظرا الباحث أنهم حيث يكتبون تاريخا بالمعنى المحدود للكلمة ، تكون كتاباتهم عبارة عن نسخ وتجميع للمعلومات من المصادر التي يعتمدون عليها دون مساهمة أصيلة من جانبهم . ولكنهم حين يكتبون بقصد آخر غير تدوين التاريخ ، مثل وضع المراجع اللازمة لأفراد مهنتهم ، يضعون بين أيدي العلماء والباحثين مادة غاية في الثراء والطرافة ، ومعلومات لاتجد لها مثيلا في المصادر التاريخية التقليدية .^(٤٩)

أما النمط الثاني ، ونقصه به عالم الدين المؤرخ ، فهو يدل على هذا الطراز من المؤرخين الذي جمع بين دراسة العلوم الدينية المختلفة وبين علم التاريخ إلى جانب توليهم لكثير من المناصب الدينية المختلفة ، مثل التدريس والافتاء والقضاء وغيرها . وتجدر الإشارة إلى أن هذا النمط من المؤرخين ، كان يمثل أغلبية مؤرخي بيت المقدس في ذلك العصر الذي نتاوله بالدراسة ، هؤلاء كانت تستهويهم بصفة خاصة الموضوعات ذات الصبغة الدينية .

واخيرا تجب الإشارة إلى أننا في عرضنا لمؤرخي بيت المقدس في ذلك العصر سنتاولهم حسب ترتيب سني وفياتهم ، بصرف النظر عن ترتيبهم وفق التقسيم الذي اوردناه كذلك في عرضنا لأسماء مؤلفاتهم فقد أكتفينا بتسجيلها في قائمة المصادر في آخر البحث ونذكر منهم على سبيل المثال : -

١ - أبو شامة « ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م »^(٥٠)

هو عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي ، ولد سنة ٥٩٦ هـ بدمشق ، وترى تربية دينية ، فحفظ القرآن والحديث والفقه ، وانتقل إلى الاسكندرية وتعلم على كبار المشايخ ، ولقد الف في الفقه واللغة ، إلا أن أهم مؤلفاته هو كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، وقد بدأه مدح نور الدين محمود ، ثم انتقل إلى تاريخ البيت الزنكي منذ عماد الدين ، حتى وفاته وظهر نور الدين وجهوده في توحيد الجبهة الإسلامية والاستيلاء على دمشق وضم

مصر ، ثم انتقل إلى تاريخ صلاح الدين وسيرته وجهاده ، حتى وفاته ، ثم تكلم عن بعض الاحداث بإيجاز بعد وفاة صلاح الدين وحتى عام ٥٩٧ هـ . ويمتاز كتاب الروضتين بتحرى الحقيقة والدقة في جمع المعلومات وحسن العرض ، ولذا يعتبر من أهم المصادر - التاريخية في الحروب الصليبية ، وخاصة قيام الدولة الأيوبية ، وقد اعتمد فيه على روايات بعض المعاصرين مثل ابن الأثير ، وابن شداد ، والعماد الكاتب وله كتاب آخر وهو كتاب الذيل على الروضتين ، وفيه ابتداء المؤلف تاريخاً بسنة ٥٩٠ هـ عقب وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وقد خصص الجزء الأكبر من هذا الكتاب للأحداث التي شهدتها الدولة الأيوبية ، سواء فيما يتعلق بالصراع بينها وبين الصليبيين ، أم الخلافات التي نشبت بين أبناء البيت الأيوبي نفسه ، بالإضافة إلى مذكره من أهم الأحداث التي طرأت على العالم الإسلامي من زحف المغول وسقوط بغداد ، ثم بلاد الشام في أيديهم ، وقيام دولة سلاطين المماليك في مصر ، وقيامها بالدفاع عن العالم العربي والإسلامي ، وانتهى فيه إلى سنة ٦٦٥ هـ ، وهي سنة وفاته ، وتتجلى في كتابات هذا المؤرخ أهم خصائص المدرسة الشامية في عصر سلاطين المماليك الباكر ، والتي تميزت بالاهتمام بذكر أهم الأحداث المحلية والسياسية منها بوجه خاص ، بالإضافة إلى الاهتمام بالنواحي الدينية ، هذا فضلاً عن عدم اعتمادها على المؤرخين المصريين إلا فيما يتعلق بالأحداث التي وقعت بمصر^(٥١) .

٢ (ابن فضل الله العمري « ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م » .

أحمد بن محي الدين يحيى بن فضل الله ابن يحيى بن عثمان ، القاضي شهاب الدين العمري القدسي الأصل ، دمشقي المولد والمنشأ ، كاتب السر بالديار المصرية .^(٥٢) وهو من أسرة تولت ديوان الانشاء بمصر على مدى قرن من الزمان تقريباً ، وهو مثال للمؤرخ الإداري ، حيث ورث عن أسرته العمل في الدواوين ، وكتب في الانشاء حين تولى والده كتابة سر دمشق ، وكان هو الذي يتولى قراءة بريد الناصر محمد بن قلاوون ، وتقلب العمري في عدة وظائف في الجهاز الإداري لدولة سلاطين المماليك فقد عمل بالقضاء فترة من الزمان ، ثم خلف أبيه في رئاسة ديوان الانشاء^(٥٣) . ويبدو أنه كان أبداً مكابراً الأمر الذي جر عليه مصائب عديدة منها غضب السلطان عليه الأمر الذي أدى إلى اعتقاله ومصادرته ، بل إلى قطع يده والزج به في السجن .^(٥٤) وقضى السنوات الأخيرة من عمره دون عمل حتى وافته المنية في دمشق سنة ٧٤٩ هـ .^(٥٥)

وعلى الرغم من أن شهاب الدين العمري قد كتب عدة مؤلفات في عدة أغراض تنوعت بين تقويم البلدان والتاريخ ، وشئون الإدارة ، وتراجم الشعراء في المشرق والمغرب خلال القرن الثامن الهجري ، فإن مؤلفه الشامل المعروف باسم مسالك الابصار في ممالك الامصار قد شمل معارف وعلوم عديدة . ومع أن عنوان هذا الكتاب يعطى أنطباعاً بأنه من كتب الجغرافيا^(٥٦) . وهو في أربعة عشر جزءاً وموضوعه كما يقول عنه العمري نفسه : « وصف الأرض وما اشتملت عليه برا وبحرا ، وهو قسمان أولهما - في الأرض ، وثانيهما - في سكان الأرض ، والقسم الأول منهما نوعان أولهما المسالك ، وثانيهما الممالك ، أما المسالك ، ففيها وصف لمقدار الأرض وهيئتها وذكر

للأقاليم السبعة ، والبحار وما يتعلق بها ، وذكر للطرق ، وذكر للقبلة ، وكيف يستدل عليها الخ . وأما الممالك ففيها وصف لممالك الاسلام وحدها ، لم يتجاوز حدها « قائلا في ذلك : » وأن كان في العمر فسحة ، وفي الجسم صحة ، وللهمة نشاط ، وللنفس انبساط لاذيلن بممالك الكفار هذا التصنيف .. « وأما القسم الثاني من الكتاب فأنواع أو أبواب : منها باب في المقارنة بين المشرق والمغرب ، وباب في الديانات ، وباب في طوائف المتدينين ، ثم باب في التاريخ . أُلغ فيه للدول التي جاءت قبل الاسلام ، ثم للدول الكائنة فيه بالفعل ... »^(٥٧) .. ويعتبر كتابة هذا موسوعة ، ودائرة معارف ، فهي تشتمل على كل ما يهم طبقة الكتاب من أمور الدولة وان كان القسم التاريخي منها لم يقدم لنا شيئا جيداً .^(٥٨) .

وترجع أهمية الكتاب التاريخية إلى أنه يضم معلومات في الأدب والديانات والتاريخ والآثار فضلاً عن المعلومات الوافرة المتعلقة بالحياة الاجتماعية ، والاقليات الدينية ، وعلاقتها الرسمية بالدولة . وعلى عادة كتاب تلك العصور نجد العلوم تمتزج بالآداب ، ولا يغفل المؤلف فرصة لكي يورد لنا عدة أبيات من الشعر ، أو قطعة من النثر البليغ ، ومن الواضح أن موقع العمرى كواحد من رجال الإدارة المملوكية وعمله في ديوان الإنشاء هو الذي حدا به إلى إختيار الموضوعات التي عالجها في هذه الموسوعة التاريخية - الجغرافية الأدبية لكي تكون مرجعا عاما لمن يشتغل بالكتابة في دواوين الدولة المملوكية .^(٥٩) . فضلا على أنه يلقي كثيرا من الأضواء على كثير من جوانب الحياة في العصر المملوكي الباكر .

والكتاب الثاني الهام للعمرى هو كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » والراجح أنه أُلِف هذا الكتاب في الفترة الأخيرة من حياته ، والتي قضاها تحت وطأة التقاعد الاجبارى وفي هذا الكتاب وضع ثمار خبرته كواحد من كبار المسؤولين في الجهاز الادارى للدولة ، وقصد به أن يكون مرجعا في كل ما يحتاج إليه من يعمل بالدواوين ويقول المؤلف أنه جعله لما يحتاج إليه في ذلك الديوان المباشر ، ويكون له كالمعلم الحاضر والجلس المباصر ... » وعن مضمون الكتاب يقول العمرى « سميته بالمصطلح الشريف ، وجعلته سبعة أقسام : الأولى في المكاتبات ، والثاني في عادات العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم والمناشير ، والثالث في نسخ الايمان ، والرابع في الامانات والدفن والهدن والمواصفات والمفاسخات والخامس في نطاق كل مملكة ، ماهو مضاف اليها من المدن والقلاع والرساتيق ، والسادس في مراكز البريد والحمام ومراكز هجن الثلج ، والمراكب المسفرة في البحار والمناور والمحرقات ، والسابع في أوصاف ماتدعو الحاجة إلى وصفه ... »^(٦٠) .. وبذلك ترك لنا مصدرا هاما لمعرفة صيغ المراسلات والالقباب ، فضلا عن النظم الادارية في الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك . وهكذا ترك لنا رجل الادارة المؤرخ معلومات تاريخية قيمة عن جوانب هامة من تاريخ دولة سلاطين المماليك .^(٦١) .

أما كتبه الأخرى فمنها تذكرة الخاطر ، وحسن الوفا لمشاهير الخلفا ، والدعوة المستحاجة ، ودعوة الباكي ويقظة الشاكى ، وذهبية العصر ، وسفرة السامر ويقظة المسافر ، وصباية المشتاق في المدائح

النبوية عليه السلام والتحية ، فواصل السمر في فضائل آل عمر في أربع مجلدات وكذلك له نفحة الروضة وغير ذلك .^(٦٢) .

٣ - ابن سرور المقدسى « ت ٧٦٥ هـ / ١٣٦٣ » .

هو الشيخ الحافظ المحدث جمال الدين أبو محمود أحمد بن محمد بن إبراهيم بن هلال القدسى الخواص الشافعى ، درس بالمدرسة التنكزية بالقدس الشريف بعد وفاة العلائى ، وصف المصباح فى الجمع بين الاذكار والسلاح ، ومثير الغرام إلى زيارة القدس والشام ، وكان فراغه منه فى يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شعبان سنة ٧٥٢ هـ بيت المقدس ويعتبر كتابة هذا ضمن كتب الفضائل حيث تحدث فيه عن فضائل بيت المقدس ، والاحاديث النبوية التى تتضمن ذلك ، ثم فتح القدس على يد عمر بن الخطاب ، وذكر بناء قبة الصخرة ، كما ذكر العجائب التى كانت فى بيت المقدس فى الزمن الأول ، ثم أسماء بيت المقدس ، وقبور الصحابة بها كما أورد عددا كبيرا من أحاديث المضاعفة ، سواء مضاعفة الحسنات أو السيئات ، والصلوات فى بيت المقدس وشد الرجال إلى المسجد الأقصى ، والحث على زيادة المدينة ، فضل الصدقة فيها كما تحدث عن الأنبياء الذين زاروها ، أو دفنوا بها منذ خلق الله آدم عليه السلام الى محمد ﷺ ، واختتم الكتاب بذكر فتح السلطان صلاح الدين الأيوبي للقدس ، وذكر بعض مشايخ القدس ، وهو من المخطوطات التى أتاحت لنا فرصة الاصلاح عليها فى دار الكتب المصرية أثناء الاعداد لهذه الدراسة ..^(٦٣) .

وكما هو واضح من هذا العرض ، يتضح لنا أن مؤلفة من غط رجل الدين المؤرخ الذى يهتم بالتواحي الدينية اهتماما كبيرا ، وأثناء عرضه للموضوعات ذات الدلالة الدينية يتناول بالحديث بعض الأحداث المحلية ، وقد حذا حذوة أبو موسى المقدسى « ت ٧٧٦ هـ / ١٩٧٤ » والذى جمع تاريخا لبيت المقدس واهتم فيه بذكر الوفيات بشكل مختصر حتى قرب سنة وفاته حسبا يشير ابن حجر بذلك^(٦٤) كذلك يذكر لنا محير الدين تاج الدين التدمرى « ت ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م » خطيب مقام الخليل والذى صنف كتابا اسماء « مثير الغرام إلى زيارة الخليل عليه الصلاة والسلام وهو كتاب حسن فيه فوائد جلية^(٦٥) والواضح من التسمية أنه من كتب الفضائل أيضا ...

٤ - ابن حجر « ت ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ م » .

هو شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى الأصل ، المصرى المولد والمنشأ ، حقيقة أنه لاينتمى إلى بيت المقدس أصلا ولانشأة ، ولكن ابن حجر تردد عليها ، ودرس فيها حيث سمع على القلقشندى وبدر الدين ابن مكى ، ومحمد المنبجى ، ومحمد بن موسى وغيرهم^(٦٦) ..

ويعد الامام ابن حجر العسقلانى من أبرز العلماء الذين عاشوا فى الفترة ما بين اخريات القرن الثامن والنصف الأول من القرن التاسع الهجرى ، وهى فترة من احفل الفترات التاريخية بالعلماء ، واكثرها بالمدارس ودور الكتب ، فقد كان كوكب العلماء الساطع ، وشيخهم الأكبر ، وإمامهم غير مدافع بماتياً له من الذكاء والفطنة ومماكنت له الحياة فى القاهرة ، ومأفاده من رحلاته فى

الحجاز واليمن والشام وما شغل به من رفيع المناصب وسنى المراتب .^(٦٧)

وهو مثال عالم الدين المؤرخ ، حيث حجب إليه الحديث ، وانصرف إلى دراسته انصرافا كلياً بالحجاز ومصر والشام واليمن ، حتى صار حجة عارفا بالعوالى والنوازل ، واشتهر ابن حجر في عالم التدريس والفتيا ، وذاعت شهرة مؤلفاته الضخمة المتعددة في الحديث والفقه والتراجم وأشهرها كتابة المسمى فتح البارى في شرح البخارى ، وهو في ثلاثة عشر مجلداً ، ولو لم يكن له غيرة من المؤلفات لكفى للتنويه بعلو كعبه ، على قول معاصرة ، والمتفعين به من المحدثين حتى الوقت الحاضر وبلغ من شهرة هذا الكتاب أن السلطان شاه رخ بن تيمور لنك وغيره من ملوك البلاد الاسلامية بعثوا في طلبه بسؤال علمائهم ، وأن نسخا منه بيعت بثلاثائة دينار^(٦٨) .

ولقد شغل ابن حجر كثيرا من الوظائف الهامة في عصر سلاطين المماليك ، وهى وظائف هيات له السبيل للوقوف على ماجريات السياسة المملوكية ، ودخائلها آنذاك ومكنته من الاتصال المباشر بالمصادر الأولى لأحداث هذا العصر سواء أكانت هذه المصادر هى السلاطين أنفسهم أم كبار رجالات الدولة أم طلاب العلم أو الوثائق التى لم تتوفر كثيرا لمن عاصروه من المؤرخين^(٦٩) . فمنذ عام ١٤٢٤ / ٨٢٨ هـ ولى منصب قاضى القضاة الشافعية ، وهو أكبر مناصب القضاة وقتذاك ، ولصاحبة الأولوية على سائر قضاة المذاهب لكون مذهب الشافعى هو المذهب الرسمى للدولة . وظل ابن حجر متقلدا لهذا المنصب مدة إحدى وعشرين سنة ، على أنه عزل عنه وأعيد إليه مرارا في أثناء تلك الفترة الطويلة^(٧٠) . وقد أتاح له هذا المنصب وغيره من المناصب التى تولاها في التدريس فرصة الاحتكاك بكبار رجالات الدولة في عصره ، فنراه يكثر من الاشارات عن روايته عنه بعض السلاطين كالنؤيد شيخ والظاهر ططر ، وفي استعماله مكاتبات وتقارير لم ترد عند غيره من المؤرخين^(٧١) وكذلك استطاع بفضل مكانته هذه أن يصور أحداثا فريدة في حقيقتها مثل كشفه القناع عن محاولات فاشلة لمحاولة صليبية بين أراجون والحبشة في زمن السلطان برسباى لسحق قوة مصر وتحويل مجرى النيل^(٧٢) .

كان ابن حجر عالما من علماء الدين ، سواء من حيث دراسته وثقافته ، أو من حيث الوظائف التى تولاها . وكان نتاج هذه الحياة الحافلة مايزيد على مائة وخمسين مؤلفا تركز معظمها في العلوم الدينية . وذاع صيته بين الناس وتداولوا مؤلفاته ومن المثير أن هذا العالم الدينى الورع كان شاعرا رقيقا كتب كثيرا من الشعر الجيد حتى قال عنه ابن تغرى بردى أنه « قاضى قضاة الديار المصرية وعالمها وحافظها وشاعرها »^(٧٣) كما طبعت مؤلفاته بطابع الدقة وتحكيم العقل والمنطق ، فهو لا يورد خبرا الا بعد أن يكون قد انتظمت عنده أسباب الدراسة والبحث والتحقيق والمقارنة والتثبت والايضاح ، وإلا بعد أن يطبق عليه قواعد الجرح والتعديل .^(٧٤) كما أن شغفه بالتراجم حمله على أن يفيض فيها بأكثر مما دون في حوادث سنة بأكها وله فضل في أنه كتب الوفيات على ترتيب أبجدى ، وحذا حذوه في ذلك تلميذاه السخاوى وابن الصيرفى وهو أول من ابتكر فكرة الكتاب الشامل لوفيات قرن بأكمله ، وهو صاحب فكرة تسمية تلك الكتب على عنوان القرون ، وإليه

يرجع الفضل في العناية بتراجم الفاضلات المحدثات من النساء ، وكتابة الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة دليل واضح على ذلك^(٧٥) .

ومن أهم مؤلفاته التاريخية « إنباء الغمر بأبناء العمر » وقد نشر هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء أستاذنا الدكتور حسن حبشي ، وهو كتاب يتناول تاريخ مصر والشام والدول التي تناخها والتي كانت لها بها علاقات أيا كانت صورة هذه العلاقات وكذلك تراجم الرجال والنساء الذين قدر لهم أن يموتوا في الفترة التي يتناولها الكتاب من سنة ٧٧٣ هـ سنة مولد ابن حجر وحتى عام ٨٥٠ هـ أي قبل وفاته بعامين . ومن ثم كانت هذه الفترة شاملة للفترة الأخيرة من حكم السلطان شعبان ثم برقوق وفرج والمؤيد شيخ المحمودي وبرسباى وجزء من سلطنة جقمق ، ولم يقف فيها ابن حجر عند حد الأحداث السياسية ، بل تناول الأوضاع السياسية والاقتصادية والتجارية ، كما تضمن بعض قوة مصر . كذلك ألم بالأوضاع الاجتماعية للشعب المصري ، ولم تفته الإشارة في كثير من الأحيان إلى الأدب الشعبي ، إلا أنه خصص جزءا كبيرا منه لذكر الأدباء والفقهاء والقضاة ورجال الدين والمعتقدين وأصحاب الحرف وشهيرات النساء في عالم العلم والقضاء ، كذلك كان ابن حجر من أصحاب الرحلة في تتبع الأخبار في أنحاء مصر والشام والحجاز واليمن ، ولقد أتاحت له هذه الأسفار مزيدا من الأخبار والتراجم التي لانجدها بهذه الوفرة عند غيره ممن عاصروه كالمقريزي والعيني وابن تغري بردي^(٧٦) .

أما كتابه الثاني فهو في التراجم وهو الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، وهو سفر ضخيم جمع فيه تراجم مشاهير القرن الثامن الهجري وفقا لترتيب أبجدي . وفي هذا الكتاب ذكر أخبار أعيان العصر من الساسة والقادة العسكريين ، والعلماء والفقهاء والأدباء^(٧٧) . والحقيقة أن كتابيه هذين من أهم المصادر التي أعتمدنا عليها في دراستنا عن بيت المقدس في ذلك العصر سواء من الناحية العلمية وما يتعلق منها بذكر كثير من العلماء ، أم عن نشاط الحياة العملية بها .

ومن علماء بيت المقدس الذين ألفوا في التاريخ عن فترة بعينها أيضا ، محمد بن أنى حامد القدسي الشريف ، من علماء القرن التاسع الهجري ، وترجع أهمية هذا المؤلف في أن له مخطوطة بمعهد المخطوطات العربية تحت اسم « دول الاسلام الشريفة البهية وذكر ما ظهر لى من حكمة الله الخفية في جلب طائفة الاتراك الى الديار المصرية » وهى عبارة عن مختصر في تاريخ ملوك مصر والدول الاسلامية في صدر الاسلام ألفه وأهداه إلى الأشرف يشبك الدوادارى^(٧٨) ...

ومن علماء بيت المقدس أيضا الذين كتبوا في التاريخ الشيخ شهاب الدين احمد بن محمد بن عمر الشافعى المشهور بابن روحة أبى عذبة « ت ٨٥٦ هـ / ١٤٦٢ م » فقد أعتنى بعلم التاريخ ، وكتب كتابين أحدهما مطولا والآخر مختصرا ، وقد وقف بحير الدين على معظم المختصر وهو مرتب على حروف المعجم ، إلا أن تاريخه الكبير لم يظهر بعد وفاته ، وقيل أنه لما توفي اطلع بعض الناس عليه فوجد أشياء فاحشة من ثلب أعراض الناس فأعدمه ، كذلك له مخطوطة في مكتبة الخالدية بالقدس رآها الزركلى بنفسه بخط المؤلف تحت أسم « قصص الأنبياء » ويقول عن تاريخه المطول أنه كان سماه

« تاريخ دول الأعيان شرح قصيدة الجمان »^(٧٩)

كذلك تجب الإشارة إلى ان ابن عبد الهادى المقدسى « ت ٨٧١ هـ / ١٤٦٦ م » أحد علماء بيت المقدس ، له كتاب فى التاريخ سماه « الرياض اليانة فى أعيان المائة السابعة وهو كما يبدو من اسمه أحد كتب التراجم ... »^(٨٠)

٥ - ابن شاهين « ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م :

هو خليل ابن شاهين الشىخى ، الصفوى ، الظاهرى ، غرس الدين ولد ببيت المقدس سنة ١٣٧٢ م ٧٧٤ هـ حيث عاش أبوه أميرا من أسراء المماليك فى تلك النياية الشامية . وجاء ابن شاهين إلى القاهرة فى شبابة فدرس الحديث على ابن حجر ، غير أنه ترك ممارسة العلم ، والتحق بالفرقة المملوكية المسماة باسم فرقة أولاد الناس ، وهى الفرقة الخاصة بأبناء الأمراء من المماليك وسرعان ماضى ابن شاهين قدما فى طريق الوظائف ، حتى أنه جمع فى يده سنة ١٤٣٣ م وظيفة النائب والحاجب والمشد بالاسكندرية ويرجع بعض الفضل فى ذلك التعدد إلى أنه كان حما للسلطان برسباى وتقلب ابن شاهين بعد ذلك فى كثير من المناصب والنيابات بمصر والشام ، حتى إذا كانت سنة ١٤٤٨ م أنعم عليه السلطان جقمق برتبة أمير مائة مقدم ألف ، وهى أكبر الرتب الحربية فى دولة المماليك الأولى والثانية .

ومن الطبيعى أن تتحكم طبيعة عمله كأحد أفراد الجهاز الإدارى فى كتاباته ، وأن تستهوى الكتابة فى هذا المجال الذى يتعلق بالنظم الإدارية ، ويتضح هذا فى أهم مؤلفاته وهو كتابه المسمى زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، والذى كتبه ابن شاهين فى مجلدين يضمنان بين دفتيهما أربعين فصلا ، ثم أختصره فى مجلد واحد إلى أثنى عشر فصلا ، وذلك فى عصر السلطان جقمق . وهذا المختصر هو الذى بقى حتى الآن ، وفيه تناول المؤلف الدستور المملوكى ، وبين الوظائف الحربية والإدارية فى دولة المماليك الثانية التى تقلب فى وظائفها حتى قبيل وفاته بالقاهرة فى نوفمبر سنة ١٤٦٨ م .^(٨١) هذا بالإضافة إلى أن مؤلفاته الأخرى قد بلغت الثلاثين .^(٨٢)

٦ (مجير الدين الحنبلى « ت ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م » .

هو مجير الدين أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العمرى المقدسى العليمى الحنبلى ، ولد بالقدس وتوفى بها أيضا . وقد كان معاصرا للسلطان الأشرف قايتباى . وهو يندرج تحت عنوان عالم الدين المؤرخ ، حيث يستفاد من تاريخ حياته الذى رواه نفسه أنه تتلمذ على يد الشىخ تقي الدين القرقشندى « ت ٨٦٧ » وأنه كان على علاقة وطيدة مع علماء الدين فى بيت المقدس ، وكثيرا ، ما كان يلتقى بهم فى حلقات الدرس حيث يتناقش الجميع فى العلوم الدينية . كذلك إرتحل إلى القاهرة حيث قضى بها تسع سنوات فى الدراسة والتحصيل ، ثم عين قاضيا لمدينة الرملة سنة ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤ م ثم قاضيا للقدس سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م ، واستمر كذلك إلى أن تقاعد عن العمل سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م أى قبل وفاته بست سنوات .^(٨٣)

ومن أهم مؤلفاته كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل الذي جمع فيه تواريخ المدينة من آدم إلى سنة ١٤٩٤ م ، وهو من أهم الكتب التي تناولت تاريخ مدينة القدس في العهدين الأيوبي والمملوكي ، حيث بدأ كتابته في ٢٥ ذى الحجة سنة ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م ، وانتهى منه في ١٧ رمضان سنة ٩٠١ / ١٤٩٥ م ، ويذكر لنا في مقدمة الكتاب الأسباب التي دعت له لتأليفه بقوله « وأما دعائي لذلك أن غالب بلاد الإسلام قد اعتنى بها الحفاظ وكتبوا ما يتعلق بتاريخها مما يفيد أخبارها الواقعة من الزمن السابق وبيت المقدس لم أطلع له على شيء من ذلك يختص به ، وأما ذكرها في التواريخ أشياء في أماكن منفردة . ورأيت الأنفس متشوقة إلى شيء من هذا النمط الذي قصدت فعله ، فإن بعض العلماء كتب شيئا يتعلق بالفضائل فقط ، وبعضهم تعرض لذكر الفتح العمرى - وعمارة بني أمية وبعضهم ذكر الفتح الصلاحي واقتصر عليه ولم يذكر ما وقع بعده وبعضهم كتب تاريخا تعرض فيه لذكر بعض جماعة من أعيان بيت المقدس مما ليس فيه كبير فائدة . فأحببت أن أجمع بين ذكر البناء والفضائل والفتوحات وتراجم الأعيان وذكر بعض الحوادث المشهورة ليكون تاريخا كاملا ... (٨٤) » .

وقد قسم كتابه هذا إلى مواضيع مستقلة كالمدارس والمساجد والأسواق والكنائس والمزارات ، وضمن كل موضوع من هذه الموضوعات يتبع المؤلف الترتيب الحولى عند ذكره الحوادث السياسية المتعلقة بالموضوع ، وإذا كان مجير الدين يسرد الحوادث ذات الصبغة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في كتابه هذا ، فإن إهتمامه بها لا يبدو أكبر من إهتمامه بالأحداث ذات الطابع الديني ، أو المتصلة بنشاط الفقهاء ويتضح هذا من أن الجزء الأكبر من كتابه قد خصص لتراجم عدد ضخم من الفقهاء في بيت المقدس ، وتوسع في الحديث عن القضاة ومذاهبهم وتواريخ توليتهم وأعمالهم . (٨٥)

ومع هذا فيمكننا القول أننا وجدنا من بين ثنايا هذا الكتاب الكثير من الأخبار الاجتماعية ، والمعلومات الإدارية والسياسية الخاصة بمدينة بيت المقدس في ذلك العصر ، والتي لم يتعرض لها أحد من المؤلفين قبله . (٨٦)

كذلك له كتاب آخر في التراجم تحت اسم النهاج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد بن حنبل في أربعة مجلدات ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ، من هذا العرض الذي أوردنا فيه بعض النماذج لمؤرخي بيت المقدس ، يتضح لنا أن النشاط في مجال التاريخ كان نشاطا متصل الحلقات ، وأن الكتابة التاريخية في بيت المقدس شهدت تطورا ملحوظا في ذلك العصر ، ونقصد بذلك أن تلك الفترة شهدت تحولا من كتابة التاريخ الموسوعي الشامل إلى الاهتمام بالتاريخ المحلي وهذا ما يتضح لنا من كتابات مجير الدين ، والذي تميزت كتابته بعدم التصنع ونعني بذلك أنه لم يكتب هذا التاريخ حبا في استجلاب الرضا عند سلطان أو أمير مثلما كان الحال عند معظم مؤرخي ذلك العصر . كذلك لم تكن كتاباته ذيو لا وتكملات لكتب سبقته زمنيا .

الرياضيات :

أما في مجال العلوم العقلية والتجريبية فقد شهدت مدينة بيت المقدس نشاطا ملحوظا في هذا

المجال ، وقد برع كثير من أبنائها في هذا المضمار ، ومن ذلك أن عبد الرحمن بن محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن أبي عمر المقدسي الخطيب شمس الدين أبو الفرج أبي العز الحنبلي الفرضي ، الذي ولد سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م سمع من الحسن بن علي الحلال وعيسى المغازي والتقى سليمان وغيرهم ، واشتغل بالعلم ومهر في الفرائض وانتقع به الناس فيها وكان من الأخيار ، أقرأ بالجامع المظفرى مدة ومات في جمادى الآخرة سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م^(٨٧) كذلك يحدثنا مجير الدين عن الشيخ الفاضل عثمان الحصني الشافعي الفرضي كان من أهل الفضل ، وله يد طولى في الفرائض ، وكان اشتغاله ببلاده في جهة الشرق ، ثم استوطن القدس واشتغل عليه جماعة وانتفعوا به ، وكانت وفاته بعد الثمانين والثمانمائة بالقدس الشريف^(٨٨) .

ومن علماء بيت المقدس في الرياضيات أيضا الخليلي ت ٨٠٧ هـ / ١٢٠٤ م وهو موسى بن محمد الخليلي ، شرف الدين ، كان أفضل من بقى بالشام في علم الهيئة وله تأليف منها « تلخيص في معرفة أوقات الصلاة وجهة القبلة عند عدم الآلات مخطوط » ورسالة في الربيع المشطر بعرض دمشق » ، مخطوط ، ورسالة في الأسطرلاب ومعرفة الأوقات مخطوط^(٨٩) .

كذلك من علماء الرياضيات الذين وفدوا إلى بيت المقدس وارتبط اسمهم بها شيخ الإسلام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عماد الدين بن علي المصري ثم المقدسي والمشهور بابن الهائم ت ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م « وكان قد اشتغل بالقاهرة ومهر في الفرائض والحساب ولما ولى القمى تدريس الصلاحية أحضره إلى القدس واستنابه في التدريس وصار من شيوخ المقدسة ، ثم استقل يتدريس الصلاحية وجمع ابن الهائم في الفرائض والحساب تصانيف كثيرة ، يقول عنه ابن حجر « اجتمعت به بيت المقدس وسمعت من فوائده »^(٩٠) .

ومن مؤلفاته التحفة القدسية منظومة في الفرائض ، وترغيب الراض في علم الفرائض والحاوى في الحساب ، وشرح الأرجوزة الياشمينية في الجبر والمقابلة والفصول المهمة في مواريث الأمة ، والمسمع شرح المقنع له في علم الهيئة ، والمشرع في شرح المقنع أيضا في الجبر والمقابلة ، والمعونة في حساب الهواء ، ونزهة النفوس في بيان حكم التعامل بالفلوس^(٩١) كذلك له مخطوطة أخرى بدار الكتب المصرية تحت عنوان « مرشدة الطالب إلى أسنى المطالب في علم الحساب ، وقد قسمها الى مقدمة ضمنها عدة مسائل منها الاستدلال على العدد من حيث الأسماء والأشكال ، ثم تحدث في الفصل الأول على مراتب العدد الوضعية وبيان الأصلية منها والفرعية ، وفي الفصل الثاني تحدث عن كيفية وضع الأشكال في مراتبها وتبيين قراءتها لطالبها وتقسيم العدد إلى مفرد ومركب ، ثم في الفصل الثالث في معرفة أسس المكرر من وجهة اسمه ، والفصل الرابع في العكس وهو معرفة الاسم من الأس ، ثم القسمات بأنواعها المختلفة ثم تحدث عن الكسور واستعمالاتها ومعرفة النسبة بين عددين ، ثم الطرح واستخراج المجهول . وفي كل عملية من هذه العمليات يورد كثيرا من الأمثلة المتنوعة التي تعين القارئ على الفهم ، وهى مخطوطة لاغنى عنها لدارس الرياضيات ، وإن دلت على شيء فهى تدل على غزارة معلومات مؤلفها ، ومدى ماوصل إليه علمه في هذا المجال وهى من المخطوطات التى أتاحت لنا فرصة الاطلاع عليها أثناء الاعداد لهذا البحث^(٩٢) .

كذلك وجدنا له مخطوطة أخرى بدار الكتب تحت اسم « اللع » يقول في مقدمتها « فهذه لمع يسيرة من علم الحساب يضطر إلى معرفتها من يريد الشروع في الفرائض » وتحدث فيها أيضا عن الأعداد الأصلية وأنواعها ، وكذلك الأعداد الفرعية ثم تحدث عن عمليات الضرب والقسمة والكسور ، وجعل كل منها بابا ، والمخطوطة عبارة عن كراسة صغيرة تتكون من عشر ورقات^(٩٣) وكذلك أتاحت لنا فرصة قراءة إحدى مؤلفاته وهي مخطوطة تحمل العنوان « إرشاد الطلاب إلى وسيلة الحساب » فيقول فيها أنه قسمها إلى مقدمة وثلاثة أقسام وخاتمة ، أما المقدمة ففيها مسائل أربع تشتمل على أسماء العدد وبيان أنواعه وأسوسه ومنازله وهي مراقبه ، ومعرفته نوع العدد من مرتبته والعكس وفي القسم الأول تحدث عن أعمال العدد الصحيح في الضرب والقسمة كما تحدث عن ضرب العدد في الأعداد المختلفة الصحيحة والمركبة ، وفي القسم الثاني تحدث عن القسمة بأنواعها ، سواء قسمة الأعداد الصحيحة أم الكسور ، وفي القسم الثالث تحدث عن الجذور واستخداماتها في العمليات الحسابية المختلفة ، والمخطوط مكتوب بخط نسخ جميل ، واضح فيه دقة المؤلف وحسن ترتيبه .^(٩٤)

ومن مؤلفاته أيضا التي أطلعنا عليها في علم الحساب أو ما يمكن أن نطلق عليه حاليا ، إمساك الدفاتر المستخدمة في عمليات البيع والشراء وفي البنوك والحسابات مخطوطة تحت اسم « المعونة » وقد ألفها لبعض الإخوان ، وقد تناول فيها عدة مسائل في تعريف علم الحساب وموضوعه ، وأقسام العدد وكيفية التوصل إلى استخراج المجهولات ، ثم أسماء العدد ومراتبه ، وجميع العمليات الحسابية وما يهيم كل المشتغلين بهذا العلم معرفته ، كذلك تناول استخدام الكسور ونواتج استخداماتها في العمليات الحسابية وبيان ذلك كما عرض الأعداد المتناسبة وبعض الجداول الرياضية الخاصة بالمتواليات العددية كما تناول بالحديث المجسمات والمسطحات هذا بالإضافة الى كيفية حساب عمليات الليل والنهار ومسائل البريد ، ومسائل التلاقى ، وكيفية حساب الزكاة من الذهب والفضة ، ثم اختتم الكتاب بخواص بعض الأعداد ، وقد فرغ من كتابة هذا المخطوط في ليلة الأربعاء رابع شعبان سنة لإحدى وتسعين وسبعمائة^(٩٥) .

ومن مؤلفاته أيضا التي طالعناها مخطوطة تحت اسم « المناسبات » ويتحدث فيها عن كيفية الفصل بين الورثة إذا تعدد مصادر إرثهم ، وقد كتب هذه المخطوطة بناء على سؤال بعض الطلبة له وهو يذكر ، أنه تعلم ذلك الفن من أستاذه أبي الحسن الخلاوى رحمه الله ولم ير ذلك مسطورا في مصنف من قبل ، وقد بين فيه لطلبته كيفية الفصل في المشكلات التي تعترضهم باستخدام الجداول الرياضية ، حيث عرض عدة جداول لحالات مختلفة من الأشخاص وقام بحلها لهم ، وهي مخطوطة من عشرين ورقة دون في كل منها كثيرا من الجداول الرياضية التي يمكن الاستعانة بها في هذا الغرض^(٩٦) ..

هذا وتجب الإشارة إلى أننا قصدنا في الحديث عن ابن الهائم كأحد العلماء الذين ارتبط اسمهم بمدينة بيت المقدس ، وفي تحليل تلك المخطوطات لكي نستدل منها على أن ذلك العصر كان عصر ابتكار ولم يكن - كما يصفه بعض المؤرخين بأنه عصر جمود فكري ، اقتصر فيه جهد العلماء على

مجرد النقل أو الشرح أو التلخيص - بل هو عصر ابتكار ونبوغ فكري ، وأنه استمر كذلك حتى آواخر سني عصر سلاطين المماليك ، حيث يحدثنا السيوطي عن اسماعيل بن ابراهيم بن محمد بن علي بن شرف المقدسي الشافعي ، عماد الدين ، بن العلامة الأوحدي ، الفرضي الحاسب ، أحد الأركان في بلده . أخذ عليه شيخ السيوطي « المناوي » وبعض الأكابر ، ومات بيت المقدس سنة اثنين وخمسين وثمانمائة عن نحو سبعين سنة^(٩٧) .

وأخيرا تجب الإشارة إلى وجود بعض علماء من أبناء الذمة ممن اشتغلوا بالعلوم العقلية من رياضة وفلك ، ودليل ذلك مايرويه لنا الرحالة اليهودي الأسباني اسحاق بن شيلو سنة ١٣٣٣ ، في حديثه عن اليهود في القدس من أنه كان منهم من يشتغل بالفلك والرياضيات ولكن معظمهم كانوا يدرسون القانون^(٩٨) .

ز - الطب :

في مجال الحديث عن الطب في مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك لابد لنا أن نشير إلى أن دراسة الطب كانت امتداداً لنشاط مدرسة الطب في العصر الأيوبي ، والتي كان يمثلها الطبيب يعقوب بن سقلاب « صقلان » الملكي المقدسي « ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٧ م » كان مولده بالقدس الشريف ، وبه قرأ شيئا من الحكمة على تاودزي الفيلسوف الأنطاكي ، وأقام يعقوب في القدس في مباشرة البيمارستان الصلاحى إلى أن ملكه الملك المعظم بن الملك العادل أيوب فاخص به ، والذي يقول عنه ابن أبي أصيبعة « كان أعلم أهل زمانه بكتب جالينوس ، ومعرفتها والتحقيق لمعانيها والدراسة لها ... فأما معالجات الحكيم يعقوب فإنها كانت في الغاية من الجودة والنجاح وذلك أنه كان يتحقق معرفة المرض أولا تحققاً لازمياً عليه ثم يشرع في مداواته بالقوانين التي ذكرها جالينوس مع تصرفه هو فيما يستعمله في الوقت الحاضر . وكان شديد البحث واستقراء الأعراض بحيث أنه كان إذا انتقد مريضاً لا يزال يستقصي منه عرضاً وما يشكوه مما يجده ، من مرض حالاً حالاً إلى أن لا يترك عرضاً يستدل به على تحقيق المرض إلا ويعتبره ، فكانت أبداً معالجاته لازمة عليها في الجودة .. واجتمع أيضاً الحكيم يعقوب في القدس بالشيخ أبي منصور النصراني الطبيب ، واشتغل عليه وياشر معه أعمال صناعة الطب وانتفع به^(٩٩) كما قد خلفه من بعده ابنه سديد الدين أبو منصور والذي كان من أفاضل الأطباء وأعيان العلماء ، متميز في علم صناعة الطب ، اشتغل على والده وعلى غيره بصناعة الطب ، وقرأ أيضاً بالكرك على الامام شمس الدين الخسرو شافعي كثيراً من العلوم الحكمية ، وخدم الحكيم سديد الدين الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظم عيسى بن أبي أيوب إلى أن توفي^(١٠٠) .

ومن الأطباء المقادسة في عصر سلاطين المماليك ، اسماعيل بن ابراهيم بن سليمان المقدسي ثم المصري عماد الدين ، الذي اعتنى بالطب فمهر فيه وأخذ عن عماد الدين النابلسي وغيره ، وكان حسن المعالجة وسمع المعز الحرائي والمجد ابن العديم والقطب القسطلاني وغيرهم ، مات في جمادى الآخرة سنة ٧٣١ هـ / ١٣٣٠ م^(١٠١) .

ومنهم أيضا محمد بن ابراهيم بن سليمان المقدسى الحكيم الفاضل صلاح الدين المعروف بابن البرهان الجراحى أبوه - سجع الحديث من الدمياطى وعلى بن عيسى بن القيم وسمع البردة من ناظمها محمد بن سعيد البوصيرى قال عنه أبى رافع « حدث وكان فاضلا فى الطب خلف تركة ضخمة قيل أنها تقارب ثلثماية ألف درهم وقال الصفدى قرأ طرفا من العربية على ابن النحاس وقرأ الطب على العماد البابلستى ثم على ابن النفيس وكان فاضلا فى الطب مائلا إلى علم النجوم والكلام على طبائع الكواكب وأسرارها وقرأ فى آخر عمره على الأصهبانى كثيرا من الحكمة وسمع عليه كتاب الشفا لأبن سينا والشيخ يشرحه قال وكان فى ذهنة وقفة وكان إذا اجتمع هو وركن الدين ابن القويح لا يقوم المذكور حتى يحمله ابن القويح ويمطيه ، توفى فى جمادى الأولى سنة ٧٤٣ هـ ، (١٠٢) .

ومن الأطباء المقادسة أيضا فى ذلك العصر ، أحمد بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عوض المقدسى الأصل الصالحى العطار شهاب الدين ويعرف بابن المحتسب ، وكان أبوه يعرف بابن رقية ، ولد فى ذى الحجة سنة ٦٩٤ هـ ، وسمع من أبى الموازنى وعيسى المغارى والتقى سليمان ، وابن مشرف ، وعلى بن عبد الدائم وغيرهم ، وكان عطارا بالصالحية ويعرف طرفا من الطب ، ويحفظ حكايات ونوادر ، وكان عنده كتاب الأموال لآبى عبيد إلا يسيرا منه ، وكان عنده أيضا مسند الشافعى والعلم للمروزى وأجزاء كثيرة ، مات فى شهر رجب سنة ٧٧٢ ق (١٠٣) .

ومن علماء القدس الذين اشتغلوا بالطب أيضا محمد بن حسن بن أحمد بن محمد الشمس أو عبد الله الكردية ثم المقدسى نزيل مكة ، ويعرف بابن الكردية ولد فى سنة إحدى وثمانية وسبعمائة ببلاد الأكراد ، وقدم مع أبويه ابن سبع إلى بيت المقدس ، فسمع به الصحيح من أبى الخير ابن العلائى ومن ابراهيم بن أبى محمود الشمس بن الديرى ، والزين عبد الرحمن بن محمد القلقشنندى والشهاب ابن الهائم والشمس الهروى ، وغيرهم ، وأقام ببيت المقدس عشرين سنة ، ومات أبوه هناك فقدم بأمه إلى مكة فقطنها وصار يتردد منها إلى بيت المقدس ... كان مباركا منجمعا عن الناس وله معرفة بالطب مبالغا فى حب ابن عربى بحيث اقتنى جملة من كتبه ، توفى ظهر يوم الثلاثاء عشرين شعبان سنة ٨٤٣ هـ (١٠٤) .

ومن المرجح أن تكون مدينة بيت المقدس قد عرفت نوعا من التخصص فى العلوم الطبية فى ذلك العصر ، من ذلك أننا نسمع فى أواخر عصر سلاطين المماليك عن أن جمال الدين يوسف بن احمد بن عبد الهادى المقدسى الحنبلى « ت سنة ٨٨٠ هـ » قد ترك لنا أحد مؤلفاته فى الطب تحت عنوان « الاتقان فى أدوية اللثة والأسنان » ولعل هذا دليل أيضا على وجود بعض الأطباء المتخصصين فى فروع الطب المختلفة فى ذلك العصر . (١٠٥)

وتجب الإشارة إلى أنه وجد بالقدس عدد من الأطباء من أبناء أهل الذمة كانوا يقومون بمعالجة أبناء طوائفهم المختلفة بالإضافة إلى المسلمين ، وليس أدل على ذلك مما يصفه لنا الرحالة اليهودى الأسبانى اسحاق هيلو فى سنة ١٣٣٣ م فى حديثه عن اليهود ، فى بيت المقدس من أن البعض منهم كان يشتغل بالطب (١٠٦) وكذلك يورد لنا الرحالة فابرى مايستدل منه على وجود بعض الأطباء لدى

طائفة الرهبان الفرنسيكان في ديرهم في جبل صهيون ، حيث يقومون بخدمة الحجاج المسيحيين ، فيأخذون المرضى منهم إلى مستشفى داخل ديرهم الخاص بهم ، وقد رأى ذلك بنفسه عندما كان يقيم بينهم .^(١٠٧) كذلك تؤكد لنا بعض المراجع أن أبناء طائفة الفرنسيكان كانوا يرسلون الأطباء من ديرهم الخاص بهم في جبل صهيون للكشف على المرضى وأنهم كانوا يمدونهم بالأدوية التي يصفها هؤلاء الأطباء ، ولم يكن هذا العمل مقصورا على بيت المقدس وحدها ، بل شمل الأديرة الخاصة بهم في كل الأرض المقدسة^(١٠٨) كما تشير المراجع إلى أن أبناء الطوائف المسيحية المحلية كان لهم أطباء يعالجون المرضى داخل مؤسساتهم الدينية وبخاصة في الأديرة في الأرض المقدسة كلها^(١٠٩)

من هذا العرض يتضح لنا أن مدينة بيت المقدس في ذلك العصر كان لأبنائها مشاركة في مجال العلوم الطبية المختلفة ، وأنها عرفت نوعا من التخصص في مجال بعض العلوم الطبية والتي سبق وأشرنا إليها .

كذلك تجب الإشارة إلى أن علماء بيت المقدس كانت لهم مشاركة في كثير من العلوم العقلية الأخرى ، ولم تقتصر جهودهم على العلوم الرياضية والطب فحسب، بل نسمع عن مشاركة بعضهم في علوم الفلك والكواكب .^(١١٠)

٢ - كثرة المؤسسات التعليمية :

تكاثفت العوامل التي سبق أن أشرنا إليها - من أمن واستقرار وثراء ونشاط الحياة العلمية - في عصر سلاطين المماليك ليظهر أثرها في كثير من المنشآت التعليمية والخيرية والاجتماعية في مدينة بيت المقدس ، وكان للمؤسسات التعليمية حظ كبير من هذه الحركة ، إذ شيد سلاطين وأمراء المماليك منها في القدس الكثير ، بل إن مجير الدين وهو معاصر - قد عدد لنا أكثر من أربعين مدرسة في بيت المقدس ، وأكثر من عشرين زوايا ، فضلا من مكاتب الأطفال والمساجد^(١١١) وتشير بعض المراجع إلى أن المشاهد والترب اتخذت كمؤسسات تعليمية ، حيث رتب بها منشؤها المدرسين والطلبة ، مثال ذلك التربة الطازية التي تقع بجوار المسجد الأقصى من ناحية الغرب ، وقفها الأمير طاز المتوفى سنة ٧٦٣ هـ ونقش عليها « بسم الله الرحمن الرحيم » تربة العبد الفقير إلى الله تعالى المقر الأشرف السيفي طاز توفي رحمه الله سنة ثلاث وستين وسبعمائة^(١١٢) وقد أطلق مجير الدين على هذه التربة لفظ المدرسة لاشتهارها بالتعليم ، وقد درس فيها جماعة من الشافعية أكثرهم من آل القلقشندي .^(١١٤) ويمكننا أن نلحق بتلك المؤسسات التعليمية مجالس العلماء ورجال الأدب الذين اعتادوا أن يعقدوها في منازلهم أو في منازل الحكام أو في أى مكان آخر ، وتأثير هذه المجالس في تزويد المترددين عليها بأنواع العلوم والمعارف لا يقل عن تأثير المؤسسات التعليمية ، وقد كثرت هذه المجالس في عصر سلاطين المماليك حتى قيل أن كل أمير أعتاد أن يختار محدثا يذيع للناس الأحاديث النبوية في منزلة ، أما مجالس الأدباء فأكثر من أن تحصى^(١١٤) . ولنا أن نتصور ضخامة هذا العدد من المنشآت التعليمية وهو عدد كبير بلا أدنى شك بالنسبة لمدينة صغيرة كمدينة القدس ، وأن دل على شيء فإنما يدل على مدى اتساع دائره النشاط العلمى فيها ، والذي تؤكد المصادر المعاصرة^(١١٥)

هذه هي أهم المؤسسات التعليمية في بيت المقدس وهي كما ترى كثيرة العدد ، وتجعل الانسان منا يتساءل عن البواعث التي حملت أصحابها على إنشائها . والواقع أن هذه البواعث متعددة ، فمنها التقرب إلى الله ، وهذا الباعث كثيرا ما صرح به المنشئون في كتاباتهم المنقوشة على مداخل تلك المؤسسات ، ومنها التقرب إلى الرعية وخاصة عندما يكون المنشئ بحاجة إلى مؤازرة الشعب له لتحقيق طموحه السياسى ، ولهذا نجد أن ما أنشأه الأمراء من تلك المؤسسات أكثر مما أنشأه السلاطين ، ومنها يأس الأمراء من بقاء ثروتهم بأيديهم وذلك لطبيعة نظام الحكم ولتعرضهم الدائم لفتك السلاطين بهم ، ومصادرة أموالهم ، فهم يضعون ثروتهم في هذه المؤسسات العامة التي يصعب على السلطان مصادرتها ، ولهم مع ذلك أن يخصصوا لأنفسهم وذريتهم نصيبا من ريعها بأن يشترطوا ذلك في كتاب الوقف ، ومنها تعصب المنشئ لمذهبه الفقهي دون أن يكون له اتجاه إلى دراسته ، فيبنى منشأة لاتباع ذلك المذهب وهذا من البواعث التي كانت قليلة في ذلك العصر ، ولم تلاحظ إلا في أفراد قليلين من الناس^(١١٧) . كذلك يمكننا أن نفسر تلك الظاهرة في ضوء ما سبق وأشرنا إليه من حرص حكام الماليك - وهم الغرباء بالنسبة للثقافة الإسلامية - على أن يظهروا بمظهر المتصلين والمشجعين للثقافة الإسلامية واللغة العربية ، ولاسيما بعد أن تم لهم تدعيم نفوذهم ، وتغلبوا على الأخطار الخارجية التي هددت دولتهم منذ نشأتها ، فضلاً عن أن السلاطين المتأخرين قد زاد حرصهم على هذا الجانب ، لكي يظلوا في نظر معاصريهم في درجة مساوية لأسلافهم بما أنشأوه من مدارس وزوايا وترب ، وأنهم ليسوا أقل منهم منزلة ، وليظلوا هم باستمرار حماة العقيدة الإسلامية كما أنهم حماة المسلمين ، هذا بالإضافة إلى أن تلك المؤسسات التعليمية - والتي ستحدث عنها بالتفصيل - لم تكن كلها من إنشاء السلاطين والأمراء الماليك ، بل أسهم في إنشائها القادرون من أهل الخير من رجال ونساء ، فأنشأوا منها عنوان الغيرة على العلم وبث الفضائل^(١١٨) .

وقد وجدت تلك المؤسسات التعليمية في نظام الأوقاف خير دعامة تشد أزرها وتمكنها من البقاء والإستمرار في أداء رسالتها ، أو بعبارة أخرى فإن حياة كل من المدرسة والزاوية والمكتب والتربة والمسجد لم تكن رهناً بحياة مؤسسها ، حيث كان يوقف عليها من الأوقاف ما يضمن به لها الإستمرار في أداء رسالتها عقب وفاته ، وهذه الأوقاف قد تكون أرضاً زراعية أو عقارات أو أسواق وحوانيت وحمامات تدر إيرادا ثابتاً ، ينفق منه على صيانتها ودفع مرتبات العاملين بها ، ومخصصات النازلين فيها ، وهذا ما سوف نلاحظه من خلال دراسة الوثائق الخاصة بهذه الأوقاف المحبوسة على تلك المؤسسات التعليمية . وقد إختارنا على سبيل المثال ثلاث وثائق ، إحداها خاص بالأوقاف التي خصصت لإحدى المدارس ، وهي المدرسة الأشرفية نسبة للسلطان الأشرف قايتباي ، الأخرى خاصة بأحد منازل الصوفية وهي الخانقاه أو الزاوية الدويدارية نسبة إلى الأمير سنجر الدويدارى ، والثالثة خاصة بالأوقاف المحبوسة على أحد مكاتب الأطفال بمدينة القدس ، لنقف على ما كان يقوم به الوقف في حياة كل منها من دور فعال ، كذلك لإعطاء فكرة عن بعض الوظائف التي وجدت بها والدارسين فيها .

أما فيما يتعلق بالمدرسة الأشرفية فيهمنا أن نشير أنه حدث عندما تولى الأمير حسن الظاهري نظر

الحرمين الشريقين - القدس والخليل - في أيام السلطان الملك الظاهر خشقدم أن شرع في بناء مدرسة بجوار باب السلسلة برسم السلطان المذكور ، ولكن السلطان خشقدم لم يلبث أن توفي سنة ٨٧٢ هـ/١٤٦٧ م ، فمرت الدولة بفترة قلقة انتهت بقيام السلطان الأشرف قايتباي في الحكم « ٨٧٢ هـ/١٤٦٨ م - ٩٠١ هـ/١٤٩٦ » ، وعندئذ تقدم الأمير حسن الظاهري إلى السلطان قايتباي يسأله قبول المدرسة الجديدة لتحظى برعايته ، وتتمكن من أداء رسالتها . وكان أن قبلها السلطان الأشرف قايتباي ، فنسبت إليه وعرفت باسم المدرسة الأشرفية ، ورتب لها شيخاً وصوفية وفقهاء وصرف لهم المعاليم ، ووقف عليها الأوقاف . وتعتبر الحجة الشرعية الخاصة بالأوقاف التي أوقفها السلطان قايتباي على مدرسته بالقدس والجامع بغزة على جانب كبير من الأهمية ، وهي محفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة تحت رقم ٨٨٧ ، ومؤرخة في الحادى والعشرين من شهر شوال سنة إحدى وثمانين وثمانمائة للهجرة ، والتي قام بنشرها أستاذنا الدكتور عبد اللطيف ابراهيم سنة ١٩٥٩ م في بحث تقدم به للمؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية ثم في القاهرة سنة ١٩٦١ م ، وترجع أهميتها إلى إنها تكاد تكون الوثيقة الوحيدة التي عثرنا عليها من عصر سلاطين المماليك والتي تنصب بكاملها على منشآت أقامها أحد السلاطين المماليك بفلسطين^(١١٩) .

وبينما من هذه الوثيقة أنها بعد أن عينت لنا حدود المدرسة الأشرفية من مختلف الجهات ، تذكر الأراضي والعقارات التي وقفها السلطان قايتباي لينفق من إيرادها عليها ، حيث تذكر الوثيقة عدة أجزاء من قرى كثيرة منتشرة في فلسطين في كل من الخليل وغزة ولدويت جبيل ونابلس والرملة ، وبعض المباني في غزة مثل الخان والحمام وبعض الحوانيت ومعصرتين ودور طواحين وفرن واصطبل وأشجار كروم وغيرها مختلفة الأجناس والثمار برمل غزة^(١٢٠) .

ثم توضح بعد ذلك الوظائف الخاصة بتلك المدرسة ، ومرتب كل منها وأبواب الصرف من ريع الوقف وذلك بالدرهم في كل شهر . فنأظر الوقف كان يخصص له ستمائة درهما شهريا ، وشيخ المدرسة وهو الذى كان يقوم بأعباء الإمام والمدرس وقارئ الحديث في نفس الوقت ، كان يخصص له خمسمائة وعشرة دراهم شهريا ، ونصت الوثيقة على أن يقيم بالمدرسة ستون صوفيا يصرف لهم تسعمائة درهم شهريا ، لكل منهم خمسة عشر درهما ، وعشرة طلاب يصرف لهم أربعمائة وخمسون درهما شهريا لكل منهم خمسة وأربعون درهما ، ثم تذكر الوثيقة ما كان يجب أن يتم من توسعة على النازلين بالمدرسة في شهور رجب وشعبان ورمضان من كل عام ، حيث خصص لتلك التوسعة ألفى درهم ، ثم خصص لقارئ الحديث ثلاثون درهما شهريا ، وكذلك مفرق الربعة الشريفة وهو نفسه خازن الكتب بالمدرسة ويخصص له عشر دراهم شهريا ، ثم تذكر الوثيقة البواب والمزملاقي والفراش والوقاد ولكل منهم ستون درهما شهريا ، ثم كاتب غيبة الصوفية وله عشر دراهم ، والمباشر وله أربعون درهما شهريا ، ثم بعد ذلك ما يخصص من أجل ثمن زيت للاضاءة ستون درهما شهريا ، وثمان الحصر والقناديل والأباريق مائة درهم ، ثم يلى ذلك الشاد والجاني^(١٢١) ولكل منهما مائة درهم شهريا ، هذا إلى جانب ماتذكرة الوثيقة من نصيب كل من هؤلاء من الخبز كل يوم^(١٢٢) فاذا تبقى بعد ذلك شيء من ريع الوقف ، فإنه على الناظر أن يصرفه في وجوه البر والقربات والأجر والمثوبات

ثم للفقراء والمساكين أينما كانوا وحيثما وجدوا^(١٢٣) .

على أنه حدث عندما حضر السلطان الأشرف قايتباى بعد ذلك لزيارة القدس فان المدرسة لم تعجبه ، فأمر بهدمها وتوسيعها وتجديدها وشرع في ذلك سنة ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م ، وسير السلطان لهذا الغرض إلى القدس الشريف من القاهرة جماعة من المعمارية والمهندسين والحجارين ، ولما كانت سنة ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م اكتملت المدرسة ، وافتتحت سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م . ويبدو أن عملية التجديد صحبها توسيعها وزيادة حجم نشاطها ، والاكتثار من القائمين بها وعليها ، من طلاب العلم ورجال الدين والموظفين ، الأمر الذى تطلب زيادة الأوقاف المحبوسة عليها حتى تتمكن من الوفاء بالتزاماتها الجديدة ، لذلك حررت وثيقة وقف ثانية ، دوت في ظهر الوثيقة الأولى ، وتحمل تاريخ سنة ٨٩٥ هـ ، تضمنت زيادة كبيرة سواء في عدد المعينين للدراسة أو في مخصصاتهم .^(١٢٤)

من هذا العرض السريع عن وثيقة السلطان الأشرف قايتباى والتي خصصها لمدرسته وللجامع في غرة تتضح لنا أهمية الأوقاف في حياة المدرسة كاحدى المؤسسات التعليمية في بيت المقدس في ذلك العصر ، ومنه يتضح لنا أيضا أن تلك الأوقاف وفرت للمدرسة موردا دائما سواء في حياة واقفها أو بعد مماته بما يضمن لها الاستمرار في أداء رسالتها التعليمية ، فضلا عن أن المبالغ التي خصصها من ريع الوقف سواء بالنسبة للقائمين عليها أو النازلين بها - إذا قارناها بمستويات الأسعار في ذلك العصر والتي لاشك أنها كانت منخفضة جدا بالنسبة لعصرنا الحالى - لوجدنا أن المبالغ التي خصصت لكل منهم كانت كفيفة بأن تهيم له مستوى معقولا من المعيشة بالإضافة إلى ما كان يصرف لكل منهم من الخبز واللحم والكسوة في المناسبات .

أما فيما يختص بالخانقاه أو الزوايا الدوادرية ، وهى التى عرفت فيما بعد باسم المدرسة الدوادرية والتي تقع عند مدخل الباب المعروف بباب الدوادرية أحد أبواب المسجد الأقصى .^(١٢٥) فقد نشر كل من Wiet, Van Berchem نص حجة الوقف الخاصة بها على النحو التالى « بسملة .. أمر بإنشاء هذه الخانقاه المباركة المسماة بدار الصالحين العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الله بن عبد ربه ابن عبد البارى سنجر الدوادرى الصالحى ووقفها ابتغاء وجه الله تعالى على ثلاثين نفرا من الطائفة الصوفية من العرب والعجم منهم عشرون نفرا عزابا وعشرة مزوجون مقيمون بها لا يظعنون عنهل صيفا ولاشتاء ولاربيعا ولاخريفًا إلا لحاجة وعلى ضيافة من يرد إليها من الصوفية والمتصوفة مدة عشرة أيام ووقف عليها قرية بير (هكذا) نبالا من القدس الشريف وقرية حجلا من أريحاوفرن وطاحون وعلوها بالقدس ودار ومصبنة وست حوانيت ووراقة بنابلس وثلاث بساتين وثلاث حوانيت وأربع طواحين ببيسان ووقف ذلك على هذه الخانقاه وعلى تدريس مذهب الشافعى وعلى شيخ يسمع الحديث النبوى وقارىء يقرأ عليه وعلى عشر نفر يسمعون الحديث وعشر نفر يتلون كتاب الله كل يوم ختمه وعلى مادح ينشد مدح النبى كل ذلك بالجامع الأقصى وذلك في مستهل سنة خمس وتسعين وستمائة بتولية الفقير إلى الله سنجر القيمرى عفا الله عنه ومن جملة وقف هذه الخانقاه المباركة ووظائفها المذكورة قرية طبرس من فاقون وحمام الملكة من نابلس المحروسة . عمل المعلم على

بن سلامة المهندس « (١٢٦) »

كذلك نشر Van Berchem نص وثيقة وقف على أحد مكاتب تعليم الأطفال في مدينة بيت المقدس جاء فيها (بسملة .. رحم الله من ترحم على الفقير الذي بنا هذه البقعة المباركة وجعلها مكتبا على أولاد المسلمين عامة لتعليم القرآن فيها وقف عليها الدار المعروف بدار أوى نعمة تحت القبو مقابل باب المسجد الأقصى عمره الله تعالى ويكون أجرته تصرف به إلى المعلم والدار في يده لأجرة تعلم الأيتام والمساكين وما فضل من عمارة المكتب والدار وإشعال القنديل تحت القبو والماء للصبيان لغسل الألواح والشرب بشرط أن يكون المعلم من أهل الدين والصلاح وهذا وقفا مؤبدا مخلدا لا يغير ولا يبدل . « (١٢٦) » .

هذا ويؤيد لنا مجير الدين أنه وقع على ورقة بها أسماء الخنابلة بالقدس الشريف « وأن قاضى القضاة علاء الدين العسقلاني الحنبلى قاضى دمشق عين لهم معلوما يصرف لهم من وقف المرحوم شمس الدين محمد بن معمر رحمه الله تعالى بشرط ملازمة الاشتغال والاجتماع في الأيام المعتادة للدرس بالمسجد الأقصى الشريف عمره الله بذكره تاريخ الورقة المذكورة في العشر الأوسط من شهر رمضان قدره سنة ثلاث وسبعين وسبعمائه « (١٢٧) » . وفي هذا خير دليل على أن نظام الأوقاف الذى اتسعت دائرته في عصر سلاطين المماليك ، ساعد كثيرا من المؤسسات التعليمية على النهوض برسالتها في بيت المقدس . واستمرت هذه الأوقاف تؤدي رسالتها طالما احترمت ولم تمتد إليها أيدي الطامعين ، فلما كان القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى ، وقعت المنطقة كلها تحت سيطرة العثمانيين وسطا أكلة الأوقاف عليها فلم تجد معظم المدارس خاصة والمؤسسات الدينية والخيرية عامة ما يكفل لها البقاء والاستمرار ، وتعطل كثير منها عما كان وقف عليه من التدريس والملازمة . (١٢٨)

ويجب أن نشير إلى أن دور الأوقاف في المؤسسات التعليمية لم يقتصر على مجرد أنها المورد المالى لتلك المؤسسات ، بل تعدى الأمر ذلك إلى كافة جوانب العملية التعليمية ، حيث كانت وثيقة الوقف بمثابة اللائحة التنفيذية والأساسية للمؤسسة والتي تضم الأسس التى ينبغى أن تراعى في العملية التعليمية ، كذلك الشروط التى يجب أن تتوافر في القائمين بالتدريس وطلبة العلم ، ومواعيد الدراسة ، وما إلى ذلك من التنظيمات الإدارية والمالية . (١٢٦) .

أنواع التعليم :

في بداية حديثنا عن التعليم في بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك يجب أن نؤكد على حقيقة هامة هي أن التعليم فيها ، لم يختلف عنه في أية مدينة إسلامية أخرى في المشرق (١٢٠) كما بقى التعليم في مرحلتين هما مرحلة التعليم العام في سنوات الطفولة والمراهقة وحتى سن العشرين أحيانا ، ثم المرحلة الثانية وهي التى تشبه إلى حد بعيد مرحلة التعليم العالى الحديث . وقد تطلب هذا النوع من التعليم أنواعا مختلفة من المؤسسات التعليمية ، وهي الكتاب أو المكتب الذى أقتصر التعليم فيه على دراسة المرحلة الأولى ، ثم المسجد والمدرسة والزوايا والخانقاه والرباط والقبّة والبيمارستان وهذه المؤسسات

الأخيرة خاصة بدراسة المرحلة الثانية. (١٣١).

وجدير بالملاحظة أيضا أن تعليم الأطفال وبخاصة الصبية منهم كثيرا ما كان يتم داخل إحدى المدارس ، ويؤكد لنا مجير الدين ذلك في حديثه عن الشيخ شمس الدين البسطامي « ت ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م » من أنه كان يحفظ القرآن ويقرأ - الأطفال بالمدرسة الطازية ، كذلك في حديثه عن شمس الدين محمد بن غضية « ت ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م » أنه كان يؤدب الأطفال بالجوهريّة. (١٣٢) ويؤكد لنا الرحالة فابري الذي زار القدس أواخر القرن الخامس عشر ذلك بقوله : بينما كنت مرة نازلا من جبل صهيون في طريقى إلى الكنيسة للصلاة ، سمعت أولادا يقرأون بصوت مرتفع ، فاقتربت من باب المدرسة ونظرت إليهم ، فرأيت صبيانا جالسين على الأرض في صفوف ، وكانوا يرددون مجتمعين نفس الكلمات بصوت عال ، ويهزون رؤوسهم للأمام والخلف ، وقد استطعت أن أحفظ الكلمات التى رددوها مع موسيقاها . وهى أول ما يعلمون صبيانهم لأنها أصل عقيدتهم . (١٣٣) كما تشير بعض المصادر إلى أن زوايا بيت المقدس كان معظمها أماكن لتعليم الأطفال في العصر المملوكى ، حيث كان يقصدها هؤلاء الصغار وبخاصة الأيتام لحفظ القرآن على أيدي المؤدبين بها . (١٣٤) كذلك يجب أن نشير إلى أن الأطفال كانوا يتلقون تعليمهم أيضا داخل المسجد الأقصى في مكان خصص لهم لهذا الغرض ، ويؤكد لنا مجير الدين ذلك في حديثه عن الشيخ عمر بن اسماعيل الحنفى مؤدب الأطفال « ت ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م » من أنه كان يؤدب الأطفال بالمسجد الأقصى بالمكان المجاور للجامع المغاربة من جهة القبلة. (١٣٥)

وليس معنى هذا أنه لم تكن هناك مكاتب لتعليم الأطفال ، فإضافه إلى ما سبق وأشرنا من وجود مكتب للأطفال ، يذكر لنا مجير الدين ما يفيد تعدد تلك المكاتب في حديثه عن نفسه وعن شيخه الفقيه علاء الدين على المعروف بابن قاموا « ت ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م » حيث يروى لنا أن هذا الشيخ أقام بالقدس وأدب الأطفال به وسمع الحديث ، وقد قرأ عليه مجير الدين بمكتب باب الناظر ، الذى سمى بذلك لوقوعه بجوار باب الناظر أحد أبواب المسجد الأقصى. (١٣٦) كذلك نراه يذكر لنا مكتب التربة الطازية التى أنشأها الأمير طاز المتوفى سنة ٧٦٣ هـ. (١٣٧) بالإضافة إلى مكتب المدرسة الجوهريّة التى أنشأها الأمير جوهر زمام الادر الشريفة سنة ٨٤٤ هـ. (١٣٨)

والمكاتب « هى ما عرفت مؤخرا باسم الكتاتيب » وكانت تقوم مقام مدارس المرحلة الأولى في وقتنا الحاضر حيث يبدأ الصبى بها حياته العلمية ، مع ملاحظة أن مهمتها الأساسية كانت تحفيظ القرآن الكريم بالإضافة إلى تعليم الأطفال القراءة والكتابة. (١٣٩) ومن المرجح أن تكون مدينة بيت المقدس قد عرفت نوعين من المكاتب ، النوع الأول المكاتب التى يرسل الآباء إليها أولادهم ليتعلموا مقابل دفع أجرة تعليم إلى صاحب المكتب ، ويمكن أن يسمى هذا النوع جوازا المكاتب الخاصة ، وهى تشبه المدارس الخاصة حاليا من حيث مبدأ دفع أجرة التعليم. (١٤٠) والنوع الثانى - المكاتب التى أنشئت بهدف تعليم الأيتام والفقراء علاوة على صرف « المعاليم » النقدية والعينية لهم ولؤدبهم من الأموال الموقوفة عليهم ويسير العمل في هذه المكاتب وفوق شروط ونظام الواقف التى ربما تختلف

من واقف لآخر . وعن هذا النوع وردت إشارة لدى ابن فضل الله العمري في حديثه عن الأمير تنكز نائب الشام في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون والذي بنى عام ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م مدرسة جليلة إلى جوار الرباط المنصوري قلاوون ، وبأعلاها خانقاه مشرفة وبحضرتها مكتب أيتام^(١٤١) هذا إلى جانب ما سبق أن أشرنا من مكتب الأيتام الذي نشر حجة وقفه فان بيرشام في الصفحات السابقة بما يؤكد وجود هذا النوع الأخير .

وقد اشترطت كتب المعاصرين أن تكون تلك المكاتب « في أماكن ظاهرة لا يخفى المكتب فيها عن نظر المارة في الطريق ، وألا يكون موضع المكتب في أحد الشوارع التي يغلب على ساكنيها أهل الذمة ، ويستحسن أن يكون بالسوق أن لم يكن ذلك فإن تعذر فعلى شوارع المسلمين أو في الدكاكين ، ويكره أن يكون بموضع ليس بمسلوك للناس فإن الصبيان يسرع إليهم القيل والقال ، فإذا كان بالسوق وعلى الطريق أو في الدكاكين ذهب عنهم ذلك ، وفيه فائدة أخرى عظيمة وهي إظهار الشعائر لأنه أجلبها^(١٤٢) .

واشترطت المصادر المعاصرة في مؤدب الأطفال عدة شروط منها أن يكون صحيح العقيدة ، « واول ما يتعين على الآباء الفحص عن عقيدة معلم أبنائهم قبل البحث عن دينه ، لأن كثيرا من الصبية ينشأون وعقيدتهم فاسدة لأن فقيهم كان كذلك^(١٤٣) . كذلك اشترط فيه أن يكون مزوجا منعا لسوء الظن به ، فالغالب إسراع سوء الظن ، هذا الزمان بمن كان غير متأهل .. فإذا كان متأهلا انسد باب الكلام والوقية فيه . وينبغي أن لا يضحك مع الصبيان ولا يباسطهم لئلا يفضى ذلك إلى الوقوع في عرضه وعرضهم وإلى زوال حرمة عندهم إذ أن من شأن المؤدب أن تكون حرمة قائمة على الصبيان .. كذلك لم يكن يسمح لعازب بأن يفتح مكتباً لتعليم الأطفال إلا أن يكون شيخا وقد اشتهر بالدين والخير ، ومع ذلك لا يؤذن له بالتعليم إلا بتركية ، وثبوت أهليته لذلك ، كما اشترط عليه ألا يستخدم أحد الصبيان في حوائجه ، وأشغاله التي فيها عار على آبائهم ، كنقل التراب والزبل ، وحمل الحجارة وغير ذلك ، ولا يرسله إلى داره وهي خالية لئلا يتطرق إليه التهمة^(١٤٤) .

وفي معاملته لأطفال المكتب فقد اشترطت كتب المعاصرين على المؤدب ألا يفرق بين أبناء الأغنياء والفقراء في المعاملة ، وأن يتولى تعليمهم بنفسه إن أمكنه ذلك ، فإن لم يمكنه ذلك فلا يغفل عنهم لحظة خوفا من وقوع بعض المفاسد ، وأن يكون الصبيان عنده بمنزلة واحدة ، لا يميز بعضهم على بعض ، كذلك لا يسمح لهم بأن يحضروا معهم الأطعمة أو النقود لأن من هذا الباب ينكسر خاطر الصغير الفقير منهم والضعيف لما يرى من جدة غيره ، كما لا ينبغي به ألا يدع أحدا من الباعة يقف على باب المكتب لبيع للصبيان خوفا مما قد يقع من ذلك من مفاسد^(١٤٥) .

أما عن التعليم داخل مكاتب الأطفال فقد كان يلحق بها الأطفال من سن الرابعة وحتى العاشرة ، وبداخل المكتب يجلس الأطفال حول مؤدبهم على حصير مفروش على الأرض ، كما كانت في حوائط بعض المكاتب كتيبات « دوايب » توضع فيها المصاحف والأفلام والألواح والدوى^(١٤٦) . وكان الهدف الأساسي من التعليم داخل المكتب هو تعليم آداب الدين ، إلى جانب القرآن الكريم الذي كان

يعلم تلقينا حفظا له عن التحريف والتصحيح^(١٤٨) كذلك كان على الأطفال أن يتعلموا في سن مبكرة قواعد الوضوء والصلاة وقواعد الاسلام الخمس ، كذلك يحفظون بعض الحكم والأمثال ، وبعض أبيات من الشعر عن طريق التكرار مع زملائهم وبطريقة غنائية خشية النسيان .^(١٤٩) كما كان الخط العربي من المواد الأساسية التي تدرس للأطفال في مكاتبهم ، وكان المؤدب يقوم بهذه المهمة بنفسه غالبا ، وأحيانا كان يعهد بذلك إلى « مكتب » يعلم الخط المنسوب ولعله كان يصرف لهؤلاء الأطفال في المكتب الأقلام والمداد والألواح والدوى التي كانت تشتري من ربيع الوقف ، ولعله وجد في كل مكتب من هذه المكاتب ما يسمى بالعريف وهو الذى يتولى وظيفة العرافة ، وهو الموجه لعشرة أنفار غالبا ، وكان العريف - مساعداً للمؤدب . فهو من جملة الأطفال بالمكتب ويستمر فيه ولو كان بالغاً - وكان يعين المؤدب في عمله بالمكتب ، ويقوم مقامه أثناء غيبته ، ويساعده في تعليم الأطفال^(١٥٠) .

ولم يكن تعليم الأطفال قاصرا على تحفيظ القرآن وبعض الأحاديث وبعض أبيات من الشعر ، إلى جانب تعليم القراءة والكتابة والخط ، بل اشترطت بعض كتب المعاصرين أنه ينبغي على كل طفل من أطفال المكتب « أن يعود أن لا يصدق في المجالس ولا يتمخط بحضرة غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضرب بكفه تحت ذقنه ولا يستدبر غيره ولا يغمز رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل ويعلم كيفية الجلوس ويمنع اليمين رأسا صدقها وكذبها حتى لا يعود في الصغر . ويمنع أن يبتدىء بالكلام ويعود أن لا يتكلم إلا جوابا وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا ويوسع لمن هو فوقه المكان .. ويمنع من لغو الكلام وفحشه وعن اللعب والشم ومن مخالطة من يجرى على لسانه شئ من الفواحش فإن ذلك يسرى لاحالة من القرناء السوء . وينبغي أن يعلم طاعة الوالدين ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سنا .. ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع ويخوف من السرقة وأكل الحرام ومن الكذب والخيانة والفحش ...^(١٥١) ومن هذا يتضح لنا أن دور المكتب لم يكن قاصرا على تعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، بل تعداه إلى كثير من الآداب العامة التي يجب على الصغار تعلمها منذ نعومة أظافرهم ، وبهذا كانت مهمة المكتب على جانب كبير من الأهمية .

كذلك كان للمكتب ومؤدب الأطفال دور في الرعاية الصحية للأطفال ، فإذا اشتكى أحد الأطفال من مرض أو ألم فكان على المؤدب بعد أن يتحقق من صدقه أن يصرفه حتى يتمكن أهله من علاجه ، وفي نفس الوقت حماية لباب الأطفال من العدوى . هذا بالإضافة إلى الرعاية التي كان يوليها لهم في غدوهم ورواحهم حيث يتسعين في ذلك بأحد الأشخاص والذي كان يطلق عليه لفظ « سائق » وكان يختاره حسب مواصفات خاصة بحيث يكون أمينا ثقة متزوجا .^(١٥٢)

كذلك كان من سلطات مؤدب الأطفال أن يعاقب من أهل منهم ، أو من ارتكب خطأ يستحق عليه العقاب ، لكنه اشترط أن يترفق بهم ولا يضربهم إلا على إساءة الأدب والفحش من الكلام ، وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون - الشرع ، كما كان عليه ألا يضرب صبيا بعصا غليظة تكسر العظم ولا رقيقة لاتؤلم الجسم بل تكون وسطا ، وأن يتخذ مجلدا عريض السير ويعتمد بضربه

على الاالايا والأفخاذ وأسافل الرلللن ، لأن هذه المواضع لا ىلخشى منها مرض ولاعائلة .^(١٥٣)

أما عن أيام الدراسة فى المكآب فإنها غير محدودة ، فقد نصت كآب المعاصرلن على أنه ىجب أن تكون هناك أيام للبطالة ، أما عدد الأيام هذه فىبدو وأنه كان متروكا لرأى المؤدب صاحب المكآب ، من ذلك ما يؤكده ابن الحاج بقوله « وانصراف الصبلان واستراآتهم يوملن فى الجمعة لأبأس به وكذلك انصرافهم قبل العلء بىوملن أو ثلاثة وكذلك بعده بل ذلك مستحب بقوله علىه الصلاة والسلام روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإذا استراآوا يوملن فى الجمعة نشطوا لباقىها »^(١٥٤) - كذلك لعل الأيام التى كان ىكثر فىها المطر كانت ضمن الأيام التى تعطل فىها المكآب ، أو بسبب الأعذار مثل المرض أو الجمع والمواسم والأعلاء ، كما كانت الدراسة تنآهى أآلانا عند الظهر فى يومى الثلاثاء والخملس من كل أسبوع .^(١٥٥) كذلك لم تكن هناك مدة محددة ىجب أن ىقضىها الطفل فى المكآب ، اذ ىرجع هذا إلى استعداد الطفل ومبولة وقابلآته للتعللم ، فقد ىستطاع البعض خآم القرآن وله تسع سنلن ، وقد ىستمر ، البعض الآخر فى المكآب إلى سن المراهقة .^(١٥٦)

أما عن المكآب الخاصة بأهل الذمة وبخاصة المسلآللن من أبناء بآت المقدس ، فالآقآقة أن المصادر والمراجع التى آآآآت عن بآت المقدس لم آشر إلى ذلك ، ولكن من المرجح أنهم لم ىآآلفوا عن غيرهم فى البلدان الأآرى والتى خضعت لحكم سلاآلن الماللك ، آآآ كانت لهم مكآآبهم الخاصة لتعللم أبناءهم ، وكانت هذه المكآب شبه مشتركة ىمكن لأطفال المسلآلن دخولها والدراسة بها ، أما عن البرنامج الدراسى الخاص بهذه المكآب فإن العلومات المتاحة غير كافية ، ولكن ىبدو أنها أآضا كانت لتعللم الصبلان أصول دآنهم ، وربما كانوا ىآفظون فىها كتابهم المقدس ، بالإضافة إلى تعلم القراءة والكتابة والحساب^(١٥٨) .

أما عن تعللم الأطفال عند اللىود فمن المرجح أنه كانت لآآآهم أآضا مكآب لتعللم الأطفال آآآ كانت التعاللم الدآنية لآآآهم تحآم علىهم إرسال أطفالهم لآآآلوا من سن الخامسة أو السابعة وآآى سن الثانية عشر والثالثة عشر ، وفى تلك المكآب كان ىآم تعللم الأطفال القراءة والكتابة ، وفهم وآفظ قوانلن التوراة شفهاآ تمهلا لدراسة التوراة ، وقد كان التعللم فى هذه المكآب ىآم مقابل أن - ىدفع الأهالى أجور المؤدبلن الذلن ىقومون بتعللم أطفالهم ، أما بالنسبة لأبناء الفقراء فكانآ آماعة اللىود كلها آشارك فى دفع تكاللف تعللمهم ، وىبدو أن مكآب الأطفال هذه لم تكن آآآلف كثيرا عن مكآب الأطفال عند المسلآلن إلا من آآآ مواد الدراسة ، فقد كان ىآلس الأطفال على الأرض أآضا آول معلمهم ، آآآ ىقوم بتعللمهم القراءة أولا ، عن طرلق تعلم شكل الآروف وآآرار الأصوات التى تمآلها آم آآرار الكلمات^(١٥٩) كذلك اآآموا فى تعللمهم بتدرلس كثير من الأقوال المأآورة لرجال دآنهم وذلك لتآللد هؤلاء الرجال ولتآللد هؤلاء الرجال ولتآللد أقوالهم أآضا ، هذا بالإضافة إلى آآآب تدرلسهم لكآآر من الحكم ، إلى آآآب الالآام بمبادئ العقلاة اللىودآة والعبادات الخاصة بها ، وكانت مكآب الأطفال هذه ملآقة بالكنلس الخاص بهم ، وكانت التعاللم الدآنية لآآآهم تحآم على الأب أن ىتكفل بتعللم أطفاله آآى ىنآوا من تلك المرحلة ، أى بوصولهم إلى

سن الثاني عشر ، وبعد ذلك يمكن للأب أن يستعين بأبنائه في حرفته .^(١٦٠) أما عن اللغة المستخدمة في ذلك التعليم فقد كانت هي اللغة العربية ، وأحيانا يكتبونها بحروف عبرية .^(١٦١)

من هذا العرض عن مكاتب الأطفال ودورها في تعليم الأطفال ، في مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، يتضح لنا أن تلك المكاتب لم تختلف في مهمتها باختلاف أبناء بيت المقدس دينيا ، وأنها كانت متشابهة إلى حد كبير ، سواء بالنسبة للسن التي يقبل فيها الأطفال على الدخول في تلك المكاتب ، أم من حيث طبيعة المواد الدراسية التي كانت تدرس فيها وهي المبادئ الأساسية للعلوم الدينية ، وتعليم الأطفال المبادئ والعقائد الدينية ، وإعدادهم للدراسة الأرحب عندما يكبرون ، فضلا عن غرس القيم والمثل والأخلاق الفاضلة في نفوس النشء كذلك يمكننا أن نلاحظ أن كل طائفة من الطوائف كانت تتيح لأطفالها حق التعليم ويشهد على ذلك الأوقاف الخاصة بالمسلمين على مكاتب الأيتام ، وكذلك ما كان يتبع عند أهل الذمة من تكفلهم بنفقات تعليم الفقراء والمحتاجين واليتامى .

أما عن التعليم في المدارس وهو ما يمكن أن نطلق عليه التعليم العالي ، فحيث لم تكن هناك مدارس ثانوية في ذلك العصر ، فقد كان على الطالب أن يتلقى علومه على أيدي أحد المدرسين إما في المسجد الأقصى ، حيث يقوم بالتدريس فيه كبار مشاهير العلماء ورجال الدين في ذلك الوقت ، والذين قاموا بتدريس العلوم الدينية من فقه وحديث وأصول وقراءات ووعظ ، بالإضافة إلى العلوم اللغوية من لغة عربية ونحو وصرف .^(١٦٢) وكانت الدراسة في المسجد الأقصى على هيئة ما يمكن أن يطلق عليه نظام المحاضرات ، حيث يجتمع الطلبة حول أحد الأساتذة مكونين نصف دائرة أو حلقة ، حيث يملئ مادته أو يشرحها بطريقته الخاصة ، ويدون الطلبة ملاحظاتهم ويسألون الأسئلة ويقوم هو أو مساعده بالاجابة عليها عقب انتهاء الدرس ، وقد تزداد أعداد الطلبة أو تقل بحسب شهرة المدرس أو تمكنه من المادة التي يقوم بتدريسها .^(١٦٣)

أما عن التعليم في المدارس فإنه سار وفق ما هو معروف من نظم تعليمية في البلدان الاسلامية في ذلك الوقت ، من حيث كونه لم يكن خاضعا لنظم ثابتة أو يجري داخل مؤسسات رسمية ، فضلا عن أنه كانت هناك علاقة وطيدة بين المدرس - وطلابه ، والتي تعد من أفضل الملامح الرئيسية في التعليم الاسلامي ، بالإضافة إلى أن الذاكرة كانت على جانب كبير من الأهمية ، فكان على الطالب أن يتذكر الملاحظات التي تملئ عليه ، فضلا عن أنه أتيح للطلاب فرصة وحرية اختيار الموضوعات التي يدرسونها ، وحرية التنقل من مدرسة لأخرى لجمع المعلومات على أكبر عدد من العلماء .^(١٦٤)

هذا بالإضافة إلى أنه وجد نوع من التعليم العالي عن طريق الملازمة ، حيث يعيش الطالب ملازما لمدة طويلة لأستاذه بحيث يكتسب فيها معظم تعاليم أستاذه وأحيانا كان الطالب يدفع لأستاذه مبلغا من المال نظير أتعابه ، وأحيانا يكون بمثابة تابع له يقوم بتنفيذ كل ما يطلبه منه من نسخ بعض المخطوطات ، أو مساعدته في بعض شئونه حتى يصبح هو نفسه عالما ، وأحيانا يقضى معظم عمره مع هذا الأستاذ وقد يتزوج ابنته ، ويصبح خليفته ، ومثال ذلك مايروية لنا مجير الدين عن الشيخ

تقى الدين القرقشندى أحد علماء « بيت المقدس » « ت ٧٧٨ هـ » والذي يعتبر مؤسس عائلة القرقشندى في بيت المقدس - كما سبق وأشرنا لذلك - فقد لازم شيخه الشيخ العلائى خليل بن كيكلدى « ت ٧٦١ هـ » وعينه معيدا بالمدرسة الصلاحية ثم تزوج ابنته ، كذلك مايروية لنا ابن حجر في حديثه عن الشيخ محمد بن محمود بن اسحق بن احمد المقدسى « ت ٧٧٦ هـ » من أنه لازم ابن الشيخ علاء الدين خليل بن كيكلدى السابق ذكره ، وأن هذا الأخير قد لازم البرهان الفزارى .^(١٦٥) وكان في استطاعة الطالب أن يدرس على العديد من المدرسين ، يتعلم اللغة من واحد والقرآن من آخر ، والحديث من ثالث ، وبذلك لم يكن الطالب يخصص نفسه لعلم واحد أو لفرع واحد من فروع المعرفة .^(١٦٦)

وليس معنى هذا أنه لم يكن هناك تخصص في بعض العلوم ، لكننا نستطيع القول أن ذلك التخصص كان يأتي في مرحلة لاحقة ، حيث يظهر نبوغ الطالب في علم من العلوم ، أو قد تجذبه شخصية من الشخصيات البارزة في الميدان العلمى والتي تميزت بتقواها وصلاحتها وبعلمها الغزير وتمكنها في المادة التي تخصصت فيها ، أو في الكتاب التي تعرضت لدرسه وشرحه ، فيسير بعض الطلبة على نهجها ، أو أن تكون لدى الطالب الرغبة الخاصة أو الشغف بتلك الدراسة للوقوف على أسرارها والتعمق فيها .^(١٦٧)

وهكذا يستطيع الطالب أن يحصل على عدة إجازات من عدد من المشايخ الذين تلقى عليهم دراسته ، ولازمهم في فترة من الفترات المختلفة في حياته ، تلك الإجازات التي كانت تتيح لصاحبها فرصة الاعادة أو التدريس أو الافتاء أو تولي إحدى الوظائف الخاصة بأرباب الأقاليم .^(١٦٨)

كذلك كانت هناك حلقات للتدريس داخل كثير من زوايا بيت المقدس في ذلك العصر ، ذلك أن جماعة الصوفية كانوا يكونون فيما بينهم إحدى المدارس حيث يتوفر لأفرادها داخل زوايتهم الطعام والكساء والمأوى لأبناء طائفتهم ، فضلا عن تخصص بعض تلك الزوايا في دراسة بعينها^(١٦٩) من ذلك مايرويه لنا مجير الدين في حديثه عن المدرسة الناصرية التي تخصصت في دراسة علوم القرآن والنحو ، وكان بها كثير من الكتب التي تخدم هذا الغرض ، والتي ظلت فترة كبيرة من العصر المملوكى تؤدي تلك الوظيفة^(١٧٠) وجدير بالذكر أنه حدث في بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك تشابه بين وظيفة المدرسة ووظيفة الزاوية ، من ذلك ماسمعنا من أن الأمير حسام الدين أبو محمد الحسن بن ناصر الدين ابن جمال الدين عبد الله الشهير بالكشكلى الحنفى ناظر الحرمين ونائب السلطنة « ت ٧٤٢ هـ » والذي عمر المدرسة الحسينية المعروفة به بباب الناظر ووقف عليها أوقافا ورتب فيها وظائف من التصوف وغيره ، وكانت عمارتها في سنة سبع وثلاثين ولعله بهذا العمل أراد أن يؤكد لنا أن الكثيرين اعتبروا بيت الطلبة خانقاه أى بيت للصوفية ، واعتبر الطلبة أنفسهم صوفية يقومون بوظيفة التصوف مع طلب العلم بنفس المدرسة . أو بعبارة أخرى ليس هناك فارق بين الطلبة داخل المدارس والصوفية داخل بيوتهم فكلهم طلبه علم ، هذا فضلا عما نلاحظه من أنه لم يكن هناك فارق كبيرين وظيفية كل من المدرسة والزاوية على الأقل في أواخر عصر سلاطين المماليك ، وهذا ما يؤكد لنا مجير الدين وهو معاصر لتلك الفترة في حديثه عن المدرسة الأشرفية التي

كانت قد بنيت برسم السلطان الظاهر خشقدم - وكما سبق القول - وتوفى قبل اكتمالها حيث يقول * وكانت عمارتها على هيئة عمائر مدارس القدس ليس فيها كبير أمر فإنها كانت تشتمل على مجمع وطارقة وخلوة للشيخ على ظهر رواق المسجد ويقابل ذلك من جهة الغرب ساحة على ظهر ايوان المدرسة البلدية وفيها بعض الخلاوى ...^(١٧١) وحتى عندما لم تعجب السلطان الأشرف قايتباي وأمر بهدمها وإعادة بنائها فقد أشتمل مبناها الجديد على الخلاوى وخصص لها عددا من الصوفية كما سبقت الإشارة بذلك ، والفارق الوحيد الذى نسمع عنه بين الزوايا والمدرسة أن بعض المدارس كانت مخصصة لمذهب معين من المذاهب ، ومن خلال ما ذكره لنا مجير الدين يتأكد لنا أن المدرسة كانت زاوية أو خانقاه بالفعل وفي هذا تأكيد لدورها التعليمي ، حيث كان الطلبة هم أنفسهم الصوفية النازلون فيها ، وشيخ الصوفية هو المدرس الذى تولى التدريس والامامة فى الصلاة إلى جانب مشيخة المدرسة وقراءة الحديث كما سبقت الإشارة بذلك فى حديثنا عن وثيقة الوقف الخاصة بالمدرسة الأشرفية السالفة لذكر . وجدير بالذكر أيضا أن كثيرا من الروايات قد درست معالمها ، وبعضها لم يبق منه أى أثر سوى بعض بناء مهدم^(١٧٢) .

ولعل هذا راجع فى المقام الأول إلى صغر حجمها بالنسبة للمدارس ، وقلة الأوقاف المحبوسة عليها ، أو تسلط اكلة الأوقاف عليها أو تعطل ماكان وقف عليها للتدريس و الملازمة أو لاتخاذها سكنا .^(١٧٣) .

اما عن المدارس كمؤسسات تعليمية ، فمن المعروف أن المدرسة أقيمت فى العصر المملوكي لتؤدى وظيفة تعليمية ، وبالرغم من ذلك فقد أقيمت بها الشعائر الدينية ، وأخذت كمساجد تقام فيها الصلوات المفروضة ، وصلاة الجمعة والعيدى ، وبذلك كانت أقرب ما يكون بالمسجد إلا أنها تميزت عن المسجد بمساكن الطلبة التى كانت عادة ما تلحق بالمدرسة ليعيش فيها الطلاب والمدرسون ، كذلك جرت العادة أن يكون بها مدفن واقفها حتى ولوتوفى بمدينة غير مدينة بيت المقدس^(١٧٤) هذا وقد حرص كثير من الواقفين على الدفن بمدارسهم التى بنوها لكى يحفظوا بثواب قراءة القرآن والفتحة على أرواحهم من الطلبة والصوفية حيث كان ينص على ذلك فى شروط الوقف^(١٧٥) .

هذا وتجب الإشارة إلى أن الدراسة فى مدارس بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك اختلفت فيما بينها ، باختلاف المذاهب التى أنشئت لتدريسها ، وباختلاف الهدف الذى أقيمت من أجله المدرسة ، حيث كانت هناك مدارس للشافعية ، وأخرى للحنفية والحنابلة والمالكية ، يدرس فى كل منها الفقه على المذهب الخاص بها ، ويضيق بنا المقام عن ذكر كل هذه المدارس ، حيث سبقت الإشارة إلى أن مجير الدين - وهو معاصر - قد ذكر فى كتابه الأنس الجليل أكثر من أربعين مدرسة للمذاهب المختلفة ، لكن يهمنى هنا أن نذكر أن اختلاف هذه المدارس مذهبيا ، قد أدى ، إلى تجميع مسائل الخلاف بين تلك المذاهب فى دراسات خاصة ، عرفت باسم « علم الخلاف » وقد برع فيها كثير من علماء ذلك العصر^(١٧٦) . وبصرف النظر عن اختلاف الدراسة الفقهية فى تلك المدارس

لاختلاف المذاهب ، فقد تركزت الدراسة فيها أيضا حول علوم الحديث والقرآن واللغة العربية من نحو وصرف ، فضلا عن تدريس القراءات والوعظ ، والعلوم الرياضية^(١٧٧) .

هذا بالإضافة إلى أن بعض المدارس كانت مخصصة لتدريس علم بذاته ، مثل دار الحديث وهي مدرسة بجوار التربة الجالقية من جهة الغرب ، واقفها الأمير شرف الدين عيسى بن بدر الدين الهكاري ، وتاريخ وقفها في الخامس والعشرين من رجب سنة ست وستين وستائه ، وكذلك دار القرآن السلامية تجاه دار الحديث ، واقفها سراج الدين عمر ابن أبي بكر أبي القاسم السلامي ، وتاريخ وقفها في العشرين من ربيع الآخر سنة إحدى وستين وسبعمئة^(١٧٨) .

ومما يلفت النظر حقا في مدارس بيت المقدس في ذلك العصر أنها كلها تركزت في مكان واحد حول الحرم الشريف أو بداخله ، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر - المدرسة الفارسية بداخل المسجد الأقصى ، والمدرسة النحوية على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب ، والمدرسة الناصرية على برج باب الرحمة ، والمدرسة التنكزية ولها مجمع راكب على الأورقة الغربية في المسجد الأقصى ، والمدرسة البلدية بباب السكينة بجوار باب السلسلة ، وبجوارها المدرسة الأشرفية داخل المسجد الأقصى بالقرب من باب السلسلة ، والمدرسة العثمانية بباب المتوضأ ، والمدرسة الخاتونية بباب الحديد ، والمدرسة الأرغونية بباب الحديد أحد أبواب المسجد الأقصى ، والذي كان يعرف قديما بباب أرغون ، والمدرسة الجوهريّة بباب الحديد ، والمدرسة الدويدارية بباب شرف الأنبياء وهي التي سمي باب المسجد بسببها باب الدويدارية^(١٧٩) .

ولعل السبب في تركيز تلك المؤسسات التعليمية في تلك المنطقة راجع إلى طبيعة المدينة الدينية بما حوته من أديان مختلفة ، وحرص سلاطين وأمراء المالك وكذلك أهل الخير على أن يجعلوا من تلك مجمعا إسلاميا ضخما بما يشتمل عليه الحرم الشريف وتلك المؤسسات فضلا عن تركيز المسلمين في تلك المنطقة . هذا ويشير أحد الباحثين إلى أن تلك المعاهد العلمية ، وإن كان بعضها قد اندثر في زمن الممالك وأصبح بيوتا استولت عليها بعض العائلات المقدسية أو الأوقاف الإسلامية في العصر العثماني ، إلا أنها لاتزال أثارا ناطقة يجدر الاعتناء بها وإصلاحها وإعادةها إلى حالتها الأولى .^(١٨٠) هذا ويشير باحث آخر إلى أن عدد الباق من مدارس بيت المقدس التي بنيت في العصر المملوكي بالنسبة لما بقي من نوعه في دمشق وحلب أكثر ولا يعزل ذلك إلا أن أرباب العدوان على الوقوف والأحباس لم يتيسر لهم أن يتسلطوا عليها وكان لهم من عناية غير المسلمين بمدارسهم ودياراتهم في القدس عبرة وعظة .^(١٨١)

كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن مدينة بيت المقدس في ذلك العصر ، عرفت كذلك نوعا من المدارس التي تدرس فيها المذاهب الأربعة والتي لم تخصص لتدريس مذهب واحد ، ولذلك راعى بناء المدارس اختيار الشكل الذي يتناسب مع طبيعة تلك المدرسة ، والمواد التي ستدرس فيها ، فكانوا يفضلون لهذا النوع من المدارس أن تكون على شكل إيوانات متعامدة ومتقابلة لكل مذهب من المذاهب الأربعة مكان مستقل عن أماكن المذاهب الأخرى ، ومثال ذلك النوع هو المدرسة التنكزية

التي أنشأها الأمير تنكز نائب دمشق سنة ٧٢٩ هـ ، والتي تقع بباب السلسلة ملاصقة لسور المسجد الأقصى الغربى من المداخل^(١٨٢) إلا أننا نرجح أن هذا النوع من المدارس كان قليلا بالنسبة لكثرة عدد المدارس التي خصصت كل منها لمذهب من المذاهب .

أما عن مكونات بناء المدرسة في بيت المقدس في ذلك العصر ، فمن الواضح أنها لم تختلف كثيرا عن المدارس التي وجدت في كثير من المدن التي خضعت لحكم سلاطين المماليك من حيث كونها تشتمل على كل ما يحتاجه الطلبة والصوفية فيها من مرافق ، حيث وجد بها مطبخ وبيت طهارة ، ومكان للصلاة ، وإيونات متعامدة متقابلة وفي كل إيوان عدد من الشبابيك التي تسمح بدخول الضوء الكافي حيث يجلس الطلبة في حلقات التدريس لتلقى دروسهم المختلفة ، بالإضافة إلى الخلاوى الخاصة بالطلبة وشيخ المدرسة .^(١٨٣)

وبالنسبة لمقررات الدراسة ، فالحقيقة أننا لم نعثر فيما بين أيدينا من مصادر ومراجع سوى على إشارة واحدة في وثيقة الوقف الخاصة بالمدرسة الدوادارية والتي سبقت الإشارة إليها ، وقد حدد فيها الوقف المكان الذى تلقى فيه الدروس والمواد التي يجب أن تدرس وهي تدريس الفقه على المذهب الشافعى وتدريس الحديث النبوى . ولعل ما ينطبق على تلك المدرسة قد ينطبق على غيرها من المدارس الأخرى . أما عن مواعيد الدراسة فقد ورد في نفس الوثيقة أن الطلبة المقيمين بها لا يظعنون عنها صيفا ولا شتاء ولا ربيعا ولا خريفا إلا لحاجة ، بما يفيد استمرار الدراسة ، هذا اذا استثنينا من ذلك العطلات الرسمية كالأعياد والمناسبات وغير ذلك من الأعذار مثل السفر للحج^(١٨٤) .

وكقاعدة عامة فإن فصول الدراسة كانت كما هو معروف تعقد ما بين الصباح الباكر ومنتصف النهار ، كذلك كانت تعقد الفصول ما بين الظهر وصلاة المغرب ، وبعدها تعطى فترة للراحة والأكل ، وكثير من الطلبة كانوا يفضلون الحضور عند مدرسيهم بعد صلاة المغرب ، وأثناء الليالى الباردة .^(١٨٥)

لقد حرص السلاطين والأمراء المماليك وغيرهم على اختيار المدرس الذى سيقوم بالتدريس في المدرسة التي بناها كل منهم^(١٨٦) ذلك أن مركز المدرس والذى يعتبر أستاذ المادة ، كان يفوق مركز المدرسة ، ولأن الطلاب كانوا يرتحلون إليه بالذات أينما حل ، ويحصلون منه على الإجازات العلمية ، وقد ينص في وثيقة الوقف على أن يكون المدرس أفقه الفقهاء في مذهبه ، وقد يكون نفسه هو الناظر على المدرسة والذى كان من اختصاصه الإشراف على المدرسة والأوقاف المحبوسة عليها وعلى حساباتها ، وعليه أن ينفذ وصية الواقف^(١٨٧) وكان يعاون المدرس في مهمته المعيد والذى يشغل وظيفة الإعادة للطلبة لكي يزدادوا فهما ويحسنوا ما شرحه لهم المدرس . أو يعيد عليهم نقيب الطلبة^(١٨٨) كذلك كان عليه أن يحضر الدروس التي يكلفه بها المدرس ليقراها على الطلبة أثناء الدرس .^(١٨٩) هذا يؤكد لنا مجير الدين أن - بعض المعيدين كان على درجة كبيرة من العلم وسرعان ماتمير واشتغل عليه الطلبة فصار من أعيان بيت المقدس^(١٩٠) كذلك يؤكد لنا نفس المصدر بأنه كان هناك عدد من المعيدين داخل كل مدرسة^(١٩١) .

كما وجدت عدة وظائف داخل المدرسة مثل مفرق الربعة الشريفة وهو نفسه خازن الكتب ، وكانت مهمته تفريق المصاحف الشريفة على الطلبة للقراءة فيها ثم جمعها وكذلك المحافظة على مكتبة المدرسة وما بها من كتب وكذلك كاتب الغيبة والذي يقوم بعملية حصر الغياب والحضور بالنسبة للطلبة . هذا إلى جانب الوقاد والمزملاقي وهذه الوظائف سبق وأشرنا إليها في حديثنا عن وثيقة الوقف الخاصة بالمدرسة الأشرفية . ولعله وجدت وظيفة البوابة ، حيث كانت مهمة البواب حفظ الحواصل بالمدرسة وما بها من فرش وقناديل وزيت وآلات ، والذي كان عليه أن يلازم الباب ويفتحه عند اللزوم ويغلقه عند الاستغناء عنه في الأوقات المعهود ذلك فيها ، ولا ينفصل عنه إلا بعذر ويستخلف مكانه زمن غيبته ، ويمنع المرتاب فيهم ، أو من يكثر الدخول لغير حاجة أو من يريد الإقامة بالمدرسة في غير عادة ، كما كان عليه منع أرباب التهم والفساد من دخول المدرسة أو من يقصد الدخول بنعله أو من يتوقع منه أى أذى أو تشويش على المصلين ، وتشترط بعض الوثائق سكناً البواب بالمدرسة والا سقط من وظيفته^(١٩٢) .

أما مهمة الفراش ، فكان عليه أن يقوم بكنس المدرسة وربما قبة الواقف ومسح المدرسة وفرشها وفض ما بها من الآلات وتعمير القناديل ، وكان يشترط فيه أن يكون من أهل الخير والصلاح ساكناً بها .^(١٩٣)

ولم يهمل مؤسسوا المدارس الرعاية الطبية الشاملة للمدرسين والطلبة ومن معهم من أصحاب الوظائف بالمدرسة ، سواء كانوا من المقيمين بها أو المقيمين خارجها . على أن هذه الرعاية لم تشمل كل المدارس ، ولكنها وجدت في المدارس الكبيرة ، حيث كان يخصص ناظر الوقف رجلين أحدهما عارف بالطب خبير بمعالجة الأبدان ، والثاني عارف بصناعة الكحل على أن يحضر كل منهما كل يوم إلى المدرسة لمباشرة المرضى من القائمين بالمدرسة أو الذين يعملون بها .^(١٩٤)

وأخيراً تنبغى الإشارة إلى أن التعليم عند المسيحيين قد أزهى نظراً لكثرة الكنائس والأديرة الخاصة بهم ، والتي يعددها مجير الدين بأنها كانت تزيد على العشرين .^(١٩٥) وهو عدد لاشك كبير بالنسبة لحجم المدينة ، فضلاً عما لها من دور تعليمي ، حيث يفد إليها أبناء الطوائف المختلفة لتلقى العلوم على أيدي رجال الدين ، الذين رحبوا فيها بطلاب العلم حتى ولو كانوا يتبعون مذهباً دينياً آخر .^(١٩٦) هذا فضلاً عن تشجيع كبار رجال الدين لأبناء تلك الطوائف بما يسروه لهم من إطلاع على نفائس الكتب ، وبما ألقوه وزودوا به مكتبات تلك الكنائس والأديرة .^(١٩٧) هذا بالإضافة إلى عرض بعض المواد العلمية الجافة في صورة شعرية موزونة مما سهل فهمها للطلبة وحببها إليهم .^(١٩٨)

وهنا تجدر الإشارة إلى أن المسيحيين المحليين قد دونوا كتبهم بعدة أنواع من الخطوط السريانية ، ونتيجة لانقسامهم إلى طوائف مختلفة ، فقد ابتدع كل فريق لنفسه خطاً ، وصارت المؤلفات تكتب بالخطوط المختلفة^(١٩٩) إلى جانب استخدامهم للغة العربية فإن اللغة السريانية بقيت مستعملة وبخاصة في الكنيسة .^(٢٠٠)

أما عن نظام الدراسة في تلك المدارس فمن المرجح أن كل المدارس كانت داخل الأديرة

والكنائس ، ولم نجد أى ذكر لمدرسة خاصة بأبناء الطوائف المسيحية في بيت المقدس خارج تلك المؤسسات ، وإن وجدت فربما قد تكون ملحقة بالدير أو الكنيسة وكانت توفر لطلابها سبل الحياة التي تجعلهم يتصرفون إلى العلم والاستفادة من المكتبات الحافلة بمختلف الكتب .^(٢٠١) وكان لكل مدرسة من هذه المدارس رئيس يديرها ويسوس طلابها ، ويبدو أنه وجد أيضا نظامان من المدارس داخل الأديرة ، منها ماهو خاص بأهل الدير نفسه ، ومنها ماهو منفصل عن الدير أى للخارجيين ، أما مدرسوها فهم من أبناء الرهبانية الذين تلقوا علومهم في تلك المدارس .^(٢٠٢)

وفي المدارس الديرية الخاصة بأهل الدير ، والتي كان الهدف منها تعليم المرشحين للكهنوت ، فضلا عن مبادئ النحو والصرف وبتفقهون في قوانين الرهبانية ، ومعرفة التزامات النذور بالإضافة إلى المنطق والفلسفة^(٢٠٣) أما المدارس الخاصة بغير أهل الدير ، فقد كان التلاميذ يتعلمون فيها مبادئ النحو والصرف والحساب والموسيقى والخط^(٢٠٤) . أما المدارس التي كانت تتبع الكنائس فكان بها مدرسون يقومون بتعليم الصبيان ، وهؤلاء المدرسون من الشمامسة ، ومن هؤلاء الشمامسة من كان على درجة كبيرة من العلم^(٢٠٥) كذلك يبدو أن اللغة السريانية كانت شائعة داخل تلك المدارس ، وبخاصة في دراسة الكتب الدينية ، هذا إلى جانب استخدام اللغة العربية .

كذلك وجدت بعض المدارس والتي كانت بمثابة مراكز للتعليم العالي في الطب والرياضة والعلوم الادبية والفلسفية^(٢٠٦) .

كما تجب الإشارة إلى أن الآباء اذا كانوا من المتعلمين فإنهم يقومون بتعليم أبنائهم وربما بناتهم ، والحقيقة أنه لم تصادفنا أية إشارة عن تعليم الفتيات المسيحيات ، ولكن من المرجح أن بعضهن كن يتعلمن داخل الأديرة وبخاصة من كن ينخرطن في سلك الرهبانية ، وفيما عدا هذا فيبدو أن الاهالي قاموا بدور في تعليم بناتهم داخل المنازل .^(٢٠٧)

أما عن اليهود فيبدو لنا أنه عقب استقرار اليهود في القدس في العصر الأيوبي ، ووفود بعض اليهود من فرنسا وإنجلترا وإقامتهم في المدينة ، ثم في بداية العصر المملوكي شهدت جماعة اليهود نشاطا علميا بقدم أحد مشاهير المعلمين اليهود في عصره وهو الراي موسى بن نحمان وهو الذي أحيا طائفة اليهود المعلمين في القدس ، وبنى مركزا للتعاليم اليهودية ، وبنى الكنيس الذي يحمل اسمه بالإضافة إلى مايعرف بالأكاديمية اليهودية بالقدس منذ العهد الأيوبي هذا بالأيوبي وكانت تلك أماكن لتعليم اليهود^(٢٠٨) هذا وقد كانت جماعة اليهود تقوم بجمع التبرعات والأموال من المغرب العربي وأسبانيا للانفاق منها على الاكاديمية اليهودية بالقدس ، مما ساعد على ازدهار الحركة العلمية عند اليهود بالقدس ، ويصف لنا أحد اليهود الذين هاجروا إلى القدس سنة ١٣٣٣ م من أسبانيا الجماعة اليهودية بها فيقول * وبعضهم منصرف إلى الاشتغال بالعلوم كالطب والفلك والرياضيات ، لكن الفريق الأكبر من علمائهم يصلون أثناء الليل بأطراف النهار في دراسة الشرع والحكمة القبلية وهؤلاء تنفق عليهم الطائفة^(٢٠٩) هذا ويشير أحد الباحثين إلى أنه طرأ تحسن كبير على أحوال اليهود العلمية في ذلك الوقت نتيجة لهجرة أعداد منهم من أسبانيا إلى المشرق بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص ، وذلك

لأن المهاجرين اليهود الأسبان لم يجلبوا معهم الثقافة المزدهرة فحسب ، بل أيضا الثراء ، وسرعان ما احتل هؤلاء السفارديم مكانة ممتازة في الحياة العامة ، حيث كانت لهم مهاراتهم وثقافتهم التي اكتسبوها عن طريق احتكاكهم بالبلاد الأخرى .^(٢١٠)

وتجب الإشارة إلى أنه توفر للأكاديمية اليهودية في بيت المقدس . من الموارد المالية ما يكفل لها الاستمرار في أداء رسالتها العلمية ، تلك الأموال التي كانت تتدفق عليها من المغرب العربي والبلدان الأوربية على أيدي بعض الربانين الجوالين ، الذين قاموا بجمع تلك الصدقات من أبناء ملتهم في مختلف البلدان ، وهذه المبالغ التي كانت ترد إليها ، شجع عليها ما كان يرفقه اليهود في تلك البلدان النائية من أسئلة متعلقة بأمور العقيدة والمذهب ، وحتى النواحي المدنية ، إلى أصحاب الرأي من الفقهاء عندهم في تلك الأكاديمية ، وكانت هذه المسائل بمثابة فتاوى أو آراء قانونية يلتزم بها وتنفيذها أصحابها في بلدانهم النائية^(٢١١) .

ومن الطبيعي أن يكون كنيس اليهود هو محور الحياة التعليمية ، ففيه العلماء وطلبة العلم^(٢١٢) هذا مع أن عدد اليهود كان قليلا بالنسبة لغيرهم من السكان^(٢١٣) وذلك حتى أواخر عصر سلاطين المماليك . أما عن طريق التعليم لديهم فإن كثيرا من البالغين يأتون للدراسة في أيام العطلات وخاصة يوم السبت والإجازات الأخرى حيث يدرسون التوراه حيث كان الهدف من هذه الدراسة التعود على السلوك الاجتماعي والديني السليم ، كذلك في دراستهم داخل الكنيس كانوا يهتمون بتعليم القراءة تمهيدا لتعليمهم الترجمة والتفسير في الكتاب المقدس ، وكذلك تدريس كثير من الأقوال المأثورة لربانيهم تخليدا لها^(٢١٤) أما عن اللغة التي استخدموها في تعليمهم فهي اللغة العربية ولكن بحروف عبرية في كثير من الأحيان^(٢١٥) .

من هذا العرض يتضح لنا أن المؤسسات التعليمية من زوايا ومدارس ومساجد لدى المسلمين ، والكنائس والأديرة والكنيس بالنسبة لأهل الذمة لعبت دورا هاما كمؤسسات تعليمية ، وأن الفقهاء من المسلمين ورجال الدين من أبناء الذمة كانوا هم حفظة العلم ، والقائمين عليه في نفس الوقت ، كذلك لعبت كل من الأوقاف المحبوسة على تلك المؤسسات وكذلك الهبات والأموال التي كانت ترد إليها دورا - هاما في ازدهار الحياة الثقافية واستمرارها في ذلك العصر .

المكتبات :

لعبت المكتبات في بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك دورا هاما في الحياة التعليمية ، كان له أكبر الأثر في إرساء قواعد النهضة الثقافية الكبرى وازدهارها في تلك الآونة ، حيث قدمت المكتبات خدمات مكتبية ممتازة ، مما ساعد على زيادة فرص التعليم في ذلك العصر ، وكان الإهتمام بالمكتبة في العصر المملوكي امتدادا لما بدأه المسلمون ، من ذلك أن السلطان صلاح الدين الأيوبي عندما فتح مدينة بيت المقدس فإنه حمل إلى قبة الصخرة وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختامات ، وريعات معظمات ، لاتزال بين أيدي الزائرين على كرسيها مرفوعة ، وعلى أسرتها موضوعة ، ورتب لهذه القبة خاصة وليبيت المقدس عامة قومة لشمل مصالحها^(٢١٦) .

ولقد ملأ السلطان صلاح الدين الأيوبي الحرم الشريف بنسخ من القرآن الكريم التي أحضرها من مكتبة دمشق العظيمة ، ولا يزال بعض هذه النسخ محفوظة إلى الآن تشهد على ذلك^(٢١٧) ، بحيث غدت خزانة الكتب في المسجد الأقصى من أهم الخزائن ببلاد الشام ، لما تحتوية من كنوز المعرفة ، ففيها نصف مصحف قديم بخط كوفي كتب عليه كتبه محمد بن الحسن بن الحسين بن بنت رسول الله^(٢١٨) هذا وقد حذا حذو صلاح الدين كثير من أبنائه من البيت الأيوبي ثم سلاطين المماليك من بعدهم ، من ذلك أن الملك المعظم عيسى الذي أنشأ الزاوية الناصرية - التي سبقت الإشارة إليها - وبسبب كثرة الكتب الموقوفة عليها أمها كثير من الطلبة طوال العهد الأيوبي وفترة طويلة من العهد المملوكي .^(٢١٩) كذلك تؤكد لنا المصادر المعاصرة حرص سلاطين المماليك الدائم على تزويد مكتبات القدس بالكتب النفيسة^(٢٢٠) وبخاصة المسجد الأقصى ، كذلك لم يكن الاهتمام بتزويد مكتبة المسجد الأقصى بالكتب النفيسة قاصرا على - سلاطين المماليك ، إذ شاركهم بعض ملوك المغرب العربي ذلك أيضا ، مما يدل على مكانة بيت المقدس لدى هؤلاء كذلك كانوا يهادون بعض زوايا المغاربة بها بتلك النفائس .^(٢٢١)

كذلك لم يكن الاهتمام قاصرا على مكتبة المسجد الأقصى وغيره من المسجد ، بل تذكر بعض المراجع أنه لاتكاد تخلو مدرسة من مدارس بيت المقدس في ذلك العصر من خزانة للمكتب باعتبارها إحدى حواضر العلم في ذلك الوقت ، وكذلك الحال بالنسبة للزوايا حيث تقدم المكتبة خدماتها لطلاب العلم فيها^(٢٢٢) وجدير بالذكر أن نشير إلى أن ظاهرة الاهتمام بالكتب والمكتبات في عصر سلاطين المماليك إنما ترجع إلى كثرة انتشار أسواق الكتب وتجارتها ، فضلا عن تعظيم كثير من السلاطين والأمراء المماليك للعلم وأهله ، إلى جانب ما ارتبط بسياسة المماليك في الحكم ، كما أن هذا العصر تميز بالغنى والثروات الضخمة في شطرة الأول ، والتي مكنت الكثيرين من اقتناء الكتب الثمينة والنادرة ، ووقفها على المساجد والمدارس والزوايا ، لينتفع بها الطلاب والعلماء في وقت كانت فيه الكتب قليلة الانتشار غالبية الثمن لعدم معرفة الطباعة .^(٢٢٣)

كما تجب الإشارة إلى أن المكتبات في ذلك العصر كانت محور النشاط التعليمي في تلك المؤسسات والتي لم تكن للتعليم فقط بل وللتعلم أيضا ، وتحصيل العلم بالبحث والدراسة في الكتب نفسها ، والنقل مما تحويه من مادة علمية ثمينة ، وحيث لم تقتصر مهمة المدرس على مجرد الإلقاء والتلقين أو الشرح ، بل كان عليه أن يسهل على الطلبة الفهم ويحثهم على الاشتغال بالعلم الشريف ، بل يدرهم ويأخذهم بالأهون فالأهون ، إلى أن ينتهبوا إلى درجة التحقيق . وإن كانوا متبهين فلا يلقي عليهم الواضحات ، بل يدخل بهم في مشكلات الفقه ، ويغوض بهم عيابه الزاخر . ومن هذه العبارة يتضح أن عمل المدرس لم يكن هو التعليم فقط بل هو إعداد الطلبة وتدريبهم على البحث بأنفسهم^(٢٢٤) كذلك كان من اختصاصاته الترغيب في تحصيل العلم والاعتماد على الكتب^(٢٢٥)

وكان يشرف على خزانة الكتب شخص أطلق عليه « خازن الكتب » أو شاهد خزانة الكتب وكان يشترط فيه أن يكون أمينا يقظا ، فطنا عاقلا مأمونا ، بالغا في الأمانة والثقة والنزاهة ، وقلة

الطمع قادرا على القيام بخدمة الكتب عارفا بترتيبها^(٢٢٦) كما كان عليه حق الاحتفاظ بها ، وترميم شعنها ، وحبكها عند احتياجها للحبك ، وبذلك لم تكن مهمة أمين المكتبة أو خازن الكتب حسب مصطلح ذلك العصر قاصرة على مجرد معرفة مانتوية المكتبة الموكلة اليه من كتب يقوم بترتيبها فقط ، بل تعدى ذلك إلى شمولها بكل أنواع الرعاية من ترميم وتجليد وحبك إلى جانب حفظها من الضياع^(٢٢٧) .

كذلك يجب أن نشير إلى انه على الرغم من صمت المصادر والمراجع التي بين أيدينا عن طريقة إستعارة الكتب في المكتبات بيت المقدس ، إلا أننا نستطيع القول أنه كان هناك نوعان من الاستعارة ، الاستعارة الداخلية لطلبة العلم والمدرسين والتالين بالمؤسسة التعليمية ، حتى يتمنى لهم الاستفادة مما تحتوية مكتبة المدرسة أو الزاوية أو المسجد من ذخائر الكتب ، كذلك وجدت الاستعارة الخارجية التي كانت مرهونة بعدة شروط ذكرها السبكي في حديثه عن خازن الكتب بقوله : « والضنة بها على من ليس من أهلها ، وبذلها للمحتاج إليها ، وأن يقدم في العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء وكثيرا ما يشترط الواقف ألا يخرج الكتاب إلا برهن يحرز قيمته ، وهو شرط صحيح معتبر ، فليس للخازن أن يعبر إلا برهن . »^(٢٢٨) .

كما تجب الإشارة إلى أنه ، وجدت كثير من المكتبات الخاصة ، والتي حرص كثير من العلماء على تكوينها ، واقتناء الكتب النادرة فيها ، وتشير بعض المصادر الى أعزاز كثير من العلماء بتلك المكتبات التي اقتنوها وحرصهم على أن يراها غيرهم من المشتغلين بالعلم عندما يزورونهم في منازلهم^(٢٢٩) هذا فضلا عن حرص من هؤلاء العلماء على تزويد تلك المكتبات بأمهات الكتب سواء عن طريق الشراء أم النسخ ، بأن ينسخ الواحد منهم بنفسه بعضا من الكتب ، أو يستأجر أحد الأشخاص ممن عرف عنه الاشتغال بالنسخ وحسن الحظ والجودة^(٢٣١) كما تنافس كثير من العلماء في الحصول على كثير من الكتب بخطوط مؤلفيها أنفسهم وغالبا ما كان يتم ذلك بالشراء من ورثتهم عقب وفاتهم^(٢٤١) أو ربما حدث نوع من المهادة بين العلماء في ذلك العصر مثلما يحدث في عصرنا الحاضر ، كما تشير كثير من المصادر الى حرص كثير من العلماء على نسخ كثير من كتب من سبقوهم وكتابة كثير من الحواشي عليها بخطوطهم ، ومنهم من كان يقع له ذلك الكتاب الذي نسخه بخط مصنفه فيشتريه ولا يترك النسخة الأولى ؛ إلى أن يقتنى بخطوط المصنفين « مالا يعبر عنه كثرة »^(٢٣٢) .

ومن أمثلة المكتبات الخاصة في مدينة بيت المقدس دار الكتب الفخرية ، وقفها القاضي فخر الدين أبو عبد الله ابن فضل الله « ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م » والتي بلغ عدد مجلداتها نحو عشرة آلاف اقتسمها افراد اسرة أوى السعود أصحاب الزاوية الفخرية بعد وفاته .^(٢٣٣) .

أما بالنسبة للمكتبات لدى أهل الذمة ، فقد سبقت الإشارة الى كثرة عدد الاديرة والكنائس ، التي لعبت دورا هاما في الحياة التعليمية باعتبارها مراكز للتعليم ، كذلك كانت هذه الكنائس والأديرة على جانب كبير من الأهمية بما حوته من مكتبات ضخمة ، ويذكر لنا بعض الحجاج المسيحيين الذين زاروا بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك أن كنيسة القديسة مريم بجوار كنيسة

القبر المقدس كان بها مكتبة رائعة^(٢٣٤) . ومن أمثلة المكتبات المسيحية مكتبة القبر المقدس ، والتي أنشأها الروم الأرثوذكس منذ عهد بعيد ، ومن حسن الحظ أن الرهبان اليونان تنهبوا إلى جمع شتاتها ، وجمع ما سلم من ذخائرها العلمية الثمينة التي يصل عهد بعضها إلى القرن العاشر الميلادي ، وبها عدد كبير من المخطوطات باللغة العربية واليونانية والسريانية^(٢٣٥) .

كذلك من المكتبات الهامة التي وجدت ببيت المقدس على عصر سلاطين المماليك مكتبة الرهبان الفرنسيين والتي يقول عنها أحد الباحثين أنها من أغنى مكتبات العالم بما حوته من الوثائق المتعلقة بالأراضي المقدسة ، وقد حافظ عليها أولئك الرهبان محافظة شديدة منذ أكثر من سبعة قرون ، ثم تفرغ بعض علمائهم منذ سنة ١٩٢٢م لنشر فهرس مستوفى لتلك الوثائق بلغتها العربية الأصلية مع ترجمتها إلى اللغة الإيطالية ، وتحتوي خزائن الرهبان الفرنسيين من هذا القبيل على ألفين وستائة وأربع وأربعين وثيقة يرتقي تاريخ أقدمها إلى عهد الملك الأشرف شعبان بن حسين « ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م ٧٧٨ هـ / ١٣٧٧ م ، ويشاهد المطالع في هذا الفهرس المدقق صور الوثائق والفرمانات ونصوصها مع تواريخ الخلفاء والسلاطين والملوك المسلمين الذين كان يرجع أمر الأراضي المقدسة إليهم في تلك الحقبة^(٢٣٦) .

والحقيقة أنه تعددت المكتبات لدى الطوائف المسيحية المختلفة بالقدس في ذلك العصر ، تعددا تشهد عليه كثرة تلك المكتبات من جهة وكثرة ما احتوته من ذخائر الكتب من جهة أخرى^(٢٣٧) وهي بلا شك تعكس لنا مدى كلف أبناء الطوائف المسيحية وانصرافهم إلى تأسيس تلك المكتبات الخاصة في كنائسهم وأديرتهم ومدارسهم وبيوتهم ، والتي يعود أغلب الفضل فيها إلى رؤساء تلك الطوائف الدينية ولا سيما علماء الرهبان في الأديار ، فإن هؤلاء كانوا بجانب حرصهم على اقتناء الكتب ، فإنهم يقضون أغلب النهار والليل في نسخ المخطوطات ويتنافسون في كتابتها ويحرصون على صيانتها^(٢٣٨) . وقد بلغ من حرص بعض الطوائف مثل اليعاقبة من العناية بالمخطوطات وحفظها حدا كبيرا ، لدرجة أنهم كانوا يقومون بجمع تلك النفائس ووضعها في أديرتهم حتى تكون تحت أيدي الدارسين بها^(٢٣٩) .

كذلك تشهد المكتبات الأوربية حاليا بما حوته من كنوز المخطوطات ، والوثائق التي سجل عليها اسم الدير الذي وجدت به ، أو نسخت فيه ، والتي ترى إلى اليوم في هذه المكتبات^(٢٤٠) . ومن الطبيعي أن يكون لكل مكتبة من تلك المكتبات أمين مكتبة أو خازن حسب مصطلح ذلك العصر ، وعادة ما يكون كبير الشماسة والذي اشترط فيه أن يكون على قدر كبير من التعليم والدراسة^(٢٤١) .

وبالإضافة إلى تلك المكتبات وجدت مكتبات خاصة ، وهي التي أقامها أفراد من الأسر الغنية ، أو ربما توارثوها عن آبائهم ومن الطبيعي أن يحرص هؤلاء على تلك الكنوز التي خلفها لهم آباؤهم وأجدادهم ، ولا سيما رجال الدين منهم الذين كانوا يتنافسون في نسخ تلك المخطوطات ويحرصون على صيانتها وكذلك إقنتائها ، ويرجع السبب في كثرة تلك المكتبات في تلك الفترة إلى أن مصانع

الورق التي وجدت في المدن القريبة من بيت المقدس كانت تمد المشتغلين ببيع أو نسخ أو تأليف الكتب بكميات وفيرة من الورق بمختلف أنواعه المعروفة في ذلك الوقت مما مساعد على انتشار الكتب وتجاريتها^(٢٤٢) .

وأخيرا تجب الإشارة إلى أنه لم يرد أى ذكر لوجود مكتبات لدى طائفة اليهود ، لكن من المرجح أن تكون لديهم بعض المكتبات ، فقد سبق وأشرنا إلى وجود أكاديمية وكنيس لهم ، فليس من المعقول ألا تحتوى على مكتبة ، وقد كانت المكتبات في ذلك العصر هي السمة البارزة في المؤسسات التعليمية في ذلك العصر .

مجالس العلم :

شهدت مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك ازدهارا في مجالس الحياة العلمية هذا الازدهار كان نابعا من سياسة سلاطين المماليك والتي تمثلت في العناية بالمقدسات الإسلامية حيث استغلوا جزءا كبيرا من ثرواتهم الضخمة والتي عادت عليهم من وراء التجارة لرعاية تلك الأماكن المقدسة وبخاصة الحرم الشريف وقبة الصخرة ، مما يعطى انطبعا عند المعاصرين بأن قيام المماليك في الحكم ليس ضروريا لحماية البلاد والعباد من الأخطار الخارجية فحسب ، بل أيضا لرفع راية الإسلام عن طريق إحياء شعائره ورعاية مقدساته ، وهذا ما كان يهدف إليه سلاطين المماليك لكي ينسى لهم معاصروهم أصلهم غير الحر وأنهم اغتصبوا الحكم من سادتهم الأيوبيين . وكان من نتيجة تلك الرعاية أن اتسعت دائرة النشاط العلمى في بيت المقدس ، والذي تمثل في اجتذاب أعداد كبيرة من العلماء وطلبة العلم إليها وازدهار كثير من المؤسسات العلمية والدينية والخيرية ، كذلك تنافس كثير من السلاطين والأمراء المماليك وأهل البر والمعروف لتوفير مطالب الحياة للمشتغلين بالعلوم عن طريق مآرصدوه على الحرم الشريف وغيره من المؤسسات الدينية من أوقاف .

وليس أدل على ازدهار الحياة العلمية (بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه من كثرة المؤسسات التعليمية ووفرة أعداد الدارسين والعلماء في بيت المقدس من شتى الأنحاء) من كثرة المجالس العلمية التي كانت تعقد طوال ذلك العصر في المسجد الأقصى والتي تتميز بها في تلك الفترة التاريخية ، والتي غالبا ما كانت ما تدور حول العلوم الشرعية من فقه وحديث وأصول ووعظ^(٢٤٣) .

ويورد لنا أحد المؤرخين المعاصرين والذي زار بيت المقدس عام ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م وصفا لأحد مجالس العلوم بالمسجد الأقصى حيث احتشدت الجموع الغفيرة إلى اتسمت بالخشوع وبأن عليها الخضوع والتقوى ، واستقرت منها الضلوع ، فلا ترى في تلك الحضرة المقدسة إلا كل ولى يعبد ربه ويؤمل به ، ومنها من كان يحبى الليل بالسمع والعبادة ، ويختتم بالقرآن ويزيله^(٢٤٤) .

وتشير كثير من المصادر إلى كثرة تلك المجالس العلمية ، والتي كانت تعقد بصفة دائمة في المسجد الأقصى ، حيث يزدحم الفضلاء في تلك المجالس للسمع على أحد العلماء البارزين ، من ذلك مايؤكد له لنا ابن حجر في حديثه عن الشيخ أبى بكر على بن عبد الله الموصلى ثم الدمشقى نزىل بيت

المقدس حيث كان يعمل المواعيد ، ويحضر مجالسه العلماء الكبار كالشهاب الزهرى وشمس الدين الصرخدى وغيرهم^(٢٤٥) هذا ولم تقتصر تلك المجالس العلمية على المسجد الأقصى ، بل إن كثيرا من كبار العلماء كانوا يعقدون المجالس العلمية في منازلهم ، والتي تكون غاصة بكثير من العلماء وكبار رجال المدينة ، ويصف لنا أحد المصادر تلك المجالس التي كانت تعقد في المنازل حيث يقول ذهبنا الى المنزل المعروف والعهد المؤلف فلم نزل في سرور إلى طلعة الفجر وكان يحضر هذا المجلس أحد المنشدین وله صوت حسن ينشد القصائد الإلهية والنشائد التوحيدية في كلام المحققين من الصوفية^(٢٤٦) ومن المؤكد أن تلك المجالس العلمية كان لها آدابها ونظمها المتعارف عليها والتي يؤكدنا لها مجير الدين ، من أنه كان يجب على العلماء أن يراعوا عند جلوسهم مكانة كل واحد منهم ، وقد حرص الجميع على أن يأخذوا من الأماكن ما يتناسب ومكانتهم العلمية ووظائفهم ، وإذا حدث وأخطأ أحدهم كان ذلك مدعاة لجلب غضب الحاضرين عليه .^(٢٤٧)

أما فيما يتعلق بمجالس العلم لدى أبناء أهل الذمة ، فإن المصادر والمراجع التي بين أيدينا تكاد تكون صامتة بالنسبة لهذا الخصوص ، إلا أننا نرجح أن تكون هناك مجالس علم تقام داخل الأديرة أو إحدى الكنائس ، وربما في بيت واحد من كبار الرجال وذلك نظرا لما سبق وأشرنا إليه من ولع أبناء تلك الطوائف بالعلوم والحياة العلمية . أما فيما يختص ببعض المناظرات العلمية التي كانت تحدث بين بعض أبناء الطوائف المسيحية والمسلمين ، فإننا لم نسمع عن قيام مثل تلك المناظرات وبخاصة من جانب أبناء الطوائف المسيحية المحلية وإخوانهم من المسلمين لكن سمعنا عن تلك المناظرات وكما سبقت الإشارة بذلك في حديثنا عن طائفة الرهبان الفرنسيين ، والتي كان الهدف منها تبشيرا بالدرجة الأولى ، ولم تتسم بما يمكن أن نطلق عليه النظرة الموضوعية للأمور ، حيث كان الهدف منها هو تنصير المسلمين ، وكانت تواجه هذه المحاولات بالشدة من القائمين على أمور الدين خوفا من حدوث الفتنة كما سبقت الإشارة بذلك أيضا .

موقف علماء بيت المقدس من الحكام ومن بعض القضايا المعاصرة

لعب علماء بيت المقدس دورا هاما وبارزا في الحياة العامة في عصر سلاطين المماليك ، وكانت لهم مكانة مرموقة في مجتمع غلبت عليه الصبغة الدينية ، ولم تكن تلك المكانة بسبب نفوذهم المباشر على الرأي العام وتقديره لهم باعتبارهم أئمة المسلمين وحماة العقيدة فحسب ، بل نتيجة احتكاكهم المباشر بكافة الطبقات الاجتماعية واختلاطهم بهم من تجار وأصحاب حرف ، فضلا عن اتصافهم بالطبقة الحاكمة من المماليك وهم الذين حرصوا على مصاهرة هؤلاء العلماء لكي يكتسبوا مكانة اجتماعية نظرا لأنهم غرباء عن المجتمع . هذا بالإضافة إلى تركيز الحياة الاجتماعية داخل مدينة بيت المقدس حول هؤلاء العلماء نظرا لكثرة الثروات في أيديهم ، وتوليهم المناصب الهامة ، وإشرافهم على كثير من الأوقاف التي رصدت للمساجد والمدارس وغيرها من المؤسسات الدينية والاجتماعية بالإضافة إلى أنهم أصبحوا المتحدثين الرسميين في الشؤون القانونية والاجتماعية والدينية لكثير من أبناء المدينة ، كذلك كانوا بمثابة النواب عن الجموع التي تقطن حول المساجد والمدارس والزوايا ، والتي

كانت بمثابة مراكز هؤلاء العلماء لمزاولة نشاطهم ، فضلا عن أنه كانوا رؤساء المذاهب الأربعة الذين التف حولهم عدد كبير من الأتباع ، والذين نظروا لهم على أنهم رؤساء لهم يقدمون لهم النصيح في كل أمورهم . وعلى هذا يمكننا القول أن العلماء من خلال دورهم الديني والقضائي والتجاري والمالي ، والروابط الأسرية ، كل هذا سهل لهم الاتصال والاحتكاك المستمر بكل عناصر المدينة^(٢٤٨) ولعل مما ساعد على أن يتبوأ العلماء مكانة سامية في بيت المقدس سياسة المماليك الدينية التي سبق أن أشرنا إليها فضلا عن طبيعة المماليك أنفسهم وما عرف عنهم من جيروت واستهانة بكثير من المثل العليا ، إلا أنهم كانوا يخشون غضب العلماء ورجال الدين ، ويقيمون لآرائهم وزنا عظيما ، وأن من العلماء من كان شجاعا في قول الحق لا يخشى فيه لومة لائم .

ومن الأدوار الهامة التي لعبها العلماء في مجال الحياة العامة في بيت المقدس ما يرويه لنا مجير الدين في حديثه عن القاضي العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد البairقي ت ٨٥٥ / ١٤٥١ أنه كان له هبة عند الناس والحكام ونفذ أمره حتى تكلم في الأسعار فكان يطلب اللحامين والخبازين وغيرهم من أرباب الحرف ويأمرهم ببيع بضائعهم بسعر معين فلا يسعهم مخالفة وفي هذا تأكيد لدور العلماء في مجال الحياة العامة واليومية .^(٢٤٩)

كما لعب العلماء دورا هاما كوسطاء بين السلطات الحاكمة والمحكومين من أبناء بيت المقدس ، ففي أواخر عصر سلاطين المماليك بوجه خاص ، فإن القضاة وشيوخ الأحياء كانوا وسطاء في جمع الضرائب التي كانت تقرضها السلطات وبخاصة عندما عجزت ميزانية الدولة عن تحمل الأعباء الحربية الضخمة نتيجة لكثرة الحروب الداخلية ضد التركان والبد وغيرهم ، فضلا عن الحملات التي كانت توجه لحماية الثغور والمدن الساحلية من إغارات الفرنج والتي لم تنقطع طوال عصر سلاطين المماليك كذلك كانوا كثيرا ما يبذلون جهدهم لتقليل تلك الضرائب التي تفرض على السكان ، عن طريق إبداء معارضتهم للسلطات الحاكمة أحيانا ، والمجادلة أحيانا أخرى إلا أنهم بحكم وظيفتهم وتوليهم مناصبهم من الدولة فكانوا لا يملكون إلا مساندتها^(٢٥٠) .

ومن أمثلة ما قام به هؤلاء العلماء من دور في الحياة العامة ، تصديهم للتعسف الذي كان يقوم به بعض حكام المماليك ، من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين أيضا عن قاضي القضاة شرف الدين أبو الروح عيسى ابن شمس الدين محمد المغربي « ت ٨٥٤ هـ ١٤٥٠ م » والذي كانت له هبة في القلوب ، وكان من قضاة العدل لا يخاف في الله لومة لائم ، من ذلك أن مبارك شاه حين ولى النياية ودخل القدس ، وركب القضاة للقائه على العادة ، وأليس خلعة السلطان ، كان قد أمسك جماعة من الفلاحين فلما وصل بهم إلى باب الخليل وقصد شنعهم أو شنع واحد منهم فأمر بذلك ، فتقدم إليه القاضي شرف الدين عيسى المذكور وقال له « ما الذي تريد تفعل بحضورنا فقال له أشنع هؤلاء . قال بأي طريق قال لصوص قاتلون للنفس فقال له هل ثبت عليهم هذا بالطريق الشرعي قال النائب نحن لا نحتاج إلى ثبوت فقال له القاضي تقتل مسلما غدرا بحضورى بغير حق هذا لا سبيل إليه ولكن تدخل المدينة وتنظر في أمرهم فإن ثبت عليهم ما يقتضى قتلهم فقتلناهم وإلا فلا سبيل إلى

قتلهم فشدّد النائب في أمرهم وقال لا بد من قتلهم فقال له القاضي والله لو قتلهم بحضورى لكنت أقتلك بيدى وأعلقك إلى جانبهم كما أنت بخلعة السلطان فلم يقدر النائب على مراجعته لهيئة ودخل المدينة ولم يستطع قتلهم وله مثل ذلك أخبار كثيرة^(٢٥١).

كذلك يروى لنا السخاوى في ذكره لحوادث سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م أيام السلطان الظاهر أبو سعيد جقمق أنه ورد الخبر بأنه حصل بين نائب القدس تراز المصارع وناظره الأمينى عبد الرحمن الديرى قتال عظيم بالة الحرب بسبب ما وقع من هذا النائب في حق أمير جرم ، وهذا يؤكد لنا أن أحد العلماء لم يسكت على ظلم وقع على أحد الرعية ، وجاهد ليس فقط بالقول ولكن بالسلاح لمنع هذا الظلم ، ولم تهدأ له نائرة حتى تم عزل ذلك النائب بعد أيام^(٢٥٢).

هذا إلى جانب ما يرويه لنا مجير الدين في حوادث سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ م أيام السلطان الأشرف قايتباى حيث يروى أنه في تلك السنة فحش أمر نائب القدس خضربك في ذلك الوقت ، وتزايد ظلمه وسفكه للدماء وأخذ أموال الناس ، وكثر شاكوه وساءت سيرته ، فكتب شيخ الصلاحية النجمى بن جماعة في أمره للسلطان ، فورد مرسوم السلطان على الأمير تغرى ورمش دوا دار المقر الأشرف السيقى أقيردى الدوا دار الكبير ، وهو بمدينة نابلس بالتوجه الى القدس ، والكشف على النائب وتحرير أمره ، فحضر الأمير تغرى ورمش الى القدس في يوم الخميس ثالث عشر ذى الحجة ، وقرىء المرسوم الشريف بالكشف على النائب ، فعقد له عدة مجالس أولها عقب صلاة الجمعة رابع عشر ذى الحجة بمحراب المسجد الأقصى الشريف ، ثم تكرر عقود المجالس في عدة أماكن ، وأكثر الناس من الشكوى عليه ، وكتب القصص في حقه ، وكتب العلماء والقضاء بمدينة القدس والخليل على المحضر ، وتوجه به الأمير خضر بك مع بعض المماليك إلى حضرة السلطان ، فلما وقف السلطان على المحضر ، ضرب النائب ورسم أن يدفع ما عليه من الحقوق لأربابها ، وعزله عن النيابة وأمر بسجنه^(٢٥٣).

كذلك مايرويه مجير الدين أيضا في حديثه عن سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م وفيها قصد أمير عربان جرم وهو أبو العويسر أن يجدد مظلمة على الفلاحين بجبل القدس الشريف ، ويأخذ منهم مالا فقام شيخ الإسلام نجم الدين بن جماعة شيخ المدرسة الصلاحية ومنعه من ذلك^(٢٥٤).

هذا ولم يقتصر دور العلماء في المشاركة في الحياة العامة على رفع المظالم عن أهل بيت المقدس بل شملت جوانب الحياة المختلفة ، والقيام بالمطالبة بكل ما يهم الصالح العام لأهل مدينة القدس في ذلك العصر ، من ذلك مايؤكدده لنا مجير الدين أيضا في عصر السلطان الأشرف قايتباى ، من أنه كان الملك الظاهر خشقدم قد شرع في عمارة العين الواصلة من العروب إلى القدس الشريف ، ومات وهى محتاجة إلى إكمال العمارة فلما ولى بعده الملك الظاهر بلباى ثم الملك الظاهر تمرغا رسم كل منهما بإكمال العمارة فلم تطل مدة واحد منهما فكتب أهل بيت المقدس من المشايخ والقضاة والأعيان استدعاء للسلطان الملك الأشرف قايتباى يتضمن سؤال صدقاته في إكمال عمارة تلك العين ، فبرز مرسوم السلطان بذلك فعمرت ووصل الماء إلى القدس وأعيد الجواب للسلطان بذلك^(٢٥٥).

ومما يؤكد لنا مشاركة العلماء في كثير من الأحداث الخاصة بمدينتهم ماثشير إليه بعض المراجع ، من أنه نظرا لتشعث سقف كنيسة عليّة صهيون وحوائطها فقد توقع الرهبان الفرنسيّ سكان سقوطها ما بين وقت وآخر ورأوا ضرورة عمارتها عمارة كاملة ، فتقدموا بسؤال إلى بعض الفقهاء هل يجوز لهم عمارتها بما يمنعها من السقوط أم لا وقد أفتى الفقهاء بجواز ترميمها وحفظها من الهدم ودفع ضررها الحاصل والمتوقع ، وأن الممنوع فقط هو توسيع خطتها والزيادة في ارتفاعها ، وبناء على هذه الفتاوى وسمح لهم بمقتضى المرسوم المؤرخ في ١٧ شعبان ٨٣٩ هـ / ٦ مارس ١٤٣٦ والموجه الى رئيسهم بقيامهم ببناء الأجزاء المحتاجة إلى الترميم والعمارة وذلك بعد أن قام القضاة بإثباتها ومعابنتها . (٢٥٦)

ومن مواقف علماء بيت المقدس من القضايا المعاصرة موقفهم من بعض المسائل الدينية وبخاصة من تعاليم ابن تيمية ، والمعروف ان ابن تيمية حنبلي وقد دافع عن سنن السلف الصالح من المسلمين بأدلة لم يسبق إليها ، مع أنها مستقاه من القرآن والحديث ، ولكن حريته في الجدل والمناظرة جلبت عليه عداوة الكثير من العلماء وبخاصة من المذاهب الأخرى ، كما أنه كان يعتبر نفسه مجتهدا في مذهبه الحنبلي وقد أفتى في عدة مسائل ولم يأخذ فيها بالتقليد ولا بالإجماع فقد أنكر هؤلاء العلماء على ابن تيمية قوله إن الطلاق بالثلاث لا يقع بلفظ واحد (٢٥٧) كما أنكروا على ابن قيم الجوزية - هو أحد تلامذة ابن تيمية - كلامه بمدينة القدس سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م - بعدم جواز الشفاعة والتوسل بالأنبياء وكذلك آخضوه على نكرانه مجرد القصد للقبير الشريف دون قصد للمسجد النبوي واشتدت معارضة علماء القدس لتلك الآراء فاجتمعوا وكتبوا في ابن القيم الى قاضي القضاة جلال الدين القزويني وغيره من قضاة دمشق ، ولما وصلت كتب العلماء المقادسة في ابن القيم كتب قضاة دمشق فيه وفي استاذة ابن تيمية إلى السلطان فكان جزءا ابن تيمية الحبس وجزءا ابن القيم الضرب المبرح . (٢٥٨)

وأخيرا يجب أن نؤكد على حقيقة هامة وهي أنه كان لعلماء بيت المقدس دور سياسي واضح ، وبخاصة فيما قام من ثورات ضد سلاطين المماليك في بلاد الشام مثال ذلك ما حدث سنة ٧٩٣م / ١٣٩٠م عندما ثار الأمير منطاش ضد السلطنة في مصر ، ودعا القضاة وكبار رجال الدين والعلماء البارزين لأن يؤيدوه وبعد ذلك بقليل عندما ثار الأمير نوروز في دمشق أيضا وحاول أن يستميل قضاة القضاة لكي يعلنوا وقوفهم معه ضد السلطان المؤيد شيخ ولكنهم رفضوا أن يفعلوا ذلك مثلما فعل رجال الدين في دمشق (٢٥٩) .

مما سبق نستطيع أن نستخلص أن علماء بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك ، كانوا لا يقفون موقفا سلبيا لزاء المشاكل التي كانت تظهر في مجال الحياة العامة التي تتعلق بقطاعات كبيرة من أهل المدينة وأنهم حرصوا على أن يكون لهم رأى في كل ما يخص دينهم ودنياهم فضلا عما كان لهم من تأثير على عامة الناس بالإضافة إلى ماسبق وأن ذكرناه من حرص سلاطين المماليك على تأكيد سياستهم الدينية في نفوس معاصريهم وما كان يتبع ذلك من حرصهم على التدخل للفصل في

المنازعات التي قد تنشأ بين الحكام ورجال الدين ، والتي غالبا ماكان القول الفصل فيها لصالح رجال الدين .

كذلك نستطيع القول أنه نتيجة لتلك النظرية السياسية المملوكية ، والتي أنعكس أثرها في بيت المقدس في إقامة كثير من المؤسسات التعليمية والخيرية والدينية ، وما تلى ذلك من تشجيع للعلماء وطلبة العلم على التدفق على مدينة بيت المقدس بحيث غدت إحدى المراكز الحضارية الهامة ، وماتبع ذلك من ازدهار الحياة العملية وماأدى إليه هذا الازدهار من ظهور كثير من المؤلفات التي ارتبطت ولادتها بمدينة بيت المقدس في ذلك العصر .

هوامش

- (١) مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٣ ، ص ٤٥٥ ، سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على مدينة القدس ، ص ٩ ، ١٠ .
- (٢) راجع المقرئ : فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ١٠ اجزاء نشر القاهرة سنة ١٩٤٩ م ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٢٣ - ٥٤٩ ؛ نقولا زيادة : لمحات من تاريخ العرب ، ص ١٧١ - ١٧٢ .
- (٣) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ١٩٣ في ذكر وفيات سنة ٧٦١ هـ .
- (٤) بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .
- (٥) ابن تغري بردى : المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ٢١٤ غ ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر ، ج ١ ، ص ٤٩٧ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٢٣ - ٥٩٤ ؛ السخاوي : التبر السيوك ، ص ٣٧١ .
- والحقيقة أن كتب التراجم والحواليات زانحة بأسماء كثيرين من أولئك الذين وفدوا الى بيت المقدس وأقاموا بها طوال عصر سلاطين المماليك ، مما يؤكد أن الحياة العلمية بها كانت مزدهرة ، وأنها أصبحت مركزا إسلاميا للثقافة عربية واسعة النطاق ، وأن رواد العلم كانوا يفدون إليها ، لا من أجل التبع في مساجدها وزيارة أماكنها المقدسة فحسب ، بل من أجل انتجاع موارد العلم والحكمة في مدارسها ، كما أنها غدت إحدى المراكز العلمية الهامة في دولة سلاطين المماليك بما جذبت إليها من علماء من شتى الأنحاء ، حيث تجمع فيها العلماء من شتى البلدان مثل العراق وإيران والأندلس وتركستان وبلخ وشيراز وأذربيجان وهرات وقرمان ، بالإضافة الى علماء المغرب ، ليس هذا فحسب بل جذبت المدينة المقدسة علماء من اليمن . والدليل على ذلك أنه في سنة ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م توفي بها العالم تاج الدين أبو المحاسن عبد القادر بن عبد الحميد بن عبد الله بن متى اليماني الخزومي الشافعي الأديب الكاتب عن ثلاث وستين سنة وكان له شعر جيد^(٦) .
- (٦) عن مواطن العلماء الذين وفدوا إليها راجع ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٤ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ٦٣٧ ؛ ابن تغري بردى ، المنهل الصافي ج ١ ، ص ٢١٤ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٤٩ ؛ مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٥٥ - ٥٧٧ .
- (٧) مجير الدين : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٥٤٩ - ٥٦٥ ؛ النعمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، نشر جعفر الجسني ، دمشق ١٩٤٨ ، ص ٥٢ - ٥٣ . le Strange; Palestine under Muslem p. 85
- (٨) النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٧٨ - ١٤١ .
- (٩) السيف المهند ، ص ٩ مقدمة .
- (١٠) شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٢٧٠ وفيات سنة ٨٢٥ هـ .
- (١١) وإنباء الغمر ، ج ١ ، ص ٣٧ في ذكر وفيات سنة ٧٧٤ هـ .
- (١٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٤ .
- (١٣) السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ من القسم الأول .
- (١٤) راجع عن هذه المؤلفات ، المقرئ : السلوك ، ج ٣ ، قسم ١ ص ٥٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ وفيات سنة ٧٦١ ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٩٠ - ٩٢ ، رشاد الأمام : مدينة القدس ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .
- (١٥) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٢ ، ص ١٥ .

- (١٦) مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٠٣ - ٥٢٤ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ٢٠٦ .
- (١٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ ، ابن الفرات : تاريخ ، ص ٧ ، ص ٦٩ - ٧٠ ، مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٩٣ ، رشاد الآلام : مدينة القدس ، ص ٢١٠ - ٢١١ .
- (١٨) السيوطي نظم العقيان ، ص ١١٥ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٠ - ٢٧ ، الخالدي : أهل العلم ، ص ٢٢ .
- (١٩) السلوك ، ج ٢ ، ص ١٥٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ٣٥ - ٣٦ ،
- التابلسي : الحضرة الأنسية ، ص ١٤ ، حول بيت المقدس ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .
- (٢٠) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ١١٢ ، مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٦٩٦ ،
- اللقيمي : كتاب لطائف أنس الجليل ، ورقة ٣٤ مخطوط بدار الكتب المصرية .
- (٢١) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ١٢٠ - ١٢١ ، مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٥٠٤ ، ٥٠٧ .
- (٢٢) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٨٣ .
- (٢٣) التبر المسبوك ، ص ١٣٠ - ١٣١ .
- (٢٤) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٢٤ .
- (٢٥) عن هذه الإحصائية راجع : الأنس الجليل ، ج ٢ ، من ص ٤٦٤ إلى ص ٦٠٣ .
- (٢٦) عبد الحميد زايد ، القدس الخالدة ، ص ٢٦٢ .
- Wright: Early travels in Palestine. P. 83. (٢٧)
- (٢٨) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٠١ .
- The city of jeruaslem. P. 2726; AD escription of the East. Vol. I, P.7. (٢٩)
- (٣٠) مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٤٠ تصوف طلعت .
- (٣١) السلوك ، ج ٣ ، قسم ١ ، ص ١٦٣ .
- (٣٢) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ب ٣٠٦٤٥ ، ونسخة أخرى برقم ٨٤٠ تصوف طلعت .
- (٣٣) اسماعيل باشا : إيضاح المكنون ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .
- (٣٤) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٥٤ .
- (٣٥) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ٨٧ .
- (٣٦) نظم العقيان ، ص ١٤٨ .
- (٣٧) الخالدي : أهل العلم بين مصر وفلسطين ، ص ١٠ - ١١ .
- (٣٨) مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٩٥ .
- (٣٩) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٣٨ .
- (٤٠) الزركلي : الاعلام ، ج ٧ ، ص ٥٠ .
- (٤١) السيوطي : نظم العقيان ، ص ٢٦ .
- (٤٢) سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على مدينة بيت المقدس ، ص ١٢ .
- (٤٣) احمد عبد الرازق احمد : دراسات في المصادر المملوكية ، القاهرة ٧٤ ، ص ١٧٤ .
- (٤٤) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين ، نشر دار المعارف ١٩٨٢ ، ص ١٠٩ .
- (٤٥) قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ، ص ١١١ .
- (٤٦) محمد مصطفى زيادة : المؤرخين في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٢٣ - ٢٤ .
- (٤٧) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .
- (٤٨) محمد مصطفى زيادة : نفس المرجع ، ص ٢٤ .
- (٤٩) قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ، ص ١٧٥ .
- (٥٠) اعتمدنا في ترجمته على كتابية « الروضتين في أخبار الدولتين » ، الذيل على الروضتين ، وعلى مذكره استاذنا الدكتور سعيد عاشور في محاضراته لطلبة الدراسات العليا عام ١٩٦٨ م في مادة مصادر البحث .
- (٥١) احمد عبد الرازق احمد : دراسات في المصادر المملوكية ، ص ١٧٤ ، ١٨٠ .
- (٥٢) البغدادي : هدية العارفين ، ج ١ ، ص ١١٠ .
- (٥٣) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

- (٥٤) أحمد عبد الرازق : نفس المرجع ، ص ٤٨ .
- (٥٥) قاسم عبده قاسم : نفس المرجع ، ص ١٤٢ .
- (٥٦) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والملوكي الأول ، دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٤٧ ، ص ٣٢٢ .
- (٥٧) قاسم عبده قاسم : نفس المرجع السابق ، ص ١٤٢ .
- (٥٨) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ، ٣٢٤ - ٣٢٥ .
- (٥٩) أحمد عبد الرازق : دراسات في المصادر الملوكية ، ص ٤٨ ...
- (٥٩) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية ، ص ١٤٢ .
- (٦٠) نفس المرجع ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .
- (٦١) نفس المرجع والصفحات .
- (٦٢) البغدادي : هدية العارفين ، ج ١ ، ص ١١٠ .
- (٦٣) راجع المخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٤ تاريخ .
- (٦٤) انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٩٩ .
- (٦٥) الأنس الجليل : ج ٢ ، ص ٤٨٣ .
- (٦٦) الخالدي : أهل العلم بين مصر وفلسطين ، ص ١٧ - ١٨ سعيد عاشور بعض أضواء جديدة على بيت المقدس ص ١٢ .
- (٦٧) ابن حجر : انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٣ .
- (٦٨) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر ، ١٧ - ١٩ .
- (٦٩) ابن حجر : انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٢٠ .
- (٧٠) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر ، ص ١٩ .
- (٧١) ابن حجر : انباء الغمر ، ج ١ ص ٢٠ .
- (٧٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢١ .
- (٧٣) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .
- (٧٤) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ، ص ٧ .
- (٧٥) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر ، ص ٩٤ - ٩٥ .
- (٧٦) انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٢١ - ٢٣ .
- (٧٧) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ ، ص ١٨٦ .
- (٧٨) عن هذه المخطوطة راجع ، فهرس المخطوطات المصورة ، ج ١ تاريخ ، ص ٦٣ .
- (٧٩) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٢٤ ، الاعلام ، ج ١ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .
- (٨٠) اسماعيل باشا : إيضاح المكنون ، ج ١ ، ص ٦٠٤ .
- (٨١) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر ، ص ٢٣ - ٢٤ .
- (٨٢) كحالة معجم المؤلفين ، ج ٤ ، ص ١٢٠ .
- (٨٣) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٢٨ - ٥٣٠ ، رشاد الإمام مدينة القدس ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .
- (٨٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦ .
- (٨٥) انظر على سبيل المثال المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ٤٨٦ ، ٥٢٧ ، ٥٥٦ .
- (٨٦) انظر على سبيل المثال أيضا المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦١١ .
- (٨٧) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .
- (٨٨) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٣٧ .
- (٨٩) الزركلي : الاعلام ، ج ٧ ، ص ٣٢٨ .
- (٩٠) انباء الغمر ، ج ٢ ، ص ٥٢٥ ، مجرى الدين ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٥٥ .
- (٩١) البغدادي : هدية العارفين ، ج ١ ، ص ١٢٠ .
- (٩٢) راجع المخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ك ٣٨١٥ ضمن مجموعة .
- (٩٣) مخطوط بدار الكتب برقم ك ٣٨١٥ ضمن مجموعة .
- (٩٤) نفس المخطوط والرقم والرمز بدار الكتب المصرية ..

- (٩٥) عن ذلك راجع : المخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٦٨ رياضة .
- (٩٦) راجع المخطوط بدار الكتب المصرية برقم ب ٢٣٢٠٥ .
- (٩٧) نظم العقيان ، ص ٩٢ .
- (٩٨) The Jewish Ency. Vol. VII, 132.
- (٩٩) عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٣ .
- (١٠٠) ابن أبي أصيبعة : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٣٥٥ .
- (١٠١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٣٦٣ ، أحمد عيسى : معجم الأطباء من سنة ٦٥٠ إلى يومنا هذا - طبع القاهرة ١٩٤٢ ، ص ١٣٦ .
- (١٠٢) أحمد عيسى : نفس المرجع ، ص ٣٥٧ نقلا عن تاريخ الاسلام الذهبي في حوادث ٧٤٣ هـ .
- (١٠٣) ابن حجر : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٧٥ .
- (١٠٤) أحمد عيسى : نفس المرجع ، ص ٣٧٣ نقلا عن الضوء اللامع .
- (١٠٥) إيضاح المكنون ، ج ١ ، ص ٢٢ .
- (١٠٦) The Jewish Eney. Vol. vii, p. 132, Ben sason: Jewish society Through the Ages, New york, 1973, p. 225.
- P.P. T. S. Vol. X, pp. 379- 382 (١٠٧)
- Marie- Joseph: Apilgrimage to palestine p. g. (١٠٨)
- Ibid P. G. (١٠٩)
- (١١٠) راجع إيضاح المكنون ، ج ١ ، ص ٥٩ .
- (١١١) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٦١ - ٥٩٦ .
- (١١٢) سليمان اسحق عطية ، تاريخ التعليم في فلسطين على عهد سلاطين المماليك ، رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة ، ص ٢٣ ، Van Bercham Jerusalem Ville, I,P.286
- (١١٤) السخاري ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ١٢٣ .
- (١١٥) سليمان اسحق عطية : المرجع السابق ، ص ٢٦ .
- (١١٦) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ج ٥ ورقة ٢٢ مخطوط ، ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ٣٧ ، بحير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ص ٥٦١ - ٥٩٦ .
- (١١٧) سليمان اسحق عطية المرجع السابق ، ص ٢٦ .
- (١١٨) كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١١٧ .
- (١١٩) لمزيد من المعلومات عن هذه الوثيقة راجع ، عبد اللطيف ابراهيم* وثيقة السلطان قايتباي ، دراسة وتحليل المدرسة بالقدس والجامع بغزة ، طبع القاهرة ١٩٦١ م ويتفق ما جاء بهذه الوثيقة مع ما جاء بوثيقة وقفية الأمير تنكز التي نشرها د . كامل جميل العسل ، في كتابه وثائق مقدسية تاريخية ، ج ١ ، طبع عمان ١٩٨٣ ص ١٠٨ - ١٢٠ .
- (١٢٠) المرجع نفسه ، ص ٩-٤ - ٤١١ . كامل جميل العسل : نفس المرجع والصفحات
- (١٢١) وظيفة الشاذ يتولاها موظف يطلق عليه « الشاذ » أو « المشد » وقد عرفت هذه الوظيفة في الدواوين كما عرفت في الأوقاف . وكان يشترط فيمن يتولاها أن يكون ثقة أمينا من أهل الخير والدين له همة ونهضة ، وهو بمثابة الملاحظ المشرف أو المفتش على القومة وأرباب الوظائف فهو يعمل ما فيه مصلحة الوقف العائد نفعها على مستحقة ، كما كان وظيفة الجباية يتولاها الجاني الذي يشترط فيه نفس الشروط السابقة ، ومهمته جباية الأموال الملالية (شهريا) من مستحقات الوقف ، والأموال الخراجية (سنويا أو على أقساط ، ويستخرج - الاجور ، ويسكن الأعيان الموقوفة أو يخليها ، ويتولى قبض الربيع وضبطة وكتابة حسابة ويورد ما يجيء للصيرفي أولا فأول إلا إذا كان هو نفسه الصيرفي عن ذلك راجع : محمد محمد أمين ، الاوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، القاهرة ١٩٨٠ ص ٣٠٦ - ٣١١ .
- (١٢٢) عبد اللطيف ابراهيم نفس المرجع ، ص ٤١١ - ٤١٢ .
- (١٢٣) نفس المرجع ، ص ٤٣٠ - ٤٣٢ .
- (١٢٤) سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة ، ص ٢٣ .

- (١٢٥) عارف المعارف تاريخ القدس ، ص ٨٩ .
Repertoire. Tome 3 pp. 146- 147; van Berchem Jerusalem Ville, Vol, 25, p. 214. (١٢٦)
- (١٢٧) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٩٦ .
(١٢٨) كرد على : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١١٧ ؛ سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على مدينة بيت المقدس ص ٢٣ .
(١٢٩) انظر كامل جميل العسل : وثائق مقدسية تاريخية ، ص ١٠٨ - ١٢١ ، محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، ص ٢٤٠ - ٢٤٢ .
Bayard Dodge; Muslim education in Medieval Times the Middle east Inst Washington 1962, p. 3 (١٣٠)
(١٣١) سليمان اسحق عطية : تاريخ التعليم في فلسطين ، ص ٨ .
(١٣٢) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٣٤ ، ٥٧١ .
(١٣٣) P. P. T. S, Vol. VII, p. 396.
(١٣٤) ابن فضل الله العمري مسالك الابصار ، ج ٣ ، ورقة ١٨٠ مخطوط ، مجمع الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٦٠٣ .
(١٣٥) الانس الجليل ، ج ٢ ص ٦٠٣ .
(١٣٦) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ .
(١٣٧) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٥٣٤ . سليمان اسحق عطية تاريخ التعليم في فلسطين ، ص ٨ .
(١٣٨) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٥٧١ ، ونفس المرجع ، ص ٨ .
(١٣٩) عبد الغنى محمود التعليم في مصر زمن المماليك ، رسالة ماجستير بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، ص ٧٢ .
(١٤٠) المرجع السابق ، ص ٧٢ .
(١٤١) مسالك الأبصار ، ج ٥ ، ورقة ٩٣ مخطوط .
(١٤٢) ابن الحاج المدخل « مدخل الشرع الشريف على المذاهب » ٣ أجزاء ، طبع القاهرة ١٣٢٠ ق ، ج ٢ ، ص ٩٦ .
(١٤٣) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، دار الكتاب العربي بمصر ١٩٤٨ ص ١٣٠ .
(١٤٤) ابن الحاج نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٩٩ - ١٠٠ .
(١٤٥) ابن الأخوة معالم القرية ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ ، عبد اللطيف ابراهيم : نصاب جديد ان من وثيقة الأمير صرغتمش « مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ٢٨ لسنة ١٩٦٦ ، ص ١٥٥ ، ١٧٣ ؛ احمد دراج : حجة وقف الأشرف برسباي ص ٣ - ٤ .
(١٤٦) ابن الحاج : المدخل ، ج ٢ ، ص ٩٤ - ١٠٠ .
(١٤٧) عبد اللطيف ابراهيم * نصاب جديان ، ص ١٥٥ .
(١٤٨) محمد حلمي محمد * « الحياة العلمية في مصر والشام » ص ٧
Bayard Dodge. Muslim education. pp. 3-4 (١٤٩)
(١٥٠) عبد اللطيف ابراهيم * المرجع السابق ، ص ١٧٤ - ١٧٦ ، احمد دراج * حجة وقف الأشرف برسباي ، ص ٣ - ٤ .
(١٥١) ابن الحاج نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٨١ - ١٨٢ .
(١٥٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠١ ، عبد الغنى محمود * التعليم في مصر ، ص ٧٧ .
(١٥٣) ابن الاخوة * معالم القرية ، ص ٢١٦ .
(١٥٤) المدخل ، ج ٢ ، ص ١٠٠ ، عبد الغنى محمود التعليم في مصر ، ص ٨٤
(١٥٦) عبد اللطيف ابراهيم * نصاب جديان .. ص ١٧٤ .
(١٥٧) عبد الغنى محمود * التعليم في مصر ، ص ٨٦ .
(١٥٨) عبد الغنى محمود * التعليم في مصر ، ص ٩٠ .
(١٥٩) Ben- Saoan; jewish Society pp 148- 154
(١٦٠) Ibid, pp 151- 160

- (١٦١) Alexander Max; Studies In Jewish History and Booklore, New York 1944, p.29.
- (١٦٢) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ١٣٨ ، مجر الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٣١ ، ٥٣٨ ، ٥٦٥ ، ٦٠٣ .
- (١٦٣) مجر الدين : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٦٠٣ ، Bayard Dodge: op cet. p. 7
- (١٦٤) Ibid, pp. 10-11
- (١٦٥) إنباء الغمر ، ج ١ ، ص ٩٩ ؛ الدور الكامفة ، ج ٢ ص ٩١ ؛ الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٠١ - ٥٠٣ .
- (١٦٦) Bayard Dadge: Cp. Cit. PP. 7- 8.
- (١٦٧) محمد حلمي X « الحياة العملية في مصر ... » ص ٢٢ .
- (١٦٨) ابن العماد X شذوات الذهب ، ج ٨ ، ص ٩ ؛ مجر الدين X الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٥٢ - ٥٥٤ .
- (١٦٩) Bayard Dadge: Cp. Cit. P. 24.
- (١٧٠) تنسب هذه المدرسة إلى الشيخ نصر الدين القدسي ، ثم عرفت بالفرازية نسبة إلى أبي حامد الغزالي والتي أعاد إنشائها الملك المعظم عيسى وجعلهم زاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو ووقف عليها كتب من جعلتها إصلاح المنطق لابي يوسف يعقوب بن اسحاق ابن السكيت وظلت فترة كبيرة من العصر المملوكي تؤدي تلك الوظيفة . راجع الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٨٦ .
- (١٧١) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٦١٠ ، ٦١٨ .
- (١٧٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٨٠ ، ٣٨٦ .
- (١٧٣) مجر الدين * نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٩١ ، كرد على خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٥ .
- (١٧٤) يؤكد مجر الدين ذلك في حديثه عن المدرسة الصبية التي بناها الأمير علاء الدين على بن ناصر الدين نائب القلعة والذي ولى نيابة القدس وعمر بها تلك المدرسة ثم تولى بدمشق سنة ٨٠٩ هـ ثم نقل إلى القدس بعد فترة ودفن بمدرسة هذه ، راجع الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٩٠ ، ٣٩١ .
- (١٧٥) المصدر السابق ج ٢ ، ص ٣٩٠ ، ٣٩١ ، Wiet: Repertoire Tome 16 p 99
- (١٧٦) محمد حلمي : الحياة العلمية في مصر ... ، ص ٧ .
- (١٧٧) الخالدي : أهل العلم بين مصر وفلسطين ، ص ٨ .
- (١٧٨) مجر الدين * الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ ، ٣٩٦ .
- (١٧٩) مجر الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ - ٣٩٨ ، اللقيمي * كتاب لطايف أنس الجليل ، ورقة ٢٣ - ٣٥ مخطوط .
- (١٨٠) الخالدي * المعاهد المصرية في بيت المقدس ، ص ١٢ .
- (١٨١) كرد على * خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٥ .
- (١٨٢) سليمان اسحق عطية ، تاريخ التعليم في فلسطين ، ص ١٣ .
- (١٨٣) راجع كامل جميل : وثائق مقدمة ص ١٠٨ ، ص ١٠٩ ، ص ١١٠ ، عن وصف المدرسة راجع * مجر الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٦٥٩ - ٦٦١ ، عبد الغنى النابلسي * الحضرة الأنسية ص ١٨ - ٢٠ .
- (١٨٤) مجر الدين * الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٩٠ .
- (١٨٥) Bayard Dodge: Op. cit p. B.
- (١٨٦) ابن اياس * بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢١٨ .
- (١٨٧) Nicola Ziadeh: Urban life In Syria, pp. 156- 57
- (١٨٨) عبد اللطيف ابراهيم * نسان جديان ، ص ١٦٠ .
- (١٨٩) محمد محمد أمين * الأوقاف والحياة الاجتماعية ، ص ٢٤٥ .
- (١٩٠) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٨٦ .
- (١٩١) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٧٤ .
- (١٩٢) عبد اللطيف ابراهيم : نسان جديان ، ص ١٧٠ ، كامل العسلى : نفس المرجع ، ص ١١٧
- (١٩٣) عبد الغنى محمود : نفس المرجع ، ص ١٦٦
- (١٩٤) عبد الغنى محمود : نفس المرجع ، ص ١٦٨
- (١٩٥) الأنس الجليل : ج ٢ ، ص ٤٠١ - ٤٠٢
- (١٩٦) يوسف الدبس * تاريخ سورية ، مجلد ٧ ، ص ١٤٢ ، فيليب حتى * تاريخ لبنان طبع بيروت ١٩٦٣ ، ص ٤٩٤ .
- (١٩٧) يوسف الدين * نفس المرجع ، مجلد ٦ ، ص ١٧٨ .

- (١٩٨) مراد كامل * تاريخ الأدب السرياني ، ص ٣٦٥ - ٣٩٦ .
- (١٩٩) المرجع السابق ، ص ٢٤ .
- (٢٠٠) المرجع نفسه ، ص ٢٤ .
- (٢٠١) يوسف الدير * الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل ، ص ٥٧٨ - ٥٧٩ * .
- (٢٠٢) أحد الآباء اليسوعيين * تاريخ طائفة الروم ص ٣٠ - ٣٣ .
- (٢٠٣) المرجع السابق نفسه والصفحة ، يوسف الدير * الجامع المفصل ، ص ٥٧٨ ، ٥٧٩ .
- (٢٠٤) أحد الآباء اليسوعيين * نفس المرجع ، ص ٣٠ ، ٣٢ .
- (٢٠٥) مراد كامل * تاريخ الأدب السرياني ، ص ٣٥٠ .
- (٢٠٦) عمر عبد السلام ، تدمري : الحياة الثقافية في طرابلس في العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٦٨ .
- Ray John: Acollecton of Curios Travels vol I PP. 143- 44 (٢٠٧)
- (٢٠٨) عبد الحميد زايد * القدس الخالدة ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ ؛ يوشع براور * عالم الصليبيين ، ص ١١٥ . ، كذلك راجع صابر دياب * دراسات في عالم البحر المتوسط في العصور الوسطى ص ٦٣ .
- (٢٠٩) نقولا زيادة * رواد الشرق العربي ، ص ١١٠ .
- Ali Ibrahim: Jews of the Arab countries, Beirut 1971, PP. 10- 11 (٢١٠)
- (٢١١) محمد الحبيب به الخوجة * يهود المغرب العربي ، نشر جامعة الدول العربية قسم البحوث والدراسات الفلسطينية ١٩٧٣ ص ٣٣ ، ٣٧ ، صابر دياب * دراسات في عالم البحر المتوسط ص ٦٥ .
- Ben Sason: Op. cit. P. 160 (٢١٢)
- Jewish Ency: Vol. VII, P. 133 (٢١٣)
- Bensason: Op. cit PP. 151-54 (٢١٤)
- Alexander Max: Op. cit, P. 29 (٢١٥)
- (٢١٦) العماد الأصفهانى ، الفتح القسى ، ص ٦٦ ؛ المنهلجى السيوطى : تخاف الأخصاء بفضائل المسجد الأقصى ، ورقة ٩٤ مخطوط بدار الكتب .
- (٢١٧) العابدى : قدسنا ص ٧٩ .
- (٢١٨) كرد على : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ .
- (٢١٩) مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٨٦ ، كرد على خطط الشام ، ج ٢ ، ص ١١٩ .
- (٢٢٠) المصدر السابق ج ٢ ، ص ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ص ٤٤٣ - ٤٤٥ .
- (٢٢١) كرد على : خطط الشام ج ٦ ، ص ٢٠٠ عبد الحميد زايد : القدس الخالدة ص ٢٦٢ العابدى : قدسنا ، ص ١٢٣ .
- (٢٢٢) كرد على * المرجع نفسه ، ج ٦ ، ص ١٩٢ .
- (٢٢٣) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات في الكتب والمكتبات الاسلامية القاهرة ص ١ - ٣٥
- (٢٢٤) السبكى : معيد النعم ، ص ١٠٥ ، عبد اللطيف ابراهيم : دراسات في الكتب والمكتبات ، ص ٣٦ - ٣٧ .
- (٢٢٥) عبد اللطيف ابراهيم * . دراسات في الكتب والمكتبات ص ٣٧
- (٢٢٦) محمد محمد أمين : نفس المرجع ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦
- (٢٢٧) السبكى : : نفس المصدر ، ص ١١
- (٢٢٨) السبكى : نفس المصدر ، والصفحة
- (٢٢٩) مؤلف مجهول : رحلة الى فلسطين والقدس ، ظهر ورقة ٦٥ ، مخطوط بدار الكتب المصرية .
- (٢٣٠) الصلاح الكتبي : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٥٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب . ج ٧ ، ص ٢٠٥ ،
- (٢٣١) الزركلى : الاعلام ، ج ١ ، ص ٤٦ .
- (٢٣٢) ابن حجر إنباء الفهر ، ج ١ ، ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ص ٣٣٥ .
- (٢٣٣) فيليب دى طرازى : خزان الكتب العربية في الخافقين ، جزعان ، طبع بيروت سنة ١٩٤٧ ، ج ١ ، ص ٢٩٤ .
- Warren: The survey of western palestine, london 1884, p. 31 (٢٣٤)
- (٢٣٥) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٧٥ .

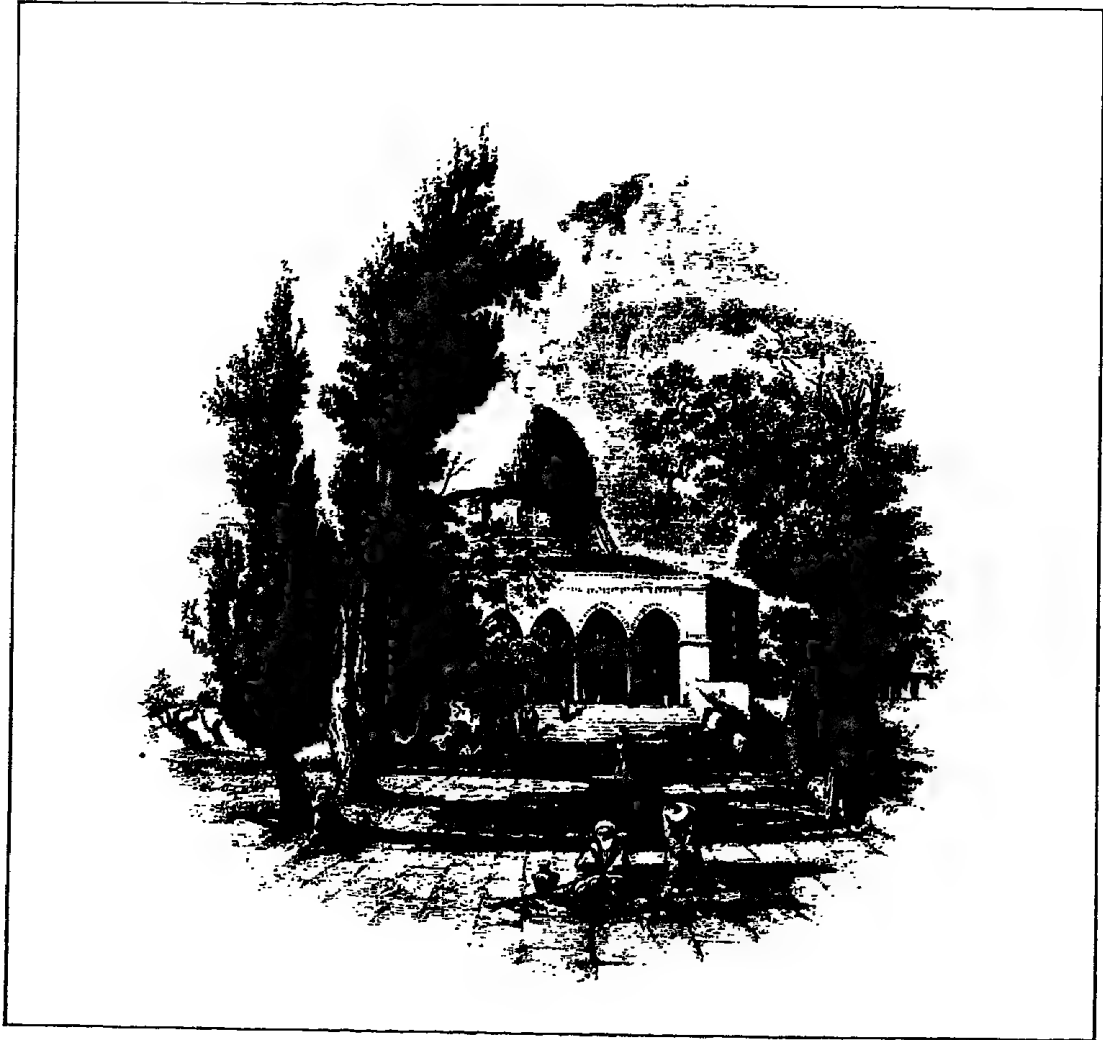
- (٢٣٦) فيليب دى طرازى : خزائن لكتب العربية ، ج٢ ، ص ٤٧٦ ، ٤٧٧ .
- (٢٣٧) لمزيد من المعلومات عن تلك المكتبات المختلفة راجع ، فيليب دى طرازى المرجع السابق ج٢ ، ص ٤٧٥ - ٤٧٩ .
- (٢٣٨) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٤١٣ .
- (٢٣٩) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٤٤٩ .
- (٢٤٠) حيت الزيات : خزائن الكتب في دمشق وضواحيها ، طبع مطبعة المعارف بمصر ١٩٥٢ ، ص ١١٩ .
- (٢٤١) Bliss: The Religion of Modern Syria and Palestine. p. 116 -
- (٢٤٢) فيليب دى طرازى : نفس المرجع ج٢ ، ص ٤١٣ ، عمر عبد السلام تدمرى : نفس المرجع ، ص ٢٢
- (٢٤٣) السخاوى : الثبر المسبوك ، ص ١٣٨ ، مجير الدين : نفس المصدر ، ج٢ ص ٥٣٦ - ٥٦٥
- (٢٤٤) المناجى السيوطى : نفس المصدر ، ورقة ٩٤
- (٢٤٥) الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٤٤٩ ، حول بيت المقدس ، ص ١١٠
- (٢٤٦) مؤلف مجهول : رحلة إلى فلسطين والقدس ونابلس ، ظهر ورقة ٦٦ مخطوط .
- (٢٤٧) راجع ، الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٦٢٢ - ٦٢٣ .
- (٢٤٨) تاريخ الأمير بشبك ، ص ١٦ ، Lapidus: Muslim Cities pp 107- 113
- (٢٤٩) الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٥٦٢ - ٥٦٣
- (٢٥٠) Lapidus: Op. cit. pp. 135- 141
- (٢٥١) الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٥٨٠ .
- (٢٥٢) الثبر المسبوك ، ص ٢٠٨ .
- (٢٥٣) الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٦٧٠ ، ٦٧٢
- (٢٥٤) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٦٧٦ .
- (٢٥٥) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٦١٨ .
- (٢٥٦) احمد دراج : الماليك والفرنج ص ٤٠ .
- (٢٥٧) المقرئى : السلوك ج٢ ، قسم ١ ص ٢٠٣ رشاد الإمام : مدينة القدس ص ٢٢٣ - ٢٢٥ .
- (٢٥٨) المصدر السبق والصفحة نفسها .
- (٢٥٩) Lapidus: Op. cit pp 134- 145

الفضل الرابع

الحياة الاقتصادية

في بيت المقدس

على عصر سلاطين المماليك



في حديثنا عن الحياة الاقتصادية في مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، سنتناول بالبحث كيف أثرت العوامل الطبيعية — من موقع جغرافي وطبيعة أرضها في أحوالها المناخية من أمطار ورياح ودرجة حرارة — مما كان له أكبر الأثر في أحوالها النباتية ، وكيف لعبت القرى المجاورة دورا بارزا في حياة المدينة وأهلها كذلك سنتناول بالحديث الزراعة وأهم منتجاتها الزراعية وكيف اعتمدت الصناعة على الانتاج الزراعى بالدرجة الأولى ، ثم التجارة والأسواق والمؤسسات التجارية التى عرفتها المدينة في ذلك العصر ، والعوامل التى ساعدت على ازدهار التجارة ، ثم الحج كأحد العوامل الاقتصادية الهامة في حياة سكان المدينة ، ثم الأزمات الاقتصادية التى شهدتها المدينة وأسبابها ، فضلا عن الضرائب المختلفة وكيف أنعكست سياسة المماليك الدينية في بيت المقدس عن طريق حرص سلاطين المماليك الدائم على رفع المظالم والمكوس عن أهالى بيت المقدس والتخفيف عنهم ، بالرغم من الأزمات الاقتصادية التى كانت تعاني منها الدولة وأخيرا المعاملات المالية وكيف عرفت المدينة العديد من المعاملات المالية ، فضلا عن تأثرها بالأحوال الاقتصادية للدولة .

أثر الظروف الطبيعية في أحوال بيت المقدس الاقتصادية

من المعروف أن المدن ذات الأهمية الدينية قد أتصفت بالفقر ، وعدم وجود موارد طبيعية كبيرة فيها ، ووقوعها في وديان غير ذات زرع ، وذلك لتظل بمنجاة من الترف الذى هو سبب هلاك القرى والمدن ولذا فإن الغالب في هذه المدن أن تكون غير مرغوبة السكنى من أصحاب السطوة والمترفين ، غير مأثورة إلا من الراغبين عن الحياة الدنيا الحريصين على نعيم الآخرة ، ويتضح لنا ذلك من خلال استعراض الحشد الهائل من العلماء الذين ذكرهم المؤرخ المعاصر مجير الدين^(١) .

ولم تشذ بيت المقدس عن هذه القاعدة طوال عصورها التاريخية ، حيث تحكمت عوامل الطبيعة في مجريات أمورها الاقتصادية ، فهى تقع على خط العرض ٣٢° شمالا وعلى خط الطول ٣٥° شرقا ، كما تبعد حوالى ٥٥ كيلو مترا شرقا من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وحوالى ٣٠ كيلو مترا غربا

من نهر الأردن ، وبذلك كانت بعيدة عن طرق التجارة القديمة البرية المعروفة ، فضلا عن أن موقعها هذا ، بعيدا عن البحر المتوسط أو البحر الأحمر ، لم يجعل منها إحدى الموانئ الهامة التي كان لها دور هام في التجارة العالمية في العصور الوسطى .

هذا فضلا عن أنها أقيمت على أربعة جبال هي : جبل موريا أى المختار القائم عليه المسجد الأقصى ومسجد الصخرة ، الجبل وجبل صهيون ، وهو الذى يعرف بجبل النبی داود ، ومعناه الجبل لمشمس الجاف ، الذى يشكل الجزء الجنوبي الغربى من جبال بيت المقدس الأربعة ، ويرتفع حوالى ٧٧٠ مترا عن سطح البحر ، كذلك جبل أكرأ حيث توجد كنيسة القيامة ، وجبل بزيتا ، والذى يقع بالقرب من باب الساهرة . كما يحيط بالمدينة عدة جبال أهمها :—

جبل أبو عمار عند خط عرض ٣١°٤٤' وخط ٥٣°٥٥' ، ويبلغ ارتفاعه ٧٧٢ مترا عن سطح البحر وجبل الزيتون والذى يدعى أيضا جبل الطور ويقع الى الشرق من المدينة ويبلغ ارتفاعه ٨٢٦ مترا عن سطح البحر ، وهو يواجه اسوار الحرم الشريف من الشرق ، ويفصله عنه وادى القدرون ، وجبل المشارف الذى يقع الى شمال شرق المدينة ويتصل بجبل الزيتون ، وجبل المنظار والذى يقع جنوبى شرق المدينة ، عند خط عرض ٣١°٤٤' ويبلغ ارتفاعه ٥٢٤ مترا من سطح البحر ، بالإضافة إلى جبل النبی صموئيل والذى يقع شمال غربى المدينة على بعد قريب من قرية بيت حنينا ، ويبلغ ارتفاعه ٨٨٥ مترا عن سطح البحر .

هذا وترتفع مدينة بيت المقدس حوالى ٨٩٢ مترا عن سطح البحر وتحيط بها عدة مرتفعات هي عبارة عن تلال متوسطة الارتفاع ويفصل ما بين تلك التلال والجبال المحيطة بها عدة أودية مثل وادى جهنم ووادى القدرون ووادى زيتا وغيرها^(٢) .

واذا وضعنا فى اعتبارنا طبيعة تلك المنطقة الصخرية التى تقع فيها المدينة والتى يصفها لنا ياقوت الحموى بقوله « ان أرضها وضياعها كلها جبال شاذة وليس حولها ولا بالقرب منها أرض وطيبة البتة .. وأما نفس المدينة فهى على فضاء فى وسط الجبال وأرضها كلها من حجر الجبال التى هى عليها^(٣) » — لأدركنا مدى تأثير العوامل الطبيعية فى حياتها الاقتصادية ، من قلة الأراضى الزراعية وقلة المياه حيث لا توجد بها أنهار ، هذا فضلا عن كونها منطقة بركانية تعرضت من قديم الأزمان لهزات أرضية ومنها ما كان مدمرا بحيث تقتل الناس والحيوانات بأعداد كبيرة^(٤) .

وقد كان للعوامل الطبيعية فى تلك المنطقة الجبلية أثر كبير فى أحوال القدس المناخية فمن ذلك أنه بينما يصل الحد الأدنى لدرجات الحرارة الى ١٠° فإن الحد الأعلى يصل الى ٣٥ درجة مئوية ، وطقسها حار جاف والرطوبة متوسطة فضلا عن تأثير هذا المناخ فى نوع النباتات التى تزرع بها ، وهذا ما سوف نتناوله بالتفصيل فى السطور التالية^(٥) . كذلك كان لموقع المدينة فوق هضبة يبلغ أقل ارتفاع لبعض أجزائها أكثر من ٢٥٠٠ قدم فوق سطح البحر ، أثر كبير فى ظروفها المناخية وبخاصة الرياح فقد تعرضت المدينة تقريبا لكل أنواع الرياح عند هبوبها ، مثل الرياح الغربية والرياح الشمالية الغربية فى فصل الشتاء ، وكذلك الشرقية والجنوبية والتى كثيرا ما يستمر هبوبها ما بين يوم وثلاثة

أيام وأحيانا لفترات أطول ، والتي غالبا ما تكون محملة بالرمال والأتربة ، والتي يمكن أن تقتلع الأشجار وتحمل معها كل ما يمكن تحريكه فضلا عما كان ينتج عن ذلك من اضطراب في كمية سقوط الأمطار وما كان يؤدي إليه من تأثير على حاصلاتها الزراعية^(٦) . وتؤكد لنا المصادر المعاصرة تلك الحقيقة بما لا يدع مجالا للشك حيث يروى لنا الرحالة اليهودي موسى بن مناحم الفولتيري والذي زار القدس سنة ١٤٨١ م ما شهدته بنفسه هناك عند زيارته مما دعاه الى الدهشة من كثرة ما يهب على المدينة من رياح صيفا وشتاء ، ومن كل أرجاء المعمورة أو أركان الأرض ، والتي لم ير لها مثيلا ، وما كان لها من أثار على الناس والزروع والحيوانات^(٧) . كذلك يؤكد لنا الرحالة اليهودي عوبديا الذي زارها سنة ١٤٨٧ م تلك الحقيقة من أن المدينة معرضة لهبوب الرياح على اختلاف أنواعها بل يذكر أن كل ريج يجب أن تمر على القدس حتى يباركها الله قبل إتمام اتجاهها^(٨) .

هذا وقد كان لتلك العوامل الطبيعية من طبيعة صخرية وارتفاع سطحها عن الأرض ، فضلا عن تعرضها لأنواع مختلفة من الرياح أثره الواضح في المناخ وفي كمية سقوط الأمطار ، وتشير بعض المراجع الى أن معدل سقوط الامطار السنوى بها يصل إلى حوالى ٦٠٠ ملليمتر موزعة غالبا على موسم الشتاء ، والذي يستمر من شهر نوفمبر إلى نهاية مارس من كل عام ، وهذه النسبة من الأمطار تكاد تكون قليلة بالنسبة للزراعة^(٩) وتؤكد لنا المصادر المعاصرة صحة ذلك الرأى ، من ذلك ما يرويه لنا الرحالة سيجولى الذى زارها سنة ١٣٨٤ م ، في حديثه عن الأمطار ، ان السماء اذا امطرت فإن الشوارع تبقى جافة بسبب أنحدارها الشديد ، وأن المدينة بوجه عام كانت ذات أرض مجدية وفقيرة المياه^(١٠) ، كذلك يؤكد لنا الأب سوريانو وهو الذى عاش بها فترة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادى كما سبق وأشرنا ، أنه يحدث الرعد والبرق في الشتاء وفي قليل من الأحيان يستمر المطر لمدة ثمانية أيام بدون انقطاع ، وأحيانا يحدث ما يشبه السيل بحيث تكاد تغرق المدينة ، ونفس الشيء بالنسبة للثلج ، ففي بيت المقدس إذا حدث وتساقط الثلج فقد يستمر ذلك يوما ، وفي هذا تأكيد على تركيز سقوط الأمطار في فصل الشتاء القصير نوعا ما مع قلة سقوط الثلج وهذا ما يؤكد لنا في موضع آخر من أنه نادرا أن تمطر السماء في غير شهور ديسمبر ويناير وفبراير^(١١) . ويؤكد لنا مجير الدين ندرة سقوط الثلج في المدينة ، في حديثه عن سنة ٨٩٩ هـ / ١٤٩٣ م وهى ضمن الفترة التى عاشها سوريانو هناك بقوله « وفيها في يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول الموافق السابع كانون الثانى وقع الثلج بالقدس الشريف واستمر ينزل من ظهر الثلاثاء الى عشية الخميس مستهل ربيع الآخر (أى حوالى أحد عشر يوما) ليلا ونهارا حتى امتلأت الشوارع والأسطحة والأماكن وحكى الكبار أنهم لم يروا مثل ذلك في هذه الأزمنة من نحو سبعين سنة ... »^(١٢) .

من هذا العرض الموجز يتضح لنا مدى تأثير موقع المدينة وطبيعتها الصخرية في أحوالها المناخية من رياح وأمطار ودرجة حرارة مما كان له أكبر الأثر في أحوالها النباتية وهذا ما سوف نتناوله بالحديث .

الزراعة

بالرغم مما تشير إليه كثير من المصادر عن طبيعة أرض بيت المقدس الصخرية ومن حيث أنها تقع على أرض جبلية مرتفعه وان الجبال تحيط بها من كل جانب ، وانه ليس بها أنهار أو آبار ، فضلا عما يقال أن الريف المجاور للمدينة والمناطق الزراعية به كانت ذات طبيعة جبلية إلى جانب أن أحوالها المناخية من رياح وأمطار ودرجة الحرارة كان لها اثرها المباشر في أحوالها الزراعية ، مما قد يفهم منه أنها لم تكن صالحة للزراعة إلا اننا نستطيع أن نقرر انه وجدت في أطراف المدينة وحولها كثير من التلال والأودية والقرى بما تخللها من موارد للمياه — قد يسرت لها العديد من المناطق الزراعية التي أمدت المدينة بحاجة سكانها من حبوب وفاكهة وخضروات ونخير ما يؤكد ذلك ما أورده الرحالة ناصر خسرو الذى زارها سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٧ م حيث يقول « وسواد رساتيق بيت المقدس جبلية كلها ، والزراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء ، والخيرات بها كثيرة ورخيصة وفيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف من من زيت الزيتون ، يحفظونها في الابار والأحواض ويصدرونها إلى أطراف العالم » وفي موضع آخر يقول « وحين يسير السائر من المدينة جنوبا مسافة نصف فرسخ ، وينزل المنحدر يجد عين ماء تنبع من الصخر ، تسمى عين سلوان . وقد أقيمت عندها عمارات كثيرة ، ويسير ماء هذه العين بقرية شيدوا فيها عمارات كثيرة وغرسوا بها البساتين^(١٣) .

هذا وتشير بعض المراجع الى أن بركة سلوان « سلوام » هذه وهى التى تقع أسفل سفح جبل صهيون فى وادى جهنم^(١٤) ، والتى تبعد قليلا عن جنوب المدينة حيث توجد القرية المسماة باسمها ، هذه القرية والمنطقة المجاورة لها ، كانت تقوم بها كثير من الزراعات على مياه تلك البركة أو العين ، وكذلك على المجرى المائى الذى يسمى جيحون والموجود فى نفس الوادى^(١٥) ، كما أن الحقول التى كانت تروى من بركة سلوان أو مجرى جيحون تعتبر من أخصب الأراضى الزراعية فى فلسطين وبعض هذه الأراضى كانت تنتج فى السنة أربعة محاصيل لتوفر مياه الري اللازمة لها ، فضلا عن كثرة حقول القمح فى تلك المنطقة والتى اعتاد كثير من الحجاج المسيحيين القادمين الى المدينة أن يأخذوا منها لكى يقتاتوا بها إلى جانب مزارع الشعير ، كما أنها كانت عامرة ببساتين الفواكه والتى امتلأت أشجارها بكثير من التين والعنب واللوز والجوز وغيرها من أشجار الصنوبر^(١٦) .

هذا بالإضافة الى أن القرى المحيطة بالقدس من جهة الشرق كانت تعتبر من ضمن أهم المناطق الزراعية والتى اعتمدت عليها المدينة فى عصر سلاطين المماليك ، ومن هذه القرى يذكر لنا مجير الدين أريحا فيقول « وهى شرق بيت المقدس بالقرب من نهر الأردن .. وقد صارت أريحا فى هذه الأزمنة قرية من قرى بيت المقدس وهى إقطاع لمن يكون نائبا بالقدس الشريف ومن عجيب الاتفاق انها كانت فى زمن بنى اسرائيل سكن الجبارين وفى زمن الاسلام مختصة بحاكم الشرطه^(١٧) . أضف الى ذلك بعض القرى الواقعة الى الغرب من المدينة والتى يذكر منها مجير الدين أيضا قرية تعرف باسم البقعة والتى كانت أرضها من أحسن الاراضى الزراعية حسب رواية مجير الدين نفسه^(١٨) . وكانت

هذه القرى الواقعة حول بيت المقدس لديها من موارد المياه ما يفي بحاجتها من الزراعة ، فهناك عين ماء العذراء وهى فى المنطقة المنخفضة من وادى القديرون والى تسمى بيثر أيوب ، وهناك عين أم الدرج وهى التى تسمى عين مريم أو بئر مريم وكذلك عين اللوزة وغيرها من عيون الماء ، والآبار التى وفرت لتلك المناطق حاجتها من المياه اللازمة للرى ، بالإضافة إلى مياه الأمطار^(١٩) .

وكما كانت القرى المجاورة لبيت المقدس فى مختلف الجهات تمثل المناطق الزراعية التى اعتمدت عليها المدينة فى الوفاء باحتياجاتها من الغذاء فقد كانت هناك أيضا الأودية وخاصة فى المنطقة الممتدة ما بين بيت المقدس وبيت لحم والخليل ، والى يصفها لنا الرحالة ناصر خسرو بأن المسافة بين بيت المقدس وبين الخليل تقدر بستة فراسخ عن طريق جنوى به قرى كثيرة وزروع وحدائق وشجر برى لا يتصى من عنب وتين وزيتون وسماق . وعلى فرسخين من بيت المقدس أربع قرى بها عين وحدائق وبساتين كثيرة تسمى الفراديس لجمال موقعها^(٢٠) . ويصف لنا كثير من الرحالة الذين زاروا الأرض المقدسة فى تلك الفترة ذلك الوادى الممتد بين القدس والخليل ، وما تخلله من قرى معتبرة كان يسكنها المسيحيون الوطنيون وما يزرعون فى هذه المنطقة من نباتات فضلا عن خصوبة أرض ذلك الوادى وكثرة موارد المياه به والى تجعل الحياة تبعث على السرور^(٢١) ولنا أن نتصور كبر حجم تلك المنطقة الممتدة ما بين القدس والخليل وما تخللها من مزارع ووديان وموارد مياه حيث كان المسافر يقطع تلك المسافة فى تلك الأزمنة فى يوم كامل حسب رواية ابن عبد الحق^(٢٢) .

ويمكننا أن نضيف إلى المناطق الزراعية السابقة أيضا التلال المحيطة بمدينة بيت المقدس ، لا باعتبار ما قد نبتت على سفوحها ومنحدراتها من حشائش وأعشاب تصلح لرعى الحيوانات ولكن على أساس أن هذه التلال كانت تمثل إحدى المناطق الزراعية الهامة لمدينة القدس ذاتها ، وقد اشتهرت هذه التلال باسم المحاصيل التى كانت تزرع بها بل واستمدت اسمها من أسماء تلك المحاصيل من ذلك ما نسمع عنه من وجود « تل القول » والذى كان يقع على بعد خمس كيلو مترات إلى الشمال من بوابة دمشق فى القدس وهذا التل يطل حاليا على الطريق المؤدى إلى مدينة نابلس^(٢٣) .

من هذا العرض يتضح لنا أنه وإن كانت مدينة بيت المقدس قليلة الانتاج الزراعى بسبب قلة مياهها التى لا تكاد تفى بحاجة سكانها إلا أنه قد توفر لها من المناطق الزراعية الكثير والمتمثلة فى القرى والتلال والوديان المحيطة بها ، وبما تخلل تلك المناطق من موارد للمياه تفى بحاجة أراضيها للزراعة وأن المدينة كانت تعتمد على الانتاج الزراعى الذى ينقل إليها ويباع فى أسواقها من تلك المناطق ، كما تجب الإشارة أيضا إلى أن تلك المناطق التى سبق ذكرها تابعة لمدينة بيت المقدس باعتبارها ولاية ثم نيابة بعد ذلك وكما سبق القول بذلك ، فضلا عن وجود كثير من المناطق المسطحة داخل المدينة والتى ربما استغلت فى الزراعة حسبما يفهم مما يردده لنا الرحالة كازولا والذى زارها أواخر القرن الخامس عشر كما سبقت الإشارة^(٢٤) .

الانتاج الزراعى :

أما فيما يتعلق بالانتاج الزراعى لمدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك فيمكننا أن نقسمه الى قسمين رئيسيين هما الاشجار المثمرة وما تغله الأرض من زراعات ، وفيما يختص بالأشجار المثمرة التى كانت توجد فى القدس وفى الأراضى الزراعية المحيطة بها يأتى شجر الزيتون على رأس تلك الاشجار ، فقد كانت أشجاره منتشرة بكثافة كبيرة على سفوح المدينة وحوافها وعلى جانبي التلال الصخرية المستدة حول أطراف المدينة نفسها^(٢٥) وكذلك كثرت زراعة أشجار الزيتون فى الجبال المحيطة بها وقد لفتت كثرة تلك الاشجار وبخاصة فوق جبل الزيتون أنظار كثير من الرحالة الغربيين الذين زاروها فى تلك الفترة^(٢٦) . فضلا عن أنه كانت تزرع أشجاره فى كثير من القرى المجاورة للمدينة ، وعلى طول الوادى الممتد ما بين القدس ومدينة الخليل ، حيث يتخلل الوادى كثير من السهول المليئة بأشجار الزيتون ، والمعروف أن شجرة الزيتون تستغرق ما بين خمسة عشر عاما وعشرين عاما حتى تصبح ذات قيمة اقتصادية ، وأن الرى ضرورى لها فى مراحلها الأولى وكذلك تنقية الأعشاب من حولها وعندما تثمر الشجرة فرما تستمر فى انتاجها عدة قرون^(٢٧) .

ومن الاشجار المثمرة والقديمة فى بيت المقدس أيضاً أشجار الكروم ، فقد ورد ذكرها عند كثير من الرحالة الذين زاروا البلاد منذ القرن الرابع الميلادى وحتى القرن السادس عشر الميلادى ، ونخص بالذكر من تلك المناطق التى كانت تزرع بالكروم المنطقة التى تقع إلى اليسار من وادى القديرون ، والتى نحدثنا عنها مجير الدين بقوله : « وبظاهر القدس الشريف من كل جهة كروم بها من أنواع الفواكه من العنب »^(٢٨) ، كما تشير كثير من المراجع إلى أن اشجار الكروم كانت موجودة بكثرة فى المناطق المحيطة بالقدس على سفوح التلال والجبال ، وكذلك على امتداد الوادى ما بين بيت المقدس والخليل ، والذى يصفه لنا أحد حجاج بيت المقدس بقوله : ان كرمه العنب كانت تحمل ما بين ثمانية أقات من العنب إلى تسع أقات وكانت أشجاره مزروعه بكثرة بطول ذلك الوادى الذى يبلغ طوله حوالى الميلى^(٢٩) . كذلك يؤكد لنا الرحالة كازولا الذى يقول عنه : رأيت العنب كبيراً جداً ، أكبر مما قد رأيت فى بلادنا وأفضل بكثير مما لدينا^(٣٠) .

ومن المرجح أن زراعة الكروم كانت من الزراعات التى اهتم بها المسيحيون المحليون ، ويؤكد لنا تلك الحقيقة الرحالة بيركارد الذى عاش هناك عام ١٢٨٠ م بقوله : وهناك كثير من أشجار الكروم ولكن المسلمين الذين يحكمون البلاد لا يشربون النبيذ ما عدا القليل منهم سراً . ولكن البعض مهم والذين يعيشون بالقرب من المسيحيين يزرعون له لكى يستفيدوا من بيعه لهم ، كما يؤكد دى لا بروكوير الذى زار المدينة سنة ١٤٣٢ هذه الحقيقة أيضاً^(٣١) .

كذلك وجدت أشجار التين بكثرة ، لكنها ليست بالكثرة التى تمتعت بها أشجار الكروم ، هذا فضلا عن أشجار الجوز والتوت والتفاح والخروب والليمون والمشمش والرمال والليمون الحلو والبرتقال والفسق بكميات كبيرة^(٣٢) . ويروى ياقوت نقلا عن المقدسى فى وصفه لفاكهة بيت المقدس أنه « جمع الله فيها فواكه الاغوار والسهل والجبل والاشياء المتضادة كالانارج واللوز والرطب

والجوز والتين والموز» هذه الفاكهة التى يقول عنها كازولا أنها أكبر من أى فاكهة رآها فى بلاده^(٣٣). هذا بالإضافة إلى نخيل البلح وإن كان مجير الدين يؤكد لنا أنه فى داخل المدينة نفسها لم يكن بها سوى ثلاث نخلات منها واحدة كانت عند المسطبة التى إلى جانب سبيل السلطان غرى الصخرة والتى لم يعد لها وجود بعد عام ٨٠٠ هـ ، واثنتان ظللتا إلى عهده إحداهما عند باب الرحمة والثانية قبل صحن الصخرة ، والتى تعرف بنخلة النبى ﷺ ، حيث قيل أنه رأى عندها^(٣٤).

ومن الأشجار التى زرعت فى بيت المقدس شجرة القطن ويروى لنا الرحالة بيركارد أن القطن كان يزرع فى مناطق معينة ، ولعله يقصد بذلك فى المناطق التى تتوفر بها مياه الرى ، وأن طول الشجرة كان يبلغ طول ركبة الإنسان ، ويزرع سنوياً ، وأن أوراق القطن كانت تشبه أوراق العنب ولكنها أصغر منها^(٣٥). ومما يؤكد لنا أن القطن كان يزرع طوال عصر سلاطين المماليك ما يرويه لنا الرحالة كازولا أنه أثناء توجه الحجاج من يافا إلى بيت المقدس فقد شاهدوا كثيراً من أشجار القطن وهى مزدهرة بالقطن والذى كان قد تم نضجه فى ذلك الوقت^(٣٦). كما تشير بعض المراجع إلى أن القطن كان يعتبر من المحصولات الهامة فى بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، وذلك نظراً لاقبال الغربيين وبخاصة الحجاج على شراء المنسوجات القطنية^(٣٧).

أما عن المحاصيل الأخرى الزراعية فإننا نلاحظ أن الحصول الشائع فى تلك الأراضى وبخاصة المرتفعة منها كان هو الشعير والذى يقول عنه الأب سورينا نيه أنه كان أكثر انتشاراً فى الأرض المقدسة من القمح ، هذا بالإضافة إلى الفول والبصل والكرنب والخضروات^(٣٨). وكذلك يؤكد لنا الرحالة بيركارد أن الأرض المقدسة تميزت بالخصوبة ولهذا فإن القمح كان يجود بها بشكل كبير وهو يزرع ويخصد دون عناء كبير ، فضلاً عن عدم احتياجه لكثير من مياه الرى^(٣٩). وكانت رراعة القمح تتركز حول القرى المحيطة بالقدس إلا أنه كان قليلاً فى المناطق الأخرى ، مثل الوادى الممتد من بيت المقدس إلى الخليل ، حيث يذكر لنا كثير من الرحالة فى حديثهم عن هذه المنطقة الكثير من اشجار الزيتون والكروم مع بقع صغيرة لرراعة القمح^(٤٠). ومن المؤكد أن كمية القمح المزروع لم تكن تفى بحاجات السكان ، ودليل ذلك أنه عندما أقطع السلطان صلاح الدين الأيوبي أخاه العادل البلاد الشرقية وكذلك الكرك والشوبك والصلت والبلقاء فقد شرط عليه « أن يكون عليه فى كل سنة ستة آلاف غرارة تحمل من الصلت والبلقاء إلى القدس »^(٤١). كذلك ما تردده كثير من المصادر والمراجع من كثرة إنعام بعض سلاطين المماليك على القدس والخليل بكميات كبيرة من القمح طوال عصر سلاطين المماليك^(٤٢).

كذلك اشتهرت مدينة بيت المقدس بإنتاجها من قصب السكر ، ويبدو أن الظروف الطبيعية كانت من أهم العوامل التى ساعدت على جودة ذلك المحصول منذ القرن العاشر الميلادى وطوال العصور الوسطى^(٤٣). ويضيف لنا الرحالة بيركارد طريقة جمع هذا المحصول لاستخدامه فى صناعة السكر ، بأنه كان يجمع عن طريق تقطيعه طولياً بما يساوى نصف نخلة ثم يحمل إلى المعاصر حيث يتم عصره^(٤٤).

كذلك من المرجح أن تكون زراعة البلسان موجودة في بداية عصر سلاطين المماليك ، حيث كان ينبت قرب بيت المقدس في القرن الثامن عشر وبكميات وفيرة ، وربما كان يصدر إلى الخارج ، وذلك لأنه كان يستخدم في أوروبا أساساً في طقوس الكنيسة ، وصار لما يرد من الأرض المقدسة مكانة خاصة ، ويبدو أنه تضاءلت زراعته نظراً لما كان يحتاجه من رى مستمر ، هذا بالإضافة إلى بعض الأعشاب الطبيعية الأخرى ، يضاف إلى ذلك أن الكتان وهو الذي كان يستخدم في صناعة الملابس الكتانية كان ينمو هناك وبخاصة في المناطق السهلية^(٤٥) .

أما عن نظم الزراعة والآلات المستخدمة في ذلك العصر ، فالحقيقة أن المصادر التي بين أيدينا تكاد تكون خالية الا من إشارة واحدة وردت عند ابن الصيرفي في ذكره لحوادث سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م أيام السلطان الأشرف قايتباي عن أحد أبناء القلج ويدعى برهان الدين العجلوني من « أنه استاجر من وكيلين عن أميرين بالشام قطعة أرض مدة معلومة وحكم بها حاكم شرعى وتوجه ليررعها فوجدوها مزروعة لغيره فأخذ من الذين زرعوها مقاسمته على عادة البلاد الشامية^(٤٦) . ومنها يتضح لنا أن الأرض في بيت المقدس كانت تزرع بنظام المقاسمة ، أى أن يتولى أحد الأشخاص استجار الأرض من مقطعتها ويقوم هو بالانفاق عليها وشراء كل ما يلزمها ، ثم يتقاسم ثمن المحصول هو ومن قام بزراعتها ، ومن المرجح أن تكون طريقة المقاسمة هذه إحدى مميزات نظام الاقطاع الزراعى الذى ساد في ذلك العصر .

هذا وقد قاسى الفلاحون في بيت المقدس من جراء النظام الاقطاعى الذى ساد في ذلك العصر نظراً لما اقترن به من استغلال وظلم وعسف ، وقاسى الفلاحون شر ما يقاسى إنسان مستعبد مستدل ، وتصور لنا بعض المصادر مدى ما آلت إليه أحوال الفلاحين في ذلك الوقت بقولها « ويسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحاً قرارياً ، فيصير عبداً لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق فهو قن ما بقى ومن ولد له كذلك » وإذا هرب الفلاح فراراً من الظلم والقهر أعيد قسراً ، يقول السبكى : « وجرت عادة الشام بأن من ينزح من دون ثلاث سنين ، يلزم ويعاد إلى القرية قهراً ، ويلزم بشدة الفلاحة ، والحال في غير الشام ، أشد منه فيها .. ومن قبائحهم أنهم إذا اعتمدوا شيئاً مما جرت به عوائدهم القبيحة يقولون هذا شرع الديوان .. »^(٤٧) وقد وقع الفلاحون تحت وطأة امراء المماليك من ناحية وامراء العرب من ناحية أخرى ، من هذا ما يرويه لنا المقرئى في حديث عن سنة ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م في عهد السلطان الظاهر ططر من أن السلطان « مر في طريقه بمدينة القدس ، فرفع إليه ان من عادة نائبا أن يجبى كل سنة من فلاحى الضياع نحو أربعة آلاف دينار ، وبسبب ذلك خربت معاملة القدس ، فعوض النائب عن ذلك ونادى بإبطال هذه المغارم ، ونقشه على حجر بالمسجد ، فتباشر الناس بأيامه ، ورجوا أن يزيل الله عنهم به ما هم فيه من الجور »^(٤٨) . إلا أن تعسف هؤلاء المماليك قد استمر حتى آخر سنى حكمهم للبلاد ، ويؤكد لنا أحد الرحالة الذين زاروا بيت المقدس سنة ١٥٠٣ وهو « بوم جارتن » بأن تعسف هؤلاء المماليك بلغ حد الاستيلاء على الحيوانات التى كان يملكها هؤلاء الفلاحون »^(٤٩) .

هذا وكان من نتيجة نظام اقطاعات زعماء العربان والذي كان سائداً منذ العصر الأيوبي ، باعتبارهم أرباب الدرك فضلاً عما قدمه هؤلاء العربان لدولة سلاطين المماليك من جهود حربية في حروبها ضد المغول والصليبيين ، مما كان له أكبر الأثر في سوء أحوال الفلاحين بسبب ما عرف عن هؤلاء العرب من بطش^(٥٠) . فبالإضافة إلى أن جماعات الفلاحين كانت دائماً معرضة لما يشنه هؤلاء البدو عليها من اغارات من الصحراء ، والذي نتج عنها كثرة هجرة بعض الاهالى لقراهم ، بحيث تشاهد الكثير من القرى وقد هجرها أهلها لكثرة الاعباء التي وقعت عليهم ، وهي التي تسمى (بالخربة) ، ويؤكد لنا مجير الدين تلك الحقيقة في حديثه عن سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م أيام السلطان الأشرف قايتباي حيث يقول أن أمير عرب جرم « قصد أن يجدد مظلمه على الفلاحين بجبل القدس الشريف ويأخذ منهم مالا »^(٥١) . مما كان له أكبر الأثر في تدمير هؤلاء الفلاحين وهجرتهم لأراضيهم .

ومن المرجح أن تكون إغارات تلك القبائل قد اشتدت كما اشتد عسفها بوجه خاص في أواخر عصر سلاطين المماليك ، حيث شهدت تلك الفترة كثيراً من الحروب بين سلطنة المماليك وبين هؤلاء العربان الذين استغلوا ما آلت إليه حالة الدولة من انهيار لكي يعلنوا عصيانهم وتقدمهم ، وبالتالي تجبرهم حيث دمروا كثيراً من القرى في فلسطين وتحولت الرملة إلى اطلال وكذلك منطقة نابلس وغيرها من القرى^(٥٢) .

أما عن الحيوانات والآلات التي استخدمها الفلاحون في ذلك الوقت ، فتشير كثير من المراجع إلى أن الوسائل المستخدمة لم تتغير على مر الزمن ، ومنها ما هو سائد إلى الآن مثلما كان يتم عند جمع الزيتون من الأشجار حيث يُضرب الزيتون بقطعة من الخشب حتى يتساقط ويتم جمعه بعد ذلك^(٥٣) . كذلك كان الفلاح يستخدم في حرثه للأرض محراثاً خشبياً يجره ثور وحمار ، وأحياناً كان يستخدم البقر أو الجاموس في جر المحراث^(٥٤) . وتشير بعض المراجع إلى أن الحمير كانت تشكل بالنسبة للفلاح في ذلك الوقت أهم الممتلكات التي يحرص عليها ، فعليها يحمل أثقاله فضلاً عن قيامها بالعمل في الحقل إلى جانب كونها كانت تستخدم في التنقل إلى الأماكن البعيدة للحمل أيضاً نظراً لطبيعة البلاد الصخرية ، كذلك كان لدى أهل بيت المقدس أعداد كبيرة من الحمير استخدموها في تنقلاتهم الداخلية ، فضلاً عن قيام الكثيرين منهم بتأجيرها للحجاج المسيحيين الغربيين ليستخدموها في تنقلاتهم داخل الأراضي المقدسة^(٥٥) . ويروى لنا الرحالة سرجون مانديفيل الذي زار بيت المقدس عام ١٣٢٢ م ان البقر والجاموس في فلسطين بدرجة عامة كان قليلا ولذا حرص الفلاحون على الاستعانة بهما في الزراعة ، ونادرا ما كان يتم ذبحهما وأكل لحومهما^(٥٦) .

الصناعة

لعب المماليك دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية بمدينة بيت المقدس ، وذلك راجع لكونهم كانوا الطبقة الحاكمة والعسكرية في نفس الوقت ، والتي دار في فلكها كثير من الكتاب والموظفين وأسراهم ، فإن أعدادهم بما فيها من يتبعهم جعلت منهم عنصراً هاماً كمستهلكين مهمين للمعدات

الحربية ، وموارد الطعام ، والأثاث ، وكل أنواع الخدمات ، فاستخدموا التجار المحليين والفنانين وأرباب الحرف والصناع لاعداد ملابسهم وأعلامهم وخيامهم وكثيراً من الأشياء الأخرى ، وبذلك كانت القوة الشرائية لهم على جانب كبير من الأهمية ، بحيث وجدت في المدينة عدة أماكن وأسواق لامدادهم بما يحتاجون إليه ، لهذا ارتبطت كثيراً من الصناعات في المدينة بحياة هؤلاء المالك من امراء واتباع (٥٧) .

كذلك شهدت المدينة في السنوات الأولى من حكم المالك بوجه خاص وطوال عصر المالك بوجه عام نشاطاً عمرانياً هائلاً ، بحيث كانت مدينة بيت المقدس مركزاً للعمالة لتنفيذ العديد من الأعمال العمرانية في المدينة ، فكان يستخدم الصناع لاصلاح وبناء المساجد ، والتحسينات والمدارس والربط والزوايا ، ولعمارة قنوات المياه والأسبلة والحمامات ، حيث تم استخدام كثير من البنائين والحجارين والتجارين وأصحاب الحرف المختلفة . وكان من نتيجة تلك الحركة العمرانية الهائلة أن نشطت عملية قطع الأحجار من كثير من المحاجر التي وجدت في بيت المقدس ، وجدير بالذكر أن تلك المحاجر كانت موجودة ومنتشرة في المدينة وفي المناطق المحيطة ، وبخاصة جبل صهيون ، ويؤكد لنا بينامين التطلي الذي زارها سنة ١١٦٣ م في حديثه عن مقابر أسرة داود والملوك الذين حكموا بعدهم ، من أنه عند زيارته للمدينة كان قد تهدم بعضها ، وكذلك بعض أماكن العبادة الأخرى . فأمر بطريق المدينة حين ذلك أحد رجال الدين بالاشراف على ترميمها ، والذي قام بدوره باستئجار عشرين عاملاً نظير أجر محدد ، وقاموا بقطع الأحجار من المحاجر الموجودة في جبل صهيون للقيام بعملية الترميم المطلوبة (٥٨) .

كذلك تؤكد لنا المصادر الاسلامية وجود تلك المحاجر وبخاصة عندما فتح صلاح الدين الأيوبي المدينة ، وأمر بعمارة سور المدينة فقد كان يركب بنفسه ويأتي بتلك الحجارة ، وقد تأسى به عدد كبير من الناس من فقراء وأغنياء ورجال العلم (٥٩) .

وكان يستخرج من هذه المحاجر أنواع كثيرة من الحجارة ذات الألوان المختلفة ، ومعروف أن حجارة القدس من أحسن الحجارة وأجملها وأقواها ، ولا سيما النوع المعروف بالحجر المزي الصلب ومن اللون الأحمر (٦٠) . ويشير بعض الرحالة إلى تلك المحاجر التي شاهدها في وادي القديرون ، والذي يقع ما بين جبلي موريا والزيتون من أنه كان بها الاحجار الضخمة الاحجام ، والتي يتم استخدامها في بناء كل منازل القدس ويبدو أن العمال كانوا يجدون مشقة في قطع الاحجار نظراً لضخامتها (٦١) . كذلك تشير بعض المراجع إلى كثرة المحاجر وأنواع الأحجار وطريقة تقطيعها ، بحيث أن الكثير من تلك المحاجر كان يقع على مقربة من سور المدينة والبعض الآخر تحت المنحدرات المحيطة بالمدينة ، وفي تلك المحاجر يقوم العمال بقطع الأحجار إلى كتل ضخمة ثم إلى قطع صغيرة بحسب الاحجام المطلوبة ، كما يقومون بتهديبها بحيث تتلاءم والاستخدامات المطلوبة من أجلها ، فضلاً عن تميزها بخاصية مقاومة تأثير المياه والرطوبة ، مما ساعد على ان تحتفظ مباني بيت المقدس بحال لونها وأشكالها عبر الأزمنة الطويلة (٦٢) .

ومن الصناعات الأخرى التى اشتغل بها عدد كبير من سكان بيت المقدس والمناطق المجاورة لها صناعة عصر واستخراج الزيت من الزيتون ، حيث تكثر أشجاره ، هذا فضلاً عن استخدام الزيت فى صناعة الصابون التى استوعبت عدداً لا بأس به من سكان المدينة ، وكان هذا الصابون يصدر إلى المدن والبلاد المجاورة مثل يافا ، والتى كانت بها تجارة كبيرة للصابون ، وهذا الصابون لم يكن يصنع فيها بل كان يرد إليها من مدينة بيت المقدس ، ومنها يصدر إلى مصر والبلاد المختلفة^(٦٣) ومع أن صناعة الصابون كانت معروفة فى مدينة بيت المقدس من قديم الأزمان ، إلا أن المدينة كانت فى حاجة ماسة ودائمة إلى مادة « البوتاس » التى تستخدم فى تلك الصناعة ولقد اندهش « بيركارد » عندما وجد نساء البدو فقط داخل الخيام ولكنه اخبر أن الرجال قد ذهبوا لبيعوا « رماد الصابون » والذى يجمعه هؤلاء البدو من الجبال فى الصحراء ، وكان هؤلاء البدو يبيعون ما يحصلون عليه فى كل من القدس وغزة والرملة^(٦٤) ... ومن المرجح انه كان لأهل مدينة الرملة دراية واسعة فى صناعة الصابون ، وقد اشتهروا بها حيث كان يستعين بهم أبناء بيت المقدس ، أو لعله من المرجح أيضاً أن كثرة مصانع الصابون بالمدينة استوعبت كل الأيدي العاملة ولذا لجأ أهلى القدس إلى الاستعانة بأهالى الرملة لما لهم من خبرة ودراية^(٦٥) .

كذلك من الصناعات التى اشتهرت بها مدينة بيت المقدس صناعة الشمع ، وكان الشمع المقدسى مرغوباً لدى الأجانب والحجاج المسيحيين حيث تباع منه كميات كبيرة فى الأعياد ، حيث من المعروف أنهم يوقدون كثيراً من الشموع داخل كنيسة القيامة ، عندما يدخلون إليها فى الأعياد المسيحية المختلفة ، وربما وجد منهم من كان يأخذ معه بعض الشموع تبركاً بأنها صنعت فى بيت المقدس ، أو لاشغالها فى كنائسهم فى الغرب الأوربي عقب عودتهم^(٦٦) .

كما عرفت بيت المقدس ببعض الصناعات الخفيفة والتى ارتبطت بمراسم الحج المسيحية ، وحيث تتدفق أعداد كبيرة من الحجاج الغربيين على المدينة ، ومن هذه الصناعات الحفر على خشب الزيتون ، فقد كان لدى أبناء القدس مهارة كبيرة فى هذه الصناعة حيث أتقنوها على مر الزمان ، فكانوا يحفرون على خشب الزيتون أشكالاً متنوعة وبارتقان عجيب حيث كانوا يصنعون كثيراً من أدوات الكتابة ولعب الأطفال وأدوات الزينة والهدايا ذات الرموز الدينية التى تستهوى كثيراً من الغربيين ، وهى التى يحدثنا عنها الرحالة بيرو تافور بأنها كانت تجذب نظر الحجاج المسيحيين الغربيين ، وكانت تلقى رواجاً فى شرائها لديهم ، ومن المرجح أنه قد تخصص فى صنعها المسيحيون المحليون من الطوائف المختلفة والمقيمة بمدينة القدس^(٦٧) .

كذلك عرفت مدينة القدس فى عصر سلاطين المماليك صناعة المشغولات الفضية والتى يقول عنها ابن شاهين « القدس مدينة شريفة عظيمة يعمل فيها فضة ميناء تجلب منها إلى سائر البلاد وأوصافها كثيرة وفضائلها جمة وهذا على وجه الاختصار »^(٦٨) .

هذا بالإضافة إلى أن القدس عرفت أيضاً فى ذلك العصر صناعة المنسوجات القطنية والحريرية ، بالإضافة إلى صناعة الزجاج والمشغولات الذهبية ، كذلك وجدت بها صناعة السلال من سعف

النخيل فضلاً عن صناعة النبيذ في المناطق المسيحية كما سبق وأشرنا بذلك (٦٩) .

وأخيراً تجب الإشارة إلى أن مدينة بيت المقدس اشتهرت طوال العصور الوسطى بصفة عامة وفي عصر سلاطين المماليك بصفة خاصة بصناعة السكر من القصب ، والذي يذكر لنا الرحالة بيركارد في زيارته للمدينة سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م حيث شاهد ذلك بنفسه فيقول : ويجمع قصب السكر بعد تقطيعه إلى قطع طويلة ، يصل طول القطعة منها ما يساوي نصف نخلة ، ثم تحمل إلى المعاصر حيث يعصر ، ويحصل منه على العصير الذي يتم وضعه في غلايات من النحاس ، ويستمر غليه حتى يتم تركيز ذلك العصير ثم يوضع في سلال رفيعة مصنوعة من الأغصان - ولعله يقصد بذلك أنها مصنوعة من سعف النخيل حيث عرفت تلك الصناعة بها كما سبق القول - ثم يترك حتى يجف ، وهكذا يتم الحصول على السكر من القصب (٧٠) .

هذه هي أهم الصناعات التي اشتهرت بها مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، والتي اشتغل بها كثير من ابناء المدينة ، في تلك الفترة ، إلا أننا نلاحظ أن سياسة المماليك الضريبية الظالمة وطرح بعض السلع على الصناع - وكما سيأتى في الحديث عن ذلك - أدى في النهاية إلى كساد كثير من تلك الصناعات ، كما أنه كان من نتيجة التدهور الاقتصادي الذي شهدته الدولة بوجه عام في أواخر عصر سلاطين المماليك أدى بطبيعة الحال إلى ضمور وذبول كثير من تلك الصناعات ، حيث انعكس هذا التدهور على أحوال طبقة المماليك ومن دار في فلكها من ابناء بيت المقدس والذين كانوا يمثلون القوة الشرائية العظمى في المدينة كما سبق وأشرنا بذلك .

التجارة والأسواق

ان الارتباط بين الحالة التجارية لمدينة بيت القدس وبين نواحي الحياة المختلفة من زراعية وصناعة وأمن ارتباط وثيق ، والملاحظ أن فترة حكم المماليك البحرية تختلف تماماً عن فترة حكم المماليك البرجية أو الجراكسة وهذا ما يجمع عليه كثير من المؤرخين (٧١) . فقد شهدت فترة حكم المماليك البحرية نشاطاً في مجال الحياة العمرانية في القدس والذي تمثل في بناء كثير من المدارس والزوايا والخانقوات وغيرها من المؤسسات الخيرية ، فضلاً عن ان الأوقاف التي أوقفت على تلك الانجازات كانت مورداً من الموارد الاقتصادية الهامة لهذه المدينة ، مما كان له أكبر الأثر في انتعاش الأحوال الاقتصادية في المدينة ، ونتيجة للرواج الاقتصادي الذي عم المدينة من جراء اشتغال عدد كبير من ابنائها في أعمال البناء والترميم والاصلاحات ، فضلاً عن قطع الاحجار من المحاجر ، هذا بالإضافة إلى أن الأحوال الزراعية كانت مشجعة تماماً ، مما أدى إلى ازدهار التجارة ، وخاصة في الزيتون والصابون والسكر والقطن وغيرها من الحاصلات الزراعية ، ولم نسمع إلا عن حالات قليلة جداً في ذلك العصر من حدوث انحباس الامطار وخروج الناس للاستسقاء (٧٢) يعكس ما تردده المصادر المعاصرة عن كثرة انحباسها في عصر المماليك البرجية أو الجراكسة بشكل واضح ، مما كان له أكبر الأثر في الأحوال الزراعية وبالتالي في التجارة (٧٣) .

هذا إلى جانب أنه كان لتدفق أعداد من المماليك على بيت المقدس ممن نفروا إليها أو ممن فضلوا الإقامة فيها بأتباعهم أثر كبير في رواج التجارة بها ، حيث كانوا هم المستهلكين الأساسيين للسلع والمنتجات الأساسية والتي سبقت الإشارة إليها ، فضلا عن أنهم كانوا أهم ممولي الأسواق المحلية بالمواد الغذائية نظراً لما حازوه من إقطاعات تدر عليهم الكثير (٧٤) .

بالإضافة إلى أنه نتيجة لاستتباب الأمن في البلاد ، ولوجود جماعة السلاطين الأقوياء أمثال الظاهر بيبرس وقلالون ومن بعده الناصر محمد ، وبسطهم نفوذهم على ربوع البلاد وعلى أتباعهم من المماليك ، مما كان له أكبر الأثر في الاستقرار الذي نعمت به البلاد ، بعكس ما تشير إليه بعض المصادر من الاضطرابات التي كثرت في عصر سلاطين المماليك الجراكسة (٧٥) . ولعله كان من أثر ذلك الاستقرار أن تدفقت أعداد كبيرة من المسلمين على المدينة للزيارة مثلما كان يحدث من قبل ، وحسبما يشير بذلك ناصر خسرو في قوله « ويذهب إلى القدس في موسم الحج من لا يستطيع الذهاب إلى مكة من أهل هذه الولايات فيتوجه إلى الموقف ويضحي ضحية العيد كما هي العادة ويحضر هناك لتأدية السنة ، في بعض السنين أكثر من عشرين ألف شخص في أوائل ذى الحجة ومعهم أبنائهم ... » ومن الطبيعي أن يصحب ذلك رواج اقتصادي في المدينة ، هذا بالإضافة إلى قدوم أعداد من الحجاج المسيحيين ، مما كان له أكبر الأثر في الرواج الاقتصادي الذي شهدته المدينة (٧٦) .

كذلك كان لسوء الحالة الاقتصادية التي خيمت على البلاد منذ آواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي أثرها الكبير في أحوال التجارة في بيت المقدس ، من ذلك أنه كان من نتيجة حرص سلاطين المماليك إلى تدعيم مركزهم المالي وثرواتهم الخاصة ، الأمر الذي أدى إلى فرض كثير من الاتاوات والمقررات المالية على أصحاب الحرف والصنائع والتجارة ، والاشتطاط في جباية المكوس من التجار ، والتي نبع عنها أن سياسة الطرح أصبحت مألوقة ، وقد شملت جزءا كبيرا من مجتمع المدينة وكان من نتيجة تلك السياسة أن أضطر كثير من الناس إلى بيع ممتلكاتهم وأشياءهم لكي يدفعوا ثمن ما يطرح عليهم (٧٧) . ولا يخفى علينا ما كان يحدث من نتيجة هذه السياسة التي كانت تهدف إلى بيع تلك السلع المطروحة بسعر مرتفع عن سعرها في السوق وضد رغبة المشترين ، وما كان يتحمله التجار العامة من خسائر مادية فادحة من جراء تلك السياسة (٧٨) . فضلا عن أن سياسة الطرح هذه ، هذه ، منحت أمراء وسلاطين المماليك اليد المطلقة في الحياة الاقتصادية في المدينة .

كذلك تأثرت الأحوال التجارية في مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك الجراكسة بما كانت تتعرض له البلاد بوجه عام ومدينة بيت المقدس بوجه خاص من حدوث كثير من الأوبئة والجماعات نتيجة نقص المواد الغذائية ، والتي كانت تأتي على فترات شبه متوالية ، والتي يقول عنها الأب سوريانو أنها كانت تحدث كل عشر سنوات (٧٩) . وكان من نتيجة تضخم الأسعار في كثير من المواد الغذائية والسلع الأخرى ، ولاشك أن ارتفاع الأسعار لم يمكن كثيرا من الأسر المتوسطة من

أن تستمتع بنفس الرخاء الذى كانت تستمتع به فى الفترات المبكرة من عصر سلاطين المماليك^(٨٠) .

إلا أنه يجب ألا نغفل أنه جرت محاولات من بعض سلاطين المماليك الجراكسة لإصلاح الأحوال الاقتصادية ، حيث شهدت الفترة ما بين ٨٢٦ هـ / ٨٧٥ هـ = ١٤٢٢ - ١٤٧٠ م تغيراً ملحوظاً فى الأحوال الاقتصادية لدولة سلاطين المماليك ، ومن الطبيعى أن ينعكس أثر ذلك على بيت المقدس بوجه خاص .. فمنذ بداية عهد السلطان المؤيد شيخ « ١٤١٢ - ١٤٢١ م » كانت هناك فترة انتعاش إلى حد ما فى الشئون المالية ، نقصد بذلك أن المؤيد شيخ نجح فى استعادة أجماد دولة المماليك كما كانت عليه فى عهد السلطان بيبرس ، حيث وضع نهاية للحروب الداخلة وثورات المماليك وكذلك لسطوة البدو - وإن لم يقض عليها نهائياً - إلا أنه قللها بشكل ملحوظ ، كذلك الحال بالنسبة لثورات التركمان فى أطراف البلاد الشمالية ، وقد سار السلطان برسباي « ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م » على نفس السياسة فيما يختص بتدعيم الأمن مما كان له أكبر الأثر فى التقليل من الاستنزاف الدائم والمستمر لخزانة وأموال الدولة . وكذلك يلاحظ أن مقاومة إغارات القراصنة المسيحيين كانت واضحة جداً فى تلك الفترة ، عن طريق سلسلة من الاغارات ضد قبرس والتي انتهت بغزوها ، وكذلك الحال بالنسبة لرودى ، وعلى الرغم من سياسة الاحتكار التى انتهجها السلطان برسباي ، إلا أننا يجب ألا نغفل جهوده بالإضافة إلى جهود المؤيد شيخ فى تدعيم النظام النقدى والمعاملات حيث حدث ثبات فى قيمة العملة مما كان له أكبر الأثر فى ثبات كثير من الأسعار ، ومن الطبيعى أن ينتج عن ذلك تحسن ملحوظ فى شتى النواحي الاقتصادية المختلفة^(٨١) .

أما عن أهم المتاجر التى اشتغل بها المقادسة فى تلك الفترة فيمكننا القول أنها تركزت بصفة أساسية فى تجارة الحاصلات الزراعية من زيتون وقصب السكر والكروم والنبذ والقمح والشعير إلى جانب بعض الصناعات التى سبق وأشرنا إليها فى حديثنا عن الصناعة فى المدينة ، وكذلك بعض مواد البناء اللازمة للعمارة ، وبعبارة أخرى يمكننا القول أنها تركزت بصفة أساسية فى المنتجات الزراعية من الانتاج المحلى فضلاً عن أن بعض أبناء بيت المقدس كانت لهم أنشطة فيما يمكن أن نسميه بالتجارة الخارجية ، ويؤكد ذلك ما يرويه كثير من الرحالة الذين زاروا المدينة فى تلك الفترة ، فالرحالة كازولا الذى زار المدينة أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، يروى لنا أن كثيراً من البدو من أهل بيت المقدس ، والذين كانوا يقومون بتأجير دوابهم للحجاج المسيحيين ، كانوا يحملون معهم من يافا كثيراً من الحقائق المليئة بالمتاجر لبيعها فى بيت المقدس ، وإن لم يذكر لنا نوع تلك المتاجر^(٨٢) . ومن المرجح أن تكون تلك المتاجر هى بعض التوابل حيث تذكر بعض المصادر أنه كان فى بيت المقدس سوق مخصصة للتوابل التى يتم استيرادها ، وهى التى عرفت باسم سوق التوابل أو شارع التوابل^(٨٣) . هذا فضلاً عن أن بعض أبناء بيت المقدس من التجار كانوا يقومون بجلب كثير من كميات الأسماك من يافا - باعتبارها ميناء بيت المقدس لبيعها داخل المدينة فى السوق المخصصة لها^(٨٤) . كذلك تشير بعض المصادر إلى أن بعض أبناء بيت المقدس وبخاصة من اليهود كانوا يشتغلون بتجارة الحرير والذى ربما كان يتم جلبه من دمشق فى ذلك الوقت لتفوقها المعروف بتلك الصناعة ، كما أن بعض أبناء القدس كان يشتغل بالتجارة فى الأعشاب النباتية والعقاقير الطبية على الرغم من أنهم

لم تكن لديهم معلومات عن تركيب الادوية ، لكنهم كانوا يشترون تلك الاعشاب والعقاقير الطبية ثم يبيعونها ، ولعلمهم كان يستوردونها من مصر أو دمشق^(٨٥) . كذلك تؤكد لنا بعض المصادر ان بعضاً من أبناء بيت المقدس كانوا يقومون باستيراد كثير من السلع الاستهلاكية مثل البن والأرز والعدس والبقول من البلاد المجاورة مثل مصر ودمشق ، وبيعونها في القدس ، هذا بالإضافة إلى بعض الأقمشة الحريرية والتي اشتهرت بها كل من مصر ودمشق ، فضلاً عن استيراد اللؤلؤ والذي كان عادة ما يتم عن طريق مصر أو دمشق^(٨٦) .

هذا إلى جانب اشتغال بعضهم بتصدير زيت الزيتون والصابون الفاخر والذي كان يتم تصنيعه في بيت المقدس ويصدر إلى مصر ، حيث كان يتم تصديره إما عن طريق ميناء يافا وأما بطريق القوافل الذي كان يربط بين مصر وبيت المقدس عبر صحراء سيناء ماراً بغزة والخليل وبيت لحم^(٨٧) . هذا بالإضافة إلى ما كان يشتريه الحجاج المسيحيون الغربيون من سلع شرقية ويصحبونها معهم في رحلة العودة إلى بلادهم بعد زيارة الأراضي المقدسة ، ومن هذه السلع المسابح المصنوعة من اخشاب الزيتون أو المصنوعة من العاج ، والحلى الصغيرة كالحواتم والأقراط التي تم صنعها في القدس^(٨٨) .

الأسواق

سبق أن أشرنا إلى أن مدينة بيت المقدس عقب دخولها تحت حكم المماليك قد شهدت حالة من الاستقرار لم تنعم بها منذ فترة طويلة - كذلك سبق القول بأن المدينة في عصر سلاطين المماليك البحرية أو دولة المماليك الأولى ، قد شهدت نمواً سكانياً مطرداً ، هذا النمو السكاني الذي ارتبط بكثير من أحوال المشرق والمغرب وما صحبه من هجرات ، فضلاً عن ازدهار الحياة العلمية في المدينة وما أدى إليه من كثرة المؤسسات الخيرية والعلمية والدينية ، كل هذه العوامل كان لها نتائجها المباشرة في ازدهار الحياة الاقتصادية ، وكثرة الأسواق في المدينة والتي كانت تنمو بالحرارة والنشاط وتكتظ بأنصاف البضائع المختلفة طوال عصر سلاطين المماليك البحرية بدرجة خاصة^(٨٩) .

هذا وقد تعددت الأسواق بالقدس تعدداً ظاهراً من حيث طبيعة تلك الأسواق والهدف الذي تعقد من أجله أو السلع التي كانت تباع فيها ، الا أنها تشابهت فيما بينها من حيث تخطيطها ونظامها . أما عن تخطيط تلك الأسواق فإنها كانت عبارة عن مجموعة من الشوارع الطويلة المتوازية ، تقفل بأبواب في مداخلها كما كانت مسقوفة إما بالعقود الحجرية أو الأسقف الأخرى والتي تتخللها النوافذ لينفذ منها الضوء ، وكانت تلك العقود والأسقف تحمي المارة وأهل السوق من حرارة الشمس والأمطار ، فضلاً عن وجود بعض الحوائط المنخفضة بداخل كل سوق والتي تمتد على جانبي السوق ، والتي يستطيع أى شخص أن يستخدمها كمقعد إذا شاء الجلوس ، وربما كان يستخدمها الباعة لعرض بضائعهم عليها^(٩٠) . كما أن شوارع الأسواق كان لها أسقف من القماش بحيث يسهل تحريكها تبعاً لفصول السنة^(٩١) كما أن بعض الأسواق كانت مسقوفة بألواح خشبية من النخيل ، لكن من الملاحظ أن تلك الأسقف الخشبية كان غالباً ما يتم إزالتها وأن تحمل محلها العقود

الحجرية ، من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين في حديثه عن سوق الطباخين بالقدس ، والذي أعيد بناؤه سنة ٨٧٨هـ / ١٤٧٣ م في عهد السلطان الأشرف قايتباي حيث يقول : « وكان قبل ذلك يسقف على الحوانيت بالقواصر^(٩٢) ويحصل من ذلك مشقة في الشتاء ومن الوحل وسقوط الماء من السقف فلما تم بناء تلك العقود الحجرية ، حصل الرفق بالناس زمن الشتاء^(٩٣) » .

ويصف لنا الرحالة كازولا الأسواق بقوله ومما أدهشني حقا مشاهدة تلك الأسواق ، فهي طويلة وعبرة عن شوارع مسقوفة وتمتد إلى مسافات بعيدة ، وعلى الجانبين الدكاكين المليئة بالتاجر والبضائع المختلفة ، والتي يقبل الناس على شرائها^(٩٤) وكانت تلك الدكاكين تستخدم في عمليات المبادلات التجارية وأعمال البيع والشراء ، هذا بالإضافة إلى أنها استخدمت أيضا كمحلات للعمل ومراكز للصناعة حيث وجدت بها أماكن للغزلين والدباغين والصباغة ، كذلك وجد بداخل تلك الأسواق محلات لصانعي الأحذية أو الخياطين الذين يخطون الملابس ويبيعونها جاهزة^(٩٥) . هذا بالإضافة إلى الصاغة ، حيث كان يشتغل بهذه الصناعة كثير من المسيحيين المحليين ويعرضون في محلاتهم ماتم صناعته من مصوغات^(٩٦) .

ومن المرجح أن تكون مدينة بين المقدس قد تميزت عن غيرها من المدن الأخرى بما يمكن أن نسميه السوق ذات الأنشطة المتعددة في ذلك الوقت ، حيث تشير المصادر المعاصرة إلى أنه وجد بها « الأسواق الثلاثة المجاورة بالقرب من باب الخراب المعروف بباب الخليل وهي من بناء الروم ممتدة قبلة بشام ومن بعضها الى بعض مناقذ ، فالأول منها وهي الغربى سوق العطارين وقف الملك صلاح الدين رحمه الله تعالى على مدرسته والذي يليه هو الاوسط لبيع الخضروات والذي يليه لجهة الشرق لبيع القماش وهما وقف على مصالح المسجد الأقصى الشريف وقد ذكر المسافرون أنهم لم يروا مثل هذه الأسواق الثلاثة في الترتيب والبناء في بلدة من البلدان وأن ذلك من المحاسن التي لبيت المقدس^(٩٧) » وتؤكد لنا بعض المصادر المعاصرة تلك الحقيقة بشكل اوضح من ذلك ما يرويه لنا ابن شاهين الظاهري من قول « وبالمقدس الشريف أسواق كثيرة من جملتها ثلاث قصبات على صف واحد قبل إنه لم يكن بغالب البلاد نظيرها^(٩٨) » .

ومن المؤسسات التجارية التي عرفت ببيت المقدس وكانت تؤدي مهمة الأسواق أيضا ، القيساريات والخانات والرباع التي فوقها ثم الفنادق^(٩٩) والتي كانت الى جانب كونها مؤسسات تقوم بجانب مهمة البيع والشراء ، بمهمة النزل والاقامة والخازن للواردين من التجار وحفظ أموالهم ، كما أنها تؤدي مهمة البيع بالجملة بجانب البيع بالتجزئة . كذلك كانت الفنادق في عصر سلاطين المماليك تقدم كهبة من الحكومة للتجار الأجانب وتستطيع الدولة أن تستردها وقتما تشاء ، ويشرف على الفندق موظف يعرف باسم « الفندقاق » كما أن قنصل الدولة مسئول عن الفندق وتسديد رسوم التجار للسلطان ، كما أن لكل فندق حوشا داخليا سماويا يفتح عليه الطابق الأرضي حيث توجد المخازن ، ويستخدم في حزم وتفريغ السلع أما الدكاكين فهي مقببة وتستخدم كمخازن كذلك ، وفي الطابق العلوي حجرات متعددة لإقامة التجار ، وكان يسمح لحجاج بيت المقدس وسيناء

بالاقامة في ذلك الفندق (١٠٠) .

أما الخان فقد كان من المؤسسات التي ارتبطت بالأسواق أيضا ، وهو مبنى ضخم يتوسطه فناء على هيئة رواق مغطى حيث يحفظ التجار بضائعهم ، ويجدون في الخان المأوى لهم ولدوابهم خلال رحلتهم ، وحتى القرن الخامس عشر الميلادي تعددت تلك الخانات وكثرت وأصبحت من أهم مؤسسات التجارة الداخلية والخارجية (١٠١) .

ويؤكد لنا مجير الدين دور الخانات في التجارة الداخلية والخارجية في حديثه عن « خان الفحم » وهذا الخان كما يذكر مجير الدين كان يقع في الشارع الرئيسي من المدينة والذي يسمى « خط داود عليه السلام » وهو الشارع الأعظم وابتدأه من المسجد الأقصى من عند باب السلسلة الى باب الخراب وهو باب المدينة المعروف في عصر مجير الدين بباب الخليل ، وهو خان عظيم وقف على مصالح المسجد الأقصى يؤجر في السنة بنو أربعمائه دينار ، ويبيع فيه أصناف البضائع ، كذلك كان يوجد في نفس الشارع « خان الصرف » والمعروف أن خان الصرف هذا كان مخصصا للصيارفة وحيث يقومون باستبدال العملات المختلفة التي ترد مع الحجاج المسيحيين من أنحاء الغرب وكذلك من الدول المحيطة ببلاد الشام ، وكان هذا الخان يقع عند إلتقاء شارع داود بشارع باب الخراب والذي كان يطلق عليه أيضا شارع المعبد (١٠٢) . هذا ولم تشر المصادر والمراجع التي بين أيدينا شيئا عن عمل الصيارفة داخل هذا الخان سوى تبادل العملات ، ولعل مهمة هؤلاء الصيارفة قد تعدت ذلك إلى ما كان معروفا في ذلك العصر عن مهمة هؤلاء الصيارفة ، حيث قاموا بإعطاء التجار الصكوك نظير ما يحصلونه منهم من أموال ، والتي يقوم هؤلاء التجار باستخدامها في عمليات الشراء ، فكلما اشترى الواحد منهم بضاعة سدد ثمنها بصك من هذه الصكوك المحولة على الصراف ، وهي ما تعرف الآن باسم الشيكات المحولة كذلك لعلهم أصدروا « خطابات الاعتمادات الائتمانية أو السفتجات » أو « السندات المالية المؤجلة الدفع » على آجال طويلة أو قصيرة ، حيث لجأ كثير من التجار إلى النظام الأخير لاستغلال جزء كبير من رؤوس أموالهم في التجارة ، ويتم التسديد في معظم الأحيان بعد البيع ، وقد اقتبسوا هذا النظام من تجار الغرب الوافدين الى بلاد الشام ، ومصر ، حيث يقوم الصيارف بتحصيل المبالغ المطلوبة لقاء عمولة أو مرتبات ، ويستفيد من هذه العملية كل من المقرض والمقترض والمصرفي (١٠٣) .

كذلك تجب الإشارة الى أن وجود تلك الخانات داخل مدينة القدس ربما كان الهدف منه هو خدمة التجارة الداخلية بالدرجة الأولى ثم التجارة الخارجية أما تجارة العبور فقد كان لها خانات أخرى كانت تقام خارج المدينة ، على الطريق التجاري الذي كان يربط بين مصر وبيت المقدس ، أو بين بيت المقدس ودمشق (١٠٤) ونذكر على سبيل المثال خان الظاهر بيبرس الذي بناه سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢ م والذي يقول عنه المقرئ أن السلطان « أمر ببناء خان خارج البلد ، ونقل إليه من القاهرة باب القصر المعروف بباب العبيد (١٠٥) . ويبدو أنه قد تم بناؤه في عام واحد حيث يذكر لنا ابن عبد الظاهر وفي صفر (يقصد عام ٦٦٢هـ) قرىء كتاب وقف الخان بالقدس الشريف

بحضور السلطان وقاضى القضاة تاج الدين وحررت شروطه بين يديه وكتبت بذلك عدة نسخ (١٠٦) هذا وإن كانت المصادر المعاصرة لم تذكر شيئا عن وصف ذلك الخان ، إلا اننا نستطيع القول اعتياداً على بعض المراجع أنه لم يختلف كثيراً عن الخانات الداخلية إلا من حيث الغرض الذى بنى من أجله وهو أن يكون بمثابة خان ومكان للمبيت بالنسبة للقوافل حتى يستريح التجار ودوابهم فيه ثم يغادرونه فى طريقهم إلى احدى المدن التى يقصدونها بتجارهم وهو على هذا الأساس أشبه باستراحه (١٠٧) .

ومن المؤسسات التجارية أيضً والتى لها علاقة وثيقة بالتجارة القيساريات ، ومن تلك القيساريات التى عرفت فى بيت المقدس ما يذكره لنا ابن فضل الله العمري فى حديثه عن السور الغربى للحرم القدسى ، حيث يذكر الباب الحديد ، والذى « يتوصل منه الى القيسارية المستجدة . وتشتمل على صفى حوانيت ، بعضها وقف على الحرم ، وبعضها وقف على المدرسة والخانقاه اللتين أنشأهما الأمير سيف الدين تنكز ، رحمه الله (١٠٨) والحقيقة أننا نلاحظ أن القيسارية من حيث تكوينها لم تكن تختلف كثيراً عن الخان أو الوكالة ، كذلك كانت تؤدي نفس الغرض ، وهو إلى جانب مهمة البيع والشراء ، فقد كانت بمثابة نزل للتجار ومحل إقامتهم فضلاً عن أنها مخازن لتجارهم ولحفظ أموالهم (١٠٩) كما تجب الإشارة أيضاً إلى أن مؤرخى العصور الوسطى والمعاصرين لتلك الفترة لم يستطيعوا أن يعطونا فرقاً واضحاً بين تلك المؤسسات من خانات وفنادق وقيساريات ووكالات ، فقد ذكر مجير الدين فى حديثه عن أسواق بيت المقدس وما كان يوجد بها من خانات وقيساريات ووكالات وأسواق فى « خط داود » وهو الشارع الأعظم فى المدينة « ومن فنطرة الجبيل الى درج الحرافيش يعرف بسوق الطباخين ومنه إلى باب حارة اليهود يعرف بخط الوكالة وهو خان عظيم (يقصد خان الفحم) وقف على مصالح المسجد الأقصى (١١٠) ومن هذا السياق يتضح لنا أنه لم يكن هناك فارق بين الخان والوكالة حسباً يروى مجير الدين ، ولا يخفى علينا أن تلك المؤسسات سواء الخانات أو القيساريات أم الوكالات أم الفنادق فكلها كانت من العوامل المساعدة على تنشيط التجاره فى تلك العصور .

أما عن تقسيم الأسواق وأنواعها فقد ذكر لنا مجير الدين أسواق بيت المقدس من ذلك سوق القطنين المجاور لباب المسجد الأقصى من جهة الغرب وهو سوق فى غاية الارتفاع والاتقان لم يوجد مثله فى كثير من البلاد ، وأيضاً الاسواق الثلاثة المجاورة بالقرب من باب المحراب المعروف بباب الخليل ، فالأول منها وهو الغربى كان سوق العطارين والسوق الأوسط منها لبيع الخضروات ، والثالث منها كان لبيع الأقمشة أما الأسواق التى وجدت على امتداد خط داود وهو الشارع الرئيسى بالقدس فقد كانت على النحو التالى ، فمن باب المسجد الأقصى إلى دار القرآن السلامية وتعرف بسوق الصاغة ، ومن باب السلامية إلى باب حارة الشرف يعرف بسوق القماش ، ومنه إلى خان الفحم

يعرف بسوق المبيضين ، ومن باب الخان إلى قنطرة الجبيل يعرف بسوق خان الفحم . ومن قنطرة الجبيل إلى درج الحرافيش يعرف بسوق الطباخين ، ومنه إلى باب حارة اليهود يعرف بخط الوكالة. وهو خان عظيم تباع فيه أصناف البضائع ، ومن باب حارة اليهود إلى خان الصرف يعرف بسوق الحريرية ، ومن خان الصرف إلى باب المدينة يعرف بخط عرصه الغلال ، وقد كانت الأسواق السابقة بطول الشارع الرئيسي للمدينة والذي عرف بخط داود ، أما الأسواق الأخرى التي ذكرها فمنها سوق العطارين ، وسوق الزيت ، وسوق الفخر ، نسبة لفخر الدين صاحب المدرسة الفخرية ، وبه المصابن التي يعمل فيها الصابون ، ومن هذا يتضح لنا أن كل سوق تخصص في بيع سلعة من السلع والتي تسمى بها السوق في نفس الوقت^(١١١)

ويبدو من خلال ما عثرنا عليه من أسماء للأسواق أنها كانت غالبا أسواق للمواد الاستهلاكية من مواد غذائية أو مواد مستعملة في بعض الصناعات . لكننا لم نعث على ذكر لبعض الأسواق الأخرى ، مثل الأسواق الخاصة بالأسلحة وغيرها ولعل ذلك راجع إلى طبيعة المدينة الدينية .

أما عن وصف تلك الأسواق وما كان يباع فيها ، فيروي لنا الرحالة كازولا على سبيل المثال وصفا لسوق الطباخين ، حيث زاره ووجد الأطعمة تباع مطبوخة وجاهزة للأكل ، وقد أعجب بها وبكثرة ، روادها لدرجة كبيرة ، حيث يقول إن تلك السوق عبارة عن شارع طويل يمتد إلى مرمى البصر ، وعندما مشيت في تلك السوق فقد أخبروني أن لا أحد من أهل القدس يطهو طعامه في منزله ، وكل ما يشتهي الشخص من طعام يجده في تلك السوق^(١١٢) هذا على عكس ما أشار إليه أحد الباحثين من أن كازولا أعتقد أن المقدسة لا يطبخون في بيوتهم بل يأكلون من الأطعمة التي كانت تباع جاهزة في هذه السوق ، والحقيقة أن لم يعتقد ذلك بل أخبر فعلا أنهم لا يطبخون في منازلهم^(١١٣) ولقد أكد لنا كثير من الرحالة الذين زاروا المدينة في تلك الفترة ، هذه الحقيقة وهي أن أهلها يأكلون ما يشتون من تلك الأسواق ولا يطهون في منازلهم ، من ذلك ما يروي لنا الرحالة فابري حيث يورد لنا وصفا شيقا لتلك السوق حيث يقول : زرت صباح اليوم الموافق ٢٨ يوليو سنة ١٤٨٣ أسواق المدينة وشارع الطباخين ، حيث رأيت أشياء كثيرة للبيع وجماعات كبيرة تشتري من المطابخ العديدة ، ذلك لأن القوم لا يطبخون في بيوتهم كما نفعل في بلادنا . بل إنهم يتناعون طعامهم جاهزا من هذه المطابخ . والطهاة ماهرون نظيفون . وفي تلك الأسواق يعرض الطهاة اللحوم بشكل نظيف زائد عن الحد . وبسبب الجفاف ينذر وجود الخشب ، ولهذا فلا توجد مطابخ في المنازل بسبب الحاجة إلى الوقود أو

الأخشاب^(١١٤) . ويؤكد لنا رحالة آخر زار المدينة سنة ١٥٠٣ م وهو لودوفيكو حيث يقول : والمسلمون يتناولون طعامهم في الشوارع ، كما أن الملابس تباع جاهزة في المحلات ، وهم يأكلون طعامهم مطهيا ، وفي السوق أيضا كثير من الجبن الطازج ، وإذا أردت شراء بعض اللبن ستجد أربعين أو خمسين عنزة تمر من خلال الشوارع في كل وقت وصاحب هذه العنزات سوف يأخذها إلى حجرتك ، مهما كان منزلك بعيدا ، وهناك يقوم بخلبها أمامك بالكمية التي ترغبها في إناء نظيف وجميل^(١١٥) .

ومن الأسواق الهامة التي عرفت في بيت المقدس سوق الزيت ، حيث كان يباع فيها زيت الزيتون ، وبها أيضا المصابن التي يصنع فيها الصابون ، وقد كانت هذه السوق موجودة في المنطقة المواجهة لباب الناظر أحد أبواب المسجد الأقصى من جهة الغرب ، وقد كانت هذه السوق كبيرة وهامة بسبب وجود أصحاب المصابن الذين يشترون الزيت بكميات كبيرة أما مصدر هذا الزيت فقد كان من الجبال والسهول القريبة من بيت المقدس ومن جبل نابلس^(١١٦) .

كذلك كان سوق القطنين أحد الأسواق الهامة ببيت المقدس ، حيث كان يباع فيها القطن ، ويقع هذا السوق في حارة باب القطنين ، والتي يفتح عليها أحد أبواب المسجد الأقصى وهو المسمى بباب القطنين نسبة لبيع القطن بالسوق الذي عنده^(١١٧) ومن المؤكد أن الأفطان التي كانت في هذا السوق كانت من انتاج بيت المقدس - نقصد بذلك القرى التابعة والمجاورة لها وكما سبق أن أشرنا بذلك في حديثنا عن الزراعة .

كذلك من الأسواق الشهيرة في بيت المقدس « سوق السمك » حيث كانت الأسماك من أهم السلع التي يستوردها سكان بيت المقدس من قديم الأزمان ، حيث كان أهل صور يصدرون إليها الأسماك ، وهناك أحد أبواب المدينة يسمى « باب السمك » أو بوابة السمك وهي إلى الشمال من سور المدينة وعندها يقع سوق السمك ، كذلك كان يتم استيراد الأسماك من نهر الأردن وبحيرة الجليل وسواحل البحر الأبيض المتوسط ، وبخاصة من مصر ، حيث عرف المصريون تجفيف السمك وكان السمك المجفف الذي يرد إلى بيت المقدس يعتبر من أرخص الأطعمة ، بحيث كان سعره أرخص من سعر القمح ، وقد لقي السمك المجفف كثيرا من الإقبال عليه وبخاصة من الحجاج المسيحيين والرحالة ، ونتيجة للأعداد المتزايدة من هؤلاء الزوار للمدينة في تلك المواسم وهي مواسم الحج ، فقد كان على المدينة أن تواجه تلك المتطلبات الزائدة من تلك الأسماك باستيرادها وتخزينها^(١١٨) .

وبالإضافة إلى الأسواق السابقة عرفت مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك نوعا آخر من الأسواق وهي ما يمكن أن نسميه بالأسواق الموسمية ، ومن تلك الأسواق الموسمية ما كان يرتبط بقدم الحجاج المسيحيين والذين يكثر حضورهم لحضور عيد الفصح بالمدينة والحج ، حيث تشير كثير من المراجع أنه أمام الباب الرئيسي لكنيسة القيامة كان يوجد فناء كبير ، والذي يقام فيه سوق

موسى عند مقدم الحجاج المسيحيين ، حيث تباع فيه الحلى والمسابح والصور الخاصة بالقديسين والتحف الشرقية^(١١٩) هذا بالإضافة إلى ما يرويه لنا الرحالة بيروتافور الذى زار القدس سنة ١٤٣٦ م ، من أن المسيحيين المحليين وبخاصة الروم كانوا يقومون بدخول كنيسة القيامة ويبيعون الأطعمة للحجاج المسيحيين ، كذلك فإن كثيرا من المسلمين والمسيحيين كان يسمح لهم بدخول الكنيسة بعد إنهاء القداس ، لعرض بضائعهم على هؤلاء الحجاج ، حيث يشترون منهم بعض الهدايا والتحف الشرقية^(١٢٠) . ويصف لنا فابري تلك الأسواق أكثر تفصيلا فيقول وحيث يكون الحجاج يتجمع حولهم التجار ، فلما كنا فى كنيسة القيامة جاء التجار من المسيحيين الشرقيين ودخلوا معنا ، فلما أقفلت الأبواب عمد بعضنا إلى المساومة ، وقضوا فى ذلك شطرا من الليل إن لم يكن الليل كله .. ولم تقتصر مشترياتهم ومساومتهم على المسابح والحجارة الكريمة ، لكنها تعدتها إلى القماش الدمشقى والحريز ، وأعرف بعض النبلاء الذين كانوا يمتنعون عن المساومة فى أسواق بلادهم لأن ذلك دون مستواهم الاجتماعى ، لكنهم لم يتحرجوا من المساومة والشراء فى مثل هذا المكان المقدس ، ولم تكن غاية الجميع أن يشتروا أشياء لأنفسهم ولكنهم كانوا يفكرون فى نقلها إلى بلادهم للتجار بها والربح من ورائها ، وقد اشترك بعض رجال الدين فى أعمال البيع والشراء هذه من الحجاج المسيحيين^(١٢١) .

كذلك ارتبط بالأعياد المسيحية والاحتفالات الدينية لدى المسيحيين وجود بعض الأسواق التى تخصصت فى بيع السلع المستخدمة فى تلك الأعياد ، من ذلك وجود شارع مخصص لبيع سعف النخيل والذى كان كثير من الحجاج المسيحيين يقومون بشراؤه من ذلك الشارع والذى سمي باسم السعف ، والذى تصفه بعض المراجع من أنه كان يقع فى الجانب الجنوبى من كنيسة القديس ستيقن ويتجه شرقا من شارع البطريرك إلى شارع التوابل مارا بكنيسة القديسة مريم اللاتينية^(١٢٢) كذلك وجد بالقرب من شارع السعف هذا شوارع أخرى كانت تمد الحجاج المسيحيين بحاجاتهم من الشموع التى يوقدونها أثناء دخولهم كنيسة القيامة ، وأثناء سماع القداس طوال المدة التى يقعون فيها داخل الكنيسة^(١٢٣) .

كما يبدو أن كثيرا من زوار بيت المقدس من المسيحيين الغربيين ، قد حرصوا عند زيارتهم للمدينة على شراء كثير من المزامير التى تصنع فى المدينة ، وكان لها شارع خاص بالقرب من خان الزيت فى الطريق المؤدى إلى كنيسة القيامة ، حيث كان هناك كثير من المحلات لبيع تلك المزامير والتى مازالت تستخدم حتى الآن لدى الرعاة^(١٢٤) .

ومن الأسواق التى عرفت فى بيت المقدس وكانت مصاحبة لموسم الحج أيضا ما يرويه لنا فابري أنه عقب نزول الحجاج بمدينة يافا : جاءنا بعض السكان الفقراء يحملون قشا وبوصا رطباً فاشتريناه منهم وجعلناها فراشا ننام عليه .. ثم جاءنا تجار من الرملة وبيت المقدس ومعهم بضائعهم معطرة وأقاموا هناك سوقا ، وكان معهم ماء ورد فى قوارير ثمينة جاءوا به من دمشق .. وكان مع البعض البلسم والمسك والصابون والحجارة الكريمة وقماش الموصليين الأبيض ، وكان التجار ومرافقوهم

معطرين بحيث انتشرت الروائح الذكية حولهم في كل مكان ، ثم أحرقوا البخور العرني في المكان الذي كنا نقيم فيه ، ثم جاء آخرون وكانوا يقلون البيض بالزيت ، وغيرهم يحملون أرغفة الخبز والماء المثلج والفواكه والكمك الطازج ، وفي المساء استأجرنا اثنين من السكان ليقوما بجراستنا . ومن هذا يتضح لنا أن بعض أبناء بيت المقدس كان يتخذ من قدوم هؤلاء الحجاج فرصة لاقامة تلك الأسواق لمصاحبتهم منذ أن تطأ أقدامهم أرض يافا ، وبعضهم كانوا يرافقونهم طوال ترحالهم داخل الأراضي المقدسة ، حيث نسمع من نفس المصدر عن كثرة ما كان يجده الحجاج من باعة الأطعمة المختلفة والفاكهة والمشروبات المصنوعة من التمر واللوز والسكر طوال الرحلة من يافا ثم الرملة ثم في بيت المقدس (١٢٥) .

وتجب الإشارة إلى أن مدينة بيت المقدس قد عرفت في آواخر القرن الحادى عشر الميلادى نوعا من الأسواق الموسمية والتي تشير إليها كثير من المراجع ، حيث تفد أعداد كبيرة الى المدينة من الغرب الاوربي ، كما كانت ترد إليها التجاره من آسيا بواسطة التجار الفرنسيين والايطاليين ، حيث يقام سوق سنوى في الخامس عشر من شهر سبتمبر ، حيث يفد إليها التجار من بيزا والبندقية وجنوه ومرسليا ، ليقوموا بشراء القرنفل وجوز الطيب والتوابل المجلوبة من الهند والفلفل والبهار والبخور من عدن والحرير من الصين سواء عن طريق القوافل البرية أو بواسطة السفن الصينية ، والتي ظهرت في البحر الأحمر خلال العصور الوسطى ، والكتان من مصر والزئبق والمرجان والمعادن والزجاج من صور واللوز والمصطكى والزعران ز بالإضافة إلى الملابس الثمينة والأسلحة من دمشق ، ومن المرجح أن تلك الأسواق قد استمرت في عهد سلاطين المماليك ، نظرا لما جازه تجار المدن الايطالية وغيرهم من امتيازات في ممتلكات السلطنة (١٢٦) .

كذلك عرفت بيت المقدس كثيرا من الأسواق الدورية والتي كانت تقام مرة كل أسبوع ، فيقصد أهل الريف المدينة يبيعون فيها محصولاتهم ويشترى ما يحتاجون إليه من الغذاء والكساء ، ولاتزال بعض هذه الأسواق تقام إلى اليوم وفي أيامها المعينة ، كسوق الجمعة في القدس ويافا والخليل ، ولم تكن هذه الأسواق مقصورة على أهل القدس فقط ، بل إن كثيرا من البدو من خارج المدينة كانوا يفدون إليها لبيع منتجاتهم وشراء مايلزمهم من سلع أخرى ، وغالبا ماتكون تلك الأسواق الدورية في الأماكن المكشوفة قرب بوابات المدينة ، حيث تعرض فيها منتجات الريف أو حيث تتم أعمال المبادلات التجارية ، وكان المشتري يقضى بعض الوقت في المساومة مع الباعة قد تصل الى الساعات ، فضلا عن هذه الأماكن كانت كثيرا ماتزدحم بالباعة والمشتريين ، والمنادين الذين ينادون من حين لآخر عن فقد أحد الحيوانات ومعلنين عن مكافأة لمن يعثر عليه أو يرشد عنه (١٢٧) .

وإلى جانب تلك الأنواع من الأسواق السابقة ، فقد عرفت مدينة بيت المقدس الباعة الجائلين الذين كان أكثرهم يفترشون الأرض في الأسواق ببضائعهم ، على حين كان البعض منهم يتجولون بما يحملون من بضاعة في شوارع المدينة وحاراتها ، وكان الباعة الجائلون الذين يفترشون أرض الأسواق

يبيعون مختلف البضائع من المأكولات والمشروبات والفواكه والخضروات بالإضافة إلى الحلى ، والذين تصفهم بعض المراجع بأنهم كانوا يجلسون خلف أكوام القنبيط والليمون والبصل والبرتقال والفواكه الأخرى ، على أمل أن يحضر إليهم الزبائن للشراء بينما في مكان آخر تجد باعة الخبز يعرضون الخبز طازجا وساخنا على ألواح خشبية كبيرة مرتفعة عن سطح الأرض ، كذلك تشاهد السقائين يحملون قراب الماء إلى المنازل ، بحيث يقومون بتفريغ ما معهم من مياه في آنية خاصة وأحيانا يصبون الماء من خلال فتحة في حائط المبنى ، لأنه جرت العادة ألا يسمح لهم بدخول المنازل ورؤية من بها من النساء (١٢٨) .

ويجب أن نشير أنه كان للسوق وظيفة أخرى غير تبادل السلع وتغيير العملات أو عقد الاتفاقات التجارية . فهي المكان المفضل لتبادل الأحاديث والمعلومات وتناقل الأخبار ، حيث لم تكن هناك جرائد يومية فقد كانت السوق من أهم الأماكن لتقصي الحقائق والأخبار فيما يتعلق بالشئون اليومية والعائلية وغيرها . وبهذا كانت السوق إحدى المراكز الاعلامية (١٢٩) فضلا عن أنه من المؤكد أن تكون الأسواق في بيت المقدس قد شهدت نوعا من المناذاة التي كانت شائعة في ذلك العصر ، وفيها يتم الاعلان أو لمناداة عما تريده السلطات من الناس أو ماتريد أن تخبرهم به .

ومن الطبيعي أن تخضع تلك الأسواق لرقابة الدولة التي تمثلت في عدة أشكال ، منها أن كان لكل سوق من أسواق المدينة ، شيخ ، وهؤلاء الشيوخ كانوا يعينون من قبل نائب السلطنة في المدينة من بين أعيان التجار ، وكان الشيوخ مسؤولين عن النظام ومنع الاحتيايل وكذلك جمع الضرائب التي تفرض على أهل السوق (١٣٠) . كذلك كان كل شيخ منهم مسئولاً عن أبناء حرفته وهو المسئول عن رعاية المرضى والفقراء من أبناء حرفته ، وتحديد أجورهم وتحديد مواصفات كل سلعة ومستوياتها ، كذلك يحدد سعرها ، وكل أبناء الحرفة لهم مكان خاص بهم في الأسواق بحيث تجد التجارين والحدادين والنحاسين وصانعي الاحذية والملابس والتساجيين والصاغة والمشتغلين بالجلد وغيرهم من أصحاب الحرف يعملون جنبا إلى جنب مع أبناء حرفتهم . وفي العادة كانت بيوت هؤلاء الحرفيين غالبا ما تكون خارج السوق . وبينما تغلق المحلات بأبواب خشبية كان السوق نفسه يغلق ببوابة حديدية (١٣١) .

هذا بالإضافة إلى وجود عدد ممن كان يطلق عليهم عرفاء الأسواق والذين كانوا بمثابة مساعدين للمحتسب كما سبق وأشرنا في حديثنا وعن وظيفة المحتسب ، وهؤلاء بجانب دورهم الاشرافي على الأسواق كان لهم دور حربي هام أثناء عمليات الغزو ، فكان عليهم كتابة أسماء عدد الرجال القادرين على المساعدة وتقديم الواجبات الدفاعية وبخاصة إذا تعرضت البلاد لعدوان خارجي ، فضلا عن أنه كانت تبذل الجهود لتعليم أصحاب المحلات والطلبة والمشايع كيفية استعمال النبال والسهام ليكونوا بمثابة قوات مساعدة لقوات الممالك الحربية وبخاصة عندما فرض سلاطين الممالك على بعض القرى وكذلك المدينة أن تقدم بعض الرجال المسلحين ، وكانت تدفع لهم أجورهم عن طريق ما يفرضه

الممالك من ضرائب على بقية الأهالي (١٣٢). ومن المؤكد أنه أشترط في هؤلاء العرفاء أو المساعدين أن يكونوا على درجة كبيرة من العفة والصيانة والنهضة ، والشهامة ، كما أن المحتسب كان يعرفهم كيف يتصرفون بين يديه وكيف يخرجون في طلب الغرباء (١٣٣) .

من هذا العرض السريع عن التجارة والأسواق في مدينة القدس على عصر سلاطين الممالك يتضح لنا مدى تعدد المؤسسات التجارية ومدى ما وصلت إليه التجارة خاصة والحياة الاقتصادية عامة ، وأنه كان لتعدد تلك المؤسسات من خانات وقيساريات ووكالات وأسواق أثره المباشر في تعدد ماكان يعرض فيها من سلع ، فضلا عن كثرة التبادل التجاري ، وان دل ذلك على شيء فإنما يدل على مدى نشاط الحياة التجارية في المدينة ، ومما لا شك فيه أيضا أن التجارة تأثرت هي الأخرى بمجريات الأحوال الزراعية والصناعية وبخاصة في أواخر عصر سلاطين الممالك .

الحج ودوره في الحياة الاقتصادية

يعتبر الحج إلى الأرض المقدسة طيلة العصور الوسطى أحد الأسباب الرئيسية في الرحلة إلى فلسطين وما جاورها من الشرق الأدنى ، وكان قصد هؤلاء الحجاج المسيحيين هو زيارة الأماكن التي ولد فيها السيد المسيح وعاش فيها ، واقتصرت هذه أول الأمر على بيت لحم والقدس والناصرة ، وبعضهم كان يزور نهر الأردن والذي يطلق عليه « نهر الشريعة » وبحيرة طبرية ، ولكن عدد الأماكن أخذ يتزايد وصارت القصص والروايات تتراكم حول بقاع متعددة في فلسطين لتجعل منها مراكز متصلة بحياة السيد المسيح ورساله أو غيرهم من القديسين (١٣٤) . ومع إنكار آباء الكنيسة الغربية قيمة الحج بادیء الأمر لكنهم منذ القرن الخامس الميلادي أو حتى منذ القرن الرابع أقروا ، وإنتهى الأمر بأن أصبحت الكنيسة تطلب إلى الخطاة من أتباعها أن يكفروا عن خطاياهم بالحج إلى فلسطين ، وهكذا بعد أن كان الحج في أشكاله المختلفة نتيجة لدافع شخصي لتمجيد الله وتقديم الشكر له وطلب المعونة أو وفاء لنذر والحصول على آثار شخصية للقديسين ، جعلت الكنيسة منه نظاما أساسية تكليف المرء بالحج الى أمكنة معينة وزيارتها بشكل خاص لتغفر له خطاياه لسنة واحدة أو سبع سنوات أو لمدى الحياة ، وتشير بعض المراجع إلى أن هذه الفروض التي سنتها الكنيسة قد أصبحت واضحة الحدود سنة ١٠٥٩ م ، كما يشير بعض حجاج بيت المقدس الذين وفدوا من الغرب طوال المدة من القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر الميلادي إلى عدد سنن الغفران التي يختص بها كل مكان زاروه من الأماكن المقدسة (١٣٥) .

وكان على الأوربي الذي يرغب في الحج أن يحصل على إذن من رئيس كنيسته وآخر من صاحب السلطة الزمنية ، وكانت الكنيسة تمنح الأذن مجانا أولا ، لكنها جعلته لقاء رسوم معينة منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وكان الاذن يعطى في حفل ديني خاص ، أما الذين كانوا يأتون إلى الأرض المقدسة دون أن يحصلوا على إذن من الكنيسة ، فكان عليهم أن يقدموا أنفسهم لرئيس دير جبل صهيون ، وهو نفسه رئيس جماعة الرهبان الفرنسيسكان والذي كان يحلهم من خطيئتهم

ويسمح لهم بالزيارة في أول حضورهم للخدمة بالكنيسة في يافا أو في القدس ، كما كان الحاج يرتدى ثيابا خاصة بحيث يعرف منها ، والغالب أن يرتدى الواحد منهم قباء أغبر اللون ويتمنطق بخزام عريض عليه صليب أحمر ويحمل عصا وكيسا ، وقد يسير البعض حفاة وخصوصا اذا كانوا يقومون بالحج كفارة عن ذنب بآمر الكنيسة(١٣٦) .

كما كانت موانئ البندقية وبيزا وجنوه ومرسيليا هي الأماكن التي يقصدها الحجاج المسافرون بحرا إلى فلسطين من أوروبا(١٣٧) كذلك من المرجح أن ميناء دمياط كان هو الميناء المخصص لنقل الحجاج المسيحيين الغربيين الذين قدموا لزيارة الأماكن المقدسة في مصر ثم منها كانوا يسافرون إلى زيارة بيت المقدس ، كما كانت السفن تقلع منها وعليها أقباط مصر(١٣٨) . ومن المرجح أيضا أن تكون تلك السفن كانت تقل بعضا من الحجاج الذين وفدوا من الحبشة ، أو لعلهم سلكوا الطريق الصحراوي الذي كان يرتبط بين القاهرة وبيت المقدس والذي يذكر لنا الأب سوريانو أنه كان به ثلاث محطات رئيسية ، هي مدينة قطيا التي تبعد عن القاهرة مسيرة أربعة أيام ومنها إلى غزة التي تبعد عنها خمسة أيام ثم منها إلى بيت المقدس التي تبعد عن غزة مسيرة يومين(١٣٩) .

ومن الطرق البرية التي سلكها الحجاج إلى بيت المقدس ، الطريق الذي كان يسلكه حجاج روسيا وبلاد الأرمن عبر جبال القوقاز وتركيا الحالية ثم بلاد الشام ثم بيت المقدس ، وقد ظلت مدينة يافا طوال عصر سلاطين المماليك ميناء لمدينة بيت المقدس ، ينزل بها الحجاج المسيحيون القادمون بحرا في طريقهم إلى القدس والأرض المقدسة(١٤٠) .

أما عن أعداد هؤلاء الحجاج الذين كانوا يفدون لزيارة المدينة المقدسة ، فإن المصادر التي بين أيدينا لم توضح ذلك بشكل قاطع إلا أننا نستطيع القول بأنها كانت بلا شك كبيرة ، والدليل على ذلك ما تشير إليه بعض المراجع من ذلك أن رورخت جمع أسماء ما يزيد عن ١٤٠٠ من الحجاج الألمان المعروفين الذين زاروا البلاد بين سنتي ١٣٠٠ ، ١٦٠٠ م(١٤١) كذلك يشير أحد الباحثين إلى أن أعداد الحجاج المسيحيين لبيت المقدس كانت كبيرة ، حيث يفد العديد من مختلف الجنسيات والطوائف الدينية ، ليس قط من البلدان الغربية لكن أيضا من البلدان الشرقية(١٤٢) . كما يؤكد باحث آخر كثرة أعداد هؤلاء الحجاج بقوله : إن الأعداد الكبيرة من الحجاج المسيحيين الذين يزرون مدينة بيت المقدس كل عام كان لها تأثير كبير في سلوك وتصرفات البدو والسكان العرب ، فقد عرفوا قيمة الذهب الأجنبي ولذا فهم يحترمون هؤلاء الأشخاص ويقدرهم هؤلاء الذين يتفقون عليهم بسخاء نظير ما يقدمون لهم من خدمات ، وإن السفر خلال الصحراء في بلاد فلسطين والذي كان يشكل خطورة كبيرة على هؤلاء الحجاج ، فمع مرور الوقت أصبح شيئا عاديا لقيام هؤلاء البدو برعاية الحجاج وارشادهم بعد الاتفاق مع مشايخهم على المبالغ التي سيحصلون عليها(١٤٣) . كذلك يؤكد لنا الر-نالة فابري الذي زار المدينة أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وكما سبقت الإشارة بذلك ، أنه بمجرد وصول الحجاج إلى مدينة يافا وعندما يسمع سكان القرى المجاورة بذلك فقد كانوا يحضرون كثيرا من الحمير ، حيث يقوم الرجل منهم بإحضار سبعة أو ثمانية حمير ، وأن

السفينة التي ركبها كانت تقل أكثر من مائتي من الحجاج (١٤٤) هذا بالإضافة إلى ما يشير إليه الرحالة كازولا من أنه ازدادت رحلات الحجاج الإيطاليين إلى بيت المقدس اعتباراً من القرن الرابع عشر الميلادي بشكل واضح مما يؤكد اضطراب الزيادة في أعدادهم (١٤٥) .

فاذا أضفنا إلى ذلك ما تشير إليه بعض المراجع من أن رجال الدين الروم كانوا يرغمون أتباعهم على زيارة فلسطين مرة واحدة في حياتهم بحيث كانت تبلغ أعداد هؤلاء حوالي عشر آلاف كل سنة لبيت المقدس وحتى يكونوا عوناً لإخوانهم من رجال الدين القاطنين بالقدس ومؤسساتهم الدينية ، لأدركنا مدى كبر تلك الأعداد التي وفدت على المدينة في موسم الحج (١٤٦) وليس أدل على كثرة هؤلاء الحجاج مما يشير إليه أحد الباحثين من أن البندقية قد حذرت السلطان الغوري عن طريق سفيرها تالدي عام ١٥٠٤ م من منع الحجاج للأراضي المقدسة المسيحية في فلسطين كتهديد منه للبابوية وملوك أوروبا إذا لم يوقف البرتغاليون تعرضهم لتجارة السلطان الشرقية في الهند ، ومما قاله السفير للسلطان إن هذا سيحرم بلادك من رسوم ضخمة (١٤٧) .

إلا أنه تجب الإشارة إلى أن أعداد هؤلاء الحجاج قد تأثرت بالظروف السياسية التي أحاطت بعلاقات دولة سلاطين المماليك بالغرب الأوربي ، من ذلك ما حدث في بداية القرن الرابع عشر عندما قامت البابوية بفرض حظر التعامل مع المسلمين وتحريم التجارة معهم ، مما كان له دون شك أثر في قلة أعداد الحجاج الواردين إلى المدينة (١٤٨) . كذلك يبدو أن أعدادهم بدأت تقل في أواخر عصر سلاطين المماليك نتيجة لحالة الاضطراب التي شهدتها دولة سلاطين المماليك في تلك الفترة ونتيجة لاكتشاف البرتغاليين رأس الرجاء الصالح ، وتهديدهم تجارة مصر في ذلك الوقت ، فضلاً عن اتجاه العثمانيين نحو المشرق وتدخلهم في شؤونه ، مما ساعد على قلة الأعداد ، فضلاً عما ألم بظروف هؤلاء الحجاج أنفسهم والتي يصورها أحد الباحثين بقوله : أن حجاج القرن الخامس عشر لم يكن لديهم الولاء أو الإخلاص المزوج بحب الترحال إلى الأراضي البعيدة لذلك قلت أعدادهم ، وخير دليل على ذلك أن الرحالة وليام واى الذى زار المدينة في رحلته الأولى سنة ١٤٥٨ م لم يكن يصحبه في رحلته سوى ١٩٧ حاجاً في مركبين (١٤٩) .

هذا وقد اهتمت السلطات المملوكية وحتى نهاية عصر سلاطين المماليك بزيارة الحجاج المسيحيين للأراضي المقدسة في فلسطين لأسباب سياسية واقتصادية أما الأسباب السياسية فمن المرجح أن سلاطين المماليك رأوا في السماح هؤلاء الحجاج بزيارة الأراضي المقدسة فرصة للدعاية لهم لدى الغرب الأوربي ، نظراً لشمولهم هؤلاء الحجاج بعطفهم وحمائهم وتسامحهم الديني ، والذي ظهر واضحاً في حرصهم على المحافظة على أرواحهم وتوفير سبل الأمن والأمان لهم وتعيين الحراس لمرافقتهم في رحلاتهم وحتى عودتهم سالمين (١٥٠) . ويروى لنا دى لافروكيير الذى زار القدس سنة ١٤٣٢ م أن كبير التراجم كان يجمع هؤلاء الحجاج أمام كنيسة صغيرة على اليسار من كنيسة القيامة ، ثم يسجل أسماءهم وأعمارهم وأوصافهم الشخصية ، ويرسل منها نسخة إلى كبير التراجم في القاهرة ، وهذه الاحتياطات كانت تتخذ على الرغم من أنه كان يحدث نفس الشيء عند نزولهم

بميناء يافا وكان الهدف منها الحرص على سلامتهم ، والتأكد من ذلك وأن البدو لم يقوموا بإعاقة أحدهم أو احتجاز بعضهم^(١٥١) . وكذلك يروى لنا فابري أنه كان يعنى بشؤون الحجاج المسيحيين في بيت المقدس رئيس ومساعدته والأول كان اسمه « كالينوس » والثاني يدعى « الفاهالو » ، ويقوم هذان بالترجمة والإرشاد والحراسة للحجاج المسيحيين ، وفي كل مدينة نجد جماعة يمنحهم السلطان حق رعاية الحجاج وحمايتهم ويعدون من موظفي الدولة وإن هذا الكالينوس قد حرسنا ودافع عنا بأمانة ، وأتى لنجدتنا عندما استنجدنا به^(١٥٢) هذا بالإضافة إلى ما تشير إليه كثير من المصادر من أن السلطات المملوكية حرصت على رعاية الأماكن المقدسة المسيحية وحفظها من التلف ، من ذلك السور الذي أقيم حول القبر المقدس بحيث لا يستطيع أحد لمسه ، حيث جرت عادة الحجاج بتقبيل القبر المقدس ولمسه ، وبعضهم كان يقوم بتكسير أحجاره ليصحبها معه إلى بلده^(١٥٣) .

هذا ولم يقتصر حرص المماليك على سلامة الحجاج أثناء زيارتهم لبيت المقدس فقط ، بل أيضا لمن أراد منهم بعد ذلك زيارة سيناء ، ويروى لنا فابري أنه والحجاج الذين كانوا معه قد استأذنوا نائب السلطنة في بيت المقدس أن يسمح لهم في حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم خشية قطاع الطرق وإغارات البدو عليهم ، فسمح لهم بحملها على أن يسلموها في القاهرة ، وفي هذا خير دليل على رعاية المماليك للحجاج المسيحيين^(١٥٤) إلا أن وضع الأهلية هنا في تلك الرعاية هو الناحية الاقتصادية فما تجنيه الدولة من رسوم حج وجمارك كان على جانب كبير من الأهمية لدخل المدينة والسلطات المملوكية في نفس الوقت ، هذا بالإضافة إلى ما كان يصحب موسم الحج من انتعاش التعامل التجاري في هذه الفترة في كل من مدن يافا والرملة وبيت المقدس^(١٥٥) .

فمن ذلك أن الحجاج الغربيين كانوا يقضون في بيت المقدس من ثمانية إلى عشرة أيام بما يمثل أحد الموارد الهامة للمدينة في تلك الفترة ، ليس فقط لما كان يدفعه كل حاج من رسوم للسلطات المملوكية ولكن لما كان يدفعه كل حاج من رسوم لزيارة الأماكن العديدة المقدسة ، والتي تناثرت في أنحاء بيت المقدس والمناطق المحيطة بها ، وتختلف تقديرات الحجاج لتلك الرسوم فبينما يرى تافور أنها كانت تصل إلى ١٢ر٥ دوكات^(١٥٦) يرى سوريانو أنها كانت تصل إلى ١٣ر٥ دوكات حتى عام ١٥٠٠ م غير النفقات الأخرى التي كان يتحملها من يأتي منهم بطريق البر ، والتي كانت تصل إلى ١٧ دوكات^(١٥٧) . بينما تشير بعض المراجع إلى أن تلك النفقات كانت تصل في مجموعها إلى ٢٢ دوكات نظير الإقامة والضيافة في بيت المقدس^(١٥٨) . ومع هذا الاختلاف في تقدير المبالغ التي كانت تفرض كرسوم والتي دونها في جدولين منفصلين ملحقين بآخر الفصل الخامس ، إلا أنه تجب الإشارة إلى أن تلك الرسوم لم تكن ملزمة فكلما ازدادت أحوال الدولة الاقتصادية سواء ازدادت حاجتها للأموال كلما ازدادت تلك الرسوم ، كما تجب الإشارة إلى أن تلك الرسوم كان يدفعها أبناء الطوائف المسيحية الشرقية والذين يأتون لزيارة المدينة والحج أيضا^(١٥٩) .

هذا وقد يرى البعض أن تلك الرسوم كانت تصل في النهاية إلى أبدي فئة قليلة ، لكن يهنا أن نؤكد أن موسم الحج هذا كان يمثل فترة انتعاش اقتصادي للمدينة وقد استفاد منه أهل المدينة بل

والمدن الأخرى مثل يافا والرملة. أما استفادة ، والدليل على ذلك ما تشير إليه كثير من المصادر والحجّاج أنفسهم أنه كان على الحجّاج أن يستأجروا بعض الحمير والبغال أو بعض الخيول لنقلهم من يافا إلى بيت المقدس ، وقد دفع بعضهم إيجارا لحيوانه ٢ دوكات ذهبية أى ما يعادل ٤٤ درهما فضية في ذلك الوقت (١٦٠). كذلك تشير بعض المصادر إلى أنه بمجرد نزول الحجّاج من السفن المقلّة لهم في مدينة يافا ، فإنهم يستأجرون بعض الخيام من الأهالي ليقموا فيها بعض الوقت حتى تحميمهم من حرارة الشمس ، وهذا ما يؤكده دى لايروكبير الذى زارها سنة ١٤٣٣ م وإن لم يذكر لنا المبالغ التى كانوا يدفعونها في مقابل ذلك (١٦١). كذلك يشير المصدر نفسه إلى أن البدو حول بيت المقدس كانوا يقومون بتوصيل الحجّاج بجمالهم من يافا إلى المدينة نظير ١٠ دوكات عن كل رأس نظير الحماية والانتقال (١٦٢).

وقد سبق لنا أن أشرنا في حديثنا عن الأسواق إلى ما كان منها يتعلق بموسم الحج وأن تلك الأسواق الموسمية والباعة الجائلين كانوا يستفيدون كثيرا من هذا الموسم ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه كان على هؤلاء الحجّاج أن يتزودوا بالأطعمة يوميا لسد احتياجاتهم أو على الأقل لعدة مرات طوال إقامتهم في المدينة وفي الطريق منها وإليها لأدركنا مدى الرواج الاقتصادي فيما يختص بالمواد الغذائية ، والذي نتحدث عنه بعض المصادر بقولها إن العرب واليهود والمسيحيين الشرقيين كانوا ينتظرون الحجّاج المسيحيين ويخيلون معهم الخبز والماء والأطعمة المطهية والفاكهة التى يقبل عليها هؤلاء الحجّاج (١٦٣).

كذلك قام كثير من الحجّاج باستئجار بعض المنازل من أهل القدس والذين كانوا يستعدون لهذه المناسبة بإعداد الغرف والمنازل لهذه الفرصة حيث جرت العادة أن ينزل رجال الدين والرهبان من الحجّاج في نزل الحجّاج أدنى جبل صهيون الخاص بطائفة الرهبان الفرنسيين سكان . أما الحجّاج الآخرون كانوا يستأجرون غرفا عن طريق الترجمان الذى كان واسطة الاستئجار أو مساعده ، حسبما يؤكد لنا فابري ويؤيد برايد ينهاخ ذلك في أحاديثهما عن الحج إلى بيت المقدس (١٦٤).

هذا وتشير بعض المصادر الى تعدد مصادر دخل مدينة بيت المقدس من موسم الحج ، من ذلك ما يرويه لنا جون ساندرسون أن المسيحيين من أهل بيت المقدس كانوا يقومون بصنع كثير من الصليبان من أشجار الزيتون ويقومون ببيعها للحجّاج ، والذين يقبلون على شرائها بكثرة لإهدائها إلى أقاربهم وأصدقائهم عند عودتهم لمواطنهم ، كما كانوا يحفرون أشكالا لبعض القديسين على أخشاب الزيتون ويقدمونها لهؤلاء الحجّاج ، مثل تمثال القديس بطرس وغيره ، والتى كانت تلقى رواجاً لدى هؤلاء الحجّاج (١٦٥).

كذلك تشير بعض المراجع إلى أن موسم الحج نفسه كان بمثابة فترة للرواج الاقتصادي من ذلك أنه لا يكاد يصل الحجّاج الى مدينة بيت المقدس من كل أنحاء البلاد ، مثل بلاد الشام وأرمينيا وآسيا الصغرى وأقاليم الدانوب وغيرها ، والذين كانوا يحضرون معهم كثيراً من الأشياء للمتاجرة فيها ، حيث تصبح المنطقة الواقعة أمام مدخل كنيسة القيامة شبه معرض ، يعرض فيه الحجّاج ما معهم من

بضائع للبيع ومن المؤكد أنه كانت تحدث كثير من المعاملات التجارية في تلك المنطقة من بيع وشراء ، حيث تشير بعض المراجع أيضا إلى أن هؤلاء الحجاج كانوا يحملون معهم في رحلة العودة كثيرا من المتاجر الشرقية إلى أوروبا^(١٦٦) هذا فضلا عن شرائهم الخواشي « المراتب » المحشوة بالقطن والذي تنتجه البلاد ، وسلال البيض والأجولة المملوءة باللحم المجفف والمذخن وكذلك الجبن وأدوات الطهي وقرب المياه والشموع والأدوية حيث يتزودون بتلك المؤن في رحلة العودة ، بالإضافة إلى ما يحمله الأغنياء منهم من الحرير والسجاد^(١٦٧) .

أما بالنسبة للحجاج الذين ينوون زيارة الأماكن المسيحية المقدسة في سيناء فقد كان عليهم أن يستعدوا لتلك الرحلة الشاقة ، وإعداد ما يلزمهم أثناءها من طعام وشراب ، لذا كانوا يتزودون من بيت المقدس بكل ما يلزمهم من نبيذ ولحم مجفف وأسماك مجففة وخبز وفاكهة ، كما أنهم كانوا يتزودون من غزة بالبسكويت اللازم طوال الرحلة^(١٦٨) . وهذا فضلا عن أن كل حاج منهم كان عليه أن يدفع مبلغا يصل إلى ٢٣ دوكات في مقابل زيارته ، نصف هذا المبلغ كان يتم دفعه في بيت المقدس والنصف الآخر في غزة^(١٦٩) . كما كان عليهم أن يتصلوا بكبير الترجمة في بيت المقدس ، والذي يحصل منهم ضريبة السلطان وأخرى له ثم يقوم بدوره بالاتصال بترجمان غزة الذي يقوم بدوره بالاتفاق مع البدو لحمايتهم ، ويؤجرون لهم الجمال مقابل عشرة دوكات عن كل فرد ، كما كان ترجمان بيت المقدس يزودهم بالجمال والحميز والبغال اللازمة لحمل أمتعتهم نظير مبلغ معين^(١٧٠) .

هذا بالإضافة إلى أن بعض أبناء القدس كانوا يعملون كثيرا كترجمة لمصاحبة الحجاج ، بالإضافة إلى المبالغ التي يحصلون عليها منهم نظير ما يقدمون لهم من خدمات وارشاد ، إلا أن هؤلاء الترجمة كانوا يحصلون على نسبة عالية قد تصل إلى عشرين في المائة من التجار نظير ما يشتره منهم هؤلاء الحجاج كعموله لهم ، كذلك كان هؤلاء الترجمة يقومون بجلب بعض الأشخاص الذين يقومون بطهي الطعام وسقى الماء وتقديم الخدمات المتعلقة بالمأكل والمشرب في بيت المقدس لهؤلاء الحجاج ، وأن هؤلاء الترجمة كانوا دائما محل ثقة الكثيرين من الحجاج ، وبخاصة الذين يكثر ترددهم على البلاد ، كما كانوا على مستوى من الكفاءة والمقدرة بحيث لم ييخل عليهم الحجاج بالمال^(١٧١) .

وأخيرا تجب الإشارة إلى أن الحجاج المسيحيين كانوا شبه ملازمين بدفع كثير من المبالغ على هيئة هبات في كثير من الأماكن التي يقومون بزيارتها في الأراضي المقدسة وبيت لحم والخليل ، فمن هذه المبالغ ما تشير إليه بعض المصادر والمراجع أنه كان على الحجاج إرضاء ناظر كنيسة القيامة والحراس الذين يأتمرون بأمره ، والذين كانوا يجبون كثيرا من الاتاوات من الحجاج والتي كانت موضع الشكوى من الحجاج باستمرار^(١٧٢) ولعل كثرة تلك المبالغ هي التي دفعت بعض الحجاج إلى القول أن المسلمين كانوا يحصلون على كثير من الأنعاب والهبات والأموال من الحجاج المسيحيين ، وهي نفسها التي دفعت الرحالة كازولا إلى القول أنه على كل حاج من الحجاج أن يحمل معه ثلاث حقائب ، حقيبة من الصبر ، وحقيبة من النقود ، وحقيبة من الإيمان^(١٧٣) . وهي التي دفعت تافور

من قبله الى القول أنه كان على كل حاج أن يدفع بعضا من المبالغ الصغيرة في كل الأماكن المقدسة التي يرغب أن يزورها أثناء حجة (١٧٤) .

من هذا العرض يتضح أن الحج إلى بيت المقدس كان يشكل موردا هاما من الموارد المالية للمدينة والذي انتفع به عدد كبير من سكانها سواء الحكام أو المحكوميين ، نظير ما حصلوه من رسوم وأتاوات أو قدموه من خدمات أو عن طريق ما كان يتم من معاملات تجارية كانت تعود بالنفع على قطاع كبير من سكان المدينة أو من تلك الأسواق الموسمية والمتنقلة التي كانت تصحب ركب الحجاج ، منذ أن تطلأ أقدامهم مدينة يافا وحتى عودتهم إليها بعد الانتهاء من مراسم الحج .

الأزمات الاقتصادية

شهدت مدينة البيت المقدس كثيرا من الأزمات الاقتصادية على عصر سلاطين المماليك ، وبخاصة في فترة حكم المماليك الجراكسة ، ولقد تعددت العوامل المسببة لتلك الأزمات ، من عوامل طبيعية واقتصادية وسياسية كان لها أكبر الأثر في خلق تلك الأزمات .

ومن المعروف أن النظام السياسي الذي قامت عليه دولة سلاطين المماليك بوجه عام وفي مدينة بيت المقدس بوجه خاص كان نظاما إقطاعيا اعتمد بدوره على الأرض كمصدر للثروة ، وحين تضطرب إنتاجية الأرض تضطرب دعامة هامة من دعائم دخل الطبقة الحاكمة ، هذا بالإضافة إلى اضطراب أحوال السواد الأعظم من سكان المدينة نظرا لما مثله الانتاج الزراعي لهم من مورد هام من موارد الدخل ، هذا فضلا عن أن اضطراب الإنتاج الزراعي كان يتبعه اضطراب في كثير من الصناعات القائمة على الزراعة والتي سبق أن أشرنا إليها وهي الصناعات الأساسية في المدينة مثل صناعة الصابون والسكر وغيرها وكذلك الحال بالنسبة للتجارة وخاصة تجارة الحاصلات الزراعية .

كما لعبت الأمطار دورا حيويا في حياة سكان بيت المقدس فإذا كانت كمية الأمطار في سنة من السنوات كافية لرى الأرض الزراعية خرجت تلك السنة على خير « ومن الله تعالى على عباده بمحصول الرخا وتيسير الأقوات وانحطاط الاسعار وحصل الرفق للعباد » (١٧٥) أما إذا امتنعت الأمطار عن النزول انتشرت حالة من الفوضى والفرع وماجت البلاد بمشاعر الخوف والترقب ، وتجدد شبح المجاعة بوجهه المرعب يتوارى خلفه شبح الوباء (١٧٦) ويصور لنا المقرئ ما كان يحدث عادة من استمرار انقطاع الأمطار وما كان يؤدي إليه من أنه أجذبت أراضي بلاد حوران والكرك والقدس والرملة وغزة ، لعدم نزول المطر في أوانه ونزح كثير من سكان هذه البلاد من أوطانهم وقلت المياه عندهم « (١٧٧) ويبدو أن الهجرة كانت تتجه الى المناطق الساحلية من بلاد الشام .. ومع هجرة بعض السكان الى مناطق أخرى أكثر رخاء إلا أن ذلك لم يكن يخفف من حدة الأزمة التي تصورها لنا بعض المصادر المعاصرة نتيجة لعدم سقوط الأمطار حيث « اشتد الامر ببيت المقدس وقلت الأقوات منه ووصل سعر القمح كل مد بدينار والشعير كل مد بعشرين درهما ووقع الغلاء في كل

الأصناف من الأرز والزيت والبصل وغير ذلك حتى في الحضروات وضع الناس الى الله سبحانه وتعالى» (١٧٨) .

وإذا حدث في السنة التالية أن سقط المطر في موعده وبكمية كافية كان ذلك كفيلا بأن تتراجع أحوال بيت المقدس إلى الخير وحصل الرخاء وتباشر الناس بالفرح بعد الشدة (١٧٩) ، أما إذا تأخر سقوط المطر ببيت المقدس بحيث يمضى غالب الشتاء ، ينزعج الناس لذلك أشد الانزعاج ويخرجون إلى المسجد الأقصى ليستسقوا ويضجون بالدعاء الى الله تعالى فضلا عن مداومتهم على التهليل والتكبير بقبة الضخرة الشريفة ، ثم ينصرفون ، فإذا سقوا في يومهم أدركوا أن الله أغاث عباده ، وإذا لم يسقوا جزعوا لذلك (١٨٠) .

ومن هذا يتضح لنا أن توقف أو تأخر سقوط المطر كان يخلق موقفا عصيبا بالنسبة لأهالي بيت المقدس ومن ثم يضطر الناس إلى أكل واستهلاك المخزون لديهم من الغلال ، وربما استهلكوا تقاوى الزراعة المقبلة أيضا إذا زاد تأخر سقوط الأمطار ، وبالتالي فإن الغلاء كان يفرض نفسه على مظاهر الحياة المختلفة الذي يصور لنا ابن قاضي شبهة إحدى جوانبه في حديثه عن سنة ٧٩٨ هـ / ١٣٩٥ م أنه « جاءت الأخبار من القدس أن غرارة القمح وهي غرارتان بالدمشقي بألف وأن الخبز لا يوجد وأن الماء قليل جدا وليس ببحر أيوب ولا زرقة ماء وأنهم استسقوا بالقدس مرارا ووقع مطر ولكن لم تملأ منه الآبار ولا نفع لغير الزرع وأنهم في شدة زائدة (١٨١) .

والواقع أن تأخر الأمطار أو عدم سقوطها أو حتى عدم كفايتها كان كارثة يخشاها الجميع ، وتتتاب الناس المخاوف فيسارعون إلى تخزين الغلال ويشدد التراجع على الأقران بحيث يتعدم وجود الخبز كما سبق وأشرنا ، ويتبع ذلك ارتفاع رهيب في الأسعار في كل ما يباع ويشتري وبخاصة المواد الغذائية ، وهنا تبرز حقيقة هامة وهي حرص سلاطين المماليك على تخفيف حدة تلك الأزمات بقدر الامكان ، وهذا ما يؤكد لنا ابن قاضي شبهة أيضا في حديثه عن نفس السنة ، وبعد مرور حوالى ثلاثة شهور من الأزمة السابقة حيث يقول ورد الخبز بانخفاض الأسعار بالقدس وأن الكيل باتنين وعشرين .. » وان كان لم يذكر لنا السبب صراحة في انخفاض الأسعار إلا أننا نستطيع أن نؤكد ذلك بناء على ما سبق واتخذ السلطان برقوق عام ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م حيث « وقع الغلاء بحلب والشام ونابلس والرملة والقدس وأبيع القمح كل غرارة بثلاثمائة درهم ونقل من مصر إلى بلاد الشام قمح كثير (١٨٢) » ويبدو أن هذه كانت سياسة سلاطين المماليك دائما لتخفيف الأزمات الاقتصادية في بيت المقدس بصفة خاصة وبلاد الشام بصفة عامة ، وهذا ما تؤكد لنا المصادر المعاصرة من ذلك أنه حدث عام ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عندما قل الماء بالقدس وبلغ شرب القوس الماء مرة واحدة نصف درهم ففرض سارع الأمير تنكز نائب الشام وقتئذ وكتب إلى ولاة الأعمال بإخراج الرجال لفتح عين ماء بالقدس وهنا يبدو جليا حرص أمراء المماليك على تخفيف الأزمات التي كان يعاني منها سكان القدس (١٨٣) .

هذا فضلا عما كان يتخذه السلاطين عادة من إصدار الأوامر للأمراء بمصر بإرسال القمح إلى

المدينة أو بلاد الشام أيضا ، عند حدوث تلك الأزمات ، وهذا ما يؤكد لنا أين العماد بما لا يدع مجالا للشك ، حيث يذكر في حديثه عن سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٣ م « وفيها كان الغلاء المفرط بالشام وبلغت الغرارة أزيد من مائتي درهم أياما ثم جلب القمح من مصر بإلزام سلطاني لأمرائه فنزل الى مائة وعشرين درهما بقي أشهرها ونزل السعر بعد شدة وأسقط مكس الأقوات بالشام بكتاب سلطاني . وكان على الغرارة ثلاثة دراهم ونصف ... » (١٨٤) .

كذلك من المرجح أن تلك الأزمات لم تكن لتستمر طويلا ، إما بسبب سرعة الإجراءات التي كانت تتخذ في ذلك الوقت لمواجهة تلك الأزمات ، وإما بسبب لطف الله تعالى بالمدينة وبأهلها والذي تشير إليه كثير من المصادر مثل « واستسقى الناس بالقدس فسقوا والحمد لله » و « أغاث الله عباده بالمطر الغزير فامتألت الآبار ورويت الأرض ... » (١٨٥) .

وتجب الإشارة أيضا إلى أن النظام السياسي نفسه كان ضمن عوامل التدهور الاقتصادي والأزمات الاقتصادية التي شهدتها المدينة في عصر المماليك ، ذلك أن النظام الاقطاعي المملوكي الذي اعتمد على الأرض الزراعية وإنتاجها بشكل أساسي ، هذا الاقطاع تميز بسمة واضحة وهي التغير الدائم لأصحاب الاقطاعات أو الأشخاص المقطعين ، لذا حرص كل منهم على أن يكون لنفسه من الثروة ما يستطيع جمعه بقدر الامكان ، دون الاهتمام بوسائل زيادة الانتاج أو تحسين الأرض المنتجة ، وكانت النتيجة الحتمية لذلك هي الاستنزاف الدائم للأرض الزراعية ، فضلا عن عدم رعاية الفلاحين وإرهاقهم ، مما ساعد على هجرة الكثيرين منهم للقرى ، كما سبق وأشرنا بذلك في حديثنا عن الزراعة ، فضلا عن انعدام الأمن والذي يرجع السبب الأساسي فيه إلى ضعف السلطة الحاكمة والمثلة في السلطان في العاصمة ، وانشغالها بتحسين مواردها المالية ، فضلا عن تولية بعض النواب للمدينة ممن ليسوا أهلا لهذا المنصب ، وهذا ما يؤكد لنا مجير الدين في حديثه عن سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م أيام الأشرف قايتباي حيث يقول : وفيها تزايد ظلم دقماق نائب القدس الشريف وكثر طمعه وتلاشت أحوال المعاملة واختل نظامها وكثر السراق وأفحشوا في قطع الطرق وقتل الأنفس وبقي الناس في شدة لذلك فان دقماق المذكور كان في مباشرته على طريقة النائب جقمق .. يصدر منه كلمات مهمة في المجالس والمحافل توجب انتقاص الناس له وكان يخاطب آحاد العوام بالترهات الفشرية ويعتمد أفعالا لا تليق ... » (١٨٦) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن وهن قبضة سلاطين المماليك في أخريات أيامهم على العربان كان سببا من أسباب الفوضى والأزمات الاقتصادية في أحيان كثيرة ، حيث صاروا يهاجمون القرى وينهبونها من حين لآخر ، ويفرضون على أهلها كثيرا من الإتاوات والتي سبق أن أشرنا إليها في حديثنا عن موقف علماء بيت المقدس من القضايا المعاصرة ، بل يهاجمون المدينة نفسها ويلحقون بها وبأسواقها كثيرا من الخسائر المادية فضلا عن الخسائر في الأرواح .

ومن العوامل التي ساعدت أيضا على خلق بعض الأزمات الاقتصادية زيف النقود المتداولة بين الناس . (١٨٧) وهذه الظاهرة كانت واضحة وملموسة منذ بداية عصر

سلاطين المماليك وحتى نهاية ذلك العصر ، وقد كان للصليبيين في بداية الأمر يد في تلك الأزمات ، ويؤكد لنا أبو شامة — وهو معاصر لتلك الفترة — ذلك في حديثه عن سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م بقوله « ابتلى الناس في هذه السنة بغلاء شديد عام في جميع الأشياء من المأكّل والملابس وغيرهما . بلغ رطل الخبز درهمن ورطل اللحم خمسة دراهم وأوقية القنبريس درهما ، والجبن درهما ونصف والثوم أوقية بدرهم والعنب رطل بدرهمن ، ومن أكثر أسبابه ما أحدثه الفرنج من ضرب الدراهم المعروفة بالياقية وكانت كثيرة الغش ، بلغنى أنه كان في المائة خمسة عشر درهما فضة والباقي نحاس ، وكثرت في البلد كثرة عظيمة ، وتحدث في إبطالها مرارا فبقى كل من عنده شيء حريصا على إخراجه خوفا من بطلانها فتراه يدأب في شراء أى شيء كان فيتزايد في السلع بسبب ذلك إلى أن يطلب في أواخر السنة فعادت تباع كل أربعة منها بدرهم ناصري مغشوش أيضا بنحو النصف »^(١٨٨) ومما لاشك فيه أن مدينة بيت المقدس بحكم تبعيتها في تلك الفترة لنيابة الشام فقد تأثرت بذلك ، كما تأثرت دمشق وغيرها ، وهذا بالإضافة إلى أن بعض السلاطين أكثروا من ضرب الفلوس ، واختلفوا في تقديرها بالوزن ، فحينما يكون الرطل منها بستة دراهم ، وأحيانا باثنى عشر درهم وأحيانا بدرهمن ونصف ، وفي جميع هذه الحالات أرغم التجار والأهالي على التعامل بها وفق القيمة التي تحددها الحكومة ، مما يضطر كثيرا من التجار إلى إغلاق حوانيتهم خوفا من بخس بضاعتهم ، ويصحب هذه الحالة ارتفاع في كثير من أسعار السلع وقلة الخبز^(١٨٩) .

ومن العوامل التي ساعدت أيضا في خلق كثير من الأزمات الاقتصادية في مدينة بيت المقدس وبخاصة في عصر سلاطين المماليك الجراكسة ، سوء الأحوال الاقتصادية في عاصمة دولة المماليك نتيجة لاضطراب الدخل الزراعى في مصر ، وقلة الموارد المالية ، فضلا عن استنزاف خزانة الدولة في كثير من الحروب والفتن الداخلية والخارجية ، والذي انعكس بصورة مباشرة في شكل البراطيل والمبالغ التي أصبحت تفرض لتولى كثير من الوظائف الهامة في المدينة^(١٩٠) فضلا عن كثرة الأعباء المالية التي أصبحت تفرض على نواب القدس لتقديمها للسلاطين أو نوابهم أو بسبب سوء الأحوال الاقتصادية في المدينة نفسها ، وقلة دخل إقطاعات النائب ، والذي انعكس بشكل واضح فيما أصبح يفرضه النواب على بعض الوظائف مثل الحسبة ، وكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك على أصحاب الحرف وغيرهم ممن خضعوا لإشراف المحتسب ، وما كان يؤدي إليه ذلك من ارتفاع أسعار السلع ، وهذا ما يؤكد لنا مجير الدين في حديثه عن

سنة ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م في أيام السلطان قايتباى ، حيث يروى لنا أنه عندما زار السلطان القدس ذلك العام ورفع إليه أمر الحسبة بأنه كان يؤخذ من المحتسب مال لنائب القدس فيلزم منه تسلطه على الفقراء والمتسبين ، فرسم السلطان بإبطال تولية الحسبة من نائب القدس وابطال ما هو مقرر على الوظيفة من الرشوة ، وأن يكون تعيين المحتسب بمرسوم شريف بغير كلفة واستمر الأمر على ذلك مدة ثم اختل النظام ورجع الأمر الى ما كان عليه أولا^(١٩١) . كذلك ما يرويه عما أصبح يؤخذ عند تولى منصب قاضى القضاة منذ عهد السلطان قايتباى أيضا ، عندما أعيد القاضى كمال الدين النابلسى الحلبي إلى قضاء القدس والرملة ونابلس على عادته ، ودخل القدس الشريف عائدا من القاهرة بعد كلفة مال كبير بذله فى المنصب ولم يجربه عادة قبله فى قضاء الخنايلة ، وسببه جور وكيل السلطان فى ذلك الوقت وهو ابن ثابت . كذلك ما يرويه لنا فى حديثه عن سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م حيث يقول : « وفى يوم الاثنين ثالث المحرم دخل الأمير مامى الخاصكى الى القدس الشريف بخلعه السلطان والناس فى خدمته فرسم على أكابر البلد وأخذ منهم مالا ، فأخذ من ناظر الحرمين الأمير ناصر الدين النشاشيبي أربعة بغال وحصانا ، ومن النائب الأمير جانم مائتى دينار ، ومن شيخ الصلاحية ثلاثين دينارا ، ومن القاضى فخر الدين ابن نسيبة أربعمائة دينار ، ومن القاضى شهاب الدين الجوهري ثلاثمائة دينار ، وحصل للناس منه شدة »^(١٩٢) وهذه الحقيقة ، وهى سوء الأحوال الاقتصادية فى العاصمة التى انعكس أثرها على أنحاء الدولة المملوكية ، لم تكن خافية على كثير من المؤرخين المعاصرين ، والتى يؤكد لها لنا ابن تغرى بردى ويرجعها الى سوء تدبير هؤلاء السلاطين الأواخر بالدرجة الأولى ، والتى كان ولا بد أن تنعكس بصورة أو بأخرى على أحوال البلاد التابعة لهم^(١٩٣) .

وأخيرا تجب الإشارة إلى أن كثرة الأوبئة التى تعددت بشكل واضح فى مدينة بيت المقدس طوال عصر سلاطين المماليك وبخاصة الجراكسة - وكما سبق القول - والتى يقول عنها سورياتو أنها كانت تحدث كل عشر سنوات وكما سبق أن أشرنا أيضا ، كان لها أكبر الأثر فى تلك الأزمات الاقتصادية ، حيث من المعروف أن أهم نتائجها هو انخفاض معدل السكان بشكل كبير ، وما كان يصحبه ذلك من تدهور الانتاج الزراعى والصناعى ، فضلا عما ينتج من إرتفاع كبير فى الأسعار ، واختفاء كثير من السلع الضرورية فى كثير من الأحيان ، وانكماش الأسواق تبعا لذلك ، ولا يخفى علينا ما كان ينجم عن ذلك من معاناة سكان المدينة فى تلك الآونة .

من هذا يتضح لنا مدى الارتباط بين تلك الأزمات الاقتصادية والظروف الطبيعية ، والاقتصادية والسياسية التي ساعدت على خلق تلك الأزمات وكيف حاول السلاطين والأمراء الممالك التخفيف من تلك الأزمات بقدر الامكان .

الضرائب

(المكوس والرسوم والمقررات والجوالى والموارث الحشرية ، والرعى أو الطرح) :

فى بداية حديثنا عن المكوس^(١٩٤) فى مدينة بيت القدس على عصر سلاطين المماليك فالبرغم من أنه قد وردت إشارة عند ابن شاهين الظاهرى ، مؤداها أنه لم يؤخذ من القدس أية مكوس بخلاف جميع البلاد التى خضعت لحكم سلاطين المماليك^(١٩٥) والمعروف أن ابن شاهين كان معاصرا للسلطان جقمق « ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م — ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م » والذى اشتهر بتدنية الشديد ، ولعل هذا التدنيس هو الذى دفعه لمنع تلك المكوس من القدس فى عهده فقط لأننا نسمع من أبى الفدا فى ذكره لحوادث سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٣ م بأن الناصر محمد بن قلاوون قام بإبطال المكوس والضرائب عن سائر أصناف الغلال بجميع بلاد الشام ، مما قد يفهم منه أنها كانت تؤخذ من جميع بلاد الشام بما فيها بيت المقدس^(١٩٦) . وكذلك يؤكد لنا مجير الدين وجود تلك المكوس فى القدس فى فترة سابقة لفترة السلطان جقمق ، ففى حديثه عن نائب القدس الأمير شهاب الدين أحمد اليفورى الذى ولى فى عهد السلطان الظاهر برقوق ، أنه عندما ولى نظر الحرمين ونيابة السلطنة بالقدس الشريف وبلد الخليل عليه السلام عام ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣ م ، فقد أبطل المكوس والمظالم والرسوم التى أحدثها النواب قبله ، وفى هذا تأكيد قاطع على أن المكوس كانت موجودة فى بيت المقدس^(١٩٧) .

هذا وإن كانت المصادر والمراجع التى بين أيدينا لم تتحدث إلا نادرا عن ذكر المكوس وأنواع السلع التى كانت تفرض عليها ، مما قد يفهم منه أنها ألغيت من بيت المقدس ، لكننا نستطيع القول أن سلاطين المماليك حرصوا دائما على تأكيد سياستهم الدينية فى الحكم فى صورة رفع المظالم والمكوس عن أهالى بيت المقدس والتخفيف عنهم ، من ذلك مايرويه لنا مجير الدين على سبيل المثال - أن السلطان الأشرف قايتباى عند ما زار المدينة سنة ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م ، فقد اشتكى الناس الأمير جاز قطفى نائب القدس ، ورفعت فيه القصص بسبب ما تعمده من الظلم والجور ، فطلبه السلطان وسمع فيه الشكوى ، وأنصف الناس منه وأمره أن يدفع لهم ما أخذه منهم ، وعندما هم السلطان بمغادرة المدينة فقد طلب النائب وأمره أن يصالح جميع من شكى منه فصالحهم ودفع لكل من أخذ منه شيئا^(١٩٨) . هذا وقد أكد السلطان رفع تلك المكوس برسوم جاء فيه « ... رسم مونا الأشرف أبو النصر قايتباى عز نصره بإبطال ما أحدث من المظالم ببجل القدس الشريف وجبل الخليل عليه السلام من الإقامة وما على البضائع المجلوبة إلى بلد سيدنا الخليل من المكس المسمى بالطعمة وغيرها وأن لا يتعرض المحتسب ولا غيره ببلد الخليل لشيء من ذلك وذلك فى تاسع عشر

الحرم سنة أحد وثمانين وثمانمائة » وفي هذا المرسوم خير دليل على وجود تلك المكوس في أواخر عصر سلاطين المماليك (٩٩) .

هذا ومن المرجح أن تكون تلك المكوس قد كثرت في عهد سلاطين المماليك الجراكسة ، حيث ورد ذكرها مرة واحدة في عهد دولة المماليك البحرية ثم حدث ذكر لها أكثر من مرة في عهد المماليك الجراكسة كما سبق القول - ولعل السبب في ذلك راجع الى اضطراب أحوال الدولة الاقتصادية والتي أجهدت ماديًا بسبب كثرة حروبها ضد القراصنة المسيحيين ، الذين هاجموا السفن والسواحل الإسلامية الخاضعة لسلطنة المماليك ، فضلاً عن الحروب الداخلية التي شنها المماليك ضد البدو والتركمان ، فضلاً عن حروبهم البحرية ضد البرتغاليين والتي استنفذت موارد الدولة ، لذا كان لا بد من إيجاد وسيلة للحصول على المال ، وكانت المكوس هي إحدى وسائل جمع المال (٢٠٠) .

ومن الضرائب التي عرفت في بيت المقدس في ذلك العصر هي ما كان يسمى « بالرسم » أو « الرسوم » ، وهذا النوع من الضرائب كان يستخدم حيث يصعب تقدير نسبة العشر على الماعز وأراضي الرعي والمناحل ، وكذلك على الطواحين والمعاصر ودواب الحمل - وعلى سبيل المثال لا الحصر - فكان على أهل كل قرية أن يدفعوا ضريبة على الطواحين على أساس عدد الطواحين وإمكانية تشغيل تلك الطواحين طول العام أو أثناء المواسم والفصول ، وفي معظم الحالات فإن الطاحونة التي تعمل طول العام وبها راحة واحدة كان عليها أن تدفع ٦٠ أقة من جملة ما تطحن ، أما الطواحين التي لا تعمل في أيام المطر فعليها ثلاثين أقة ، والطواحين التي تدار باليد فكانت معفاة من تلك الرسوم ، كما أن الضريبة على الماعز والجاموس كانت معروفة في جميع القرى تحت اسم « رسم الغنم » و « رسم الجاموس » وقام السكان وبخاصة الذين عاشوا منهم في السهول والمناطق التي حول البرك والآبار بدفعها (٢٠١) .

ومن الرسوم التي عرفت في القدس أيضا رسوم الولاية ، وهي عبارة عن مبلغ من المال يقوم بجبايته النواب والخاصكية من عرفاء الأسواق ومن عامة الناس ، ويبدو أن تلك الرسوم كانت من الكثرة بحيث تضرر منها كثير من الناس والتي يصورها لنا المقرئ في حديثه عن سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م ، أيام السلطان فرج بن برقوق حيث فرض نائب القدس على الناس مالا ، فأبوا عليه فتركهم حتى اجتمعوا بالمسجد الأقصى ، وغلق الأبواب وألزمهم بالمال فاستغاثوا عليه ، فلبس السلاح وقاتلهم ، فقتل بينهم بضعة عشر رجلا وجرح كثير ، وفر النائب مهزوما . فلما بلغ الخبر الأمير شيخ نائب الشام بعث عوضه إلى القدس (٢٠٢) ومنها ما يذكره أيضا مجير الدين في حديثه عن سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م أيام السلطان الأشرف قايتباي ، عندما دخل الأمير ماماي الخاصكي إلى القدس الشريف بخلة السلطان والناس في خدمته فرسم على أكابر البلد منهم مالا فأخذ من ناظر الحرمين الأمير ناصر الدين النشاشيبي أربعة بغال وحصانا ومن النائب الأمير جانم مائتي دينار ، ومن شيخ الصلاحية ثلاثين ديناراً ، ومن القاضي فخر الدين ابن نسيبة أربعمئة دينار ، ومن القاضي

شهاب الدين الجوهري ثلاثمائة دينار ، ومن القاضي شهاب الدين الجوهري ثلاثمائة دينار ، وحصل للناس منه شدة لذلك (٢٠٣) إلا أننا نسمع بين الحين والآخر عن أن أحد السلاطين كان يبطل تلك الرسوم ، من ذلك ما حدث في عهد السلطان الملك الظاهر أبي سعيد ططر ، أبطل ما كان يجبي لنائب القدس في كل سنة من المال ، ونقش بذلك رخامة وألصقها بباب الجامع الأقصى (٢٠٤) .

ومن الرسوم أيضا ما كان يعرف برسم نفقة الأجناد ، وأول من أشار إلى تلك الرسوم هو ابن عبد الظاهر في حديثه عن السلطان الظاهر بيبرس فعندما علم بحركة أبغا ملك التار فقد أصدر مرسوما أن يخرج أهل كل قرية بالشام من بينهم خيالة على قدر حال أهل القرية ويقومون بكلفهم (٢٠٥) ، كذلك يشير المقرئ إلى أن السلطان الظاهر بيبرس في السنة الثالثة من حكمه وهي سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م ، قد فرض على أهل الذمة في بيت المقدس دينارا برسم نفقة الأجناد إلا أن السلطان قلاوون أبطل ذلك الرسم سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م (٢٠٦) . ومن المرجح أن تكون تلك الرسوم الخاصة بنفقة الأجناد لم تكن لتفرض على أهالي بيت المقدس إلا في الحالات الضرورية وعندما تعجز ميزانية أو خزانة الدولة عن الوفاء بالالتزامات الحربية ، لأننا لم نسمع عن ذلك الرسم إلا سنة ٧٩٨ هـ / ١٣٩٥ م — أي بعد مرور أكثر من قرن — حيث ورد مرسوم السلطان الأشرف برسباي بجمع الأموال بسبب استخدام الرجال لقتال التركان بقيادة ابن قرايلك وكان المبلغ المطلوب هو ثمانية عشر ألف دينار ، تم توزيعها على الرملة والقدس ونابلس وحمه وطرابلس وحلب وقيس وحمه والمرجعين والغوطة وبعبك وصيدا وبيروت ، وتم جمعه وحصل للناس حيف من ذلك (٢٠٧) ، كما تجب الإشارة إلى تكرار حدوث ذلك في عهد سلاطين المماليك الجراكسة ، حيث تشير كثير من المصادر إلى تكرار تكليف نائب القدس بجمع الرجال كاملي العدة والسلاح من فرسان ومشاة للخروج إما لمحاربة التركان أو لقتال الأتراك العثمانيين (٢٠٨) .

هذا ويشير أحد الباحثين إلى أن السلطان الأشرف قايتباي قد أنفق ٧٠٠٠٠٠٠ دينار في حروبه العديدة ولكي يغطي تلك التكاليف الهائلة فقد فرضت حكومته نوعا من المشاركة على طبقات معينة من الشعب ، أو على الأحياء في المدن ، كذلك جمعت ضرائب غير عادية على الممتلكات الخاصة وعلى دور العبادة وعلى رجال الدين والعلماء والأرامل والأيتام وغيرهم ، ولاشك أن كثيرا مما حدث في المدن والبلاد التي خضعت للحكم المملوكي قد حدث في القدس من تلك الاجراءات الاستثنائية (٢٠٩) . بل إن تلك الاجراءات تعدت مجرد فرض تلك الرسوم الى ما يرويه لنا ابن طولون في ذكره لحوادث سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ م في عهد السلطان قايتباي نفسه أنه أرسل أحد الأمراء ليصادر أهل البلاد الشامية ، كغزة والقدس وصفد وحمه وطرابلس وحلب وقيس وإن السلطان جعل تسفيره نحو أربعين ألف دينار (٢١٠) . وليس هذا فحسب بل إنه نتيجة إفلاس الخزانة السلطانية في عهد السلطان الغوري ، ونتيجة لاستيلاء البرتغاليين على التجارة التي كانت تدر أرباحا طائلة لدولة سلاطين المماليك ، فإن السلطان الغوري بالإضافة إلى كثرة الضرائب التي فرضت في عهده ، فقد طلب دفع الضرائب مقدما لعدة سنوات ، كما فرض على اليهود والمسيحيين أموالا

كثيرة ، وهذا يبين لنا مدى انعكاس سوء الأحوال الاقتصادية في العاصمة وتأثيره في مدينة بيت المقدس ، والذي أدى في كثير من الأحيان الى جمع تلك المبالغ بشكل أو بآخر والتي كان يتم جمعها أحيانا بالقسوة والقهر^(٢١١) .

ويجب أن نشير أنه جرت محاولات من جانب بعض السلاطين المماليك المتأخرين لتجفيف وطأة تلك الضرائب عن أهالي بيت المقدس ، برغم الأزمات الاقتصادية التي كانت تعاني منها الدولة ، من ذلك ما يرويه لنا أحد الباحثين من أنه رسم السلطان الملك ناصر محمد أبو السعادات ابن قايتباي « بإبطال ما جدد على القصابين والمتسببين بالقدس الشريف من الحمايات والمظالم وأن يبيعوا اللحم بسعر الله تعالى ولا يؤخذ منهم لحم بغير قيد ثمن يتاريخ اليوم المبارك السادس من شهر ذى القعدة الحرام من شهور سنة اثنين وتسع مائة^(٢١٢) » .

كذلك يجب علينا أن نشير إلى أن المصادر والمراجع التي بين أيدينا ، لم تذكر لنا هل حدث في بيت القدس مثلما كان يحدث في غيرها من المدن ، من وجود الضريبة التي عرفت تحت اسم « مقرر السجون » وهي المبالغ التي كان يدفعها السجين للسجان والتي تبلغ ستة دراهم غير ما يغرمه حتى ولو تم الإفراج عنه بعد ساعة من سجنه أو حسب قول المقریزی (ولو لم يقم به إلا لحظة واحدة » أخذ منه المقرر ، وكذلك كان على سجن القضاء أيضا^(٢١٣) . إلا أننا نرجح وجود تلك الضريبة أو المقرر بسبب وجود السجون بالمدينة وهذا ما سوف نتناوله عند حديثنا عن الفصل الخامس في الحياة اليومية . كما تجب الإشارة أيضا إلى أنه وجدت مقررات أيضا أخرى نوردها هنا ، حيث وردت إشارة إليها عند المقریزی وهي المبالغ التي كانت تفرض على المساكين ، ودار الضرب ، وما يتحصل من دار الوكالة ، ونصف متحصل كنيسة القيامة بالقدس ، وإن لم يذكر لنا مقدار تلك الأموال^(٢١٤) .

أما عن الجوالى أو الجزية ، فهي عبارة عن الأموال التي فرضتها الدولة وفقا لأحكام الشرع على أهل الذمة من يهود ومسيحيين البالغين منهم دون النساء والصبية والرهبان والمجانين ، ويختلف مقدارها بحسب دخل الشخص منهم وقد تراوحت ما بين عشرة دراهم وخمسة وعشرين^(٢١٥) . وأنها كانت تحصل منهم سنويا وكان لهذه الضريبة ناظر يوليه نائب المدينة أو السلطان وكان موعد تحصيل هذه الضريبة أواخر كل سنة هجرية لا شمسية ويضاف إلى كل جزية درهمان وربيع عن رسم المشد والمستخدمين^(٢١٦) .

ومن المرجح أنها في عهد المقریزی وكما حدث في مصر فإنها كانت تستخرج « سلفا وتعجيلا في غرة السنة »^(٢١٧) وفي بداية عهد سلاطين المماليك كانت الأموال التي تجبى من هذه الجزية أو الجوالى بعضها يدخل لبيت المال ، والبعض الآخر يخصص للإنفاق على بعض القضاء وأهل العلم^(٢١٨) وأحيانا أخرى تكون مرصدة للقيام ببعض الأعمال العمرانية والتي كان الهدف منها خدمة أهل المدينة . مثال ذلك ما يرويه لنا المقریزی في حوادث سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م من أن السلطان المنصور قلاوون رسم أن تكون جوالى الذمة بالقدس وبلد الخليل وبيت لحم وبيت جالا مرصدة

لعمارة بركة في بلد الخليل^(٢١٩) إلا أن المقریزی يروى أيضا أنه اعتبارا من سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وبعد الروك الناصري فقد أصبح دخل الجوالى يضاف إلى الأمير صاحب الاقطاع كل بحسب ما لديه من عدد منهم ، وقد استمر هذا الوضع في دولة بني قلاوون وحتى عهد السلطان برقوق حيث حدثت بعض التعديلات قليلا قليلا في ذلك النظام ولعله يقعد بذلك أنها جرت مجرى المال الهلالى وخاصة إذا حدث وخرج الاقطاع إلى شخص آخر وعندئذ يستحق المقطع الجديد تحصيلها لأنها جزء من مال إقطاعه من تاريخ صدور منشوره بالاقطاع ، وإذا حدث وتخللت مدة بين المقطع الجديد والمقطع المنفصل وهو السابق غدا قسط هذه المدة وهي فترة الخلل من وجود مقطع فإن تلك المبالغ المستحقة عن هذه المدة تدخل ديوان الخاص السلطاني ، وجدير بالملاحظة أيضا أن المبالغ التي كانت تجبى من أبناء الذمة كانت في تناقص مستمر ، إما بسبب تنقلهم الدائم من إقطاع إلى آخر ، أو بسبب إسلام الكثيرين منهم بحيث أصبح كثير من العلماء والفقهاء ينادون بموجب تحصيلها شهريا^(٢٢٠) .

ومن المصادر الأخرى من مصادر المال ، والتي عرفت في بيت القدس وفي غيرها من البلاد التي خضعت لحكم سلاطين المماليك المواريث الحشرية ، والتي يقصد بها المال الذي تركه من لا وريث له أوله وارث لا يستحق كل الميراث فيكون ذلك من موارد الدولة والتي تضاف الى بيت المال ، ولعله كان يشرف عليها ببيت المقدس ناظر ديوان المواريث ، يعاونه كتاب لكتابه أسماء المتوفين وما يتعلق بهم ، وشهود وشاد ومشارف لتحصيل الارث^(٢٢١) .

أما فيما يختص بسياسة الرمي أو الطرح ، فإن المماليك لم يقنعوا بما فرضوه من ضرائب مباشرة على السلع والمشتريات ، أو تلك التي كانت تفرض على الأسواق والتجار ، أو المقررات التي فرضت على كثير من أوجه الحياة ، بل إنهم عمدوا إلى احتكار بعض السلع وفرض شرائها بالأسعار التي يحدونها على أتباعهم في البلاد التي خضعت لهم ، وهذا ما يسمى بنظام الطرح أو الرمي ، من ذلك ما يرويه لنا ابن تغرى بردى في حديثه عن سنة ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م أيام السلطان الناصر فرج بن برقوق ، من أن الأمير تنم نائب الشام كان قد اقام ابن الطبلاوى متحدثا في أمور الدولة بالشام فأخذ ابن الطبلاوى هذا في الافحاش في أمر الشاميين وطرح عليهم السكر الواصل من الغور^(٢٢٢) كذلك ما يرويه لنا المقریزی في حديثه عن سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م أيام المؤيد شيخ حيث وقف طائفة من بلد الخليل عليه السلام للسلطان وشكوا الهروى على مال أخذه منهم أيام ولايته على بلد الخليل وأنه طرح على بعضهم بيضا وألزمه أن يحمل بعده دجاجا فيعت السلطان إليه يأمره أن يخرج لهم مما يلزمه من الحق^(٢٢٣) كذلك ما يرويه لنا مجير الدين في حديثه عن سنة ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠ م أيام السلطان الأشرف قايتباى من أنه في أول ربيع الآخر حضر السيفى قانصوه من نخيم الأمير أقردى الدوا دارا لكبير بمرسوم برمي الزيت المتحصل من جبل نابلس على أهل بيت المقدس الخاص العام من المسلمين واليهود والنصارى ، كل قنطار بخمسة عشر دينارا وكان الزيت قبل ذلك من تقادم السنين ومضى الأزمنة يرد من جبل نابلس ويباع بالقدس والرملة بالسعر الواقع من غير حرج على

أحد واستمر الأمر على ذلك إلى سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م حيث تسبب بعض وسائط السوق في أمره فصار يضبط الزيت ويرمى على أربابه من التجار وهم الذين يصنعون الصابون بالقدس الشريف ومدينة الرملة ولما كانت تلك السنة أى ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠ م طلب أهل القدس بأسرهم وكتب أسماءهم في قوائم ، وعين لكل إنسان قناطر معينة وأمرهم بشراء الزيت كل قنطار بخمسة عشر دينارا وشدد على الناس وضربهم ضربا مؤلما وشرع يحمل كل واحد فوق طاقته ومن لم يظعن ضربه حتى كاد يهلك ، ومن غاب هجم على منزله وأخذ ماله من الأمتعة ومن لم يوجد له أمتعة ولا موجود أحضر زوجته وضربها وسجنها حتى تدفع ما على زوجها فهتك كثيرا من المخدرات ، ومن لم يظفر بزوجه أحضر من يكون من أقاربه فإن لم يوجد له قريب أحضر من يكون من جيرانه وباع الناس أمتعتهم وثيابهم بأبخس الأثمان وبقي الناس يأخذون الزيت كل قنطار بخمسة عشر دينارا ذهباً . ويبيعون بمائتي درهم وخمسين درهما فكانت الخسارة أكثر من الثلاثين .

وكانت محنة فاحشة لم يسمع بمثلها في عصر من العصور ، ثم تكرر حدوث مثل ذلك سنة ٨٩٩ هـ / ١٤٩٣ م في عهد السلطان نفسه (٢٢٤) ومما لا شك فيه أن تلك السياسة وهى سياسة الطرح أو الرمي فإن دلت على شيء فإنما تدل على مدى الانهيار الاقتصادى الذى كانت تعانيه دولة سلاطين المماليك فى أواخر عهدها ، وبخاصة منذ بداية عصر سلاطين الجراكسة لأننا لم نسمع عن مثل تلك الحوادث فى عصر المماليك الأول أى فى دولة المماليك البحرية ، كما كانت تلك السياسة أيضا ضمن العوامل التى ساعدت على التدهور الاقتصادى الذى شهدته المدينة فى أواخر عصر المماليك وكما سبقت الإشارة بذلك .

المعاملات المالية فى القدس

من المعروف أن مدينة بيت المقدس لم يكن لها نظام نقدى منفصل عن دولة سلاطين المماليك وهذه الحقيقة تؤكد لنا كثير من المصادر والمراجع فالقلقشندى فى حديثه عن القدس يقول « ومعاملتها بالذهب والفضة والفلوس على ما تقدم فى معاملة دمشق (٢٢٥) كذلك من المؤكد أيضا أن أحدا من ولايتها أو نوابها بعد أن تحولت إلى نيابة لم يقيم بسك عملة خاصة ، ودليل ذلك ما يرويه أحد الباحثين من أن الدينار الجديد والذى يطلق عليه اسم « الاشرفى » نسبة إلى الأشرف برسباى ظل هو العملة الذهبية فى كل من مصر وبلاد الشام جميعها حتى نهاية حكم المماليك (٢٢٦) ، كذلك يؤكد لنا ابن فضل الله العمرى أن معاملتها على أيامه أيضا كانت الدراهم « ثلثاها فضة والثلث نحاس .. » إلا أنه يذكر أنه وجد بها نوع من « الدارهم السود » والدراهم منها « ثلث دراهم » مما قيمته ، أى قيمة الدراهم ثمانية عشر حبة خروب — الخروبة ثلث قمحات ... والدراهم قيمته ثمانية وأربعون فلسا » وهذه الدراهم السود لم تستخدم فى المعاملات فى الديار المصرية ولكنها دراهم اسمية (٢٢٧) وكانت تلك الدراهم السود معروفة فى الاسكندرية لكنها ربما أقل من الدارهم السود فى القدس ، حيث يذكر نفس المصدر أن الدراهم منها فى الاسكندرية يعادل نصف درهم من الدراهم التى ثلثاها فضة والثلث نحاس (٢٢٨) .

إلا أنه تجب الإشارة إلى أن مدينة بيت المقدس قد عرفت بالإضافة إلى الدينار من الذهب ، والدرهم الفضة والفلوس من النحاس ، وذلك منذ أواخر القرن الثامن الهجرى ، حيث يروى لنا ابن الهائم « ت سنة ٨١٥ / ٤١٢ م » أنه عندما كان مقيماً بالقدس عام ٧٩١ هـ / ١٣٨٨ م « كان التعامل إذ ذاك بالقدس الشريف بالفلوس العددية ، وكانت نوعاً واحداً كل ثمانين فلساً منها بدرهم ، وكل حبة خمسة أفلس لأن الحبة عبارة عن نصف ثمن الدرهم في القدس بخلاف مصر حيثئذ حماها الله تعالى فإنها عبارة عن ثلث قيراط وما كانت الفلوس رابحة رواج النقود لعدم التعامل بها في شراء عقار ونحوه ثم غيرها بعض النواب في القدس الشريف فجعل الحبة ستة أفلس والدرهم ستة وتسعين فلساً فرخصت قيمتها ونقص عدد الدراهم خمسة ، ثم دخلت الفلوس المصرية العددية القدس الشريف المعبر عنها بالجديد وكانت إذ ذاك كل أربعة وعشرين فلساً بدرهم .. وصار التعامل في القدس بالتوعين ثم راجت الجدد على العتق رواجاً كبيراً .. ولم يتعامل الناس بالدراهم ولا بالفلوس العتق إلا نادراً .. (٢٢٩) . هذا ويؤكد لنا ابن الهائم أن كثيراً من النواب كان يقوم بتغيير قيمة تلك الفلوس وانقاص عددها مما كان يسبب كثيراً من الاضطراب في الأحوال الاقتصادية ، وفي المعاملات المالية مما دعاه إلى تأليف كتابه هذا لكي يكون عوناً على حل المشكلات التي كانت تنجم عن ذلك (٢٣٠) .

وجدير بالذكر أيضاً أن بيت المقدس قاست مثل غيرها من المدن من أثر التلاعب في سك العملات سواء الذهبية أم الفضية وما كان يحدث فيها من غش ، من ذلك على سبيل المثال ما يذكره لنا المقرئ من أن المعاملات المالية كانت مستقرة منذ بداية عصر سلاطين المماليك وبخاصة عصر السلطان الظاهر بيبرس الذي ضرب الدراهم الظاهرية نسبة إليه « وجعلها كل مائة درهم من سبعين درهماً فضة خالصة وثلاثين نحاساً وجعل رنكه على الدرهم وهو صورة سبع فلم يزل الدراهم الكاملة (٢٣١) . والظاهرية بديار مصر وديار الشام إلى أن فسدت سنة إحدى وثمانين وسبع مائة بدخول الدراهم الحموية في إمارة الملك الظاهر برقوق قبل سلطنته .. فلما تسلطن .. أكثر من ضرب الفلوس وأبطل الدراهم فتناقصت حتى صارت عرضاً ينادى عليه في الأسواق .. » كذلك يؤكد أن تغيير النقود ونقصان قيمة الفضة فيها كان يصحبه كثير من القلاقل والاضطرابات الاقتصادية وبخاصة في المعاملات في الأسواق والايجار وأسعار السلع وما إلى ذلك (٢٣٢) . كذلك في حديثه عن سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م عقب مقتل السلطان فرج بن برقوق يروى أن الدراهم التي كان يتم التعامل بها كان نصفها فضة ونصفها نحاساً ، واستمر انقاص الفضة منها إلى أن صارت الفضة عشر الدرهم والتسعة أعشار من النحاس مما أدى إلى ارتفاع سعر الذهب بشكل كبير ، بحيث ارتفع الدينار من خمسة وعشرين درهماً ، إلى خمسة وخمسين درهماً ، ولاشك أن هذا الارتفاع في سعر الذهب كان لا بد أن يصحبه ارتفاع كثير من الأسعار والسلع (٢٣٣) . ومن المرجح أن تكون عمليات التغيير الدائم في قيمة العملة قد صاحبها نشاط كثير من مزيفي النقود المعروفين « بالزغلية » وإن كانت المصادر التي بين أيدينا لم تشر صراحة من قريب أو بعيد لذلك .. ومن الطبيعي أن تتأثر مدينة بيت المقدس مما كان يحدث بهذا الخصوص ، وليس بغريب أن يكون هذا هو حال بعض

مزيفى النقود ، فالسلاطين أنفسهم ساعدوا على ذلك الاضطراب في قيمة العملة وبخاصة السلطان برسباى ومن أتى بعده من سلاطين المماليك ، فبعد احتكاره لكثير من أنواع المتاجر عمد إلى إنقاص معدل العملة ، سواء من الذهب أو الفضة أو النحاس ، مع الاحتفاظ بقيمتها الاسمية ، وقد حذا حذوه كثير من السلاطين من بعده ، وحتى نهاية عصر سلاطين المماليك ، مما ساعد على زيادة التدهور الاقتصادى الذى شهدته البلاد (٢٣٤) .

وأخيرا تجب الإشارة إلى أن مدينة بيت المقدس عرفت إلى جانب العملات المحلية من دينار ودرهم وفلس كثيرا من المعاملات الأجنبية ، وتنوعت النقود المتداولة فيها تنوعا يتناسب مع العناصر والأجناس التى كانت تفد إليها ، وبخاصة من الحجاج الوافدين من الغرب الأوربى ، وغيرهم من البلاد الأخرى ، ويؤكد لنا كثير من الرحالة ان العملات التى عرفت في الغرب الأوربى كانت متداولة في بيت المقدس ومعروفة ، من ذلك ما يرويه الرحالة فابرى الذى زارها وكما سبق القول أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، أن العملات الفضية الألمانية والتى عليها علامة الصليب والتى كانت من الفضة الجيدة كانت مستعملة (٢٣٥) . كذلك عرفت مدينة بيت المقدس الدوكات وهى عملة بنديقية سكنتها البنديقية عام ١٢٩٤ م ، وقبل ذلك كانت تستخدم مع معاملاتها في الشرق الفلورين وهى عملة فلورنسة الذهبية والقرنتى ، وكذلك الدوكات الفضية إلا أن التعامل بها كان قليلا لعدم إقبال الناس على التعامل بها في بلاد الشام ، وإصرارهم على التعامل بالدوكات الذهبية (٢٣٦) . إلا أنه من الملاحظ أن الدوكات كان من أهم العملات التى تدفقت على مدينة بيت المقدس ، ولعل هذا راجع في المقام الأول إلى قيام البنادقة بحمل الحجاج المسيحيين إلى الأراضي المقدسة والذين كان عليهم تغيير ما معهم من عملات محلية خاصة ببلادهم بعملة البنديقية وهى الدوكات ، فضلا عن ثبات نسبة الذهب فيها وتفوقها على غيرها من العملات ، وحتى أواخر عصر سلاطين المماليك ، ولعلها أيضا كانت العملة المفضلة لدى كل من يفد الى المدينة ، ويؤكد لنا الرحالة عوبيديا الذى زار القدس سنة ١٤٨٨ م ذلك بقوله أنه كان على اليهودى الذى يفد من القاهرة لزيارة القدس أن يدفع مبلغ عشرة دراهم فضية عند بوابة المدينة المقدسة ، كما أن كل واحد من اليهود كان مضطرا لدفع مبلغ خمسين دوكات سنويا للنائب بالقدس لكى يصرح له بصنع النبيذ وبيعه (٢٣٧) . بالإضافة إلى أن كثيرا من الحجاج كانوا يجلبون معهم البيزنطة وهى التى كانت تعادل عشرة دراهم في ذلك الوقت تقريبا (٢٣٨) ومع هذا كانت الدوكات البنديقية من أهم العملات ، ولعل السبب الرئيسى في ذلك يرجع إلى أن المماليك أنفسهم منذ القرن الرابع عشر والخامس عشر ، اعتبروا الدوكات ثم الفلورنسية عملة رسمية ، وذلك بعد أن زاد تعاملهم مع البنادقة في كل من مصر والشام ، ولعل مما شجع أيضا أن العملة في المدن المملوكية لم تستطع مجاراة الدوكات لثبات وزنها وقيمتها ، بينما العملات المملوكية كانت في تناقص مستمر (٢٣٩) . وجدير بالملاحظة أن التدهور في العملة المملوكية كان مرجعة إلى عدة إعتبارات ، منها سوء الأحوال الاقتصادية التى شهدتها البلاد منذ عهد الجراكسة والذى كانت له آثار منذ بداية عهد دولة سلاطين المماليك الأولى ، فيما يتعلق بعدم الاهتمام بالانتاج الزراعى والأرض الزراعية والاعتماد على التجارة الخارجية ، فلما انهارت

للتجارة الخارجية سحب ذلك انهيار الانتاج الزراعى ، وبالتالي الصناعى فضلا عن أن كثرة الحروب الداخلية والخارجية التى شنتها دولة المماليك سبب الاستنزاف الدائم لمواردها الاقتصادية وما أدى إليه ذلك من تلاعب السلاطين بالعملات ، وخاصة بعد قلة ما كان يصل من الذهب من السودان ، وخصوصا بعد وصول البرتغاليين إلى ساحل غانا عام ١٤٦٠ م ومقايضتهم الأهالى بسلعهم على الذهب ، وبدأ هذا الذهب يتجه منذ ذلك الوقت إلى المحيط الأطلسى وليس إلى البحر المتوسط ، فشحت العملات الذهبية من مدن إيطاليا ، ثم بالتالى من مصر وبلاد الشام . ومما لاشك فيه أن كمية الفلوس التى كانت تسك من النحاس أيضا قد تأثرت أيضا فى أواخر عصر سلاطين المماليك حيث قل ورود النحاس الذى كان يجلبه البنادقة نتيجة لسياسة الاحتكار التى اتبعها السلاطين ، ومغالاتهم فى أسعار التوابل وغيرها من متاجر الشرق ، فضلا عما أضرت به تلك السياسة من قلة كمية النقد الذى كان يتدفق على البلاد ، وانخفاضه بنسبة كبيرة ، مما كان له أكبر الأثر فى اضطراب المعاملات التجارية وبالتالي قيمة العملة (٢٤٠) .

من هذا العرض عن الحياة الاقتصادية فى مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك يتضح لنا كيف أثرت العوامل الطبيعية فى أحوالها النباتية ، وما أدى إليه ذلك من تنوع انتاجها الزراعى ، ثم ما ترتب عليه من نشاط التجارة والصناعة وأن المؤسسات التجارية المختلفة قد ساعدت على إزدهار ونمو التجارة الداخلية والخارجية ، فضلا عن تأثر المدينة بكثير من الأزمات الاقتصادية التى عرضاها وأسبابها ، وكيف انعكست سياسة سلاطين المماليك الدينية فى التخفيف عن كاهل الأهالى بالرغم من الأزمات التى عانت منها الدولة ، كذلك كيف انعكست أحوال المعاملات النقدية على المدينة .

هوامش

- (١) راجع الأنس الجليل وبخاصة الجزء الثاني من الكتاب حيث يتضمن الكثير من ذكر العلماء الذين آثروا الحياة فيها والذين يشغل ذكركم حوالى ثلاثة ارباع هذا الجزء ؛ سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة ... » ، ص ٢٨ .
- Amiry: Jerusalem, (٢) عبد الحميد زايد: القدس الخالدة ، ص ١٣ — ١٥ ؛
- P.8 (٣) معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٦٨
- Hinckley: The Modern Wall of Jerusalem.» (٤)
- A.A.S.O.R. Vol. 1, P. 36
- Amiry Jerusalem P.8. (٥)
- Hinckley: «The Modern Wall of Jerusalem» Vol. I P. 35 & Bartlett Jerusalem P.53 (٦)
- Adler: Jewish Travellers. P. 195 (٧)
- (٨) نقولا زيادة : رواد الشرق العربى ص ١٩٩ .
- Aamiry: Jerusalem P.8 (٩)
- A Visit to the Holy Places. (١٠)
- Treatise on the Holy Land PP. 218-19 (١١)
- (١٢) الانس الجليل ج٢ ، ص ٦٩٧ — ٦٩٨
- (١٣) من المرجع أن المن هذا أحد المكايل المستخدمة في ذلك العصر راجع : — سفرنامه ، نقلة للعربية وقدم له وعلق عليه د . يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ ص ١٩ — ٢٠ .
- (١٤) وادى جهنم يطلق عليه اسم وادى القديرون أو وادى اليوسيفيات أو وادى الساهرة أنظر
- Le strange: Palestine Under The Moslems. P. 218
- Foster, the Travels of John Sanderson in the Levant (١٥) عبد الحميد زيد : القدس الخالدة ص ١٥
- London 1931, P. 105;
- Fabri: The book of the wandering of Vol.I P., 279 Le Strange Palestin Under the Mosleims, P.84, (١٦)
- Lees Vilage Life in Palestine P.139; Tweedie: Jerasalem and its environs. PP. 60-62; Wilkinson: Jerusalem Pilgrims P.100
- يلا شهر منتخبات من اثار الجغرافيين ص ١٦٧ .
- (١٧) الانس الجليل ج٢ ص ٤٢٣ .
- (١٨) نفس المصدر ج٢ ص ٤٠٩
- (١٩) عبد الحميد زايد القدس الخالدة ص ١١٧
- Stewart Perown: The Pilgrim's Companion P.39. (٢٠) سفر نامه ، ص ٣٢ .
- Wright Early Travels .P 63; The Travels of Bertrandon. P.98; The rev. Henry: (٢١)

- A visit to the east P. 328 (٢٢) مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة
والبقاع طبع ليدن ١٨٥٠ — ١٨٦٢ ، ج ١ ص ٤٨ .
- Hinckly: «The modern wall of jerusalem.» Vol. I PP.1-28. (٢٣)
- Newett: Casola's Pilgrims to Jerusalem P.250 (٢٤)
- Rev. samuel: those Holy fields. PP. 92-95 (٢٥)
- Warner: the survey of western palestine, P. 28; Wilkinson: -
- Warner: OP. Cit, P.22; Wilkinson:
- Jerusalem Pilgrims P. 100. (٢٦)
- Smith: Jerusalem Vol I P. 298-302; Wilkinson a p. cit P. 100 (٢٧)
- Warner, OP. cit; P. 16 (٢٨) الانس الجليل ج ٢ ص ٤٠٩ ؛
- Foster: The travels of John sanderson P. 112; charles dudly: In the Levant P. 29 (٢٩)
- Newett: Casola's pilgrims. P. 240. (٣٠)
- Wright: Earlytravels in palestine P. 288; P.P.T.S. Vol XII, P. 101 (٣١)
- Suranino: Treatis P. 221-22; smith: jerusalem. Vol. I. P. 304 (٣٢)
- Newett; O.P. cit P. 240 (٣٣) معجم البلدان ج ٨ ص ١١٥
- PP. T.S. Vol XII, P. 99 (٣٤) الانس الجليل ، ج ٢ ص ٤١٠ .
- Newett: Gasola's Pilgrims P.237 (٣٥)
- Ashtor: A Social and Economic Hist. P. 300 (٣٦)
- Treatise on the Holy Land, P.319, Smith Op. Cit. Vol. I., P. 298 (٣٧)
- PP.T.S. Vol., XII, P.99 (٣٨)
- The rev. Henry. A visit to The East P.331 (٣٩)
- (٤٠)
- (٤١) ابن شداد : سيرة صلاح ، ص ٣٠١
- (٤٢) مجير الدين : الانس الجليل ، ج ٢ ص ٤٣٨ ، ٤٤٤ سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على مدينة القدس ، ص ١٨ .
- Conder: The City of jerusalem, P. 264. (٤٣)
- P.P.T.S. Vol. XII., P. 99 (٤٤)
- (٤٥) رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ، ص ٦٠٣ — ٦٠٤ .
- (٤٦) إنباء المعصر بآبناء العصر ، ص ٤١٧ — ٤١٨
- (٤٧) معيد النعم ، ص ٣٤ ؛ ابراهيم على طرخان ، النظم الاقتصادية ص ١٣ .
- (٤٨) السلوك ، ج ٢ قسم ٢ ، ص ٥٨٤ .
- The Travels of Martin Baumgarten, Vol. II, P. 460-61 (٤٩)
- (٥٠) ابراهيم على طرخان ، النظم الاقتصادية ، ص ١٥٥ — ١٥٦ .
- (٥١) الانس الجليل ، ج ٢ ص ٦٧٦ .
- Smith: Jeruslem Vol., I PP.38-39 ; Lapidus: Muslim cities, P. 39 (٥٢)
- Palastine Exploration Fund, (1965-66) P. 125 (٥٣)
- Ellis: Bible Lands P. 159, Charles Dudley: in the Levant. P. 19 (٥٤)
- Smith. Jerusalem. Vol., I, PP. 308-309 (٥٥)
- The travels of Sir John Mandeville, P. 48 (٥٦)
- Lapidus: Muslim cities PP. 50-52 (٥٧)

- (٥٨) Wright: Early Travels in Palestine P. 84; Ibid OP. Cit. PP. 65-66
- (٥٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ ١٢ ص ٢٢٩ ؛ أبو شامة الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٩٥ .
- (٦٠) عارف المعارف : تاريخ القدس ، ص ٢٢٩ .
- (٦١) Foster: The Travels of John Sanderson P.106
- (٦٢) Aamiry: Jerusalem P.9; Hinckly: The Modern Wall of Jérusalem» PP. 32-34
- (٦٣) علي محمد علي : فلسطين ، ص ١٩ — ٢٠
- (٦٤) Pococke; Description of the East, Vol. II P.3 .
- Smith; Jerusalem Vol. I, PP 319-320
- (٦٥) العطار الشامي : رحلة العطار الشامي من دمشق الى القدس ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥١٨ تاريخ تيمور ، ورقة ٣٤ .
- (٦٦) عارف العارف : تاريخ القدس ص ٢١١ .
- (٦٧) عارف العارف المرجع السابق ص ٥٢
- (٦٨) زبدة كشف الممالك ص ٢٣
- (٦٩) عارف العارف : نفس المرجع ص ٢١٢
- (٧٠) P.P.T.S. Vol. XI, P.99
- (٧١) A Shor: A Social & Economic Hist. P. 301
- (٧٢) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ٢١١ ؛ المقرئ : السلوك جـ ٢ قسم ١ ، ص ٢٨٩ ؛ ابن حجر : إنباء العمر ، جـ ١ ص ٣٣٥ .
- (٧٣) ابن قاضي شهاب : تاريخ ص ٢٣٨ ؛ المقرئ : السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٦١٩ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ص ٦١٩ ، ٦٦٨ ، ٦٧٨
- Lapidus. Muslim Cities P. 5
- (٧٤) (٧٥) مجير الدين : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٦٨٦
- (٧٦) سفر نامه ، ص ١٩ — ٢٠ .
- (٧٧) مجير الدين : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٦٧٩ ؛ أحمد دراج : وثائق دير صهيون ص ٦٩
- Lapidus. Muslim Cities P.56
- (٧٨) Treatise on the Holy Land P. 10
- (٧٩) Lapidus: Muslim Cities P. 31
- (٨٠) Ibid. Op. Cit., PP. 31-32
- (٨١) Newett: Casola's Pilgrims P. 243
- (٨٢) P.P.T.S. Vol. VI., PP. 6-18
- (٨٣) Ibid/ Vol. VI., P.18
- (٨٤) Adler: Jewish Travellers. PP. 152-153
- (٨٥) (٨٦) العطار الشامي : رحلة العطار الشامي ورقة ٥ — ٧ مخطوط .
- (٨٧) نفس المصدر ، ورقة ١٦ مخطوط .
- (٨٨) نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ص ٦٩ ؛
- (٨٩) الحيارى : تحفة الأدباء وسلوة الغرباء المعروف برحلة الحيارى ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٥ جغرافيا ، ص ٢١ .
- Prescott: Jerusalem Journey P.174
- (٩٠) Joshua Praver: The Latin Kingdom of Jerusalem P208
- (٩١) (٩٢) القواصر هي أعناق النخيل ، راجع « مختار الصحاح » .
- (٩٣) الأنس الجليل ، جـ ١ ص ٦٣٧ .
- (٩٤) Newett: Op. Cit. P.251
- (٩٥) نقولا زيادة : لمحات من تاريخ العرب ص ٢٤٩ ؛
- (٩٦) رشاد الامام : مدينة القدس ١٥٠ .
- (٩٧) مجير الدين : الأنس الجليل جـ ٢ ص ٤ ، اللقيمي : كتاب لطائف أنس الجليل ، ورقة ٣٤ مخطوط .

- (٩٨) زبدة كشف المالك ص ٢٣ .
- (٩٩) اسم الفندق مأخوذ من الكلمة اليونانية Pandokeion والتي نقلت الى اللغة الايطالية لتدل على المبنى الذي أسفله مخازن وأعمدة حجرات نوم لسكنى الاجانب راجع : آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده القاهرة ١٩٤١ ج٢ ص ٣٢٦-٣٢٧ .
- (١٠٠) نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها ص ٢٨٣ - ٢٨٩ .
- (١٠١) نفس المرجع ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .
- Conder: The City of Jerusalem P. 297
- (١٠٢) الأنس الجليل ، ج١ ص ٤٠٣ ،
- (١٠٣) ليزيد من المعلومات عن العمليات السابقة راجع : نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها ص ٣٤٠ - ٣٤٧
- (١٠٤) نفس المرجع ص ٢٩٤ .
- (١٠٥) السلوك ، ج١ قسم ٢ ، ص ٤٩١ .
- (١٠٦) الروض الزاهر ، ص ١١٨ .
- (١٠٧) نعيم زكي : نفس المرجع ص ٢٩٤ .
- (١٠٨) مسالك الأبصار ج١ ص ١٦٢ .
- (١٠٩) نعيم زكي : نفس المرجع ص ٢٨٧ .
- (١١٠) الأنس الجليل ، ج١ ص ٤٠٣ .
- (١١١) الأنس الجليل ، ج١ ، ص ٤٠١ - ٤٠٥ .
- Newelt: OP. Cit. P 251
- (١١٢)
- (١١٣) رشاد الإمام : نفس المرجع ، ص ١٥٢ .
- P.P.T.S. Vol IV, . P. III.
- (١١٤)
- The Travels of Lodovico, P. 14
- (١١٥)
- Newett. Casolas Pilgrims P, 251
- (١١٦) مجير الدين : الأنس الجليل ج١ ص ٢٠٤ ، ٤٨٦
- (١١٧) نفس المصدر ، ج٢ ص ٤٠٤ .
- (١١٨)
- Smith: Jerusalem. Vol. I, PP. 315-319
- Rev. Samuel; Those Holy Fields, P. 98
- (١١٩)
- Travels and Adventures (1435-1439), London 1926, P.57
- (١٢٠)
- P.P.T.S. Vol. IX, P.84.
- (١٢١)
- Conder: The City of Jerusalem P. 287
- (١٢٢)
- Ency. Britanica Vol., 12 Scotland 1972, P.1009
- (١٢٣)
- Arte. Pilgrims in Jerusalem.
- (١٢٣)
- Stewart Perwon: The Pilgrim's Companion P.23
- (١٢٤)
- P.P.T.S. Vol., VII, P,P. 226-227, P. 270
- (١٢٥)
- Conder: The city of Jerusalem P268; Waron: The Survey of Western Palestine PP. 22 - 23.
- (١٢٦)
- Lapidus: Op. 268
- (١٢٧) على محمد علي : فلسطين ماضيها العربي
- Lees, Village life in Palestine
- PP. 180 - 187.
- ص ٢١ ، عمر صالح البرغوثي تاريخ فلسطين ص ٢٦٠ ؛
- Cunningham: The Holy Land and the Bible, Vol., I
- (١٢٨)
- New York - James Pott., 1888, PP. 460 - 461
- Lees., Op. cit., P. 180
- (١٢٩)
- lapidus: Muslim Cities P. 96
- (١٣٠)
- Bayard Dodge: Muslim Education P.5.
- (١٣١)
- Ibid: P.5
- (١٣٢)

- (١٣٣) ابن الأختوة : معالم القرية ، ص ٣٢١ .
- (١٣٤) Ency Br., art., Pilgrimage
- (١٣٥) نقولا زيادة : رواد الشرق العربي ، ص ٤١
- (١٣٦) نقولا زيادة : المرجع السابق ص ٤٢ — ٤٢ .
- (١٣٧) نفس المرجع ص ٤٣
- (١٣٨) Pocock: A Description of The east Vol. I, P.2
- (١٣٩) Treatise on The Holy Land P. 186
- (١٤٠) Graham: With The Russian Pilgrims To Jerusalem London 1927, P.81
- (١٤١) نقولا زيادة : نفس المرجع ص ١٥ .
- (١٤٢) Roy John: A Collection of Curious Travels Vol. I, 1331
- (١٤٣) Bartlett: Jerusalem Revisited PP. 53-59
- (١٤٤) The Book of P.110
- (١٤٥) Newett: Casola's Pilgrims, P.6
- (١٤٦) Marie- Joseph, Apilgrimage to palestine p. 15
- (١٤٧) نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ومعطاتها ، ص ١٥٢ .
- (١٤٨) Ashtor: A Social and economic hist. p. 298.
- (١٤٩) Prescott: once to sinai p. 19, Aziz Suryal. The Crusade in the later middle Ages london, 1938. pp. 217-221.
- (١٥٠) Pero Tufur: Op. Cit., P.59; Newett: Op. Cit., 292
- (١٥١) Wright, Early Travels in Plastine P.288
- (١٥٢) P.P.T.S. Vol. IX, PP. 105-107
- (١٥٣) Wright: Early Travels In Palestine P. 165-166
- (١٥٤) P.P.T.S., Vol. VII, PP. 642-646
- (١٥٥) نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ، ص ١٥٢ .
- (١٥٦) Tafur: Op. Cit., P. 56
- (١٥٧) Treatiseon The Holy Land P.34
- (١٥٨) نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ٩ ص ١٥٣ .
- (١٥٩) أحمد دراج : وثائق دير صهيون ص ٧٥ ، ٧٨
- (١٦٠) Newett: Casol's Pilgrims, P. 296.
- (١٦١) The Travels of Bertrandon de La Brocquire P. 92
- (١٦٢) Wright: Early Travels in Palestine P.288
- (١٦٣) Fabri: The book of the wanderings. Vol. I, P. 286;
- A visit to the holy places P. 154
- (١٦٤) P.P.T.S. Vol., IX, P.103; Bernhard von Breydenbach and his Journey to the holy Land. 1484-4, London 1911, P.XV.
- (١٦٥) Foster: the Travels of John Sanderson, London 1931 PP. 109-110.
- (١٦٦) نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ص ٦٩ ؛
- Eathen: A Clasic of Travel in the Middle east Univ. of Nebraksa Press Luncod 1970, PP. 188-190
- (١٦٧) Prescott: Once to Sinao P.23
- (١٦٨) Wright: Early Travels in Palestine P.288; The Travels of Bertrandon PP. 96-97
- (١٦٩) Von Breydenbach: The Journey. P.XVI.

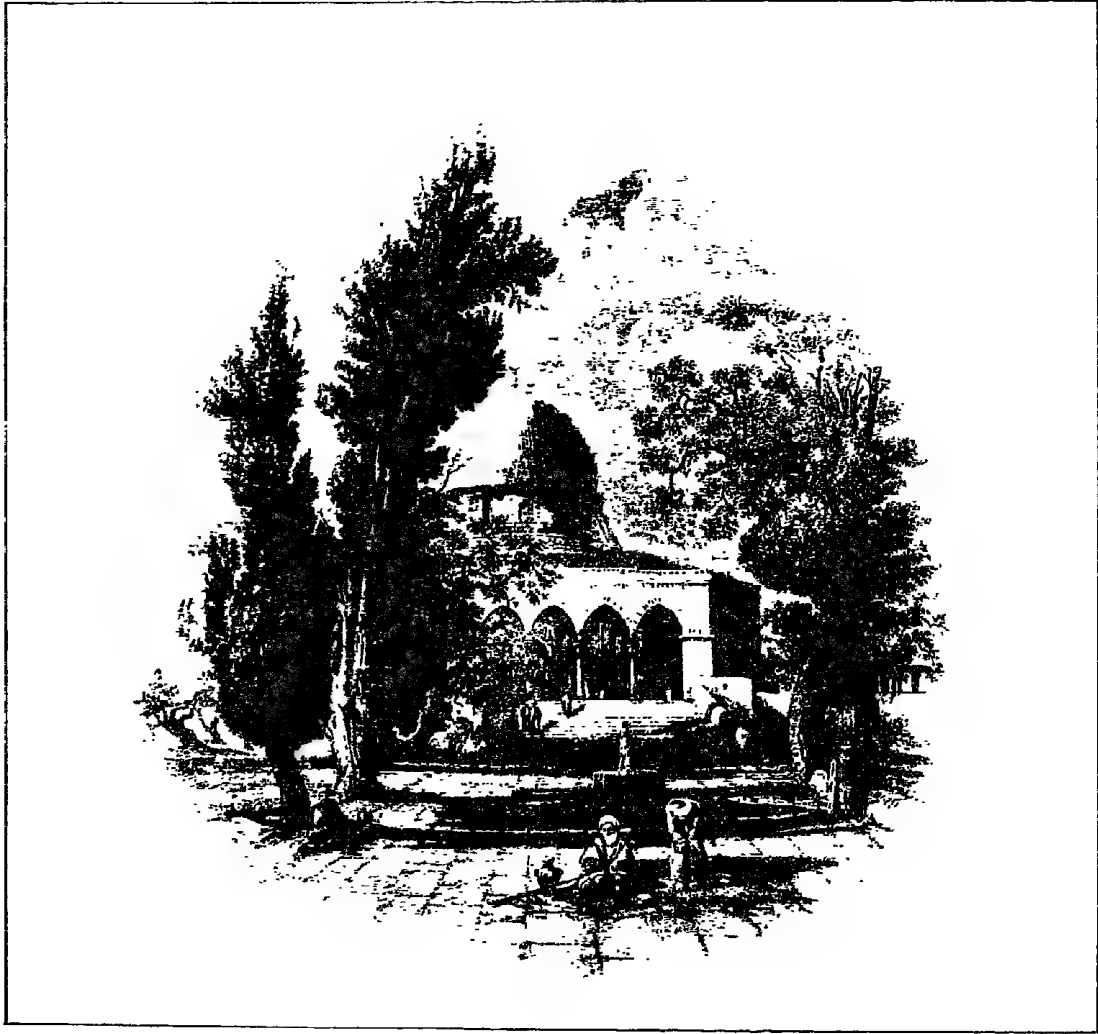
- The Travls. of Bertrandon PP. 96-97 (١٧٠)
- Murray: Syria and Palestine Vol. I PP. LXV-IXV (intro) (١٧١)
- (١٧٢) أحمد دارج : وثائق دير صهيون ، ص ٧٨ .
- Newett: Casola's Pilgrims P.225; P.P.T.S. Vol. (١٧٣)
- The Travels. P.56 (١٧٤)
- (١٧٥) مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ص ٦٧٤ .
- (١٧٦) قاسم عبده قاسم : دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي دار المعارف ١٩٧٩ م ، ص ١٤٨ .
- (١٧٧) السلوك ج ٤ ، قسم ١ ص ٦٠٩ .
- (١٧٨) مجير الدين : الأنس الجليل ج ٢ ص ٦١٩ في ذكر حوادث سنة ٨٧٣ هـ .
- (١٧٩) نفس المصدر ج ٢ ص ٦٢١ .
- (١٨٠) نفس المصدر ج ٢ ص ٦٧٨ .
- (١٨١) تاريخ ابن قاضي شهبة ، ج ٣ مجلد ١ ص ٥٨١ .
- (١٨٢) المصدر نفسه ج ٣ مجلد ١ ص ٢٣٨ ، ٢٨٩ .
- (١٨٣) المقرئ : السلوك ج ٢ قسم ١ ص ٢٨٩ .
- (١٨٤) شذرات الذهب ، ٦ ، ص ٦٢ .
- (١٨٥) ابن قاضي شهبة : تاريخ ، ج ٣ مجلد ١ ، ص ٣٩ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل : ج ٢ ص ٣٤٨ .
- (١٨٦) الأنس الجليل ج ٢ ، ص ٦٧٤ .
- (١٨٧) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٨٨ .
- (١٨٨) الذيل على الروضتين ، ص ٢١١ .
- (١٨٩) سعيد عاشور : المجتمع المصري ، ص ٨٨ .
- (١٩٠) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج ٢ ص ٩٢ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ ؛ أحمد عبد الرازق أحمد : البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك (دراسة عن الرشوة) طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ ، ص ١١٦ — ١٢٦ .
- (١٩١) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٦٤٧ — ٦٦٦ .
- (١٩٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٦٤٢ .
- (١٩٣) منتخبات من حوادث الدهور ، ج ٢ ص ١٧٦ .
- (١٩٤) المكوس : يقصد بها الضرائب التجارية التي كانت تفرض على بعض أنواع التجارة مراجع سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك بمصر ، نشر دار النهضة بالقاهرة ١٩٧٠ ص ١٨٠ .
- (١٩٥) زبدة كشف الممالك ، ص ٩ ، ٢٢ .
- (١٩٦) تاريخ أبو الفدا طبع القسطنطينية ١٢٨٣ هـ ، ج ٤ ص ٩٥ .
- (١٩٧) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٦٠٨ ؛ سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة ، ص ٣٩ .
- (١٩٨) المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٦٤٧ .
- Van Berchem: Jerusalem Ville. Vol. 44, Pt. 1, P: 153 (١٩٩)
- Lapidus: Muslim cities. PP. 9 - 11 (٢٠٠)
- Wolf-Dieter: Histroical Geography. PP. 66-72: Ziadeh: (٢٠١)
- Urban life in Syria under the early Mamluks- American Univ. of Beirut, 1953, P. 27
- طرخان : النظم الاقطاعية ، ص ٧٩
- (٢٠٢) السلوك — ج ٢ قسم ٣ ص ١١٥٤ .
- (٢٠٣) الأنس الجليل ، ج ٢ ص ٦٦٦ .

- (٢٠٤) كرد على : خطط الشام ، ج٥ ، ص ٧٦ .
- (٢٠٥) الروض الزاهر ، ص ٤٢٠ .
- (٢٠٦) المواعظ والاعتبار ، ج١ ص ١٠٦ ؛ السلوك ج١ قسم ٣ ص ٦٦١ .
- (٢٠٧) مؤلف مجهول : حوايل ومشقة نشر وتحقيق حسن حيشي القاهرة ١٩٦٨ ص ٥٣ .
- (٢٠٨) ابن أجا : تاريخ الأُمير يشبك ، نشر دار الفكر العربي ١٩٧٣ ص ٦٨ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٦٧٨ .
- Ashtor: A Social and Economic Hist. P. 330
- (٢٠٩)
- (٢١٠) مفاكهة الخلان ، القسم الأول ، ص ٧٨ .
- Ziadah: Urban Life P.26;
- (٢١١) نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ص ٣٠ ؛
- Van Berchem: Jerusalem Ville., Vol. 44 P. 374.
- (٢١٢)
- (٢١٣) المقرئى الخطط ج١ ص ١٦٤ طبعة دار الشعب ص ٨٨ من نفس الجزء طبعة بولاق .
- (٢٤) السلوك ج٣ قسم ٣ ص ١٠٦٦ في ذكر حدودات سنة ٨٠٣ هـ .
- (٢١٥) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ، ٤٢٨ ؛ ابن طولون : إعلام الوري ، ص ٢٩ .
- (٢١٦) ابن طولون إعلام الوري ص ٢٩ .
- (٢١٧) المقرئى : الخطط ج١ ص ١٠٦ طبعة بولاق .
- (٢١٨) ابن طولون نفس المصدر ص ٢٩ .
- (٢١٩) السلوك ، ج١ قسم ٢ ص ٧١٢ ؛ سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة » ص ٣٠ .
- (٢٢٠) المقرئى : الخطط ج١ ص ٨٩ — ١٠٦ ؛ إن طولون : إعلام الدورى ، ص ٢٩ ؛ طرخان : النظم الاقطاعية ، ص ٨١ — ٨٢ .
- (٢٢١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ص ٤٦٠ ؛ عبد النعم ماجد : دولة سلاطين المماليك ، ص ٧٦ .
- (٢٢٢) المقصود بالغور هنا غور فلسطين وهو حوض نهر الشريعة الكبير المسمى نهر الأردن أنظر النجوم ، ج٢ ، ص ١٨٢ .
- (٢٢٣) السلوك ، ج٤ قسم ١ ص ٤٤٨ .
- (٢٢٤) الأنس الجليل ، ج٢ ص ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٩٤ ، ٧٠٢ .
- (٢٢٥) صبح الأعشى ج٤ ص ٩٩ ؛ نقولا زيادة : لمحات من تاريخ العرب ص ٢٩٤ .
- Lapidus Moslum Cities P.30 بالارشاد لا الايام مدينة القدس ص ١٥٥ .
- Ashtor: A Social and Economic Hist. P. 324
- (٢٢٦)
- (٢٢٧) مسالك الأبصار ، ج٥ ورقة ٦٨ مخطوط .
- (٢٢٨) نفس المصدر والصفحة .
- (٢٢٩) نزعة النفوس في بيان التعامل بالفلس ، مخطوط دار الكتب المصرية برقم ب ٢٥٨٧١ ورقة ١ — ٦ .
- (٢٣٠) نفس المصدر ورقة ٢ مخطوط .
- (٢٣١) نسبة إلى الملك الكامل بن العادل الأيوبي والتي سكها سنة ٦٢٢ هـ ، راجع المقرئى : شذور العقود في ذكر النقود ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٢٠٣٦ ح ، ورقة ١٠ .
- (٢٣٢) نفس المصدر ورقة ١٦ — ١٩ .
- (٢٣٣) السلوك ، ج٤ ، ص ٢٣٢ .
- (٢٣٤) نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ص ٣٥٦ — ٣٥٨ .
- The Book of the Wandering of. Vol. II, P. 138
- (٢٣٥)
- (٢٣٦) لمزيد من المعلومات عن هذه العملات راجع القلقشندي صبح الأعشى ج٣ ، ص ٤٤١ ؛ توفيق اسكندر : نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية في العصر الوسيط ، المجلة التاريخية العدد السادس لسنة ١٩٥٧ ص ٣٨ — ٤٠ نقولا زيادة دمشق : في عصر المماليك ص ١٦٨ ؛ أحمد دراج : وثائق دير صهيون ، ص ١٤٦ — ١٤٧ .
- Adler: Jewish Travellers. P. 242
- (٢٣٧)
- (٢٣٨) نقولا زيادة : نفس المرجع ص ١٦٨ .
- (٢٣٩) القلقشندي : صبح الأعشى ج٣ ، ص ٤٤٢ ؛ نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ص ٣٥٩ .
- (٢٤٠) نعيم زكي : نفس المرجع ، ص ٣٦٠ — ٤١٣ .

الفصل الخامس

الحياة اليومية

في مدينة بيت المقدس



المنشآت الاجتماعية

امتازت مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك - كما امتازت غيرها من المدن التي خضعت لحكم المماليك - بكثرة المنشآت الاجتماعية وتنوعها ، ويهنا في هذا المجال ماهو خاص بأهل المدينة من الأسبلة والحمامات والييمارستانات .

كان الغرض من إنشاء الأسبلة هو تيسير الحصول على ماء الشرب ، ولذلك اهتم سلاطين وأمراء المماليك بإنشاء العديد من الأسبلة في بيت المقدس في كثير من المواضع المختلفة بها ، وتجدر الإشارة إلى أن اهتمام سلاطين وأمراء المماليك ببناء تلك الأسبلة ، كان نابعا بالدرجة الأولى من سياستهم الدينية التي سبقت الإشارة إليها ، بالإضافة إلى حاجة المدينة إلى مياه الشرب ، لما عرف عنها من قلة المياه وعدم وجود أنهار بها ، فضلا عما كان يعانيه الناس في بيت المقدس بسبب قلة الأمطار (١) . وكما اهتم السلاطين بإنشاء الأسبلة ، فقد اهتموا بتوصيل المياه إلى المدينة عن طريق قناة العروب (٢) . وقد ظلت العناية بتوصيل المياه قائمة حتى دولة المماليك الثانية أو الجراكسة ، وتشير كثير من المصادر إلى أن تلك العناية لم تنقطع طوال عصر سلاطين المماليك (٣) وسنورد مثالين أحدهما من بداية عصر سلاطين المماليك والآخر في أواخر العصر ، كدليل على تلك العناية التي بذلها السلاطين والأمراء المماليك لتوفير المياه بالقدس ، من ذلك ما يرويه لنا ابن عبد الظاهر في ذكره لحوادث سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م أيام الظاهر بيبرس ، من أنه ورد كتاب قاضي القدس بأن الماء انتزع من بئر السقاية وعظمت مشقة الناس فنزل رجل إلى البئر وشاهد قناة مسدودة من زمن يختنصر الذي هدم بيت المقدس ، فأخذ الأمير علاء الدين الركني وإلى المدينة البنائين وكشفت القناة السلیمانية ، ومشوا فيها تحت الأرض إلى الجبل الذي تحت الصخرة المقدسة فوجدوا بابا مقنطرا ففتحوه ، فخرجت عين ماء كادت تغرقهم ، وكان خروج الماء من العين المذكورة في ذي الحجة سنة خمس وستين وستائة (٤) كذلك ما يرويه مجير الدين - وهو معاصر - في حديثه عن سنة ٨٨٨ هـ /

١٤٨٣م بقوله « وفيها ورد المرسوم الشريف إلى الأمير قانصوه الياقوتى بعمارة قناة العروب وعمارة بركة المرجع وجهاز له من الخزائن الشريفة خمسة آلاف دينار منها ألف دينار نفقة للأمير قانصوة وأربعة آلاف دينار للعمارة فتوجه في عاشر صفر للعمارة وصحبته مائتا فاعل ونصب مخيمه وشرع في العمارة إلى أن أكملها وتوجه إليه أعيان بيت المقدس وأكابرهم وكل من توجه إليه يصحب شيئا من أنواع المأكول كالعسل والسمن والغنم وغير ذلك وفيها في العشرين من شهر رجب دخلت عين العروب إلى القدس الشريف وخلع الأمير قانصوة الياقوتى على المعلمين وزينت المدينة ثلاثة أيام ... وكانت مدة عمارتها خمسة أشهر وخمسة عشر يوما وقد أنفق السلطان في عمارتها مبلغا كبيرا » . (٥) والحقيقة أن هذا قليل من كثير من عناية السلاطين والأمراء والمماليك بتزويد المدينة بحاجتها من الماء .

أما عن عناية سلاطين وأمراء المماليك بالأسبلة في بيت المقدس فقد أنصبت تلك العناية على تجديد بعض الأسبلة التي كانت موجودة فعلا أو إقامة بعض الأسبلة الجديدة ، من ذلك أن السلطان برسباي قد تم في عهده تجديد سبيل شعلان وهو السبيل الذي بناه الملك المعظم عيسى الأيوبي سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦م (٦) .

كذلك الحال بالنسبة لسبيل علاء الدين البصير ، الذي يقع غربي الحرم الشريف ، والذي لانعرف متى بنى ، وإنما عليه كتابة تقول أن عمارته جددت بواسطة نائب السلطنة وناظر الحرمين الشريفين المقر الحسامي قبحا .. وكان ذلك في أيام الملك الأشرف برسباي سنة ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م ، وفي هذا خير دليل على اهتمام السلاطين والأمراء المماليك بالعناية بالأسبلة القائمة فعلا وتجديدها (٧) .

أما الأسبلة التي استحدثت في مدينة بيت المقدس في ذلك العصر فمن أهمها ماتم في عهد السلطان الأشرف اينال قفى عام ٨٦٠هـ / ١٤٥٥م تم إنشاء السبيل القائم بين المطهرة ومسجد الصخرة والمعروف بسبيل قايتباي لأنه جدد عمارته (٨) . ويصف لنا مجير الدين هذا السبيل بأنه داخل المسجد الأقصى « فوق البئر المقابل لدرج الصخرة الغربى وكان قديما على البئر المذكور قبة مبنية بالأحجار كغيره من الآبار الموجودة بالمسجد فأزيلت تلك القبة وبنى السبيل المستجد وفرش أرضه بالرخام وصار في هيئة لطيفة ... » (٩) .

ويمكن أن نتخذ هذا السبيل باعتباره أهم الأسبلة في بيت المقدس نموذجا هندسيا لبقية الأسبلة في المدينة فتقول « إنه يحتوى على طابقين الأول عبارة عن بئر محفورة في الأرض لتخزين ماء الأمطار تعلوها خرزة أى غطاء أو سقف من الرخام أو الحجر أما الطابق الثاني فيرتفع عن سطح الأرض حوالى متر وتوجد بها المزملة لتوزيع الماء على الراغبين فيه ، ويقوم المزملاقي برفع الماء من البئر بواسطة قنوات تجرى تحت البلاط المصنوع من الحجر الصلد ، وينتهى الماء إلى فتحات معدة لرفع الماء ، قطر نافذة كل فتحة منها حوالى عشرين سنتيمترا ، وكان الماء يرفع من هذه الفتحات بواسطة كيزان مربوطة بسلاسل مثبتة بقضبان النوافذ ، أما طريقة تشغيل السبيل ، فكانت تتم بواسطة بكرة

فوق البئر محمولة على خشبة مربوط بها حبل .. وكان بطرف الحبل سطل يرفع به المزملاقي الماء إلى القنوات الموجودة تحت بلاط المزملة فيجرى إلى النوافذ القائمة عند فتحات القنوات ، وكان طالب الماء يصعد على سلم موجود أسفل كل نافذة إلى حيث يجد الماء فيحصل على حاجته بالكوز » (١٠) .

أما عن وظيفة المزملاقي وهو القائم بالإشراف على السبيل وتوزيع المياه به والعناية بالسبيل والأدوات المستخدمة فيه ، فإن المصادر والمراجع التي بين أيدينا لم تذكر صراحة الشروط التي كان يجب توفرها فيه في بيت المقدس ، إلا أننا يمكننا القول اعتمادا على أن هذه الوظيفة كانت هي نفسها في المدن التي خضعت لحكم سلاطين المماليك ، وأن الشروط الصحية الخاصة بتوليها قد أصبحت تقليدا مرعيا ، لذا تنطبق عليها ماجاء في وثائق ذلك العصر من شروط . فالمزملاقي « رجل ثقة أمين جميل الهيئة نظيف الثياب سليم البدن والجسد من العاهات ، ذى قوة وشطارة ونهضة ومروءة ، أما الصفات الخلقية التي اشترطت فيه فهي أن يسهل الشرب على الناس ويعاملهم بالحسنى والرفق ليكون أبلغ في ادخال الراحة على الواردين صدقة دائمة وحسنة مستمرة » (١١) .

كما تجب الإشارة إلى أننا لم نعثر أيضا على أى ذكر للأدوات التي كانت تستخدم في الأسبلة الخاصة ببيت المقدس ولعل السبب في هذا يرجع إلى كونها لم تختلف عن غيرها من أدوات ، وهي التي استخدمت في ذلك العصر في المدن التي خضعت لكم لحكم سلاطين المماليك ، منها على سبيل المثال سلب الليف أو الكتان والأدلية الجلد ، وآنية الشرب الطسوت والأسطال النحاس ، والأباريق والقلل الفخار والسفننج والفوط للمسح ، ولعله تم تخصيص بعض الأماكن لحفظ تلك الآلات ، كما كان متبعاً في الأسبلة الأخرى في مصر على سبيل المثال (١٢) .

كما تجب الإشارة أيضا إلى أنه روعي في معظم الأسبلة التي انشئت في مدينة بيت المقدس على عهد سلاطين المماليك ، أن تكون على الطريق الرئيسي المؤدى إلى قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، ليتوافر للمصلين والزوار الحصول على ماء الشرب قبل دخولهم إلى المسجد لأداء فريضة الصلاة ، وكما أن معظم الأسبلة المقامة في ساحة الحرم القدسي كانت مقامة على آبار تتجمع فيها مياه الأمطار (١٣) .

ولم تقتصر عناية سلاطين المماليك بتوفير المياه على إنشاء الأسبلة وعمارة القنوات ، بل تعدتها إلى إنشاء بعض الأحواض الكبيرة ، وبخاصة في المنطقة بين مسجدى الصخرة والأقصى ، والتي توفر للواردين إليها ما يحتاجون إليه من ماء ، من ذلك الحوض الذى أنشأه السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والمصنوع من الرخام والذي يسمى « بالكأس » (١٤) وهذا الحوض يقصده المصلون من أجل الوضوء في أوقات الصلاة ولاسيما في يوم الجمعة ، وكان يجري إليه الماء من قناة تبدأ عند برك المراجع الثلاثة المعروفة ببرك سليمان ، وهي واقعة على بعد عشرة أميال من القدس إلى الجنوب (١٥) . ويصف لنا عبد الغني النابلسي هذا الكأس بقوله « ثم سرنا فوجدنا « الكأس » قبالة أبواب المسجد الأقصى وهو كأس من الرخام كبير سعة باطنه مقدار خمسة أذرع في خمسة أذرع موضوع شكل نوفره في وسط البحرة الكبيرة المستديرة الجوانب على شكل الكاس الذى في وسطها الماء يخرج

منه ويسقط في البحرة . ثم يسيل في بالوعات حوله ويجرى إلى صهرنج كبير في أرض المسجد طوله نحو الأربعين ذراعاً وعرضه كذلك .. (١٦) .

أما عن استهلاك السكان للمياه في ذلك العصر وكيفية ذلك فمن المرجح أنه لم يختلف عما كان عليه الحال منذ القدم ، فإن ماتوافر بالمدينة من الصهارنج التي شيدها الرومان كفل للسكان معظم احتياجاتهم من الماء (١٧) . وهذه الحقيقة نفسها يؤكد لها الرحالة بنيامين التطلّي والذي زارها أواخر الحكم الصليبي للمدينة حيث يقول : وعادة ما يشرب السكان مياه الأمطار ، والتي يجمعونها في منازلهم (١٨) ويؤكد لنا مجير الدين أن الوضع ظل كذلك حتى أواخر عصر سلاطين المماليك حيث يقول : « وهي كثيرة الآبار المعدة لحزن الماء لأن ماءها يجمع من الأمطار » (١٩) .

ويشير أحد الباحثين إلى أن معدل سقوط الأمطار فوق مدينة بيت المقدس والذي كان يصل إلى حوالي ٢٥ بوصة سنوياً ، وهذا المعدل السنوي كان يحدث في حوض يتراوح طوله ما بين ٢٥ - ٣ أميال طولاً ، و ٢ - ١٥ ميل عرضاً والذي يقع في المنطقة الجبلية الصماء بحيث ساعد ذلك على تخزين المياه في خزانات تحت الأرض وبحيث لم تكن لتسرب منها وبذلك كانت الكمية المتجمعة منها تكاد تكون كافية لإعاشة عدد معقول من السكان (٢٠) .

هذا إلى جانب ماتشير إليه كثير من المصادر والمراجع من كثرة وجود البرك والقنوات . والتي اعتمدت عليها المدينة لسد احتياجاتها من ذلك على سبيل المثال بركة سلوان والبركة التحتانية أو البركة الحمراء كما تسمى بذلك ، وبركة ماملا وبركة السلطان وبركة حزقيا وبركة اسرائيل (٢١) ويصف لنا الأب سوريانو مياه تلك البرك بقوله : ولا أعرف إذا كان في إمكانك أن تجد ماء أفضل في كل أنحاء العالم إذا استقيناه من نهر النيل من مياه تلك البرك ، وبخاصة ماء بركة سلوان والتي هي بلا شك أفضل من النبيذ الذي لدينا في الغرب ، وهذه البرك موجودة منذ أقدم العصور وهي تخزن معظم المياه التي تستخدم . (٢٢) . أما عن القنوات التي أمدت المدينة ببعض حاجتها من المياه ، فمنها قناة السبيل التي عمرها المماليك مرارا ، فقد عمرها الملك الظاهر بيبرس ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م والأمير تنكز الناصري ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م ، والملك الظاهر برقوق ٧٨٤هـ ، ١٣٨٢م والملك الظاهر خشقدم ٨٦٥هـ / ١٤٦٠م والملك الأشرف قايتباي ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م (٢٣) هذا بالإضافة إلى قناة العروب (٢٤) .

كذلك تجب الإشارة إلى أن المصادر والمراجع التي بين أيدينا لم تشر صراحة إلى كيفية توزيع المياه على السكان ، وهل اكتفى السكان بما كان لديهم في داخل منازلهم من صهارنج يجمعون منها مياه الأمطار ، وأن تلك المياه كانت تفي بحاجياتهم أم لا . ومع هذا يمكننا القول أنه إذا كان السكان داخل منازلهم قد كان لديهم مايسد حاجتهم من المياه فمما لا شك فيه أن المدينة قد عرفت كغيرها من مدن الشرق في تلك الفترة نظام السقائين الذين يحملون قراب المياه والذين يرحج أنهم حملوها على الأقل إلى الأسواق لأصحاب المحلات ، لرشها في الشوارع على الأقل صيفا وللشرب منها هم والمارة نظير أجر معلوم ، وربما أيضا للاستخدامات المختلفة وبخاصة في الأسواق التي خصصت لإعداد

الأطعمة ولبيع الخضر والفاكهة وغيرها ، هذا بالإضافة إلى أنه قد وردت إشارة عند أحد الباحثين يؤكد فيها أن أحد الحجاج من بياكنزا أثناء توجهه إلى بيت لحم خارجا من القدس وعلى مقربة من مدينة بيت المقدس وجد عين ماء تنبع من الصخر وهناك أخذ حاجته من الماء بقليل من النقود وكل فرد يأخذ مايشاء منها والماء لاينفذ وحلاوة مائها لا توصف ، وفي هذا تأكيد إلى إن توزيع المياه لم يكن بالمجان (٢٥) .

وثمة نوع من المؤسسات الاجتماعية التي ذخرت بها مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، وهي الحمامات العامة والتي قصدها الناس من مختلف الطبقات ، رجالا ونساء للاستحمام ، ذلك أن الناس في ذلك العصر - وطوال العصور الوسطى - لم يألفوا الاستحمام في منازلهم ، ولعل ذلك راجع إلى مشاكل الصرف الصحي في مدن ذلك الزمان والتي كانت السبب في عدم وجود حمامات في المنازل بصفة عامة . إلا أنه يبدو أن مدينة بيت المقدس كانت قليلة الحمامات في أوائل عصر سلاطين المماليك حيث يذكر ابن فضل الله العمري في حديثه عن سنة ٧١٠هـ / ١٣١٠م أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن الأمير تنكز نائب الشام قد عمر بالقدس حمامين جليلين « كانت أحوج شيء إليه لأنه لم يكن بها حمامات مرضية » ، (٢٦) ويذكر مجير الدين من هذين الحمامين الحمام الكائن بباب القطنين أحد أبواب المسجد الأقصى والمعروف بالحمام الجديد . (٢٧) . والذي كان من أكبر الحمامات وأتقنها في المدينة ، كذلك نراه يذكر من حمامات المدينة حمام علاء الدين وهذا الحمام كان واقعا في أحد شوارع بيت المقدس المسمى آنذاك بخط مرزبان بجوار بركة ليستمد منها الماء اللازم للوافدين عليه ، كذلك يذكر لنا الحمام المعروف باسم « حمام البترك » بحارة النصارى بجوار بركة أخرى ويقول عن البركتين المذكورتين أنه يحتمل أنهما كانتا بركتي سليمان وعياض (٢٨) .

هذا وتجب الإشارة إلى أنه لم ترد في المصادر والمراجع التي تحدثت عن الحمامات في نيبس المقدس أية إشارة عن نوع تلك الحمامات ، وهل كانت مثل بقية الحمامات التي عرفت في الشرق بعضها خاص بالرجال وبعضها خاص بالنساء أو أن بعضها يفتح للرجال قبل الظهر وللنساء بعد ذلك (٢٩) كذلك لم تشر تلك المصادر إلى عدد تلك الحمامات بل لم ترد سوى إشارة واحدة لدى ابن شاهين عن أنه كان بها كثير من الحمامات (٣٠) .

كذلك يجب أن نشير إلى أنه وجد في مدينة بيت المقدس بعض الحمامات التي كانت تستخدم لعلاج بعض الأمراض نظرا لما بها من مياه معدنية ، حيث وردت إشارة لدى « مؤلف مجهول » عن وجود حمام يسمى « حمام الشفا » والذي يبدو أنه كان يقع داخل سوق القطنين بالقرب من الحرم الشريف ، والذي كان يستمد ماءه « من تحت الصخرة واطن أن ماءه من ماء عين سلوان لأن طعمها واحد » . (٣١) .

ومع أن المصادر العربية المعاصرة وكذلك المراجع لم تعرض لوصف تلك الحمامات العامة

وتصميمها في ذلك العصر ، إلا أننا يمكن أن نحصل على صورة طيبة لتلك الحمامات من خلال الوصف الذى ذكره لنا الرحالة فابرى عن تلك الحمامات التى رآها عند زيارته للأرض المقدسة أواخر القرن الخامس عشر الميلادى والتى جذبت انتباهه لأنها لم تكن معروفة في الغرب فيقول : عندما يدخل الزائر سيجد نفسه في حجرة داخلية عبارة عن عدة مقاصير كل مقصورة منها عليها ستارة هي مخصصة للمستحمين وفي داخل هذه المقاصير يستحم الأشخاص عراة ثم يرتدون ملابسهم بعد الاستحمام وتوجد القوط النظيفة الموضوعة في تلك المقاصير حيث يلف الناس أجسادهم بها ، وفي وسط الحمام يوجد رواق مسقوف بين نافورة يخرج منها الماء على هيئة نافورات صغيرة من عمود من الرخام ، وحوائط الحمام الداخلية وعند المغطس كلها مكسوة بالرخام من أنواع مختلفة . وكان على المشاة داخل الحمام أن يحترسوا حتى لا تنزلق أقدامهم ، أما المغطس فهو مربع الشكل معقود ومطبق بمجامات من الزجاج الملون والذي عن طريقها يدخل الضوء الكافي ، ثم هناك حجرة دافئة تلى المغطس لا تجدد فيها مواقد أو تشم رائحة دخان ولكنك تشعر بالحرارة فقط وأسفل منها مستوقد الحمام حيث الفحم الذي كان يوقد فيدفع الرخام كما أن الماء المغلى يجري في قناة تجعل المكان كله دافئا ، وفي مكان آخر يدخل الماء البارد ، كذلك تنوعت حجرات الحمام وتدرجت درجة حرارتها ، وتختلف الحمامات في الأرض المقدسة عنها في مصر ، من حيث الأحواض التى توضع فيها المياه المتدفقة والتي يمكن أن يجلس فيها المستحم . (٣٢) .

وبمقارنة هذه الأوصاف للحمام في عصر سلاطين المماليك بما هو معروف عن الحمامات العامة والتي أوردها استاذنا الدكتور سعيد عاشور في كتابه المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ، يمكننا القول أن حمامات بيت المقدس لم تختلف كثيرا عن الحمامات التي عرفت في مصر وغيرها من البلاد التي خضعت لحكم سلاطين المماليك من حيث أنه كان للحمام باب يؤدي إلى مسلخ به بعض الأولوين والتي كانت بمثابة المصاطب المكسوة بالرخام حيث يستريح طالب الاستحمام ، ومن المسلخ ينتقل المستحم إلى غرفة دافئة يتم فيها نزع ملابسه ويضع حول وسطه فوطة تصل إلى الركبتين ثم ينتقل إلى الغرفة الرئيسية وغالبا ما تسمى « بيت الحرارة » حيث يقوم عامل الحمام بتدليك جسد المستحم وغسله بالماء الساخن الذى يوجد بالمغطس ، وبعد الاستحمام يجفف المستحم جسمه بالمتاشف ويزيل البلان الشعر من بعض المواضع إذا لزم الأمر ثم ينصرف المستحم إلى الغرفة الأولى حيث يقضى بعض الوقت ويرتدى ملابسه وقد يشرب بعض المرطبات (٣٣) .

والمعروف أن وظيفة الحمام في العصور الوسطى لم تقتصر على مجرد الاستحمام بل امتدت إلى الحلاقة وإزالة الشعر من بعض مناطق الجسد (٣٤) . فضلا عن أن الحمام كان يعتبر أحد المراكز الاجتماعية للمريض إذا دخل الحمام بعد فترة رقاد اعتبر ذلك إعلانا لشفائه من مرضه (٣٥) كذلك ربما تناقل المستحمون كثيرا من الأخبار الهامة التي تمس حياتهم اليومية داخل الحمام ، فضلا عن أن العريس أو العروس يجب على كل منهما أن يدخل الحمام قبل حفل الزفاف ، وكان ذلك بمثابة واحد من الأحداث العائلية الهامة ، كذلك اعتادت النساء أن يجتمعن في الحمام لتبادل الأخبار أثناء الاستحمام ، وخاصة ما يتعلق منها بأخبارهن وحياتهن اليومية . (٣٦) .

هذا وقد اشترطت بعض المصادر كثيرا من الصفات في القائمين على الخدمة في الحمام ، منها أنه اشترط أن يكون المزين خفيفا رشيقا بصيرا بالخلاقة وتكون الأمواس جديدة قاطعة ولا يأكل مايغير نكهته كالبلصل والثوم والكراث في يوم نوبته لئلا يتضرر الناس برائحة فيه عن الخلاقة ... (٣٧) .

وكذلك تجب الإشارة إلى أنه لم تصلنا أية معلومات فيما يتعلق بحمامات بيت المقدس من حيث تخصيص بعضها للمسلمين أو لأهل الذمة أم أنها كانت حمامات مشتركة ، وخاصة لنساء أهل المدينة بطوائفهم المختلفة حيث يجتمعون في الحمامات مسلمات ونصرانيات ويهوديات (٣٨) . أم أن طبيعة المدينة الدينية أثرت في سكانها من هذه الناحية بحيث طبقوا أوامر الشرع الاسلامي بأن « اليهودية والنصرانية لايجوز لها أن ترى بدن الحرة المسلمة وهن يجتمعن في الحمامات مسلمات ونصرانيات ويهوديات فيكشف بعضهن على عورات بعض » أم أن الناس نظرا لما كان بينهم من تسامح تغاضوا عن هذا ، حسبا جرت العادة في عاصمة الدولة نفسها (٣٩) .

ومن المنشآت الاجتماعية التي حظيت برعاية وعناية سلاطين وأمراء الممالك بل وأهل الخير « البيمارستان » (٤٠) . ويقصد به المستشفى في عصرنا الحديث ويرجع وجود البيمارستان في القدس إلى العصر الفاطمي وليس إلى العصر الصليبي كما تشير بذلك بعض المراجع ، حيث يذكر لنا الرحالة ناصر خسرو عندما زار المدينة سنة ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م « وفي بيت المقدس مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة ويصرف لمرضاه العديد من العلاج والدواء وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف ، وهذا المستشفى ومسجد الجمعة على حافة وادي جهنم » (٤١) . ومن المرجح أن يكون هذا البيمارستان عرفته مدينة بيت المقدس في العصر الإسلامي (٤٢) وعندما فتح الصليبيون المدينة أقتبسوا من الفاطميين هذا النظام حيث أقاموا مستشفى القديس يوحنا والذي بناه الاسبتارية في المكان المخصص لهم ، والذي اشتهر بهم طوال فترة الحكم الصليبي للمدينة (٤٣) .

والحقيقة أن الغموض يكتنف مصير هذا المستشفى الذي أسسه الاسبتارية لدى بعض المؤرخين ، فبينما يشير البعض إلى أن الفتح الصلاحي لمدينة بيت المقدس لم يصب ذلك المستشفى بسوء أو أذى ، وأن السلطان صلاح الدين سمح لعشرة من الأسبتارية بأن يبقوا في المستشفى لمعالجة المرضى لمدة سنة ، ثم استخدمت أجزاء من هذا المبنى في أغراض متعددة مع استمرار تقديم الخدمات الطبية به على أنه مستشفى حتى سنة ١٢١٩ م وسمى باسم المارستان منذ ذلك الحين ، وقد ظل كذلك حتى أواخر القرن الخامس عشر حيث أعيد بناؤه في أوائل القرن السادس عشر الميلادي في عهد السلطان العثماني سليمان العظيم ، والذي اتخذ من بعض حجراته أساسا لإعادة بناء أسوار المدينة (٤٤) كذلك يشير بعض الحجاج الذين زاروا المدينة في القرن الرابع عشر ميلادي وخاصة سرجون ماند يفيل الذي زارها عام ١٣٢٢ م - ما يؤكد وجود مستشفى بها حيث يقول : وأمام القبر المقدس وعلى بعد مائتي . خطوة إلى الجنوب هناك المستشفى الكبير وهو مستشفى القديس يوحنا والذي وضع أساسه الاسبتارية ، وفي الداخل في أماكن المرضى في تلك المستشفى هناك مائة وأربع وعشرون عمودا من الحجر ، وفي أسوار المنزل المجاور يقال أن هناك ٤٤ عمودا وهي التي تسند المنزل (٤٥) إلا أنه لم يذكر هل كان المستشفى مستخدما فعلا

أم أنها مجرد أطلال تدل عليه وباقية حين زار المدينة .

ومن المرجح أن تكون تلك المستشفى قد أصابها ما أصاب المجتمع الصليبي في بيت المقدس من الخلال وإهمال أواخر حكمهم للمدينة ، لذلك لا ريب أنه عقب الفتح الصلاحي قد أضحت أطلالا باقية ، وفي الفترة التي أعقبت الفتح الصلاحي وحتى دخول المدينة تحت حكم المماليك ، هذه الفترة كانت كفيلة بانهبائها وجعلها في طي النسيان ، والدليل على ذلك ما يرويه لنا الرحالة فابري الذي زار المدينة أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، والذي يقول : أنه عقب وقوف الحجاج بعد وصولهم إلى القدس في الميدان الواقع أمام كنيسة القيامة وصلاتهم به حيث كانت الكنيسة مغلقة ولم تفتح بعد ، فإنهم عبروا الميدان المواجه لها واتجهوا إلى مستشفى القديس يوحنا والذي كان عبارة عن مبنى ضخم ذي عقود حجرية خرب ومتهدم وقدر وجددير بالازدراء ، لأنه لم يذهب إليها (٤٦) . وفي هذا خير دليل على أن مستشفى الاستبارية مع مرور الزمن قد تهدمت ولم تعد تستخدم كمستشفى بل كمكان لإيواء الحجاج القادمين من الغرب ، هذا فضلا عما يؤكد لنا أحد الباحثين أن البيمارستان الصلاحي كان يوجد في حارة بالقدس تسمى الدباغة والمشهور والتداول على ألسنة الناس أن البيمارستان الصلاحي كان في هذه الجهة ثم أدركه الخراب كما أدرك غيره من الآثار ، ثم حدثت زلزلة في سنة ٨٦٢ هـ (١٤٥٨ م) فجعلته أثرا بعد عين فعفيت أثره واختلست أرضه (٤٧) .

كما أن المصادر العربية تحسم تلك النقطة بشكل يدعو للاطمئنان إلى صحة رأينا أن البيمارستان الصلاحي لم يكن مستشفى الاستبارية ، من ذلك ما يرويه لنا العماد الاصفهاني من أن السلطان صلاح الدين عقب فتحه لبيت المقدس ... « أتخذ لطلب مرضاة الله دار الأسقف بيمارستان المرضى ، وأتى بكل ما يحبه الله وبه يرضى ، فلم يبق سنة إلا خلدها » (٤٨) . كما أن ابن واصل يؤكد ذلك بشيء من الاختلاف اللفظي حيث يقول « وجعل الكنيسة التي في شارع قمامة بيمارستان للمرضى ونقل إليه جميع ما يحتاج إليه (٤٩) . كما أن ابن شداد والذي كان معاصرا للفتح يقول في ذكره لحوادث سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م أن السلطان صلاح الدين الأيوبي عقب صلح الرملة في نفس السنة المذكورة فقد « أمرني بالمقام في القدس الشريف لعمارة بيمارستان أنشأه فيه وإدارة المدرسة التي أنشأها إلى حين عودته وسار من القدس الشريف ضحوة نهار الخميس سادس شوال » (٥٠) كذلك يقول أبو شامة عن صلاح الدين . « غير الكنيسة التي في شارع قمامة بالبيمارستان ونقل إليه العقاقير والأدوية من جميع الأنواع والألوان (٥١) » كذلك يشير مجير الدين وهو يمثل أحد مؤرخي بيت المقدس في أواخر عصر سلاطين المماليك ، أن السلطان صلاح الدين « جعل الكنيسة المجاورة لدار الاستبارية بقرب قمامة بيمارستان للمرضى ووقف عليه مواضع ووضع فيه ما يحتاج من الأدوية والعقاقير وفوض النظر والقضاء في هذا الوقف إلى القاضي بهاء الدين يوسف ابن رافع ابن تميم المشهور بان شداد لعلمه بكفاءته (٥٢) » وفي موضع آخر يشير إلى مكان ذلك البيمارستان مما قد يفهم منه أن البيمارستان كان مازال موجودا حتى عصر مجير الدين ، حيث يقول في ذكره لشوراع بيت المقدس . « خط الدركاه وبه البيمارستان الصلاحي وكنيسة قمامة ويليها حارة النصراري من جهة الغرب ممتدة قبلة بشام من باب الخليل إلى باب السرب (٥٣) » .

والحقيقة التي يجب أن نذكرها فيما يتعلق بعصر سلاطين المماليك أننا لم نعثر على أية إشارة عن بناء السلاطين أو الأمراء بيمارستانات جديدة في بيت المقدس ، إلا أننا نستطيع القول بناء على ماسبق وأشرنا إليه من سياسة المماليك الدينية في بيت المقدس أن من المعقول جدا أن يكون الـبيمارستان قد حظى برعايتهم وعنايتهم بدليل ماوردته مجير الدين من كثرة الإشارات إلى من توفي « في بيمارستان القدس الشريف » (٥٤) وفي هذا دليل قاطع على الرعاية التي حظى بها الـبيمارستان ، بل هناك إشارة لدى ابن حجر من أن ناظر الجيش محمد بن فضل الله القبطي الذي أسلم وتسمى محمدا وحج عشر مرات وزار القدس مرارا وأحرم مرة من القدس إلى مكة وكانت صدقته كل يوم ألف درهم قد بنى عدة مساجد وعدة أحواض نسقى الماء في الطرقات وله مارستان بالرملة وآخر بنابلس من أعمال فلسطين وكان قد اتصل بخدمة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ثم توفي سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م ، مما يؤكد أن الاهتمام ببناء الـبيمارستانات لم يكن قاصرا على السلاطين والنواب بل شاركهم أصحاب الجاه والمال أيضا (٥٥) . ولعله وجد من هؤلاء من قام ببناء أحد الـبيمارستانات في بيت المقدس .

كذلك تجب الإشارة على أنه لم يصادفنا شيء عن نظام العلاج داخل الـبيمارستان في بيت المقدس ، مما يؤكد أن وظيفة الـبيمارستان هنا لم تكن تختلف عن غيره من الـبيمارستانات الإسلامية حيث يقسم الـبيمارستان إلى قسمين أحدهما للرجال والآخر للنساء ، وكانت هناك عنابر للأمراض المختلفة مثل الأمراض الباطنة والجراحة وأمراض العيون وغيرها ، أما المجانين فقد كانت تخصص لهم أقسام خاصة بهم وكانت تلك العنابر تزود بالمختصين (٥٦) .

ولم تكن مهمة الـبيمارستان قاصرة على مداواة المرضى بل كان في نفس الوقت بمثابة مدرسة للطب يتخرج منها المتطبيون والجراحية والكحالون كما يتخرجون اليوم من كليات الطب ، كذلك كان للطبيب الحرية التامة في العمل والتجريب واستنباط الأساليب المناسبة للعلاج ، كما كان لبعض الأطباء أنواع من العلاج من مبتكرات قرائحهم وكانت التجارب تدون في كتب خاصة يقرأها الجمهور من الأطباء . (٥٧) .

وكانت في الـبيمارستان طريقتان للعلاج ، علاج خارجي أى أن المريض يتناول الدواء من الـبيمارستان ثم ينصرف ليتعاطاه في منزله ، وفي هذه الحالة كان الطبيب يجلس على دكة ، ويكتب لمن يرد عليه من المرضى العلاج في أوراق خاصة يصرفون بها تلك الأشربة والأدوية التي يصفها لهم الطبيب (٥٨) . هذا بالإضافة إلى العلاج الداخلي ، أى في داخل الـبيمارستان حيث يوزع المرضى على العنابر أو القاعات بحسب أمراضهم ، وكان لكل قسم من أقسام الـبيمارستان طبيب أو اثنان أو ثلاثة بحسب اتساعه وكثرة المرضى ، وإذا دعى الحال يدعى الطبيب من قسم آخر غير القسم الذي فيه المريض لاستشارته (٥٩) .

كذلك كان للـبيمارستان ناظر يشرف على إدارته ، وكان النظر على الـبيمارستان محدودا من الوظائف الديوانية الهامة ، وكان نائب المدينة يختار ناظر الـبيمارستان من أرباب الأقلام (٦٠) كذلك وجد لكل

قسم من أقسام الأمراض المختلفة رئيس مثل رئيس الجراحية ورئيس المجيرين ورئيس الكحالين وغيرهم ، كذلك وجد بالبيمارستان كثير من الفراشين من الرجال والنساء والمشاركة والقوام للخدمة أيضا ولهم المعاليم الوافية ومن الجامكية الوافرة (٦١) .

وكان يلحق بالبيمارستان صيدلية تسمى شرايخاناه . وفيها من أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة والمربيات الفاخرة وأصناف الأدوية والعطريات والآنية الصينية من الزبادى والبرانى والأزبار الكثير ، لكل شرايخاناه مهتار أى رئيس الصيدلية متسلم لحواصلها ، وله مكانة عانية ولديه غلمان يرسم الخدمة يطلق على كل واحد منهم شراب دار (٦٢) .

أما فيما يختص بالمستشفيات الخاصة بأهل الذمة فقد سبقت الإشارة في مجال الحديث عن الطب إلى أن كثيرا من أبناء الطوائف المختلفة كانت لهم مستشفياتهم الخاصة والملحقة بالكنائس أو الأديرة مثل طائفة الرهبان الفرنسييسكان ، كذلك يؤكد لنا أبن جبير في حديثه عن جزيرة صقلية حيث يقول : وأبصرنا للنصارى في هذا الطريق كنائس عدة لمضى النصارى ولهم في مدنها مثل ذلك على صفة مارستانات المسلمين وأبصرنا لهم بعكة وصور مثل ذلك « (٦٣) . ومنه يتضح لنا أن الكنائس كانت تلحق بها المستشفيات بنفس النظام المتبع في بيمارستانات المسلمين ، وكذلك سبق أن أشرنا إلى نبوغ عدد كبير من الأطباء من بين أبناء تلك الطوائف المختلفة .

من هذا العرض يتضح لنا كيف كانت المؤسسات والمنشآت الاجتماعية من أسبله وحمامات وبيمارستانات على جانب كبير من الأهمية في حياة سكان مدينة بيت المقدس ، وأنها حظيت برعاية سلاطين وأمراء الممالك كما أنها كانت تمثل جزءا هاما من حياة السكان اليومية ، كذلك أوضحنا أن البيمارستان الصلاحي والذي أنشأه صلاح الدين الأيوبي ليس هو ماتشير إليه بعض المراجع وبخاصة الأوربية من أنه كان نفس مستشفى الاستبائية بل هو منشأة قائمة بذاتها ، تختلف كل الاختلاف عنها وأنه ظل قائما على الأقل إلى عصر الأشرف قايتباي حيث يذكر مجير الدين ذلك في أحاديثه المختلفة عمن ماتوا به والمعروف أن مجير الدين كان معاصرا لذلك السلطان .

السجون والعقوبات

في بداية الحديث عن السجون والعقوبات في بيت المقدس يجب أن نشير أنه لم تصادفنا فيما تيسر لنا الإطلاع عليه من مصادر ومراجع سوى إشارة واحدة لدى مجير الدين عن السجون في بيت المقدس في عصر سلاطين الممالك . ففي حديثه عن المدرسة الأفضلية (٦٤) يذكر سجن الشرطة تجاه قمامة من جهة القبلة (٦٥) ويتضح من هذه العبارة أن سجون بيت المقدس زمن سلاطين الممالك كانت تتبع سلطات متنوعة ويؤكد هذه الحقيقة أيضا ما أورده نفس المصدر في حديثه عن سنة ٧٨٩هـ/١٤٦٤م أيام السلطان الأشرف قايتباي بأنه في يوم السبت السابع عشر صفر ورد مرسوم السلطان بالترسيم على القاضي فخر الدين بن نسيبة فأخذه نائب السلطنة الأمير عنده بمنزله وأقام مدة ثم ورد الأمر الشريف بالإفراج عنه (٦٦) .

وهنا لابد للباحث من وقفة ولو قصيرة لتفسير تلك الظاهرة الخاصة بالسجون فمن العبارة الأولى التى أوردناها عن « سجن الشرطة » ، ومن العبارة الثانية التى وردت بخصوص « الترسيم » والذى يقصد به تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه ، يتضح لنا تنوع السجون لتنوع السلطات المشرفة عليها ، وربما أيضا لتنوع الجريمة نفسها أو الاثم الذى يرتكبه الشخص ، فالمعروف أن الشرطة فى ذلك العصر كان من اختصاصها تنفيذ العقوبات الشرعية وغيرها بالإضافة إلى حفظ الأمن ليلا ونهارا (٦٧) . وبذلك اعتبرت الشرطة تابعة للوظائف الدينية وكانت مهمة « صاحب الشرطة على هذا الأساس تنفيذ أحكام القضاة فيما يتعلق بإقامة الحدود الشرعية فضلا عن أنها كانت أداة للحسنة لتنفيذ بعض أنواع العقوبات مثل التعزير وغيره » (٦٨) . وعلى هذا الأساس فإن « سجن الشرطة » كان لمعاقبة أرباب الجرائم من اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم ممن ارتكبوا إحدى الجرائم التى يعاقب عليها الشرع . كذلك يفهم من العبارة الثانية أنه كان لدى نواب السلطنة فى القدس سجون أخرى داخل دار النيابة التى يقيمون بها ... وربما كان الهدف من تلك السجون هو الترسيم أو الحبس لمنع الشخص من التصرف أو الهروب حتى يبيت فى أمره . ومن المرجح أيضا أن تكون هناك بعض السجون الأخرى لدى بعض القضاة أو بعض السجون التى خصصت للأمراء والأعيان ، فضلا عن بعض السجون الخاصة بالنساء كما هو متبع فى بقية المدن التى خضعت للحكم المملوكى ، أو بعض السجون التى يحبس فيها من وجب عليه القتل أو القطع (٦٩) .

كذلك تجب الإشارة إلى أنه لم تصلنا أية معلومات عن وصف تلك السجون وطريقة معاملة المسجونين بها ، مما يرجح أن السجون فى بيت المقدس لم تختلف عن غيرها فى المدن الأخرى التى خضعت لحكم سلاطين المماليك ، حيث لقي المسجونون فيها كثيرا من الشدائد والأهوال ليس فقط بسبب سوء أحوال السجون نظرا لشدة الظلام فيها وكثرة الوطايط والروائح الكريهة والقبايح المهولة (٧٠) بل ربما أيضا لما شاع فى ذلك العصر من كثرة نسيان أولى الأمر للمسجونين فى كثير من الأحيان وتركهم دون طعام أو شراب ، وربما لمدة كثيرة داخل تلك السجون ، مما كان يدفع المسجونين فى بعض الأوقات إلى قتل سجانهم وخروجهم من السجن (٧١) .

أما فيما يتعلق بالعقوبات فلم تختلف مدينة بيت المقدس عن غيرها من المدن الأخرى التى خضعت لحكم سلاطين المماليك فى كثير مما عرف من وسائل التعذيب فى ذلك العصر ، سوى وسيلة واحدة وهى التغريق ، حيث لم يرد ذكر لها فى المصادر والمراجع التى تحدثت عن بيت المقدس وهذه الوسيلة على ما يبدو كانت شائعة فى المدن التى بها أنهار مثل مدينة القاهرة وغيرها ، حيث كان يؤخذ المحكوم عليه بتلك العقوبة إلى إحدى الأماكن بنهر النيل ويتم تغريفه فى المياه حتى تفيض روحه (٧٢) .

ومن العقوبات التى عرفت فى مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر عقوبة الإعدام ، فكان إذا حكم على شخص بالإعدام سلم لأحد معاونى صاحب الشرطة المسمى بالمشاعلى وهو المكلف بقطع الرقاب وذلك لتنفيذ الحكم فيه بواسطة السيف ، وفى الحقيقة أن عملية تنفيذ الإعدام فى ذلك العصر

اتسمت بكثير من القسوة والعنف ، حيث تشير كثير من المصادر إلى أنه كثيرا ما يخطئ ذلك المشاعلى عنق الشخص المحكوم عليه بالإعدام من أول مرة فيضطر إلى أنه يضربه بالسيف عدة مرات حتى يفصل رأسه عن جسده ، بل قد يضطر إلى حز الرقبة عدة مرات لهذا الغرض (٧٣) .

ومن العقوبات أيضا التي عرفت في ذلك العصر عقوبة التوسيط ، ويروى لنا الرحالة مارتن بوم جارتن - والذي سبقت الإشارة إليه أنه إذا دخل أحد المسيحيين الحرم الشريف بالقدس ، فقد كان عليه إما أن يعلن إسلامه أو كان يتم توسيطه عقابا على ذلك وذلك بأن يعرى الشخص من الثياب ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب وي طرح على ظهر جمل ثم يأقى السيف فيضرب المحكوم عليه بتلك العقوبة بقوة ضربة تقسم الجسم نصفين من وسطه (٧٤) .

ومن هذه العقوبات أيضا العصر بأن يعصر الشخص المعاقب في الأركاب إلى أن يموت في الآلة المخصصة لذلك والمسماة بالمعصرة ، وهي آلة مكونة من خشبتين مربوطتين ببعضهما تشدان شدا وثيقا على الشخص المعاقب وقد يوضع بينها وجه الشخص المعاقب أو رأسه أو رجلاه أو عقباه ثم تشد الخشبستان وغالبا ما ينتهى الأمر بأن تكسر العظام المعصورة بين الخشبنتين (٧٥) وكثيرا ما كانت تستخدم هذه الوسيلة لإجبار المذنب على الاعتراف بذنبه (٧٦) هذا إلى جانب قطع اللسان أو إخراج العينين أو قلع الأضراس ودقها في رأس الشخص المعاقب ، أو تسخين دست واجلاس الشخص المعاقب عليه أو أن تحمى طاسة في رأسه ، أو بضرب الوتد في الأذن ، أو بدق القصب في الأظافر (٧٧) .

كذلك استخدم الضرب في عقاب المذنبين ، ويكون الضرب على أى جزء من أجزاء الجسم سواء الرأس أو الجسد أو القدمين ، وغالبا ما كانت تستخدم فيه المقرعة (٧٨) ومن المرجح أيضا أن يكون ذلك النوع من العقوبة بقصد الاقرار بذنب اقترفه أحد الأشخاص ، من ذلك ما يرويه مجير الدين في حديثه عن نائب السلطنة في بيت المقدس سنة ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م وهو الأمير حسن قجا وناظر الحرم الشريف في نفس الوقت ففى « أيامه سرق مال الوقف الموضوع بصندوق الصخرة الشريفه واتهم به جماعة من الخدام فأخذهم الأمير حسن قجا إلى دار النيابة وضرب بعضهم بالمقارع » (٧٩) ومن المؤكد أن الضرب وصل حدا من الوحشية مما دفع بعض السلاطين إلى إبطال ذلك النوع من العقاب ، ففى سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٥٢ م نسمع أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد أمر بإبطال الضرب بالمقارع من سائر مملكته ، وكتب بذلك مراسيم كثيرة قرئت على المنابر بمصر والشام ، ولكن لم يعمل بها (٨٠) .

مزارات القدس

نظرا لقداسة كثير من الأماكن داخل مدينة بيت القدس وارتباطها بالأديان السماوية الثلاثة ، وهى الإسلام والمسيحية واليهودية ، فقد غدت كثير من المواضع محط أنظار الكثيرين من أبناء تلك

الديانات ومهوى أفئدتهم ، وتدققوا لزيارتها من شتى أنحاء المعمورة ، مما جعل مدينة بيت المقدس مركزا لتجمع العديد من الأجناس والطوائف الدينية المختلفة على مدار السنة ، ويهمننا في هذا المقام أن نشير إلى أهم تلك الأماكن وكيف استمدت قدسيتها .

قبالنسبة للمقدسات الإسلامية ، فيمكننا القول أنه ما من موضع في مدينة بيت المقدس إلا ويعتبر مقدسا لدى المسلمين جميعا على اختلاف مذاهبهم ، ويروى لنا كثير من كتاب الفضائل وبخاصة المنهاجى السيوطى كثيرا من الأحاديث النبوية التى تحت على زيارة المدينة لما لها من أفضال ، مما يفسر لنا حرص الكثيرين على زيارتها فى مختلف العصور . (٨٥) كذلك ليس بخاف علينا ما للقدس من أهمية دينية لدى المسلمين جميعا على اختلاف مشاربهم ، لارتباطها بقصة لإسراء والمعراج من جهة ، ولكونها قبلة المسلمين الأولى من جهة ثانية ، هذا بالإضافة إلى ارتباطها بسيرة عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين والذي فتحت المدينة فى عهده فى السنة السادسة عشرة من الهجرة النبوية . (٨٦) كذلك تجب الإشارة إلى أن كثرة الأحاديث التى كتبت عن فضائل بيت المقدس ربما كان الهدف منها الترويج للقدس كقبلة للحج وخاصة بعد مااشتد الصراع بين الزبير بين والأمويين ، مما جعل حج أهل الشام إلى مكة أمرا صعبا ، مما يجعلنا فى حذر من تلك الأحاديث التى يزرع بها كتاب المنهاجى السيوطى .

ويهمننا أن نذكر أنه فى مقدمة المزارات الإسلامية بالمدينة الحرم الشريف والذي يقع فى طرف المدينة الشرق ، ويشتمل على عدة مساجد وأبنية دينية ، منها المسجد الأقصى ، ومسجد الصخرة ، ويصف لنا الرحالة ابن بطوطة المسجد الأقصى بقوله : « وهو من المساجد العجيبة الرائعة الفائقة الحسن ، يقال : إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه ، وأن طوله من شرق إلى غرب سبعمائة وثمان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية ، وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمائة ذراع وخمسة وثلاثون ذراعا ، وله أبواب كثيرة فى جهاته الثلاث ... والمسجد كله فضاء وغير مسقف إلا المسجد الأقصى ، فهو مسقف فى النهاية من إحكام العمل واتقان الصنعة ، مموه بالذهب والأصبغة الرائقة ، وفى المسجد مواضع سواء مسقفة ... » (٨٧) وترجع تسمية هذا المسجد بالأقصى - إلى إسراء النبي ﷺ ومعراجه ، وقد وردت هذه التسمية فى قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ... » (٨٨) وكان المسجد الأقصى يقع فى صدر الحرم الشريف عند القبلة . (٨٩) طوله مائة ذراع وعرضه ستة وسبعون ذراعا بذراع العمل . (٩٠) أما عن صحن المسجد فيروى القزوينى أن « صحن المسجد طويل عريض طوله أكثر من عرضه ، وهو فى غاية الحسن والأحكام ، مبنى على أعمدة الرخام الملونة ، والفسيفساء الذى ليس فى شئ من البلاد أحسن منه . وفى صحن المسجد مصطبة كبيرة فى ارتفاع خمسة أذرع ، يصعد إليها من عدة مواضع بالدرج ، وفى وسط هذه المصطبة قبة عظيمة مثمثة على أعمدة رخام مسقفة برصاص ، منمقة من داخل وخارج بالفسيفساء ، مطبقة بالرخام الملون . وفى وسطها الصخرة التى تزار ، وعلى طرفها أثر قدم النبي عليه السلام ، وتحتها مغارة ينزل إليها بعدة درج يصل فيها . ولهذا القبة أربعة أبواب ، وفى شرقها خارج القبة قبة أخرى على أعمدة حسنة يقولون إنها : قبة السلسلة .

وقبة المعراج أيضا على المصطبة ، وكذلك قبة النبي ، عليه السلام . كل ذلك على أعمدة مطبوعة أعلاها بالرصاص .. (٩١) هذا وقد « حفرت في أرض المسجد أحواض وصهاريج كثيرة ، فإن المسجد مشيد كله على صخرة ، يتجمع فيها ماء المطر ، فلا تضيع منه قطرة ، وينتفع به الناس .. (٩٢) وقد عدد لنا المنهاجي السيوطي الذي زار بيت المقدس عام ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م عدد أبواب المسجد الأقصى على النحو التالي :

باب الرحمة وهو شرق المسجد من السور ، وباب الأسباط وهو في مؤخرة المسجد ممالي الصخور التي هناك ، والمحراب الذي يقال له محراب داود عليه السلام ، وباب التوبة وهو باب الرحمة ، وباب حطة ، وباب شرف الأنبياء والذي يعرف أيضا بباب الدوادرية وهو من جهة المسجد من الشمال ، وباب الغواصة وهو الذي عند دار النيابة في أول جهة المسجد الغربية ، ويعرف هذا الباب قديما بباب الخليل ، وباب الناظر ، ويقال أنه باب غير مستجد ويعرف قديما بباب ميكائيل ، ويقال أنه الذي ربط فيه جبريل البراق ليلة الإسراء ، وباب الحديد ، وكان يعرف أيضا بباب أرغون الكامل ، صاحب المدرسة الأرغونية التي على يسار الخارج منه ، وباب القطانين ، ويقال أنه مستجد فتحه السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وباب السقاية ويقال أنه قديم ، وباب السكينة وهو المجاور لباب المدرسة المعروفة بالبلدية وهو مجاور للمنارة القبليّة والمدرسة الأشرفية من جهة الشمال ، وباب السلسلة والذي كان يعرف قديما بباب داود عليه السلام ، وباب المغاربة وهو يقع في آخر الجهة الغربية من المسجد والقبلة كذلك يسمى بباب النبي . (٩٣) هذا وقد أكد عبد الغني النابلسي في رحلته إلى بيت المقدس وجود تلك الأبواب ، إلا أنه قد زاد عليها بابا وهو « باب المتوضأ » وبذلك أصبح عددها أربعة عشر بابا . (٩٤) كما يشير أحد الباحثين أنه كان للمسجد الأقصى أربعة مآذن مازالت قائمة حتى منتصف القرن العشرين ، وهي مئذنة باب المغاربة ، ومئذنة باب السلسلة ، ومئذنة الغواصة ، ومئذنة باب الأسباط وكل هذه المآذن تم بناؤها في عصر السلاطين المماليك ، وكذلك بعض الأروقة المحكمة البناء ، (٩٥) كذلك وجدت المحاريب بداخل المسجد الأقصى ، والتي قصدت بالزيارة والصلاة فيها ، كمحراب داود عليه السلام ، ومحراب زكريا ، ومحراب مريم عليها السلام ومحراب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومحراب معاوية .

هذا إلى جانب عدد من القباب التي بنيت في صحن الصخرة وبجوارها مثل قبة المعراج ، وقبة محراب النبي ، قبة يوسف ، وقبة موسى ، وقبة الخضر ، وقبة سليمان . (٩٦) .

وجدير بالذكر أن سياسة المماليك الدينية كان لها أثرها المباشر في مدينة بيت المقدس ، ونعني بهذا العناية بالمنشآت الدينية بما يعطى انطبعا عند المعاصرين بأن قيام المماليك في الحكم ليس ضروريا لحماية البلاد والعباد من الأخطار الخارجية فحسب ، بل أيضا لرفع راية الإسلام عن طريق إحياء شعائره ورعاية مقدساته ، ولذا استغل المماليك جزء كبيرا من ثرواتهم الضخمة في العناية بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وتشير كثير من المصادر إلى تلك الرعاية والعناية بترميم وتجديد تلك المقدسات الإسلامية (٩٨) تلك الرعاية التي تجلّت في دهشة واستحسان بعض الرحالة الغربيين الذين

زاروا - المدينة في ذلك العصر . (٩٩) بحيث كان المسجد الأقصى أحد الاعمال الفنية الرائعة التي لفتت أنظارهم .

كما تجب الإشارة إلى أن الحرم الشريف بالقدس كانت له مكانة خاصة عند كثير من المسلمين ، فهو أول القبليتين وثالث الحرمين ، لذا حرص كثير منهم على زيارته في مناسبات عديدة أهمها حضور صلاة التراويح التي كانت تقام بالمسجد الأقصى وبمغارة الصخرة وعند أبواب الحرم ، وكان العديد من المسلمين يحضرون تلك الصلاة التي تقام طوال شهر رمضان ، هذا بالإضافة إلى الاحتفال بليلة النصف من شعبان ، فضلا عن الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج في السابع والعشرين من شهر رجب والتي تكاد تكون من أشهر أعياد القدس وأعظمها ، حيث يوقد أكثر من عشرين ألف من القناديل ، بينما في الأيام العادية لا يتجاوز عدد القناديل في المسجد الأقصى والصخرة معا ألفا ومائتين وخمسين قنديلا ، بما يفوق الكثير من مساجد كثير من المدن الأخرى . (١٠٠) .

كذلك كانت تقام في المسجد الأقصى أغلب الاحتفالات عندما يزور أحد السلاطين مدينة بيت المقدس ، حيث يصلى فيه ، ثم يجلس في محراب المسجد لسماع شكاوى الناس وحل قضاياهم ، كذلك كان كل نائب جديد يصل إلى المدينة عليه أن يزور المسجد الأقصى يوم وصوله ، وهناك يستقبله الأهالي ، وكانت تقام الاحتفالات المختلفة احتفاء بهذا النائب الجديد ، بالإضافة إلى الاحتفاء بالخطباء والقضاة الجدد ، حيث تتم قراءة تواقع التولية في المسجد الأقصى عادة عقب صلاة الجمعة . (١٠١) .

كما كانت هناك بعض المزارات الإسلامية والتي حرص كثير من المسلمين على زيارتها والتبرك بها ، من ذلك ما يذكره مجير الدين عم طور زيتا ، وهو الجبل الشرقى من بيت المقدس ، وهو جبل عظيم مشرف على المسجد الأقصى ، وأن به بعض قبور الصحابة ، فضلا عن أن السيدة صفية زوجة رسول الله ﷺ قدمت إليه ، فصلت به وقامت على طرف الجبل وقالت من ها هنا يتفرق الناس يوم القيامة إلى الجنة وإلى النار ، وهذا الجبل هو الذى صعد منه عيسى عليه السلام إلى السماء حين رفعه الله إليه ، كذلك به قبر السيدة مريم عليها السلام ، وهو في كنيسة في داخل جبل طورزيتا وخارج باب الأسباط ، وهو مكان مشهور يقصده الناس للزيارة من المسلمين والنصارى . (١٠٢) .

ويروى لنا الهروى أيضا عن مزارات بيت المقدس أنه بظاهر القدس من الزيارات عين سلوان ، مأوها مثل ماء زمزم وهى تخرج من تحت قبة الصخرة وتظهر بالوادى قبلى البلد . (١٠٣) كما يروى لنا القزوينى أن عين سلوان هذه كان يتبرك بها الناس وانها كانت تسقى كثيرا من البساتين ، وان ماءها يفيد السلو إذا شربه الحزين (١٠٤) كذلك تشير كثير من المصادر إلى أنه على مقربة منها كانت توجد بعض قبور الصحابة والصالحين والشهداء ، وقبر السيدة راحيل أم يوسف الصديق عليه السلام . (١٠٥) .

وفي نفس المنطقة أيضا كانت توجد قبة قبر سيدنا موسى عليه السلام ، هى عبارة عن بناء وداخله مسجد وعلى يمينه قبة معقودة بالحجارة ، وفيها ضريح يوضع عليه أيام موسم زيارته ستر من حرير

أسود وعليه طراز أحمر مزركش داير على جميع أطرافه ، والذي بنى هذه القبة المذكورة هو السلطان الظاهر بيبرس سنة ثمان وستين وستائة ، وأهل بيت المقدس يقصدونه في كل سنة عقب الشتاء ويقيمون عنده أياما . (١٠٦) وإلى جوارها أو بالقرب منها كانت هناك بئر منسوبة إلى سيدنا أيوب عليه السلام يقصدها كثير من أهل بيت المقدس للزيارة والتبرك « (١٠٧) .

ومن المزارات التي حرص كثير من المسلمين وغيرهم من أبناء أهل الذمة على زيارتها مقام نبي الله داود في القلعة وهي داخل سور بيت المقدس من جهة الغرب ، ويصف لنا عبد الغني النابلسي هذا المكان بقوله : « ودخلنا إلى الجامع الذي في داخل القلعة وفيه محراب داود ، ثم صعدنا إلى مكان مرتفع بدرج يقال أنه مكان جلوس داود . وهناك طاقة كبيرة من الحجر وفيها أثر مرفق غايص في الحجر يقال أنه مرفق داود . كان يجلس هناك وينظر من تلك الطاقة . واضعا مرفقه على هاتيك البلاطة حتى أثر بها . وفي هذا الحصن برج عظيم البناء يسمى برج داود . من البناء القديم .. (١٠٨) .

كانت هذه هي أهم المزارات الإسلامية التي وجدت ، في مدينة بيت المقدس ، وقد أوردنا بعضها على سبيل المثال لا الحصر ، لكي نبرهن على كثرة أماكن الزيارة بها ، خاصة فيما يتعلق بالمسلمين .

أما فيما يختص بالمزارات المسيحية في بيت المقدس فإنها قد تعددت تعددا ظاهرا وواضحا ، مما جعل مجير الدين يقول ، « وفي القدس الشريف ، عدة من الكنائس والديارات من زمن الروم نحو عشرين مكانا ... » (١٠٩) ومما لاشك فيه أن الكثير من تلك الكنائس والأديرة ارتبطت بنشأة المسيحية الأولى وتاريخ السيد المسيح ، هذا بالإضافة إلى ارتباطها بتلاميذ المسيح الأوائل وبعض القديسين ، مما كان له أكبر الأثر على تدفق كثير من المسيحيين من مختلف الأقطار لزيارتها والتعرف عليها ، فضلا عن شغف المسيحيين المحليين في بيت المقدس بإرشاد هؤلاء الزوار وصحبهم إلى تلك الأماكن . (١١٠) .

وتأتى كنيسة القيامة في مقدمة الأماكن التي حظيت بعناية كل من يرد إلى المدينة للزيارة من المسيحيين ، وهذا ما يؤكد لنا كثير من المؤرخين المسلمين والمسيحيين على السواء ، فهذا هو الهروي يقول : « وأما زيارات الملة المسيحية فأعظمها كنيسة قمامة (١١١) وعمارتها من العجائب المذكورة .. ولهم فيها المقبرة التي يسمونها القيامة وذلك أنهم يعتقدون أن المسيح قامت قيامته في ذلك الموضع .. (١١٢) كذلك يقول عنها القزويني « وهي كنيسة عظيمة للنصارى في وسط البلد ، لا يضبط صفتها حسنا وتنميها وكثرة مال .. » (١١٣) ويقول عنها أيضا مجير الدين في حديثه عن الكنائس والأديرة التي في بيت المقدس « وعمدة النصارى منها كنيسة قمامة فإنها عندهم بمكان عظيم وبنائها في غاية الإحكام والإتقان يقصدونها في كل سنة في عدة أوقات من بلاد الروم والإفرنج ومن بلاد الأرمن ومن الديار المصرية والمملكة الشامية وسائر الأقطار ويسمونهم القياصة ويزعمون أن حجهم إليها ... » (١١٤) .

وجدير بالملاحظة أن كل المؤرخين المسلمين الذين تحدثوا عن كنيسة القيامة قد أوردوا لنا وصفا

مقتضيا لها وبخاصة من داخلها ، ولعل أهم الأوصاف التي ذكرت لها ، هو ماسبق وأورده لنا مجير الدين لها ، وكذلك مأورده العماد الأصفهاني في حديثه عنها عقب استيلاء صلاح الدين على المدينة ، وخروج الفرنج منها حيث يقول : « وكانت كنيسة قمامة وهي كنيستهم العظمى مبسوطة بالبسط الرقاع مكسوة بالسطور من النسيج الحرير والممزوج من ساير الأنواع والذين يذكرون أنه قبر عيسى عليه السلام محلى بصفائح الفضة العين ومصوغات الذهب واللجين مصفح بالنضار مثقل من نقايس الحلى بالأوتار فأعاده البطرك منها عاطلا وتركه طللا ماثلاً .. » (١١٥) .

هذا بعكس الحجاج والرحالة النصارى والذين اهتموا بذكر كل مايتعلق بهذه الكنيسة ، وأمدونا بتفصيلات كثيرة عنها ، ويهمننا هنا في هذه الدراسة أن نقتصر على ما استجد فيها ، وذلك لأن بناءها الأصيل والذي يرجع إلى أيام الملكة هيلانة أم الملك قسطنطين ، حيث بنتها سنة ٣٣٥م ، ثم احرقت على يد الفرس سنة ٦١٤م وتم إعادة بنائها سنة ٦٣٦م على يد أحد الرهبان . (١١٦) ولم يتغير شيء من بنائها في عهد سلاطين المماليك . (١١٧) كما أنها كانت تقع داخل أسوار المدينة ، ولها بابان يفتحان على ساحة جميلة المنظر ، أحدهما كان مفتوحا ، أما الآخر فقد كان مغلقا ، وكان يقف على باب الكنيسة ثمانية حراس من المماليك . (١١٨) ويروى لنا الرحالة فريسكوبا لدى الذى زارها يوم ١٤ نوفمبر عام ١٣٨٤ وصفا لها حيث دخلها وبقي بها حتى صلاة الغروب اليوم التالى ، فيقول : وأمام كنيسة القبر المقدس بداخل كنيسة القيامة ساحة في وسطها حجر ، وهو الذى جلس عليه المسيح ، وفي هذه الساحة أربعة كنائس صغيرة ، الأولى منها للسيدة العذراء والقديس يوحنا الإنجيلي ، والثانية للقديس ميخائيل والثالثة للقديس يوحنا المعمدان ، والرابعة للقديسة مريم المجدلية ، ثم تدخل كنيسة القبر المقدس ، والتي لها ثلاثة مفاتيح ، واحد يحتفظ به أحد ممثلى السلطان ، والثانى لنائب القدس والآخر بيد أحد رجال الدين ، وكان على الحجاج المسيحيين أن يدفعوا قدرا من المال لكى يدخلوا هذه الكنيسة ، وداخلها يجد الانسان حجرا أسودا وهو الذى جلد عليه المسيح ، وكذلك بها جزء من العمود الذى ربط فيه المسيح وضرب في ليلة الخميس المقدس ، كذلك يوجد السجن الذى وضع به المسيح ، كما توجد مقبرة دفن بها الملك جودفرى ، (١١٩) وأمامها مقبرة أخرى دفن بها أخوه ، وهما داخل كنيسة يقوم بالخدمة فيها الأرمن المسيحيون . وبالقرب منها توجد كنيسة على المكان حيث ظهر المسيح للقديسة مريم المجدلية ، وبالقرب منها كنيسة حيث ظهر المسيح للسيدة مريم ويقوم بالخدمة فيها الرهبان الفرنسيكان التابعين لجبل صهيون ، كما توجد كنيسة أيضا للقديسة هيلانة تحت الأرض تماما ، ثم هناك قبو تحت الأرض تصل إليه بدرج حيث توجد عدة كنائس صغيرة يقوم بالخدمة فيها الرهبان الفرنج ، والبعض الآخر يقوم بالخدمة فيها اليونان ، والبعض للأرمن والبعض لليعاقة (١٢٠) هذا بالإضافة إلى وجود أعداد من الرهبان من مختلف الجنسيات ، ومختلف الطوائف في كل مكان خاص بها ، ولها مذبحها ، ويبدو أن العداوة كانت شديدة بين بعض هذه الطوائف والبعض الآخرة . (١٢١) .

كذلك جدير بالذكر أنه منذ الفتح الصلاحى لبيت المقدس ، فقد سلمت مفاتيح كنسية القيامة إلى عائلتين مسلمتين هما نسبية وجودة ، ومازال أحفاد هاتين العائلتين يحتفظون بهذا الحق إلى

منتصف القرن العشرين حسبما يشير أحد الباحثين (١٢٢) .

وبالإضافة إلى ما سبق وأشرنا إليه من أن كنيسة القيامة كان لها دور سياسى فى عصر سلاطين المماليك ، حيث استغلها السلاطين أداة للضغط على ملوك وأمراء الغرب الأوربي - وخاصة عندما تتعرض مصالح وأمن الدولة للتهديدات - الخارجية من جانب الفرنج - وهذا ما تشير اليه كثير من المصادر المعاصرة . (١٢٣) فقد كان لها دور اجتماعى بجانب دورها الدينى وهذا ما يؤكد لنا أحد الحجاج « البياكنزى » من أن كنيسة القديسة مريم كان بها كثير من منازل الضيافة للرجال والنساء إلى جانب أماكن الإقامة لرجال الدين بها ، كذلك أعدوا بها للرحالة عددا كبيرا من المراكز الإعلامية حيث تعلق على جدرانها كثير من المراسيم الصادرة من السلاطين ، مثلها فى ذلك مثل المسجد الأقصى . (١٢٥) .

ومن الأماكن التى حظيت بالمرتبة الثانية بعد كنيسة القيامة ، « كنيسة صهيون المختصة بالفرنج وهى فى آخر مدينة القدس من جهة القبلة ، ثم كنيسة ماريهقوب وتعرف بدير الأرمن وهى بالقرب من صهيون ، وكنيسة المصلبية المختصة بطائفة الكرج وهى بظاهر القدس الشريف من جهة الغرب فهذه الأربع كنائس هى عمدة النصارى والنهائية عندهم كنيسة قمامة .. (١٢٦) ومن المرجح أن تكون كنيسة ماريهقوب هذه قد حظيت بمكانة خاصة لدى الطوائف المسيحية المختلفة ، وذلك نظرا لما يرويه عنها الهروى من أنه كان « بها بئر يقال أن المسيح اغتسل منها وآمن السامرة على يديه عندها ويوزونها ويعتقدون بها ... (١٢٧) .

كذلك وجد بمدينة بيت المقدس العديد من الأديرة التى حظيت ليس فقط بزيارة المسيحيين من الطوائف المختلفة ، بل أيضا بزيارة الكثيرين من المسلمين ، من هذه الأديرة ما يذكره لنا ابن فضل الله العمري « دير المصلبة » ، وهو بظاهر مدينة القدس الشريف ، فى شامها بغرب . وهو دير رومى قديم البناء ، بالحجر والكلس . محكم الصنعة مونق البقعة . فى بحيرة من أشجار الزيتون والكروم وشجر التين ، بإزاء قرية ، تجرى على الدير بمرسوم السلطان . وهذا الدير دخلت إليه ورأيت ، وفيه صور يونانية فى غاية من محاسن التصوير ، وتناسب المقادير . وصعدت إلى سطحه ، فرأيت له حسن مشرف وسعة فضاء .. « (١٢٨) ، ومنها أيضا دير السيق « قبلى بيت المقدس . على نشز عال مشرف على الغور ، غور أريحا يطل على تلك البساتين الخضرة ويجرى الشريعة ، وبه رهبان ظراف أكياس ، ولا يأتهم إلا قاصد لهم أو مار فى مزارع الغور . تحتهم وفوقهم الطريق الآخذة إلى الكتيب الأحمر . وقبر موسى عليه السلام فى القبة التى بناها عليه الملك الظاهر بيبرس .. « (١٢٩) ومنها أيضا « دير الدواكيس » ، شرق القدس ، حسن البناء ، له سمعة وذكر بين النصارى ، ويذكر لنا المصدر نفسه ونقصه بذلك ابن فضل الله العمري « ولأعرف بانيه ، ولا وقفت له على اسم ، ولا على السبب الذى سمي به بهذا الاسم . غير أن له وقفا يعود منه على الرهبان السكان جليل فائدة ونفع ،

وقد مررت غير مرة به في أسفارى وخرج إلى رهبانه بميسور ما عندهم » . « والحقيقة ان ابن فضل الله لم يخبرنا صراحة في السبب في زيارته لتلك الأديار ، إلا أننا نستطيع من خلال قصيدة له يتحدث فيها عن تلك الأديار ترجيح أن الرهبان بتلك الأديار كانوا يستضيفون بعض المسلمين ويقدمون لهم النبيذ والخمر ، ودليل ذلك قوله :

دير الدواكيس أم ريش الطواويس أم الشموس سنا تلك الشماميس
مأوى المياسير لكن بعد أوتهم منه يعدون في حزب المفاليس
فأنزل به واقم فيما تريد وقل املاً كؤوسى وفرغ عندها كيس
واقده زناد سرور من مدامته فهذه النار من تلك المقابيس (١٢٠) .

كذلك من تلك الأديار والتي حظيت بزيارة الكثيرين من أهل بيت المقدس ، دير القديس سابا ، وهو إلى الجنوب الشرقى من بيت المقدس على بعد ثلاث ساعات ونصف عنها على الراجل ، وعلى انخفاض ٥٦٠ متراً عنها عن الطريق المؤدى منها إلى البحر الميت في وادى القدرين ، وكان أشبه بقلعة منيعة ، غريبة الأبنية ، ويصعد من الوادى إلى الدير بسلام بعضها منقور في الصخر ، والآخر مبنى على شكل أدراج ، ورهبانه يعيشون فيه عيشة تقشف ، وفي كل يوم جمعة يبعث لهم دير القبر المقدس في القدس طعامهم مرة واحدة ، ولا يسمح للنساء بدخوله . (١٢١) .

كذلك يذكر لنا مجير الدين من المزارات التى كان يقصدها كثير من المسيحيين والمسلمين بالقدس ، قبر مريم عليها السلام ، وهو في كنيسة داخل جبل طور زيتا ، وهو الجبل الشرقى لبيت المقدس ، وهذا الجبل نفسه مشرف على المسجد الأقصى ، وهذه الكنيسة تسمى « الجسمانية بخارج باب الأسباط وهو مكان مشهور يقصده الناس للزيارة من المسلمين والنصارى وهذه الكنيسة من بناء هيلانة أم قسطنطين .. (١٢٢) .

تلك كانت أهم المزارات المسيحية في بيت المقدس ، بخلاف كثير من المزارات الأخرى خارج المدينة وخاصة في بيت لحم مثل « مهد المسيح » بالإضافة إلى الخليل حيث قبور كثير من الأنبياء مثل آدم ، وإبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب ، وزوجاتهم ، وجدير بالذكر أن المزارات الموجودة في الخليل كان يسمح للمسيحيين بزيارتها بعد الحصول على إذن خاص بذلك من السلطات المملوكية وخاصة بالنسبة للمسيحيين الغربيين (١٢٣) كذلك أهتم كثير من المسيحيين وبخاصة الغربيين بزيارة بعض الأماكن الأخرى المجاورة لبيت المقدس لارتباطها بنشأة المسيحية ، مثل نهر الشريعة « الأردن » حيث عمد المسيح ، وكنيسة القديس يوحنا بالقرب من نهر الأردن وبعض الكنائس الأخرى . والتي يذكرها أحد حجاج القرن الخامس عشر الميلادى . (١٢٤) .

أما فيما يختص بأماكن الزيارة اليهودية ، فالحقيقة أن المصادر التى بين أيدينا لم تشر إلا إلى الأثر الذى اعتبره اليهود مقدساً ، والذى يشير إليه الحاج المجهول « بأن اليهود في القرن الحادى عشر كانوا

يأتون إليه ويقومون بتقبيله والبكاء عنده ، يقصد بذلك حائط المبكى (١٣٥) .

وتشير بعض المراجع العربية إلى أن حائط المبكى هذا هو عبارة عن بقية سور مدينة أورشليم القديم ، وأنه الحائط الخارجى للهيكل والذي يبلغ طوله ١٥٦ قدما وارتفاعه ٥٦ قدما ، وهو الذى رُمى جيروود (١١ ق.م) ، ودمره تيطس ٧٠م ويقدسه اليهود ويزورونه بين كل آونة وأخرى ، وكلما زاروه تذكروا مجدهم الضائع فبكوا . (١٣٦) كما يشير أحد الباحثين إلى أن الاعتقاد بأنه جزء من معبد سليمان اعتقاد خاطئ ، لأنه فى الحقيقة جزء من السور الخارجى لمعبد جيروود ، كما أنه من الناحية التاريخية معروف أن سليمان بنى معبدا فى بيت المقدس لكن هذا المعبد دمر تماما أكثر من مرة ، وأن الأبحاث الأثرية التى تمت خلال المائة سنة الأخيرة لم تظهر أى دليل على وجود أى جزء من معبد سليمان . (١٣٧) كذلك يشير باحث آخر إلى أن هذا المكان نفسه هو المكان الذى يسمى بالبراق الشريف ، حيث يعتقد كثير من المسلمين أنه المكان الذى ربط عنده جبريل عليه السلام براق النبي ﷺ ليلة الإسراء ، ومن ثم أطلق عليه هذا الاسم منذ ذلك الوقت وحتى منتصف القرن العشرين ، وهذا الجزء مازال يؤلف قسما من الحرم القدسى الشريف (١٣٨) ويؤكد باحث آخر هذا القول (١٣٩) .

كذلك كان من الأماكن التى حظيت بزيارة بعض اليهود فى مدينة بيت المقدس على عصر السلاطين المماليك المقبرة التى لهم بجبل صهيون ، والتى يذكرها لنا الرحالة سيرجون مانديفيل . والذى زار المدينة عام ١٣٢٢م حيث يؤكد وجود تلك المقبرة والتى يعتقدون بأنه دفن فيها الملك داود ، والملك سليمان ، وكثير من ملوكهم الذين حكموا بيت المقدس فى قديم الزمان . (١٤٠) .

من هذا العرض الموجز عن أهم المزارات فى مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ، يتضح لنا أن أبناء الديانات السماوية الثلاث الاسلام والمسيحية واليهودية ، كان لكل منهم أماكن خاصة بالزيارة يقدسونها ويجلونها لارتباطها بعقيدتهم ، فضلا عن الأماكن المشتركة التى كان يقدسها المسلمون والمسيحيون على السواء باعتبار أن الإسلام لم يفرق بين الأنبياء والرسل ، وكانوا ومازالوا كلهم محل تقديس واحترام ، وكذلك الأماكن التى أرتبطت بهم .

بعض عادات أهل بيت المقدس

عرفت مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر كثيرا من العادات والتقاليد والتى توارثوها خلفا عن سلف ، سواء فى ذلك ماشاع منها لدى المسلمين أم المسيحيين أم اليهود ، وبالرغم من كثرة تلك العادات والتقاليد إلا أننا سنقتصر على إيراد بعضها خوفا من التطويل ومراعاة لطبيعة البحث نفسه ، وبما يعطى صورة كاملة عن أبناء بيت المقدس وعاداتهم فى ذلك العصر بطوائفهم المختلفة .

فمن العادات الطريفة والتى ظلت إلى وقت قريب لديهم ، والتى اشتركت فيها جميع الطوائف من مسلمين ومسيحيين ويهود ، عادة إخفاء بعض النقود تحت الأرض ، فالاكتشافات الحديثة قد

أظهرت أن هذه العادة قديمة ، كما تم الكشف عن كثير من العملات وبكميات كثيرة ، وبخاصة ذات القيمة الصغيرة ، والتي وجدت حول بيت المقدس وغيرها من المدن ، فقد جرت العادة بأن يخفى الناس هذه النقود داخل أوانٍ فخارية ، خشية سطو اللصوص عليها ، وربما نظرا لكثرة تعرضهم للإغارات والمصادرات التي تكررت في عصر سلاطين المماليك الجراكسة . وكما سبقت الإشارة بذلك . ومن المرجح أن هذه العادة كانت منتشرة بشكل واضح بين سكان القرى حول بيت المقدس ، وربما رجع ذلك إلى فقرهم وتعهم في الحصول على تلك النقود ، مما جعلهم يعتزون بها ويتفنون في إخفائها . (١٤١) .

ومن العادات القديمة التي ظلت حتى أواخر عصر سلاطين المماليك والتي لفتت أنظار بعض الرحالة الأجانب ، أنه كان في وادي اليوسيفات عين ماء تسمى « نبع العذراء » أو نبع النساء المتهمات حيث اعتيد تسميتها بذلك ، فقد جرت العادة أن يجرى بها نوع من الاختبار لمن تتهم من النساء بعدم الطهر ، فمن تشرب من ماء تلك العين وتكن مذنبه فإنها تموت ، أما إذا كانت بريئة فإنها لا تصاب بأى أذى أو ضرر (١٤٢) ، ومما يؤكد أن هذه العين وتلك العادة قديمتان ما يرويه بحير الدين عنها بقوله إنها كانت تسمى « عين المقدوفات » وهي معروفة منذ زمن بنى إسرائيل وكانت بالقرب من عين سلوان وكانت « المرأة إذا قذفت أثوابها إليها فشربت منها فإن كانت بريئة لم يضرها وإن كانت غير بريئة طعنت فماتت . (١٤٣) . كما أن السيدة مريم عليها السلام عندما اتهموها بعدم النقاء ، فقد قبلت هذا الاختبار ، وشربت من هذا الماء وبرهنت على طهرها ، ومنذ ذلك الحين وهذا النبع يحمل اسمها (١٤٤) .

كذلك كانت غالبية سكان بيت المقدس من مسلمين ومسيحيين ويهود يعتقدون في الحسد ، « عين الحسود » ، ويعتقدون أنها تسبب المرض والحزن ، والموت ، وأنها يمكن أن تهدم المنازل ، وتوقف الحرث ، وتقتل الحيوانات والزرع ، كما أنهم يعتقدون أن الأشخاص أصحاب العيون الزرقاء هم الأكثر تأثرا من حيث الحسد . وللوقاية من « عين الحسود » فإنهم كانوا يأخذون قطعة من ملابس الشخص الذى يعتقد أنه يحسد غيره ، ويحرقونها تحت الشخص الذى أصيب . كما كانت هناك طرق أخرى للتخلص من أثر « عين الحسود » سواء لدى المسلمين أم المسيحيين (١٤٥) .

ومن العادات التي تحدثنا عنها كثير من المصادر الأجنبية والعربية ، أن سكان بيت المقدس على اختلاف طوائفهم ، تراهم في الصباح الباكر ، وفي المساء وعندما تقل درجة حرارة الشمس يخرجون إلى البساتين ويتمشون حول أسوار المدينة وهذا ما لفت أنظار الرحالة فابري أثناء زيارته للمدينة . (١٤٦) إلا أن بعض المصادر العربية تشير إلى أن تلك العادة كانت كثيرا ما تحدث في فصل الربيع وفصل الصيف فقط حيث يخرجون إلى المتنزهات والحقول والبساتين ، وأن الكثير منهم كانت لهم أخصاص وسط البساتين لقضاء تلك الأوقات ، كذلك كثيرا ما يخلو لأهل العلم عقد مجالسهم في تلك الأماكن وسط الخضرة والهواء العليل . « حيث تنشرح الصدور وينجير القلب المكسور » (١٤٧)

ومن العادات الطريفة ، والتي تدل على طيبة قلوب أهل بيت المقدس في ذلك العصر ما يرويه لنا

الرحالة فابري من أنه جرت العادة لديهم إذا التقوا مع أحد أصدقائهم أو معارفهم بعد طول غياب فإنهم يسارعون إلى معانقته وتقبيله ، فعندما عاد فابري وطلب سائس ركوبته فعندما رآه جرى نحوه وقبله كعادة الناس هناك ، وحياء بكل مناهج الفرح والسرور ، وكان يضحك ويتكلم معه كثيرا مما يدل على اشتياقه للحديث معه ، لأنه كان قد تركه لبعض الوقت لأداء مراسم الحج . (١٤٨) . كذلك جرت العادة لدى أهل البلاد ، أن الرجال الفقراء ، وأهل الريف ومتوسطى الحال كان عليهم أن يوسعوا الطريق للأمرء والأغنياء عندما يلتقون بهم (١٤٩) .

كذلك تشير بعض المراجع إلى أنه لم تجر العادة في بيت المقدس ، بل وفي فلسطين كلها أن يقف الشخص أثناء ادائه بعض الأعمال التي يمكن أن يؤديها وهو جالس ، وهذا ماتفعله النساء أثناء غسل الملابس أو غزل الصوف وإلى غير ذلك من الأعمال ، فكان يجلسن على الأرض ويقمن بتلك الأعمال ، كذلك الحال بالنسبة للرجال ، فكانوا يقطعون الحجارة وهم جالسون . (١٥٠) .

ومن العادات التي سارت بين مختلف الطوائف المسيحية ، أنهم كانوا في حالة المرض يندرون للكنائس والمعابد والأديرة زيتا وشموعا وبخورا ، أو ينقلون بعض النباتات الموجودة في جدرانها لإعطائها للمريض ، أو يحملون بعض الأيقونات إلى غرفته (١٥١) وكذلك من العادات الخاصة بالمرض ، أنهم كانوا يلجأون إلى تشريط جلد المريض بشفرة حادة كنوع من العلاج وإذا لم يحدث تقدم في حالة المريض فإن الخطوة التالية عادة ماتكون الكى بالنار ، كذلك عند الإصابة بجرح من الجروح فإنهم يغطونه بعجينة من الغبار الدقيق المخلوط بالماء . (١٥٢) .

كذلك يروى لنا الرحالة بوم جارتن الذى زار مدينة بيت المقدس في أواخر شهر نوفمبر عام ١٥٠٧م ، أنه جرت عادة كثيرين من أبناء بيت المقدس الخروج إلى بركة سلوان حيث يمارسون رياضتهم المفضلة وهى صيد الطيور ، فيقول « هناك كانت لدينا الفرصة لكى نشاهد طريقة صيد الطيور ، والتي لم نرها من قبل ، ذلك لأنهم لا يصيدون الطيور - كما نفعل نحن - عن طريق الصقور والشواهين ، ولكن عن طريق المياه التي تصب على الصخور ، ولأن هذه البلاد جافة جدا ، والطيور عندما تطير في الجو ، تكون مستعدة لأن تهبط فجأة بسبب العطش ، وعندما ترى المياه تلمع خلال أشعة الشمس المتساقطة عليها ، فإنها تتجه نحوها مباشرة ، وقبل أن تصل الطيور إلى المياه لتشرب تكون قد وقعت في أيديهم عن طريق الشراك التي ينصبونها لها ... (١٥٣) .

كما يروى لنا الأب سوريانو والذي عاش في مدينة بيت المقدس فترة من الزمن كما سبق وأشرنا - أنه شاهد أثناء إقامته في المدينة ، وهو في هذا المقام يقارن بين بعض العادات المتنوعة التي شاهدها ، وبين ماهو معروف لديهم في الغرب الأوروبى فيقول « إن الرجال يقومون بالأعمال المنزلية ويحملون الماء ويغزلون وينسجون ، بينما تقوم النساء بعمليات البيع والشراء ، إن الرجال يهتمون أشد الاهتمام بتوفير الطعام لبناتهم ، ولا يهتمون نفس الاهتمام بالصبيبة ، نحن نخلع غطاء الرأس عند التحية ، لكنهم يخلعون الأحذية عند التحية ، نحن نحب الكلاب وهم يحبون القطط ، نحن نربط الأحزمة فوق الملابس وهم يربطونها تحتها ، هم يرتدون الكتان ونحن نرتدى الصوف ، وهم يبيعون الدجاج

بالحجم ، والفاكهة مثل التين في أقفاص ، والرجال عندهم يفضلون القلط بينا تفضل النساء الكلاب ... (١٥٤) .

ومن العادات الطريفة لدى العرب القائلين في بيت المقدس وحولها أن كان لديهم نوع من اللبن الحليب ، والذين يقومون بإعداده بطريقة خاصة والذي يسمى « خثارة اللبن » ، أو اللبن المتخثر ، والذي يقدم للضيوف فقط ولكن يعتبر طعاما مترفا ، وهو مرطب جدا بالنسبة للمسافرين والرحالة ، عندما يتعبون أو يشعرون بالحرارة ، وله تأثير منوم ومهدئ غريب ، كما إنه ليس من عاداتهم قتل المستجير بهم أو الضيف الذي ينزل لديهم .

وأخيرا تجب الإشارة إلى أنه من ضمن العادات التي كانت شائعة في بيت المقدس في ذلك العصر ، عادة الاعتقاد في الأولياء والصالحين وأن لهم كرامات كثيرة ، من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين عن « الشيخ أحمد جعارة أنه كان مجذوبا وله كرامات ظاهرة وأهل بيت المقدس يعتقدون صلاحه ... توفي في شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة ودفن بمألا بالقرب من القلندرية نفع الله به (١٥٦) .

وكذا الحال بالنسبة للمسيحيين المحليين فقد جرت العادة لدى بعضهم بالذهاب الى بركة ماء بداخل المدينة يقال انها بركة سليمان ، يذهب اليها المرضى ويظلون ينظرون حتى تتحرك مياهها وأول شخص ينزل إلى الماء عندما يتحرك يشفى من مرضه (١٥٧) . كذلك كان بعض المسيحيين يذهبون الى المكان الذي تم فيه صلب المسيح بكنيسة القيامة ، ويذهبون الى العمود الذي صلب عليه ويضعون عليه قطعاً من القماش ثم يلتفون بها كنوع من التبرك ، ولمساعدتهم على الشفاء من كثير من الأمراض وهذه العادة قديمة وكانت متبعة أيضا طوال فترة الحكم الصليبي (١٥٨) .

من هذا العرض تتضح لنا بعض العادات التي كانت شائعة في بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك ، وأنها تنوعت لتشمل شتى مجالات الحياة المختلفة ، كذلك كان لتنوع الديانات بها أثر في تنوع تلك العادات والتقاليد ، كما تجدر الإشارة أنه فيما يختص باليهود فلم نعرهم فيها بين أيدينا من مصادر ومراجع عن بعض عاداتهم الخاصة والتي تميزوا بها عن غيرهم من سكان بيت المقدس . ومن المرجح أن يكون صمت تلك المصادر والمراجع عن الحديث عنهم راجع لكونهم كانوا أقلية بالنسبة لغيرهم من السكان في ذلك الوقت ، وربما لأنهم لم يتميزوا عن غيرهم من السكان ببعض العادات الخاصة ، ولعلهم شاركوهم في كثير من العادات والتقاليد التي عرفت في ذلك الوقت ، وكما سبقت الإشارة - فإن غالبيتهم كانوا من الوافدين على البلاد والذين سرعان ما ألفوا الحياة العربية ، وتخلقوا بعادات العرب .

المواسم والاحتفالات الدينية في القدس

تعددت المواسم والاحتفالات الدينية في بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك تعددا واضحا وملموسا ، سواء ما كان يتعلق منها بالمسلمين أم المسيحيين من سكان المدينة ، وبهنا في هذا المقام أن

أول ما تميزت به القدس عن غيرها من مواسم واحتفالات لم تكن موجودة في غيرها من المدن الإسلامية وخاصة ما كان منها خاضعا لحكم سلاطين المماليك .

من ذلك أن مدينة القدس عرفت بعض المواسم أو ما نسميه حاليا « بالموالد » مثل « موسم النبي عنبر » ، و « موسم النبي صالح » ، و « موسم الحسين » ، و « موسم النبي موسى » ، و « موسم أوى عبيدة الجراح » ، وترجع نشأة المواسم الى السلطان صلاح الدين الأيوبي ، فعقب موقعة حطين وازاحة الصليبيين عن معظم مدن فلسطين ، شغرت معظم تلك المدن من السكان ، وعندئذ أسكنها القبائل العربية ومنها القدس ، والتي توطن بها كثير من قبائل بني حارث ، والذين كانت منازلهم خارج المدينة عند القلعة ، وقبائل بني مرة الذين قطنوا الجهة الغربية الشمالية ، وكذلك بنو سعد والجرامنة الذين كانت لهم حارة في سوق القطانين ، وكان الهدف من تلك المواسم التي أنشأها صلاح الدين أن تكون موافقة لموسم عيد الفصح ، والذي يأتي فيه عدد كبير من الحجاج المسيحيين ، وبخاصة من الأوربيين - لزيارة القدس ، ولكن تكون القدس غاصة بأهالي الجليل ونابلس والمناطق الأخرى المجاورة ، وبذلك كانت القدس أشبه بثكنة عسكرية متأهبة لرد كل غارة ودفع كل اعتداء ، وبهذا العمل استطاع أن يأمن غدر الفرنج (١٥٩) .

هذا وقد جرت العادة أن يتوافد شباب القبائل المختلفة على مدينة القدس ومعهم أسلحتهم ، ويستمر الجميع في مقام النبي موسى أسبوعا كاملا ، يكون الفرنج قد فرغوا من زيارتهم ، وعقب صلاة الجمعة يزفون أعلامهم في المنطقة التي بين القدس وأريحا ، وعلى طول الطريق الذي تهبط فيه جموع الفرنج متوجهة إلى المغطس في نهر الشريعة أو الأردن ، وبعد عودة الفرنج وفراغهم من زيارتهم للمدينة ، يعود المسلمون وقد انتهت تلك المواسم ، ويأخذ كل منهم في العودة إلى بلده . (١٦٠) .

ولقد استمرت تلك المواسم في عصر سلاطين المماليك ، فعندما تولى السلطان الملك الظاهر بيبرس ، استحسن رأى السلطان صلاح الدين في هذا العمل ، فبنى مسجدا فوق قبر موسى عليه السلام ، وأكد ذلك الموسم ودعمه ، وكذلك فعل بقية السلاطين الذين حكموا بعده . (١٦١) والحقيقة التي يجب أن نشير إليها ، أن المصادر والمراجع التي بين أيدينا لم تشر إلى تلك المواسم أو إلى ما كان يتم فيها بما يتيح لنا فرصة الحديث عنها بشيء من التفصيل أكثر من هذا .

كذلك تجب الإشارة إلى أنه لم تصادفنا أية إشارة عن بعض المواسم الأخرى ، والتي عرفت مثلا في القاهرة ، مثل يوم عاشوراء والذي اعتبره فقهاء المماليك من المواسم الشرعية الرئيسية . (١٦٢) كذلك لم ترد أية إشارة إلى الاحتفال بالمولد النبوي وكيفية ذلك ، كذلك لم ترد لنا أية معلومات عن الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى ، مما يرجح أن الاحتفال بهما لم يكن يختلف عن أية مدينة أخرى إسلامية في ذلك الوقت .

أما عن ليالى الوقود ، فهناك على رأس تلك الليالى تأتي ليلة الإسراء والمعراج ، والتي كانت عادة ماتم في السابع والعشرين من رجب من كل عام ، حيث كان يقام في بيت المقدس احتفال عظيم

مهيّب بقبة الصخرة ، التى تصبح وكأنها قبة من التور والضوء لكثرة ماكان يوقد فيها من القناديل^(١٦٣) ولعل بعض المسلمين قد حرصوا على إحياء تلك الذكرى بالصيام وبزيادة الاجتماع فى المسجد الأقصى للذكر والقراءة ، ويذكر لنا مجير الدين فى تلك الذكرى كانت تتلى بعض القراءات الخاصة بالمعراج وكذلك سورة الإسراء ، وكان لها قراء معينون يقومون بتلك القراءات^(١٦٤) كما كانت ليلة النصف من شعبان إحدى تلك الليالى المشهودة والتى توقد فيها القناديل بشكل يفوق كثيرا من مساجد بعض المدن مجتمعة ، ويبدو أن نائب لمدينة كان يحضر ذلك الاحتفال ، حيث يتصدر مجلس العلماء والفقهاء فى محراب المسجد الأقصى ، وكانت المدينة كلها تلبس حلة العيد القشبية وتقام فيها الاحتفالات والزينة بتلك الليلة ، هذا فضلا عن تمرکز الاحتفالات فى الحرم الشريف^(١٦٥)،والتي غالبا مايمت فيها قراءة آيات من القرآن الكريم ، ثم صحيح البخارى ، ثم يقوم المداح بعد ذلك بالمدح وتكون ليلة مشهودة^(١٦٦) .

أما فيما يختص بشهر رمضان وإحياء لياليه ، فقد سبقت الإشارة فى الحديث عن المسجد الأقصى ، بأن طوال شهر رمضان كانت تقام صلاة التراويح بالمسجد الأقصى وبمغارة الصخرة وعند أبواب الحرم ، وكان أكثر سكان القدس يحضرون هذه الصلاة كامل شهر رمضان ، حتى أن عددا من الأئمة ، بداخل الأقصى والصخرة وعند أبواب الحرم ، كانوا لايقومون بوظيفتهم إلا فى صلاة التراويح طوال شهر رمضان فقط^(١٦٧) وهذا يؤكد لنا أن المسلمين كانوا يحتفلون فى بيت المقدس بهذا الشهر احتفالا كبيرا ، يتفق ومكانة هذا الشهر الدينية لديهم . والحقيقة أن المصادر والمراجع التى بين أيدينا لم تشر إلى كيفية الاحتفال برؤية هلال رمضان ، وهل اختلف الاحتفال بتلك الرؤية فى بيت المقدس عن غيرها من المدن ، مثال ذلك ماكان يحدث فى القاهرة حيث يذهب فقهاء المدينة إلى مكان مرتفع خارج المدينة - وهو مرتقب الهلال عندهم - ثم ينزل القاضى ومن معه يرتقبون الهلال ، ثم يعودون بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشموع والمشاعل والفوانيس ، فيكون ذلك دليلا على ثبوت رؤية الهلال ، ثم يقوم التجار ويوقدون الشموع بخوانيتهم^(١٦٨) وبذلك يتحول الليل إلى نهار ، ولعل بعض الأهالى كانوا يحتفلون بليالى رمضان إما بإحياء لياليه بتلاوة آيات من القرآن الكريم ، أو ببعض وسائل السرور مثل دق الطبول والغناء وإلى غير ذلك من الوسائل .

كذلك تجب الإشارة إلى أنه لم تصادفنا أية إشارة عن طريق التسحير فى بيت المقدس طوال شهر رمضان ، وهل كانت مثل بعض المدن كالقاهرة والأسكندرية مثلا حيث كان يطوف أصحاب الأرباع وغيرهم بالطلبة على البيوت وهم يضربون عليها ، أو يدقون على الأبواب وينادون على أصحاب البيوت ، وربما كانت القناديل لا يتم اطفائها إلا قبيل طلوع الفجر ، إيدانا بآخر فرصة للتسحير^(١٦٩) .

كذلك لعله من المرجح أن شهر رمضان كان فرصة طيبة للإكثار من الصدقات وإطعام الفقراء ، ومن مظاهر التوسعة فى ذلك الشهر الكريم ، ماسبق وأشرنا إليه فى الحديث عن الحياة العلمية من صرف رواتب إضافية لأرباب الوظائف وطلبة العلم والأيتام ، فضلا عن أن التوسعة ربما قد شملت

صرف كميات إضافية من السكر ، نظرا لأن كمية المستهلك منه تتزايد في هذا الشهر بسبب الإكثار من عمل الحلوى ، وربما شملت التوسعة أيضا توزيع بعض أنواع من الأطعمة المعدة بالإضافة لبعض المبالغ والتي ربما كان يشتري بها كثير من الحلوى لتوزيعها على أرباب الوظائف والصوفية والأيتام والفقراء المجاورين لبعض المؤسسات الدينية والعلمية حسبما يفهم ذلك من الوثائق التي سبقت الإشارة إليها ، ومن كثير من الوثائق التي تميز بها عصر سلاطين المماليك في المدن المختلفة التي خضعت لحكمهم . (١٧٠) .

أما عن الاحتفالات والأعياد الدينية المسيحية ، فإنه تجب الإشارة إلى أن هذه الأعياد تعددت في بيت المقدس لتعدد الطوائف المسيحية ، فمنها ما هو خاص بالقسيسين ، ومنها أعياد يمكن أن نسميها أعيادا قومية يشترك فيها غالبية أبناء الطوائف المسيحية ، ونظرا لطبيعة البحث نفسه فإننا سنتقصر على ذكر أهم الأعياد معتمدين على التقسيم الذي أورده القلقشندي لهذه الأعياد على النحو التالي (١٧١) .

أولاً : الأعياد الكبار :

١ - عيد البشارة : ويقصد به بشارة جبريل عليه السلام للسيدة مريم بميلاد المسيح (١٧٢) وهو عادة مايقع في الخامس والعشرين من شهر مارس (١٧٣) هذا بينما يرى بعض المؤرخين أنه يأتي في شهر أبريل (١٧٤) ولكن الأصح هو شهر مارس ، لأن المدة من ٢٥ مارس إلى ٢٥ ديسمبر وهو ميلاد المسيح عليه السلام تسعة أشهر .

٢ - عيد الشعانين : ويطلق عليه أيضا الزيتونة ، أو أحد السعف أو أحد الشعانين (١٧٥) وكلمة الشعانين مأخوذة من السريانية (سعانين) ويقصد بها سعف النخيل (١٧٦) - ويقصد بهذا العيد التسبيح ، لأن اليوم الذي أتى فيه السيد المسيح إلى القدس راكبا (اليعفرور) ، وهو (الحمار) ، فاستقبله الناس وهم يسبحون بين يديه ، والصبيان بأيديهم ورق الزيتون . (١٧٧) وقد جرت العادة عند المسيحيين أن تزين الكنائس في هذا اليوم بأغصان الزيتون وقلوب النخيل ، ويفرق منها على الناس على سبيل التبرك . (١٧٨) كما كان المسيحيون في بيت المقدس في هذا العيد يحملون إلى كنيسة القيامة شجرة من أشجار الزيتون ، ويشقون بها شوارع المدينة بالقراءة والصلوات ، حاملين الصليب ومرتدين الملابس البيضاء (١٧٩) وعادة مايتأق هذا العيد في الثاني والأربعين من الصوم ، أي في سابع أحد لصومهم (١٨٠) .

وقد جرت العادة أن يلتقى جميع المسيحيين المختلفين في داخل كنيسة القيامة ، وتتجمع كل طائفة منهم في مكان معين حيث يقوم كاهن كل طائفة بترتيل القديس باللغة التي يتخاطب بها أفراد تلك الطائفة ، ويروى لنا فرانيكولو الذي زار القدس عام ١٣٤٦ م أنه شاهد بنفسه من الطوائف التي كانت تشارك الاحتفال بهذا العيد كل من الروم الأرثوذكس ، والأرمن واليعاقبة ، والهنود والأحباش ، والنوبيين ، واللاتين والكرج والنساطرة . (١٨١) .

٣ - عيد الفصح: يقول عنه القلقشندي وهو العيد الكبير عندهم ، يعملونه يوم الفطر من صومهم الكبير ، ويزعمون أن المسيح عليه السلام ، قام فيه بعد الصليبوت بثلاثة أيام ، وأقام في الأرض أربعين يوما آخرها يوم الخميس ، ثم صعد إلى السماء...» (١٨٢) كما يطلق عليه أيضا عيد القيامة. (١٨٣) وكان هذا العيد في الرابع عشر من شهر أبريل (نيسان) حتى قرب نهاية القرن الثاني الميلادي ، ولكن في مجمع نيقية المسكوني سنة ٣٢٥م تقرر أن يكون عيد القيامة وعيد الفصح ، في يوم الأحد التالي لليوم الرابع عشر من هلال إبريل نيسان الذي يقع في وقت الاعتدال الربيعي ، وظل المسيحيون في انحاء العالم يعيدون معا في هذا اليوم حتى عام ١٨٥٢ ، حيث حدث الاختلاف نتيجة لاختلاف خطوط الطول بين الشرق والغرب ، لذا تختلف رؤية هلال كل شهر مما أوجد تفاوتاً في حساب الأيام والشهور (١٨٤).

ويروى لنا فرانكولو أنه في ذلك اليوم ، فقد كانت جموع المسيحيين بالقدس والزوار يذهبون إلى كنيسة القيامة ، حيث يكون رهبان كل طائفة من الطوائف قد تجمعوا عند المذبح الخاص بهم ، وهناك ينضم الزوار إلى رهبانهم ويقوم راهب كل طائفة بترتيل القداس بلغة تلك الطائفة ، ثم يقرأ الإنجيل ويرتلون « المسيح قام من بين الأموات » ثم تقرر الأجراس بعد منتصف الليل ، وتبقى الاحتفالات قائمة إلى ساعة متأخرة من الليل . (١٨٥) وتشير بعض المراجع إلى أنه كان يعمل فيه الكعك بالحليب ، ويسلق البيض ويلون بالألوان المختلفة ، ويهادى الناس بعضهم بعضاً بالكعك والبيض ، كما تقام بعض الألعاب المسلية . (١٨٦) كذلك كانت تتزين فيه النساء المسيحيات ، ويرتدى الرجال الملابس الفاخرة ، ويخرجون إلى أماكن النزهة ، ويشارك كثير من المسلمين إخوانهم المسيحيين هذا العيد والاحتفال به . (١٨٧).

كذلك تشير بعض المراجع إلى أن عيد الفصح أو القيامة هذا كان يعتبر موسم بيت المقدس ، ويعمل ذلك بأن كل الأماكن التي كان ينزل بها الحجاج المسيحيون غالباً ماتكون عامرة بالكامل ، لدرجة أن بعض الرحالة لا يجدون مكاناً ينامون فيه ، وهؤلاء الذين يصحبون معهم خيامهم فهم أسعد حظاً لأنهم يستطيعون إقامة خارج الأسوار ، وربما يجدون متعة أكثر من هؤلاء الذين ينزلون داخل المدينة المزدحمة . (١٨٨).

٤ - عيد الميلاد يقصد به الاحتفال بيوم عيد ميلاد المسيح عليه السلام ، ويقال أنه ولد يوم الاثنين ، ولذا فإنهم يجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد ، فيوقدون المصابيح في الكنائس ويزينونها . (١٨٩) ويوافق هذا اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر (١٩٠) ، كما جرت العادة أن يوقد الأهالي في هذه الليلة وهي عشية الأحد القناديل فوق الأسطح احتفالاً بهذا العيد . (١٩١) كذلك كانوا يوقدون فيه النيران ، ويظهرون فيه الأفراح ، ويقيمون القداس في سائر الكنائس إلى جانب ما يقدون من أصناف المأكول والمشارب احتفالاً بهذا اليوم (١٩٢) ويشترك في هذه الاحتفالات عامة الناس وخواصهم ، وهم يوقدون النيران احتذاءً بيوסף النجار عندما أشعل النيران للسيدة مريم ، وأطعمها بعض الجوز عقب ولادتها للمسيح عليه السلام . (١٩٣) وكانت بيت لحم في يوم عيد الميلاد

المسيحي كعبة يحج إليها المسيحيون من أقطار العالم ، كما يحجون إلى كنيسة القيامة في القدس في عيد الفصح أو القيامة . (١٩٤) .

هذه كانت أهم الأعياد الدينية المسيحية أوردناها على سبيل المثال لا الحصر ، حيث يضيق بنا المقام عن ذكر كل الأعياد المسيحية نظرا لتنوعها وتعددتها بتعدد الطوائف المختلفة ، وقصدنا بهذا إبراز بعض الأعياد التي كان يشارك فيها أغلبية المسيحيين في ذلك العصر في بيت المقدس . (١٩٥) .

وأخيرا تجب الإشارة إلى أن المصادر والمراجع التي بين أيدينا لم تعطنا فكرة ولو بسيطة عن بعض الأعياد والمناسبات الخاصة باليهود في القدس ، ولعل السبب الرئيسي في ذلك راجع أولا وقبل كل شيء إلى قلة هؤلاء اليهود بالنسبة لغيرهم من أبناء الديانات الأخرى ، وجدير بالذكر أنهم قد ظلوا كذلك طوال عصر سلاطين المماليك وكما سبق وأشارنا في حديثنا عن سكان بيت المقدس .

ومن هذا العرض يتضح لنا أن مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك كانت زاخرة بكثير من المواسم والأعياد الدينية المختلفة ، ولعلها كانت من المناسبات الهامة والتي تبادل فيها طوائف السكان التهانى ، فضلا عن مشاركتهم لإخوانهم في العديد من تلك الاحتفالات نظرا لروح التسامح التي كانت سائدة في المدينة في ذلك الوقت .

الاحتفالات العائلية

تعتبر الاحتفالات والأفراح العائلية من الصفات البارزة ، التي اتصفت بها الحياة الإجتماعية في بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك ، سواء لدى المسلمين أم أهل الذمة . وعلى الرغم من أنه لم تصلنا أية معلومات عن أهم الاحتفالات العائلية مثل الزواج والولادة وخاصة عند المسلمين ، بعكس ما أشارت إليه بعض المراجع عن المسيحيين إلا أننا نستطيع اعتمادا إلى ما هو معروف عن طبيعة ذلك العصر ، بالإضافة إلى تلك المراجع أن نقول أنه لم تكن هناك اختلافات جوهرية بين ما كان لدى أبناء الطوائف المختلفة إلا فيما كان يختص بإقامة بعض الطقوس الكنسية داخل الكنائس وبخاصة فيما يتعلق بمراسم الزواج .

كذلك من المرجح أن تكون الخاطبة قد قامت في ذلك العصر بدور كبير في إتمام مهمة الخطوبة ، مثلما كان الحال في كثير من المدن التي خضعت لسلطنة المماليك ، باعتبار أنها كان يتاح لها دخول البيوت والإطلاع على أسرار الحريم ، فتستطيع بذلك أن تأق للعريس بالعروس التي تتفق مع رغباته ومطالبه (١٩٦) ويؤكد لنا الرحالة موشلام اليهودي الذي زار بيت المقدس عام ١٤٨١ مع بقوله « أنه كان للمسلم أن يتزوج بعدد كبير من النساء ، وكانوا يدفعون لزوجاتهم الصداق ، ولكنهم لا يرونهن إلا بعد أن يدخلن بيوت الزوجية (١٩٧) وواضح من كلامه هذا المبالغة الشديدة حيث من المعروف أن الشرع الإسلامي لا يبيح للرجل أكثر من أربع زوجات .

ومن المرجح أيضا أن الفتاة لم يكن لها رأى لدى المسلمين في اختيار شريك حياتها ، بل ظل الرأى

الأول والأخير لوالدها ، وربما شاركته في ذلك أمها (١٩٨) وعندما تنتهى المرحلة الأولى وهى الخطوبة ، تأتى المرحلة الثانية وهى عقد القران ، ولسنا ندرى هل كان يتم عقد القران داخل المنازل ، أم أن بعض الناس كانوا يفضلون عقدها فى المساجد مثلما كان يحدث فى القاهرة مثلا ، حيث يجتمعون فى المساجد ومعهم المباخر المفضضة التى يحرقون فيها البخور ، وبعد الانتهاء من كتابة العقد ينصرفون فى حفل كبير (١٩٩) . ثم تأتى المرحلة الثالثة بعد عقد القران ، وهى إعداد الشوار ونقله الى منزل العريس ، وربما جرت العادة بأن ينقل هذا الجهاز أو الشوار فى حفل يشترك فيه الأقارب والمعارف ، وربما يشارك فيه بعض الأمراء والمماليك بحسب مكانة العريس ، أو والد العروس ، أما عن هذا الجهاز فيقول ابن بطوطة « ومن عوائدهم فى تلك البلاد أن البنت يجهزها أبوها ويكون معظم الجهاز أوانى النحاس ، وبه يتفخرون وبه يرتباهون (٢٠٠) » .

أما عن ليلة الزفاف فمن المرجح أنه كانت تقام فيها وليمة كبيرة للأهل والأصدقاء وعقب الوليمة ربما كان يتوجه العريس إلى بيت العروس فى موكب كبير يحف به الأهل والأصدقاء متجهين إلى منزل العروس (٢٠١) حيث يتم إحياء العرس الذى قد تحييه عدة جوق من المغانى ، فيختلط فيه الغناء بضرب الدفوف وزغاريد النساء ، وقد تقام هذه الليلة فى منزل الزوجية أو فى منزل العريس ، حيث يقوم المدعوون بتقديم بعض الهدايا إلى أصحاب العرس (٢٠٢) .

هذا عن الزواج لدى المسلمين ، أما عن الزواج لدى اليهود فلم ترد أية إشارة فى المصادر والمراجع التى بين أيدينا عن أفراحهم ، وربما السبب فى ذلك أنهم لم يختلفوا عن غيرهم ، وربما لقلة أعدادهم فى ذلك العصر .

أما عن المسيحيين المحليين فى بيت المقدس ، فقد جرت العادة أن يجرى الزواج على النحو الذى كان معروفا فى الشرق ، فتبدأ الخطوة الأولى بالخطوبة أى اختيار العروس بواسطة والدى العريس الراغب فى الزواج أو بعض أقاربه أو بعض الوسطاء ، فإذا تم ذلك فإنهم كانوا يصفونها له (٢٠٣) كذلك لعبت الخاطبة دورا هاما فى اختيار العروس (٢٠٤) وبعد ذلك غالبا مايتصل أهل العريس بأهل العروس ، وكانت أم العريس هى التى تقوم بهذا الدور ومعها بعض صديقاتها أو قريباتها ، أو يقوم أحد القساوسة مع من ينوب عن العريس بالتوجه إلى منزل العروس ويتفق الطرفان على الخطوبة بعد أن يسأل القسيس المخطوبة عن رأيها فى قبول هذا العريس زوجها لها ، وعندما توافق يقدم لها قطعة من الحلوى مرسلة من العريس (٢٠٥) بعد أن يكون القسيس قد تأكد من درجة القرابة إذا وجدت بين الطرفين ، لأن لكل طائفة درجات للقرابة يمنع الزواج بين أفرادها (٢٠٦) وبعد ذلك تتم الخطوبة ، حيث يقدم العريس هدية لمخطوبته ، وعادة ماكان يلبس كل من العريس والعروس الخواتم الذهبية ، بعد أن يعلن القسيس صيغة الخطوبة ثلاث مرات ، على كل من العريس والعروس بحيث يلمس جبهة كل منهما بتلك الخواتم على شكل صليب (٢٠٧) ، ثم يدفع العريس جزءا من المهر المتفق عليه أو المهر كله وطبيعى أن يختلف المهر تبعا لجمال العروس ، وعمرها ومكانتها ، فإذا كانت صغيرة وجميلة فإن مهرها يكون كبيرا ، وكلما كبرت وقل جمالها قل مهرها (٢٠٨) وعادة ماتطول

فترة الخطوبة بقصد اختبار كل طرف الآخر والتعرف عليه ، كذلك حرصت كثير من الأسر على حفظ الزواج بين أفرادها ، أو بينها وبين أسر من طبقها ومكانتها . (٢٠٩) وبعد الخطوبة بيوم أو أكثر تذهب قريبات الخطيب لزيارة الخطيبة فيقدمن لها بعض الهدايا ، قد تكون على شكل مبالغ نقدية أو حلى من الذهب ، وتسمى هذه الزيارة « الشوفة » ، (٢١٠) كما يقدم الخطيب لخطوبته بعض الهدايا في بعض المواسم والأعياد بحسب مقدرته . (٢١١) .

وبعد ذلك يأتي حفل الإكليل فيذهب أهل العريس إلى بيت العروس ، للتشاور والاتفاق على الموعد المحدد وإعداد الترتيبات اللازمة ، ومتى تقرر الأمر تبدأ الدعوات من الطرفين ، وتذهب العروس مع بعض صديقاتها إلى الحمام ومعهن الصابون والطيب والعطور وتقوم الماشطة بإعداد العروس وإظهار جمالها ، كذلك يذهب العريس مع بعض أصدقائه من الشبان إلى الحمام لنفس الأمر . (٢١٢) بعد ذلك يقوم أهل العريس من النساء بزيارة العروس حاملين لها ثيابها بالمشاعل والأغاني ، ومعهن الحناء ، فيحنن العروس ثم يذهبن بها يوم السبت إلى الحمام ، ويقمن بغسلها وتزيينها ، وفي ليلة الأحد تذبح الذبائح وتعد الولائم لليوم التالي وهو يوم الزفاف وعادة مايكون يوم أحد . (٢١٣) .

وفي يوم الأحد هذا يرتدى الجميع الملابس الفاخرة ، ويذهب جمع من الرجال والنساء من أهل العريس لإحضار العروس ، وكثيرا ماكان يقدم العريس إلى أم العروس هدية تسمى خلعة الأم وهي في الغالب عبارة عن عباءة (٢١٤) ، كذلك يضع المدعوون على العروس خمارها وإزارها ، وتكون جميع ملابسها بيضاء ، وتنتقل العروس بموكبها إلى الكنيسة لتكليلها من يد القساوسة على عريسها ، وقد يتم ذلك في بيت العريس أو العروس أيضا ، حيث يمسك كل من العروسين الشموع الموقدة ويقرأ القسيس بعض التراتيل الخاصة بالزواج ، وكذلك يردد المنشدون بعضا منها ، ثم يوجه القسيس بعض الأسئلة للعروس وأهلها ليتأكد من أنها ليست مخطوبة لأحد ، ويعقب ذلك ترديد بعض الصلوات ، ثم يقوم القسيس بتتويج العروسين ، وبعد أن تنتهى التراتيل الخاصة ، يأخذ كأسا من النبيذ ويباركها ثم يطلب منهما أن يرتشف كل منهما ثلاث رشقات ، ثم يدور بهما وسط المدعوين مع ترديد بعض الأناشيد الدينية ، ثم يباركهما ، ويدعو لهما بالسعادة والتوفيق (٢١٥) . (ومتى تم ذلك خرجوا بهما من الكنيسة إلى البلدة والناس ترشقهم بالزهر والحلوى وماء الورد) (٢١٦) ، ويتوجه الموكب إلى منزل العريس ، حيث تستقبل أم العريس العروس بالبخور والزغاريد ، وتكثر عبارات التهاني ، مع عزف الموسيقى والرقص ، ويظل الجميع في مرح إلى المزيغ الأول من الليل ، حيث تقدم الأطعمة للمدعوين ، ثم يعودون للسماع والطرب (٢١٧) ويظلون هكذا إلى منتصف الليل حيث يذهب العريس بعروسه إلى حجرة معدة لهما ، وينصرف المدعوون ولا يبقى منهم إلا من هم أشد قربا لهما ، وفي صباح ليلة العرس يقدم العريس هدية لعروسه (٢١٨) كذلك يتناول الحاضرون طعام الإفطار ، ويتحلق الحاضرون حول العروسين ويقومون بالرقص والغناء ، إلا أنه لم يكن يسمح للرجال بالرقص مع النساء ثم ينصرفون . (٢١٩) .

ومن الاحتفالات العائلية التي كان لها أهمية كبرى في بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك ، الولادة حيث جرت العادة أن تختار كل امرأة قابلة معينة كان يطلق عليها أيضا اسم « الداية » (٢٢٠) ويبدو أنه جرت العادة أيضا أن يتم الاتفاق مع تلك القابلة على أجر معلوم قبل الوضع ، وحتى لا يحدث نزاع حول تحديد أجرها بعد الوضع ، وهذه القابلة لها كرسي مخصوص تصحبه معها عند اللزوم (٢٢١) فإذا وضعت الأم مولودها أقبلت عليها النساء يزغردن ويرفعن أصواتهن بذلك مع ضرب الدفوف والرقص واللهو واللعب ، أما عند المسيحيين فإذا كان المولود ذكرا قالت القابلة للأم « محبة بالمسيح » ، وإذا كانت أنثى قالت « محبة بالعدراء » ، كذلك كانوا يحضرون أحد رجال الدين من القساوسة يوم الولادة ليصلى على باب المنزل تبركا ، ويعلق للطفل التمايم والتعاويز ، كما يضعون له خرزة زرقاء للوقاية من الحسد ، ويقومون بوضع الكحل للطفل من يوم ولادته ، كما يلقونه بقماط لكي يقي جسمه من البرد أو الاهتزاز . (٢٢٢) .

كذلك يبدو أنه جرت العادة أن تقوم القابلة في الأيام الثلاثة الأولى بتلميح الطفل ، إما بغسله بماء الملح ، أو وضع الملح الناعم على جسده ، وبالنسبة للطوائف المسيحية يأتي أحد رجال الدين في اليوم الثالث من الولادة ويسمى الطفل باسم أحد أفراد العائلة ، إلا ماندر ، وهو في الغالب اسم نبي أو قديس من القديسين المفضلين لدى أفراد الطائفة ، كذلك تقوم القابلة في الأيام الثلاثة التالية بدهنه بالزيت ، وفي اليوم السابع تقوم بغسله بماء معطر وتسقيه منه ، وتدهن رأسه وأنفه ومفاصل جسده بالزيت المعطر ، ثم يعاد لفه في القماط الذي لف به منذ ولادته ويستمر ملفوفا هكذا مدة أربعين يوما ، ثم يسمح له بارتداء الملابس العادية . (٢٢٣) .

كذلك من المرجح أن كثيرا من الناس قد اعتادوا الاحتفال بيوم السبوع احتفالا كبيرا ، حيث تلبس أم المولود الثياب الجديدة الجميلة ، وتطوف أنحاء الدار في موكب كبير ، تحيط به الشموع من كل جانب ، والقابلة أمامها تحمل المولود ، وأمام القابلة امرأة أخرى معها طبق به شيء من الملح تنشره في البيت يمينا وشمالا ، هذا بالإضافة إلى إحراق نوع من البخور المخصص لهذا الاحتفال ، كما يرجح عمل ألوان معينة من الطعام وتفريقها على الأهل والجيران والمعارف . (٢٢٤) .

كما تجب الإشارة إلى أن ولادة طفل كانت من أهم الأحداث في القرى المحيطة بمدينة بيت المقدس ، فعندما يحين موعد الولادة فإن الأب يترك منزله إلى الحدائق ، أو إلى الحقل تاركا أحد الأقارب في منزله لكي يحمل إليه النبا السار بالولادة ، فإن كان المولود صبيا ، فإنه يجري خلال التلال وعلى وجهه علامات البشر والسرور ملوحا يديه ، وصارخا بأعلى صوته مباركا ومبشرا الأب بولده . وسرعان ما تزول رهبة الأب ، ويسرع إلى منزله لكي يسمى ابنه ، ويقيم الأب وليمة لأصدقائه الذين يحضرون ومعهم بعض الهدايا ، وكل بحسب قدرته يقدم بعضا من المال للمولود . أما إذا كان المولود أنثى فإن الرسول الذي ينتظره الأب يمشی بطريقة تدل على الحزن ، وعندئذ يدرك الأب أن كارثة قد حلت بمنزله . (٢٢٥) .

هذا ومن المرجح أيضا أن يحتفل المسلمون بختان الطفل احتفالا كبيرا وعظيما ، كذلك من

المرجح استمرار المبالغة في إحياء هذا النوع من الحفلات حتى العصور الحديثة وقد جرت العادة على أن يقوم بعملية الختان في عصر المماليك « المزين » ، وعندئذ يقيم أهل الطفل حفلا كبيرا يدعون إليه سائر الأهل والأصدقاء ، ولا بد للمدعوين في هذه المناسبة تقديم النقود لأهل الطفل . (٢٢٦) .

أما عند المسيحيين فقد جرت العادة بعد انقضاء أربعين يوما أن تذهب الأم بطفلها للكنيسة ، ليصلى أحد رجال الدين على رأسه . (٢٢٧) . وفي أول الربيع وعند ظهور الأزهار فإنهم يسقونه الزهورات وهي عصارة بعض الأزهار وخصوصا الرمان ، ويطعمونه من أول فاكهة وخصوصا الخيار ، ولو قطرة من عصير أو أن يدهن بها أنفه (٢٢٨) كذلك جرت العادة لديهم بضرورة العماد أو المعمودية ، فكما يحتفل المسلمون بالختان ، فعندهم لابد من تنصير أولادهم ، وذلك أنهم يغمسون المولود في ماء معطر بالرياحين وألوان الطيب ويقرأون عليه من كتابهم ، ويزعمون أنه حينئذ ينزل عليه روح القدس ، ويسمون هذا العمل بالمعمودية (٢٢٩) وربما كان العماد في البيت أو في الكنيسة ، لأنه محرم في المنازل الخاصة ، بينما عند الروم الأرثوذكس كان يسمح به في المنازل (٢٣٠) ، كذلك فإن الموارنة كان يعمدون أطفالهم رشا ، بينما الأرثوذكس والكاثوليك يعمدون أطفالهم تغطيسا (٢٣١) ، ولا يجوز اجتماع الأبوين عند التغطيس ، بل يخرج أحدهما ، وقد يولون الولائم ويهادون الطفل وينقظون بهذه المناسبة السعيدة لديهم . (٢٣٢) .

حياة المرأة ومكانتها في المجتمع

لعبت المرأة في بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك دورا بارزا في حياة المجتمع ، سواء في المدينة نفسها أم القرى المتاخمة لها ، كما تمتعت بقسط وافر من التقدير والاحترام من جانب الرجل في ذلك العصر ، وليس أدل على تلك المكانة السامية مما يرويه لنا الأب سوريانو الذي عاش في القدس في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي حيث يقول « يجب أن تعلم أن المرأة تلقى كثيرا من التقدير والاحترام من الرجل ، وعلى الرجل أن يقدم لها يوميا كثيرا من الأموال نظير تكاليف الحياة .. ومن هنا يتضح لنا أن المرأة كانت هي ربة الأسرة والتي تتولى توجيه الأموال لشراء مايلزم منزلها وأولادها ، ثم نراه يقول « ... وكذلك كان على الرجل أن يمنحها الكثير من النقود سنويا لشراء مايلزمها من ملابس وأحذية وكذلك الحال عندما تلد طفلا جديدا ... » (٢٣٣) .

كذلك نراه يؤكد مدى ماتمتعت به من احترام واضح وتقدير ، حيث يقول في حديثه عن نساء القدس إن الاحترام الواضح كان لكل النساء سواء المسيحيات أم اليهوديات أم المسلمات ، بحيث كن يتنقلن من مكان لآخر دون حارس ، ودون أن يتعرض لهن أحد بكلمة سوء ، سواء أكان صغيرا أم كبيرا ... وهذا يعكس لنا مدى احترام وتقدير المجتمع لها في بيت المقدس في ذلك العصر . كذلك من المرجح أنه جرت العادة إذا التقت واحدة منهن في الطريق برجل لاتعرفه ، فإنها تميل عنه ببصرها ، ويصف لنا أحد الرحالة الذين زاروا مدينة القدس في ذلك العصر وهو لود وفيكو في سنة ١٥٠٣م ، بأن الواحدة منهن كانت تضع خمارا على وجهها بحيث لا يمكن التعرف عليها ، وهذا

الخمار هو عبارة برقع أسود شفاف يسمح لها بأن ترى الناس ولا يرى وجهها ، كما أنها كانت ترتدى الملابس الحريرية وفوقها عباءة من الصوف الرقيق اللامع والذي يشبه الحرير كذلك كانت تتعل حذاء يبلغ منتصف الساق أبيض اللون أو أحمر وكثيرا من المجوهرات حول رأسها ، وفي أذنيها وفي يديها ، كذلك نراه يقول « وعلى الرغم مما يقال أن المسلمين عند الواحد منهم ما بين خمس أو ست زوجات ، فلم أر مطلقا واحدا لديه أكثر من زوجتين أو ثلاث على الأكثر (٢٣٤) .

ويؤكد لنا الرحالة كازولا أيضا ذلك الاحتشام وأن المرأة المقدسية لم تحاول إبراز جمالها ومفاتنها بحيث تلفت الأنظار إليها ، بقوله ... وفي بيت المقدس لم أستطع أن أرى امرأة جميلة لأنهن يمشين ووجوهن مغطاه بحجاب سميك ، ويرتدين فوق رؤوسهن شيئا يشبه الصندوق ، يقصد بذلك القبعة التي كن يقمن بصنعها يدويا التي تغطي الرأس ، ويتدلى منها عصابتان من القماش الأبيض الطويل والتي تتدليان لأسفل .. (٢٣٥) إلا أنه من المرجح أن المرأة المقدسية لم تهمل العناية بنفسها وجسدها وإبراز محاسنها ، نظرا لما عرف في ذلك العصر من أنواع الزينة المختلفة ، من طلاء الأظافر والوشم الذي اعتادت كثير من النساء أن يزين به أجزاء مختلفة من أبدانهم . (٢٣٦) وهذه الظاهرة واضحة لدى المرأة المسيحية بصفة خاصة ، حيث كانت تخرج إلى الكنيسة في أبهى زينتها ، ولعل هذا مادفع كثيرا من رجال الدين المسيحيين إلى محاربة ذلك عن طريق عقد المجامع الدينية الخاصة لإثارة هذه المشكلة . (٢٣٧) .

على أنه من المبالغة أن نصور المجتمع في بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك ، وقد قدر المرأة على طول الخط وأحلها المكانة اللائقة بها في المجتمع ، على أساس أنها شريكة الرجل وساعده الأمين ، فإذا رأينا بعض الإشارات تدل على تقدير المعاصرين للمرأة ، فإن هناك بعض الإشارات والمراجع أيضا يفهم منها أن المرأة ظلت محل الازدراء والاستخفاف ، فقد سبقت الإشارة إلى مكان يخيم على المنزل عندما يعلم الرجل بأن زوجته قد رزقت بطفلة ، فلا يعطيها أحد الاهتمام حتى تكبر وتوشك على الزواج ، فمند الطفولة تبدو البنات وكأنهن سيدات صغيرات ، فملا بسهن تشبه تماما ملابس أمهاتهن ولكنهن يختلفن من حيث الحجم ، كما تقع عليهن كل أعباء الحياة العائلية ، فبمجرد أن تصبح البنت قادرة على المشي والجري فعليها أن تتعلم إحضار الماء من البئر ، وأن تخبز الخبز إلى جانب القيام بكل أعباء المنزل (٢٣٨) .

هذا فضلا عن أن نظرة الرجل لها كانت على أساس أنها خاضعة له ومعاونة له في عمله ، فيتقدم عليها في المجالس ، وكثيرا ما يأكل الرجل وامرأته تخدمه بتقديم الطعام له ثم تأكل بعده ، إلى جانب الأعباء الكثيرة التي تلقى على عاتقها داخل المنزل (٢٣٩) .

أما في القرية فيبدو أن المرأة كانت أكثر تحررا ، حيث كانت تسير غير محجبة ، وكان يسمح لها بأن ترى خطيبها - وخصوصا لدى الطوائف المسيحية - ولكن ليس على انفراد ، إلا أن دورها في الحياة ومسئولياتها كانت أكثر بكثير منها في القدس نفسها ، ومع هذا فقد كانت منزلتها أقل من الرجل ، فعندما يسير كانت تسير وراءه ، كما سمح لها بأن تكون لها ملكيتها الخاصة بها والتي تكونها

بمجهودها الشخصي (٢٤٠) وكان من أول واجبات المرأة التي تقوم بها في الصباح أن تأخذ كمية من الحبوب التي لديها ، وتنادى على إحدى جاراتها وتطلب منها مساعدتها لطحن تلك الحبوب بالرحاة وطحن الغلال دائما هو عمل المرأة وليس من عمل الرجل ، ثم تقوم بعجن الطحين وخبزه ، وبينما تنشغل الأم في الخبز في الفرن فإن البنات يرسلن إلى البئر لجلب الماء اللازم للشرب ، كذلك كان عليها أن تحمل كثيرا من الخضراوات لبيعها في سوق بيت المقدس ، كما كان عليها أن تقطف بعض الفاكهة وتقوم ببيعها لمن يمرون على القرية وبخاصة من الحجاج المسيحيين وغيرهم ، كما كانت تحمل الحطب لبيعه في المدينة (٢٤١) هذا بالإضافة إلى قيام المرأة بكثير من الأعباء التي تتطلبها المناسبات المختلفة من أفراح وولادة حيث تقوم بواجب المشاركة في تلك المناسبات ، كذلك في حالة الوفاة ، حيث تخرج النساء كل خميس عقب الوفاة وحتى الأربعين لزيارة القبور حسب العادة ، وهذا الخميس كان يسمى الأموات حسبا يروى لنا النابلسي عند زيارته للمدينة (٢٤٢) . أما أوقات الفراغ لدى المرأة فيبدو أنها كانت قليلة جدا ، إلا أنها كانت تقضيها مع جاراتها أو في الاحتفالات العائلية المختلفة من زواج وولادة ومعمودية إلى غير تلك الإحتفالات .

المنازل في القدس

ومع هذا فيمكننا القول أن المرأة المقدسية وإن شاركت في كثير من المجالات - المختلفة في الحياة ، وكان لها دور بارز في الحياة العائلية والعلمية والدينية فضلا عن الحياة اليومية ، إلا أنها كانت دائما الشريك المغبون بالنسبة للرجل في ذلك العصر ، ولم تكن هذه الظاهرة تتميز بها بيت المقدس وحدها ، بل هي ظاهرة عامة في بلدان المشرق عامة ، كذلك إذا وضعنا في إعتبارنا ظاهرة إنتشار الجوارى في ذلك العصر ، وشغف الناس باقتناء الجوارى الحسان ودفع الأموال الطائلة في شرائهن ؛ وجدير بالذكر أننا لم نعثر في المصادر والمراجع التي بين أيدينا عما يوضح تلك النقطة ، ولكن من المرجح أن نظرة الرجل لها في تلك الآونة لم تتغير وخصوصا والمعروف عن سلاطين وأمراء المماليك أنهم أكثروا من شراء الجوارى ، كل حسب سعته ، فلا أقل من أن يجاريهم بعض ذوى اليسار في بيت المقدس .

حظيت المنازل بعناية أفراد المجتمع في بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك ، فلقد اهتموا اهتماما شديدا ببناء منازلهم لا لتكون مجرد مأوى لأصحابها ، بل لتوفر لهم سبل الراحة والرفاهية ، ومن الطبيعي أن تتفاوت تلك المنازل تفاوتاً يتناسب مع مكانة أبناء المدينة من حيث وضعهم الاجتماعي وحالتهم الإقتصادية ، كذلك كان للطبيعة تأثيرها في مبانى المدينة فيما يتعلق بمواد البناء ، حيث كانت المواد المستخدمة في البناء هي حجارة الكلس ، وهي أحجار جذابة ذات لون وردي وشديدة الصلابة في نفس الوقت ، بحيث أضفت على مبانى المدينة طابعا مميزا ، فضلا عن مقاومتها للرطوبة والأمطار ، بحيث لا يمكن أن يحدث لألوانها أى تغيير أو لأشكالها على طول الزمان (٢٤٣) وتشير كثير من المصادر المعاصرة الى تلك الحقيقة ، فالقزويني يذكر نقلا عن المقدسى قوله « ولا ترى أحسن من

بنيانها ولا أنظف» (٢٤٤) ويقول عنها ابن فضل الله العمري « ومدينة القدس مبنية بالحجر الكلس وغالب حجرها أسود... (٢٤٥) كذلك يذكر مجير الدين قوله « وأما بناء بيت المقدس فهو في غاية الإحكام والإتقان جميعه بالأحجار البيض النحت وسقفه معقود وليس في بنائه لبن ولا في سقفه خشب وقد ذكر المسافرون أنه لم يكن في جميع المملكة أتقن عمارة ، ولا أحسن رؤية من بناء بيت المقدس وفي معناه بلد سيدنا الخليل عليه السلام ، لكن بناء القدس أمكن وأتقن ويقرب منه بناء مدينة نابلس فهذه المدن الثلاث بناؤها متقن لكونها في الجبل والحجارة فيها كثيرة متيسرة » (٢٤٦) كذلك يصفها لنا الرحالة فابري الذي زارها مرتين عام ١٤٨٠ ، ١٤٨١ م وكما سبقت الإشارة بذلك حيث يقول وبيوت القدس مبنية بالحجارة ... وقد رأيت فيها بيوتا جميلة وكبيرة (٢٤٧) .

أما عن نظام بناء هذه المنازل فيروى لنا أحد المؤرخين أن المنازل كانت منخفضة ومسطحة في أعلاها كما هي العادة في منازل الشرق بوجه عام ، لأنهم يغطون منازلهم بسقف مسطح لدرجة أنك يستطيع أن تمشي على أسطح تلك المنازل على طول امتدادها ، ويمكن للجيران أن يمشوا فوق أسطح هذه المنازل. أثناء قيامهم بزيارة أحد جيرانهم ، كما لم يكن لهذه المنازل أبواب كبيرة تطل على الشارع الرئيسي ، فيما عدا بعض بيوت قليلة ، ولهذا ففى الغالب كانت أبواب المنازل منخفضة ، وفي كثير من هذه المنازل فإن المدخل عادة ما يكون مظلمًا ، وعميقًا لدرجة أنك تعتقد أنك ستدخل أحد الكهوف ، وهذا المدخل ينتهى عادة بقاعة فسيحة حيث يوجد صهرنج للمياه (٢٤٨) أما في الداخل فكانت المنازل تحتوي على قاعات وممرات رائعة تطل على الحدائق التي زخرت بأشجار الفاكهة مثل العنب والبرتقال وغيره (٢٤٩) ، هذا الى جانب وجود عدد من الغرف لسكنى أهل المنزل ، كما كانت تخصص حجرة كبيرة لاستقبال الضيوف (٢٥٠) بينما كانت تتركز حياة أهل المنزل فيما يمكن أن نسميه حجرة المعيشة حاليا ، والتي عادة ما كانت تطل على القاعة الفسيحة أو الفناء (٢٥١) .

أما عن الجدران الداخلية لهذه المنازل ، فقد كانت مدخلها تزين بالزايكو الذى يشكل جزء أساسيا في الزينة الداخلية ، وغالبا ماكان يعرض تصميمات هندسية إلى جانب رسوم الزهور والحيوانات ، وفي المنازل الأكثر ثراء ، كانت أقواس السقوف تستقر على حواف منحوتة ، أو على منظر عقود وأقواس (٢٥٢) أما الجدران الداخلية فكانوا يتفنون في إضفاء نوع من البذخ عليها حيث كانوا يلصقون عليها صفائح من الرخام ، ويموهون سقفوها بالذهب والنقوش الزاهية والتطاريز العربية المنظر الرائعة ، كذلك عادة ماتغلق هذه المنازل بأبواب خشبية ضخمة ، ولكل منها مزلاج من الخشب (٢٥٣) .

ومن المرجح أن يكون النمط الشائع في بيت المقدس هو المنزل ذا الطابقين أو الثلاثة طوابق ، بيد أن المنازل ذات الطوابق الخمسة كانت معروفة أيضا وغالبا ماكانت أسقفها مرصعة بأشجار النخيل المزروعة في أحواض أو بالأشجار دائمة الخضرة ، بحيث تصوير مكاناً يستمتع فيه المرء بالنسمات الباردة بعد مغيب الشمس الحارقة ، وفي الداخل كانت الحوائط السمكية تحفظ الدفء في الشتاء ، كما أنها في الصيف تحفظ للحجرات برودتها حتى أثناء وقت الخماسين اللافة . وقد استرعى انتباه

بعض الحجاج المسيحيين الغربيين ماجرت به عادة أهل القدس من استخدام أسطح المنازل المستوية ، فعندما تغرب الشمس كانوا يصعدون إليها حيث يستمتعون بالبرودة وهناك يقومون بأداء بعض أعمالهم ، ويأكلون ، ويعدون فراشهم وينامون كذلك كانوا يتسامرون مع أصدقائهم فوق تلك الأسطح ، كما أن الحاج Brasca وهو إيطالي الجنسية والذي زار القدس في القرن الخامس عشر ، يروى أنه شاهد بعض النساء يرقصن على دقات الطبول وبعض الآلات الأخرى فوق الأسطح وقد شاهد ذلك وعرف أنه على الرغم من وجود الرجال في الحفل إلا أنهم لا يخالطون النساء في الرقص ، مما يؤكد لنا أن هذه الأسطح كانت تستخدم في إقامة بعض الاحتفالات العائلية مثل الأفراح وغيرها . (٢٥٦) .

كما تجب الإشارة إلى أن كل منزل من منازل بيت المقدس ، كان به صهريج لحزن المياه ، ففى كل منزل مهما كان حجمه صهريج أو أكثر ، حيث تتجمع فيه مياه الأمطار والصهريج عبارة عن حجرة صغيرة محفورة في باطن الأرض ، ولها فتحة صغيرة من أعلى ومبطنة الجدران بالأحجار ومزودة بسافية ودلو ، وتظل مياهها نقية طوال الصيف ، وكثير من هذه الخزانات أو الصهاريج قديم ، مما يدفعنا إلى القول بأن هذه الطريقة كانت متبعة منذ أقدم العصور في الحصول على الماء (٢٥٧) .

كذلك تجب الإشارة إلى أن تلك المنازل كانت مزودة بوسائل الصرف الصحي أو المجارى . ويروى لنا أحد الباحثين أن المجارى كانت معروفة في القدس منذ العهد الرومانى ، وأنه ظهر من الحجارة المتنوعة التى استخدمت فى ترميمها واصلاحها شدة عناية سلاطين المماليك بها ، وأنها رمت عدة مرات فى ذلك العصر ، حتى يتيسر لسكان المدينة التخلص من الأذى وتصريفها (٢٥٨) . كذلك يشير أحد الباحثين أن ما أنشأه الرومان قديما من نظام للمجارى مازال يسير على أحسن وجه حتى القرن العشرين ، مما ساعد على حفظ المدينة من كثير من الأمراض (٢٥٩) .

أما عن المنازل فى القرى التابعة لبيت المقدس والمتاخمة لها ، فقد كانت فى العادة تبنى على جانبي الطريق الرئيسى الذى يربط القرية بغيرها من القرى ، أو المدن وهذا الطريق كان بمثابة الشارع الرئيسى فيها ، وكانت كل المنازل متشابهة فى الطراز والحجم والشكل ، وإلى جوار تلك المنازل وجدت المعاصر لعصر العنب والزيتون ، والمطاحن التى تطحن الغلال لأهل القرية (٢٦٠) وغالبا ما كان المنزل فى القرية يستخدم للأسرة وحاجتها وبهائمها ، كما كنت بعض منازل القرية تبنى عادة من الحجارة لسهولة الحصول عليها ، إلى جانب رخصتها بالنسبة للأخشاب ، بينما بنيت كثير من المنازل من خليط من الطين والقش وهذه المنازل كانت رخيصة التكاليف وعادة ما يتكون المنزل من طابق واحد وله سطح مستو ، وغالبا ما كان يستخدم هذا السطح لتخزين الحطب أو مكان للنوم وخصوصا فى الياى الصيف . (٢٦١) .

كما تجب الإشارة إلى أن منازل الفلاحين كانت تختلف عن منازل المدينة من حيث حجمها ، وكونها غير مريحة مثل منازل المدن ، إلا أنها تميزت بظاهرة رئيسية فى كل منها ، فهناك مصطبة تسمى بالإيوان مرتفعه عن سطح الأرض ، كانت توجد فى كل مسكن ، وهى عادة ماتستخدم

للعائلة بينما الحجرات السفلية من المنزل كانت تستخدم لتربية الدواجن وأحيانا الماعز والأغنام ، كذلك كان يوجد بداخل المنزل فناء متسع ، ومنتهى عند أحد أطرافه بالإيوان وعند الطرف الآخر بالباب المؤدى إلى الشارع ، وكان الإيوان مخصص أحيانا لاستقبال الزوار حيث تقدم لهم الأطعمة (٢٦٢) .

أما عن أرضية المنزل فكانت نادرا ماتبلط ، بل عادة كانت تدك حتى توفر البرودة في الصيف ، وعادة ماكان يلحق بالمنزل مخزن للغلال ، كذلك تميز منزل رئيس أو شيخ القرية عن سائر المنازل الأخرى بأكبر حجمه ، وكانت به قاعات معدة لاستقبال الزوار أو استضافتهم (٢٦٣) . كذلك عادة ماكان يلحق بأحد المنازل قرن ، وهذه القرن لم تكن في داخل ذلك المنزل ولكنها مبنية قائم بذاته ، وتعتبر القرن مملوكة لعدة من عائلات أهل القرية والتي كان من واجبها جعلها دائما ساخنة ومعدة باستمرار للخبز ، وكانوا يستخدمون في إيقادها الحطب والأعشاب والأوراق الأشجار ثم روث البهائم . (٢٦٤) .

وفي القرية كان يوجد مكان لإيواء الغرباء وأبناء السبيل والضيوف ، وهو مايسمى بالمضيقة حيث يقدم لهم الطعام والشراب . وفي بعض القرى كان يوجد أكثر من مضيقة لاستضافة الغرباء هذا بالإضافة إلى مضيقة رئيس القرية ، وفي بعض البلاد كبيت لحم فإن كل الأغنياء من رجالها لديهم حجرات مخصصة لاستقبال الضيوف ، ولعل هذا راجع لكونها إحدى الزارات الهامة والتي كان يتوافد على زيارتها أعداد كبيرة من المسلمين والمسيحيين من مختلف البلدان ، كذلك وجدت بعض الخانات حيث ينزل المسافرون بدواهم ، وغالبا ماكانت تزدهم تلك الخانات بحيث لا تجد مكانا للنوم وبخاصة في فترة قدوم الحجاج المسيحيين من الغرب وغيره من البلاد الأخرى (٢٦٥) .

كذلك يبدو أن المنزل في القرية لم يكن به شيء من الأثاث إلا الحاجات الضرورية للنوم والأكل والشرب ، أما عن الأثاث داخل المنزل فقد كان بسيطا للغاية ، فمن أهم أنواعه الحصر أو السجاجيد أو الأكلمة ، والأغطية وكانت عادة خفيفة وسهلة الحمل وكانت تلف في الصباح وتوضع بعيدا عن الحوائط بالإضافة إلى صوان أو صندوق خشبي تحفظ فيه الأغذية ، بينما الأدوات المنزلية كانت عادة من الفخار البدائي ، هذا إلى جانب وجود بعض الأجلة والسلال المصنوعة من الحبال ، بينما عند بعض الأسر وجدت بعض الأرائك وكانت تستخدم إما للنوم أو للجلوس عليها . (٢٦٦) .

وأخيرا تجب الإشارة إلى أن منازل القرية كانت مزودة بصهاريج للمياه لتخزين مياه الأمطار وبخاصة في القرى البعيدة عن العيون والآبار ، حيث كان يتم تخزين المياه للشرب للناس وللحيواناتهم أيضا ، هذا إلى جانب ماكانوا يحفرون من آبار داخل منازلهم حتى تتجمع فيها المياه الجوفية ، وهذه الآبار كانت كثيرة ، ولم تخل دار منها (٢٦٧) كذلك كانوا يستخدمون القناديل المصنوعة من الفخار لإضاءة منازلهم في الليل ، حيث تملأ بالزيت ويوضع بها فتيل مشتغل ، كما أن وجود هذا القنديل دليل على ثراء الفلاح ، فالشخص الذي لايشعله فقير ويقولون عنه أنه ينام دون ضوء (٢٦٨) .

الأمراض الاجتماعية في بيت المقدس

إن عصر سلاطين المماليك تميز بمسحة براقة من الصلاح والتقوى ، والحرص على إقامة الكثير من المنشآت الدينية الفخمة والرغبة في المبالغة في إحياء شعائر الدين ، سواء في بيت المقدس أم في المدن الأخرى التي خضعت لحكم سلاطين المماليك ، لكم الباحث المتعمق يستطيع أن يرى أن تلك المسحة البراقة كانت تخفى وراءها بعضا من الأمراض الاجتماعية ، التي كان لها تأثيرها الواضح في مجريات الحياة اليومية في مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك .

ولكن إحقاقا للحق نستطيع أن نقرر أن الأمراض الاجتماعية التي عرفت في مدينة بيت المقدس في ذلك العصر كانت أقل بكثير مما عرف في غيرها من المدن الأخرى (٢٦٩) ، وهذا ماسوف يتضح بعد قليل من خلال استعراضنا لما وردت الإشارة إليه ، في المصادر والمراجع التي تحدثت عن المدينة في تلك الفترة . كذلك لعله مما ساعد على قلة تلك الأمراض الاجتماعية طبيعة المدينة الدينية من جهة وحرص سلاطين وأمراء المماليك على إظهار أكبر قدر من التقوى والورع والتدين ، وأثر تلك السياسة في بيت المقدس . ومع هذا فإن ذلك لا يخفف عن كاهل الأمراء المماليك وسلاطينهم ، بسبب ما أسهم به كثيرون منهم في انتشار كثير من تلك الأمراض . وليس أدل على ذلك مما يشير إليه ابن قاضي شهاب في ذكره لحوادث سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م في عهد السلطان الظاهر بروجق ، من أنه في العشر الأوسط من رمضان بلغ السلطان أن الأمير شيخ الصفوى المقيم بالقدس كان يتعاطى المنكرات ، ويمسك نساء الناس وأولادهم وأن نائب القدس كلمه فقبض عليه وضربه . فأمر السلطان بأن يعتقل في قلعة المرقب (٢٧٠) والحقيقة أن هذا السلوك الذي كان يسلكه أحد كبار الأمراء المماليك إن دل على شيء فإنما يدل على حياة العيب والمجون التي كان يعيشها المماليك من سلاطين وأمراء وأجناد ، ولعل هذا العيب والمجون والفساد كان يرجع بالدرجة الأولى إلى ثراء تلك الطبقة ، وهذا ما يؤكد لنا ابن خلدون . (٢٧١) .

والأمراض الاجتماعية التي تفشت في بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك نوعان ، أولهما الفساد الخلقي المتمثل في البذل والبرطلة ، أي الرشوة وثانيهما المعتقدات الباطلة ، أما غير ذلك من الأمراض الاجتماعية مثل الزنا والشنوذ الجنسي وتعاطى الحشيش وشرب الخمر ، وهي الأمراض التي كانت شائعة في مختلف بلدان المشرق والمغرب العربي ، لم ترد أية إشارة تفيد انتشار تلك الأمراض في القدس .

وفيما يتعلق بالبذل والبرطلة ونعني بهما الرشوة بمصطلح العصر الحديث (٢٧٢) فهي من أهم الأمراض الاجتماعية التي تفشت في عصر سلاطين المماليك في جميع البلاد التي خضعت لحكمهم بوجه عام وفي بيت المقدس بوجه خاص ، وهذه الظاهرة إن دلت على شيء فهي تدل على مدى ما أصاب المجتمع الإسلامي بوجه عام ، والجهاز الإداري بوجه خاص من انحلال وتفكك ، نتيجة لتأصل هذه الظاهرة لدى كل من الحكام والمحكومين (٢٧٣) .

وترجع خطورة انتشار هذه الظاهرة إلى أن الرشوة أصبحت هي الوسيلة السهلة للوصول إلى

المناصب والوظائف الهامة ، وبذلك انعدمت الكفاءة والجدارة حيث حل محلها المال وسلطانة ، فأقبل أصحاب النفوس الضعيفة يزايدون على الوظائف الجليلة إما طمعا في تحقيق كسب غير مشروع ، أو حرصا على الإحتفاظ بأحد المناصب الهامة أو التوارث ، أو نكاية في بعض الأفراد (٢٧٤) وكان طبيعيا أن يتغمس هؤلاء في الرشوة طالما أنهم بذلوا أموالا كثيرة على هذه الوظائف ، وليس يخاف علينا ما ينتج عن ذلك من أضرار تلحق بالناس ، نتيجة لتلك الإتاوات وتفشى الرشوة ، والذي غالبا ما يكون مصحوبا بإضطراب الأحوال ، فضلا عن أن كثيرا من الناس كانوا يقصدون أصحاب تلك الوظائف ، لقضاء حوائجهم نظير تقديمهم بعض الأموال نظير ذلك ، مما أفضى ليس فقط إلى إفساد هذه الوظائف وتدهورها بل إلى التدهور الخلقى وتدهور النظام المملوكى برمته ، كما اضطرب الأمن الداخلى نظرا لتهاون ولاية الأمور في تتبع أصحاب الجرائم ، فانتشر قطاع الطرق واللصوص وامتدت أيديهم الى مابأيدى الناس من البضائع والأموال ، كل ذلك والولاية عنهم غافلون بسبب جمعهم المال ، كما ترتب على البذل ظاهرة جديدة هى الجمع بين عدة وظائف فى آن واحد . وأيضا الاستنابة فيها ، بل وأحيانا التنازل عنها نظير مبلغ معين من المال (٢٧٥) .

ومن الوظائف التى أمتدت إليها ظاهرة البذل والبرطلة ، وظيفة النيابة فى بيت المقدس ، وتحديثا المصادر المعاصرة عن أسماء بعض من نجحوا فى الوصول إلى نيابة القدس عن طريق البذل ، ونذكر على سبيل المثال من هؤلاء الأمير خشقدم الذى تولى نيابة القدس أكثر من مرة بالبذل والبرطلة رغم كراهية أهل المدينة له ، وذلك نظرا لما اتصف به من ظلم وعنف (٢٧٦) .

كذلك كانت إمرة العربان من الوظائف التى لم تكن بمعزل عن البذل والبرطلة خاصة وقد جرت العادة بأن يعين السلاطين المماليك لكل قبيلة من قبائل العربان أميرا منها . ويكتبون له تقليدا سلطانيا بذلك ، وعلى هذا فقد أقبل هؤلاء الأمراء على البذل لسلاطين المماليك بهدف قضاء مصالحهم الشخصية (٢٧٧) .

كذلك تتضح لنا مدى خطورة هذه الظاهرة لأنها كانت شائعة فى الوظائف الدينية ، ولا شك أن المتتبع لأخبار هذه الوظائف فى المصادر المعاصرة سوف يلاحظ بوضوح مدى التدهور الذى آلت إليه هذه الوظائف ، وبخاصة القضاء ، والحسبة ، والخطابة ، ومشايخ الشيوخ ، ووكالة بيت المال نتيجة للبذل عليها ، وليس أدل على ذلك مما يذكره لنا مجير الدين فى حديثه عن قضاء بيت المقدس بأن جمال الدين الديرى ظل يسعى فى منصب القضاء حتى ولىه فى ربيع الآخر سنة ٨٧٨ هـ / ١٤٧٣ م ، ومع ذلك لم يمكث فى المنصب سوى أربعة عشر يوما مات بعدها ، وقبل أن يحكم حكما واحدا بعد مال كثير بذله عليه (٢٧٨) وفى هذه الإشارة ما يؤكد لنا بصفة قاطعة أن القضاء وهو من أسمى المناصب الدينية - لم يعد بمعزل عن البذل والبرطلة ، وفى نفس الوقت تشير إلى ما قد يتبع ذلك من فساد خلقى ، حيث أنه لم يكن مستبعدا أن يكون القضاة أنفسهم قد حصلوا على كثير من الرشاوى لتعويض تلك الأموال التى دفعوها ، إلا أنه تجب الإشارة إلى أن هذه الظاهرة قد انتشرت فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة ، حيث لم تصادفنا أية إشارة فى المصادر المعاصرة عن

تفشى تلك الظاهرة من قبل ، وخير ما يؤكد ذلك ما يشير إليه السخاوى فى ترجمة الكمال بن البدر الجعفرى أحد قضاة بيت المقدس فى ذلك العصر ، من أنه نسب إليه مزيد من الرشا ، هذا بالإضافة إلى ما يشير إليه مجير الدين فى حديثه عن القاضى شرف الدين يحيى المغربى أحد القضاة المالكية ببيت المقدس سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م والذى عزل بسبب تعاطيه البراطيل على الأحكام (٢٧٩) .

كذلك يؤكد لنا المؤرخ ابن حجر تفشى تلك الظاهرة فى منصب خطابة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة ، ففى حديثه عن سنة ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م فى عهد السلطان فرج بن برقوق يروى أنه « فى المحرم استقرا بن السائح الرملى فى خطابة القدس ، بذل فيها ثمانين ألف درهم » (٢٨٠) .

كذلك يؤكد لنا مجير الدين تفشى الرشوة فى ذلك المنصب ، فى حديثه عن قاضى القضاة جمال الدين يوسف بن غانم المقدسى الذى ولى خطابة بيت المقدس سنة ٨٠١/١٣٩٨ م بمال بذله ، ثم سعى عليه القاضى جمال الدين عبدالله بن السائح قاضى الرملة بمائة ألف درهم ولم يقم بها غير ثلاثة أشهر وعزل بالباعونى (٢٨١) .

هذا وقد سبق لنا أن أشرنا فى حديثنا عن حرص بعض السلاطين المماليك على تخفيف الأعباء عن أهل بيت المقدس إلى ما كان يفرض على وظيفة الحسبة من أموال ، والحق أن البذل على هذه الوظيفة يعتبر أحد الأسباب الرئيسية ، والتى عجلت بتدهورها وانهارها ، وخاصة وأن الأمر لم يعد قاصرا على توليتها بالرشوة والبراطيل وإنما استقر الحال على توليها حسب مصطلح العصر عن طريق البذل مما أدى إلى كثرة الطامعين فيها وإلى المزايدة عليها فيما بينهم ، وبالتالي لم يعد المحتسب بحاجة إلى مجرد تناول رشوة مقنعة أو خفية ، وإنما وصل به الحال إلى فرض مقررات شهرية على الباعة والتجار وأصحاب الحرف والبضائع ، ولهذا لم يكن عجباً أن تسير الحسبة بخطى سريعة إلى الهاوية ، بسبب تلاعب الجهلة بهذا المنصب ، مما أدى إلى كثرة من يتولاها ، وماتج عنه بسبب عدم استقرار هذه الوظيفة البالغة الأهمية بالنسبة للحياة الاقتصادية بوجه خاص ، وكذلك شتى نواحي الحياة المختلفة (٢٨٢) هذه بعض الأمثلة لقليل من كثير من المناصب الى تفشت فيها ظاهرة الرشوة ، والتى أدت إلى فساد تلك الوظائف من جهة ، ومن جهة أخرى فساد القائمين وشرفهم للمال ، والذى أنصب بدوره على عامة سكان بيت المقدس ، ليشمل شتى نواحي الحياة المختلفة .

وهنا لا بد للباحث من وقفة ولو قصيرة لتفسير تلك الظاهرة والتى كانت من أخطر الظواهر التى تقشت فى مدينة بيت المقدس وغيرها من البلاد التى خضعت لحكم سلاطين المماليك ، فضلا عن أن هذه الظاهرة وما أدت إليه من تفكك وانحيار النظام الإدارى لسلطة المماليك كانت أحد العوامل الرئيسية التى أدت إلى إنحيار دولتهم . ومن المؤكد أن من العوامل التى ساعدت على انتشار تلك الظاهرة ، ما عرف عن المماليك أنفسهم وبخاصة فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة والذين عدوا مصدرا للقوضى ، وعدم الاستقرار بسبب كثرة المماليك الجلبان والذين وفنوا على البلاد كبارا ولم تصقلهم أيدي الفقهاء والمعلمين كما كان الحال من قبل فى عصر المماليك البحرية ، بحيث صاروا

مافيهم - حسب قول المقریزی - « إلا من هو أزنى من قرد ، وألص من فأرة ، وأفسد من ذئب » ، وبذلك كانوا معول هدم في شتى أنحاء الدولة وليس أدل على ذلك أيضا مما يصوره لنا الأب سوريانو الذي عاش في القدس فترة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي حيث يقول إن أقل الممالك رتبة كان يضرب أكبر أبناء المدينة مركزا ، ولايجرؤ هذا الشخص أن يرد عليه أو يدافع عن نفسه أو يشكوه ، ولكنه يصمت حفاظا على حياته وممتلكاته ، وفي هذه الإشارة أيضا تأكيد لما سبق أن قلناه من أن عصر الجراكسة شهد تفكك السلطة المملوكية . (٢٨٤) .

ومن العوامل التي ساعدت أيضا على انتشار هذه الظاهرة ، سوء الأحوال - الاقتصادية في دولة سلاطين المماليك نتيجة ماعنته الخزانة السلطانية من جراء إعداد الحملات التي كانت توجه إما لقمع بعض حركات التمرد والعصيان الداخلية ، كما حدث على عهد السلطان فرج بن برقوق الذي خرج على رأس ثمانى تجريدات عسكرية إلى الشام لقمع عصيان الأمراء الخارجين عليه ، تكلف كل منها زيادة على مليون دينار ، أو لصده بعض الأطماع الخارجية في وقت اشتد فيه طمع الجند وزادت شراهم للمال وصاروا لايتحركون ولايجرجون في تجريدة من التجريدات إلا بعد أن يتقاضوا الثمن أضعافا مضاعفة ، وهذه الحروب الدفاعية جاءت لتلقى أعباء جديدة على خزانة الدولة ، وبالتالي لتزيد من إقبال السلاطين على تناول البراطيل على الوظائف والولايات في محاولة منهم ملء خزانة الدولة الفارغة خاصة بعد أن كسدت تجارتهم بسبب إغلاق معظم المعابر التجارية ، وبخاصة بعد ظهور البرتغاليين في الهند واكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م ، مما أنزل بالمماليك ضربة قاصمة ، وحرهم من مورد هام من مواردهم المالية وجعلهم يبحثون عن مورد آخر يعرضهم عما فقدوه من أموال (٢٨٥) .

هذا بالإضافة إلى حياة الترف والدعة والتي أقبلوا عليها طوال سنوات حكمهم ، وماتطلبه ذلك من أموال ضخمة ، فضلا عن حاجة السلاطين الدائمة لشراء ممالك جدد مع قلة وارداتهم المالية من التجارة ، والإقطاعات بسبب فساد تلك الإقطاعات نتيجة لإهمال الأرض الزراعية بالإضافة إلى سعى بعض الفئات للوصول إلى المناصب الهامة ، رغبة منهم في تحسين أوضاعهم الإجتماعية وربما وجدوا فيها موردا ماليا ضخما ، كذلك ربما وجد البعض الآخر في البذل وسيلة للترقى والتدرج في الوظائف ، وقد أدى ذلك إلى وصول كثير من أوباش الناس إلى الرتب العليا والمراتب السنية ، وانصرافهم عن مهام مناصبهم إلى جمع المال من كل صوب وحذب ، إما لتعويض مادفعوه ، وإما لجمع أكبر قدر منه (٢٨٦) .

ومن هذا العرض يتضح لنا أن سياسة البذل والبرطلة التي اتخذها سلاطين وأمراء المماليك وسيلة لجمع المال كانت وبالا على المجتمع الإسلامي في ذلك العصر ، وأدت إلى كثير من الخلل في شتى نواحي الحياة المختلفة وبخاصة الدينية ، مما كان سببا مباشرا في ضعف الرازع الديني في تلك الفترة وشبه الكثيرين إلى المال ، والذي أدى إلى ضربهم المثل والقيم والتقاليد بعرض الحائط ، وغير خاف على أحد أنه متى تفشت الرشوة في مجتمع تفشت فيه كثير من عوامل الضعف والإنهيار والانحلال الخلقي .

وأخيرا تجب الإشارة إلى بعض الأمراض الاجتماعية التي كانت منتشرة في ذلك العصر الا وهي شيوع كثير من البدع والخرافات والمعتقدات الباطلة ، نذكر على سبيل المثال منها ماكان شائعا لدى المسلمين من الاعتقاد في المشايخ والأولياء وأن لهم القدرة على الإتيان بالكثير من الخوارق من الأعمال وهذا ماسبقت الإشارة إليه ، كذلك ماكان شائعا لدى بعض الطوائف المسيحية ، من أنهم كانوا يستدلون من الحيوانات على بعض الأشياء فمثلا غسل القطة لوجهها يزعمون أنه دليل قدوم ضيف ، وتباح الكلب بصوت مقلوب يؤذن بمصاب ، ونعيق البوم إشارة إلى موت مدنف ، وطيران غراب واحد نحس وغرايين سعد ، وصياح الدجاجة كالديك إنذار بخطر ، وإلى غير ذلك من الاستدلالات . (٢٨٧) . كذلك مايرويه لنا الأب سوريانو عن وجود بعض الأحجار السوداء والتي عليها يقع بلون الذهب وبدخلها إما قطعة صغيرة من الحجر أو الرمل ، وهذه الأحجار كانت تسمى « أحجار الحمل » فالمرأة التي لا يستمر حملها وينتهي بالإجهاض فإنها عندما تحمل إحدى هذه الأحجار فإن حملها يستمر وتنجب كثيرا من الأطفال ، ويؤكد أنه جرب تلك الأحجار عندما حضرت إليه إحدى السيدات الأجنبية وكانت دائمة الإجهاض ، وكانت مخلصه لجماعة الرهبان الفرنسيكان ، فعندما وضعت تلك الأحجار فقد استمر حملها وانجبت الكثير من الصبية والبنات ، كذلك يروى أن لتلك الأحجار تأثيرا كبيرا على الأشجار فهي إذا وضعت فوق الشجرة فإن ثمارها لا تسقط ، وإذا كانت الشجرة غير مثمرة فإنها تثمر . (٢٨٨) وهذا يعكس لنا مدى تغلغل تلك المعتقدات الغريبة في نفوس المعاصرين لتلك الفترة .

هوامش

- (١) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، نشر دار صادر بيروت ١٩٦٠ ص ١٥٩ / ١٦٣ ،
المقرئزي : السلوك ، ج١ ص ٦٥٠ .
- (٢) العروب بتشديد الراء اسم قريتين بناحية القدس فيها عينان عظيمنتان وبركتان وبساتين
راجع باقوت : معجم البلدان .
- (٣) المقرئزي : السلوك ج٢ قسم ١ ص ٣٠٢ ، ج٢ قسم ٢ ص ٩٤٦ ، ابن تقي بردي :
النجوم ، ج١٢ ، ص ١١٤ ، العيني : السيف المهند ص ٢١١ ، ابن الصوري : نزهة
النقوس ج١ ، ص ٥٠٢ ، ابن إياس بدائع الزهور ، ج٣ ص ٢٠١
- (٤) الروض الزاهر ، ص ٢٨٨ ، المقرئزي : السلوك ، ج١ قسم ٢ ص ٦٥٠ .
- (٥) الأنس الجليل ، ج٢ ص ٦٦١ ، ٦٦٢
- (٦) كتب بذلك لوحة تاريخية بخط النسخ المملوكي نصها : جدد هذا السيل والمصل والمهرب العبد الفقير إلى الله تعالى شاهين ناظر
الحرمين أيام مولانا الملك الأشرف برسبای خلد الله ملكه بتاريخ شهر رمضان المعظم سنة اثنين وثلاثين وثمان مائة
راجع عارف العارف : المفصل في تاريخ القدس ، ص ٢٠٨ ، تاريخ القدس ص ٨٤ ، سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة .. ص ٢٧
- (٧) عارف العارف ، تاريخ القدس ، ص ٣٠١ .
- (٨) المرجع السابق ، ص ٩٨ - ٣٠١
- (٩) الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٦٦١ .
- (١٠) سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة ... ص ٢٧ - ٢٨
- (١١) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، ص ١٥١ .
- (١٢) المرجع السابق ، ص ١٥٣ ، ١٥٤
- (١٣) سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة ، ص ٢٧ ، محمود العابدلأ : قدسنا ، ص ٩٩
- (١٤) عارف المعارف : تاريخ القدس ، ص ٩٢ .
- (١٥) المرجع السابق : ص ٣٠١ - ٣٠٢
- (١٦) الحضرة الأنيسية في الرحلة القدسية طبع جريدة الأخلاص بمصر عام ١٩٠٢ ص ٣١ ، ٣٤ .
- (١٧) السيد الباز الميرني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ج١ ص ٢٦٧ .
- (١٨) Thomas wright: Early travels in Plastine, P. 84
- (١٩) الأنس الجليل ج٢ ص ٤٠١
- (٢٠) George Adam Smith: Jerusalem PP. 77-79.
- (٢١) عن موقع هذه البرك راجع عارف العارف : تاريخ القدس ص ١٧٦ ، ١٧٨ .
- (٢٢) Murry: Syria and palestine vol, I, PP. 136- 137; Treatise on the Holy land, P- 220

- (٢٣) عارف العارف : تاريخ القدس ص ١٧٨ - ١٧٩
- (٢٤) عبد الحميد زايد : القدس الخالدة ص ١٧ - ١٩
- Wilkinson, Jerusalem Pilgrims P- 85
- (٢٥) مسالك الأبصار ج ٥ ورقة ٩٣ مخطوط ، ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٥٢٢ .
- (٢٦) الأنس الجليل : ج ٢ ص ٣٨٧ ، رشاد الإمام : مدينة القدس ص ١٨٤ .
- (٢٧) الأنس الجليل : ج ٢ ص ٤٠٧ - ٤٠٨ ، عارف العارف : تاريخ القدس ص ٩٥ .
- (٢٨) المقرئى : الخطوط ج ٣ ص ١٢٩ - ١٤٠ ؛ سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ٩٣ - ٩٤ .
- (٢٩) زبدة كشف الممالك ، ص ٢٣ .
- (٣٠) رحلة إلى فلسطين والقدس ونابلس والخليل وماني بلاد الشام لم يعلم مؤلفها مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٥٤ جغرافية ورقة ٦٦ .
- Prescott: once to sinai the further pilgrimage of Frir felix fabri, London, 1957, PP. 31-32.
- (٣٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٩٤ - ٩٥ ؛ كامل جميل العسلى : نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١١٠
- (٣٣) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار تحقيق فيليب حتى طبع جامعة برنستون عام ١٩٣٠ ص ١٣٦ ، سعيد عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصليبية القاهرة ١٩٦٤ ص ١٠٨ .
- (٣٤) ابن تفردي بردي : منتخبات من حوادث الدور ج ٢ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٠٣ ، سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٩٥ .
- (٣٥) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ٩٦ .
- (٣٦) ابن الأختوة : معالم القرية ص ١٥٦ ، سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ٩٦ .
- (٣٧) ابن الحاج : المدخل ، ج ٢ ، ص ٢٧ .
- (٣٨) المصدر السابق نفسه والصفحة .
- (٣٩) البيمارستان بفتح الراء وسكون السين ، كلمة فارسية مركبة من كلمتين « بيمار » بمعنى مريض أو عليل أو مصاب و « ستان » بمعنى مكان أو دار ، فهي إذا دار المرضى ، ثم اختصرت فى الاستعمال فصارت بيمارستان ، راجع أحمد عيسى : تاريخ البيمارستان فى الاسلام ص ٣ - ٤ .
- (٤٠) سفر نامه ١ ص ٢١ .
- (٤١) الخالدى : المعاهد المصرية فى بيت المقدس ص ٦٠٥ .
- (٤٢) المرجع السابق نفسه والصفحات .
- Warren: The Survey of Western Palstine pp. 83-34, Murphy- Canon; The Holy land pp. 44-45.
- (٤٣) Wright: Early travel s.P. 168.
- (٤٤) The book of the wanderings of Vol. I, PP. 285-286
- (٤٥) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى الإسلام ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧
- (٤٦) الفتح القسى ، ص ٩٥ .
- (٤٧) مفرج الكروبي ، ج ٢ ص ٤٠٨ .
- (٤٨) كتاب سيرة صلاح الدين المسماة بالتواقر السلطانية والمحسن اليوسفية ، طبع مطبعة الآداب والمؤيد بمصر ١٣١٧ هـ ، ص ٢٤٢ ، R.H.C. Tome 111, P.355
- (٤٩) الروضتين ج ٢ ، ص ٢٠٥
- (٥٠) الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٤٥
- (٥١) نفس المصدر ج ٢ ، ص ٤٠٤
- (٥٢) نفس المصدر ج ٢ ، ص ٥٨٩ - ٥٩٠
- (٥٣) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات ، ص ٢٦٠
- Nicolo A Ziadeh: Urban life in syria PP. 159- 160
- (٥٤) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات ، ص ٣١ - ٣٦
- (٥٥) ابن أبي أطلجة عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ٢٤٣ ، المرجع السابق : ص ٣١

- (٥٩) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٧٩ .
- (٦٠) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٣ .
- (٦١) ابن أبي أصيبعة : نفس المصدر ، ج١ ، ص ٣٩ - ٣١٠ .
- (٦٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ج ١ ص ٣٩ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٣ .
- (٦٣) الرحلة ، ص ٣٣ .
- (٦٤) نسبة إلى الملك الأفضل بن صلاح الدين الأيوبي ، وقد أنشأ هذه المدرسة بحارة المغارة وكانت على عهدہ تعرف بالقبة ووقف معها حارة المغارة سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م راجع : عارف العارف تاريخ القدس ص ٨٢ .
- (٦٥) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٠ .
- (٦٦) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٦٣٧ .
- (٦٧) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٤ (طبع دار الشعب) .
- (٦٨) عبد النعم ماجد : دولة سلاطين المماليك ورسومهم ص ١٣ - ١٣٢ .
- (٦٩) راجع السلوك للمقريزي ج ٢ قسم ٢ ص ٥٩ حاشية ١ ، الخطط ج ١ ص ١٨٧ - ١٨٨ .
- (٧٠) المقريزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .
- (٧١) السخاوي : التبر المسبوك ، ص ٤٦ .
- (٧٢) ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٥ ، ص ٥٣٩ .
- (٧٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣١٣ .
- (٧٤) The ravels of martin Baumgarten. Vol I P. 463 ,
- ويتفق هذا الوصف مع أورده كل من المقريزي السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٤٠٤ وابن تغري بردي : النجوم ، ج ٤ ، ص ١٤٤ .
- (٧٥) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٧٤٠ حاشية ٣ ؛ عبد النعم ماجد : دولة سلاطين المماليك ص ١٣٣ - ١٣٤ .
- (٧٦) ابن تغري : النجوم ج ٥ ص ٥٥٠ ؛ ابن إياس بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٤٥٠ .
- (٧٧) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٠٤ ؛ عبد النعم ماجد : نفس المرجع ص ١٣٤ .
- (٧٨) السخاوي : التبر المسبوك ص ٣٠٥ ؛ مجير الدين الأنس الجليل ، ج ٢ ص ٦١٠ .
- (٧٩) الأنس الجليل ج ٢ ص ٦١٠ .
- (٨٠) ابن دقماق : الجواهر الثمين ، ص ١٥١ مخطوط .
- (٨١) ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٨ ، ص ٢١٥ .
- (٨٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٥٦٤ .
- (٨٣) ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٩ ، ص ٣٢٣ .
- (٨٤) Jozhua Prawer. Op. cit, p, 367
- (٨٥) انحاف الإحصاء بفضائل المسجد الأقصى ، تحقيق أحمد رمضان أحمد ، القسم الأول ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٢ ، ص ١٠٨ - ١٣٩ .
- (٨٦) المصدر السابق ، ص ٢٤٠ .
- (٨٧) الرحلة ، نشر دار أرساد بيروت ١٩٦٤ ، ص ٥٧ - ٥٨ .
- (٨٨) سورة الإسراء ، الآية ٠١ .
- (٨٩) مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٣٦ .
- (٩٠) خراع العمل هو النراع الذي كانت تقاس به أرض البنيان من الدور وغيرها ، طول هذا النراع ثلاثة أشبار بشر رجل معتدل ، راجع القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ . ويقول لاستخراج أن خراع العمل يساوي ٦٨٥ سم ، Palestine under the Musliman P. 110 .
- (٩١) آثار البلاد وأخبار العباد ، نشر دار صادر بيروت ١٩٨ ، ص ١٦١ .
- (٩٢) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٢٥٠ .
- (٩٣) انحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ، مخطوط ، ورقة ٥١ - ٥٥ .
- (٩٤) الحضرة الأنيسية في الرحلة القدسية ، ص ١٧ .
- (٩٥) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٢٩٦ - ٣٠٠ .

- (٩٦) المنهاجي السيوطي ، تحاف الاخصاص ، ورقة ٣٩ - ٤٨ مخطوط .
- (٩٧) المصدر السابق ، والصفحات نفسها ، عبد الحميد زايد ، قدسنا ، ص ٢٦٢ ، رشاد الإمام ، مدينة القدس ص ١٧١ .
- (٩٨) ابن الوردي ، تنمى المختصر في أخبار البشر ، طبع المطبعة الوهاية ، بالقاهرة ١٨٦٨ ، ج ٢ ، ص ٢١٩ ، مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٣٣ .
- (٩٩) Newett: Casola's pilgrims. P249; Frescobaldi: A visit to the holyplaces. P; 128.
- (١٠٠) مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ ، رشاد الإمام ، مدينة القدس ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .
- (١٠١) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٧٤ ، مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٤٠ - ٦٤٤ ، رشاد الإمام ، مدينة القدس ، ص ١٧٦ .
- (١٠٢) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤١١ .
- (١٠٣) كتاب الإرشادات إلى معرفة الزيارات ، عنيت بنشره وتحقيقه جانين سورديل - طرون ، دمشق ١٩٥٣ ، ص ٢٧ .
- (١٠٤) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ١٦٣ .
- (١٠٥) الذهبى ، سيرة أعلام النبلاء ، ج ٢ ، ص ٤ - ٥ ، ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ٢٣ .
- (١٠٦) عبد الغنى النابلسي ، الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية ، ص ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .
- (١٠٧) المنهاجي السيوطي ، تحاف الاخصاص بفضائل المسجد الأقصى ، ظهر ورقة ٥٧ مخطوط ، المصدر السابق ، ص ٤٤ ، مؤلف مجهول ، رحلة إلى فلسطين والقدس ورقة ١٤ مخطوط .
- (١٠٨) الحضرة الانيسية في الرحلة القدسية ، ص ٧١ ، ٧٢ .
- (١٠٩) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٠١ .
- (١١٠) Wilkinson: Op. Cit P. 37.
- (١١١) تذكر كثير من المصادر أن السبب في تسمية كنيسة القيامة باسم قمامة يرجع إلى أن المكان الذي أقيمت به كان مزبلة للبلد كذلك كان يتم فيه قطع أيدي المفسدين وتصلب به اللصوص ، ولهذا سميت الكنيسة باسم هذا المكان ، أما المسيحيون فيطلقون عليها اسم القيامة لأنهم يعتقدون أن المسيح عليه السلام قامت قيامته في ذلك الموضع عن ذلك راجع المروى : كتاب الإشارات ، ص ٢٨ .
- (١١٢) نفس المصدر السابق ، ص ٢٨ .
- (١١٣) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ١٦٣ .
- (١١٤) الأنس الجليل ، ص ٢ ، ص ٤٠١ - ٤٠٢ .
- (١١٥) سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ٣١٦ .
- (١١٦) عارف العارف تاريخ القدس ، ص ٢٦٥ ؛ حول القدس ص ٤٠ ، Warren, Op. cit, p34 .
- (١١٧) Fra Niccloa of Poggibonsi, Avoyage Beyond the Seas (from 1346-1350) Jerusalem The Franciscan Press 1945. p. 14
- Ibid, PP. 12-22
- (١١٨)
- (١١٩) هو وجود فرى يوابون دوق اللورين الأدنى والذي كان له دور هام في بداية الحروب الصليبية ، نظرا لضخامة الجيش الذي أعده وشارك به في الحرب الصليبية الأولى ، وهو أول من تلقب بلقب حامى القبر المقدس من حكام الصليبيين وكذلك أول حكام مملكة بيت المقدس اللاتينية وتوفي سنة ١١٠٠ م . لمزيد من المعلومات راجع ، رنسيما ، تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ، ص ١٦٨ ، ٢١١ ، ٤٤٢ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٥١ .
- Àvisit to the Holy p. 76-77.
- (١٢٠)
- Mundrell; Ajourney from Aleppo to Jerus alem pp. 92-93
- (١٢١)
- (١٢٢) عارف العارف : بتاريخ القدس ، ص ٢٦٧ .
- (١٢٣) ابن تقي بردي : النجوم ، ج ٧ ، ص ١٦٢ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٤٠ - ١٠٠ ، ج ٢ ، ص ٨٤ ، ج ٤ ، ص ١٥٩ .
- Wilkinson: Jerusalem pilgrims. P. 84
- (١٢٤)
- (١٢٥) أحمد دراج : وثائق دير صهيون ، ص ١١٥ .
- (١٢٦) مجير الدين : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٠١ - ٤٠٢ .
- (١٢٧) كتاب الأشارات إلى معرفة الزيارات ، ص ٢٧ .

- (١٢٨) مسالك الأبصار، ج١، ص ٣٩ .
- (١٢٩) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٤٠، كرد على : خطط الشام، ج٦، ص ٣١ .
- (١٣٠) مسالك الأبصار، ج١، ص ٣٤٠، كرد على : خطط الشام، ج٦، ص ٢٩ .
- (١٣١) كرد على : خطط الشام، ج٦، ص ٣٥ .
- (١٣٢) الأنس الجليل، ج٢، ص ٤١٠ - ٤١١ .
- Wright: op. cit. P. 161 (١٣٣)
- The travels of Bertrandon. P. 93. (١٣٤)
- P.P.T.S; Vol. vi, p.1 (١٣٥)
- (١٣٦) عارف العارف : تاريخ القدس، ص ٢٢٣، عبد الحميد زايد القدس الخالدة، ص ٢٥٦ .
- Aamiry: Jerusalem. p.10 (١٣٧)
- (١٣٨) عارف العارف : نفس المرجع، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .
- (١٣٩) حيث يروى أن القضية أثبتت دوليا عام ١٩٣٠، وشكلت لجنة دولية كان أعضاؤها من الدول المسيحية، ووافق مجلس الأمم في ٥ مايو عام ١٩٣٠ على تأليفها وأقر اليهود صلاحيتها وكان لهم ثلاثة وكلاء، وأصدرت اللجنة قرارها بأن للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربى ولهم وحدهم الحق العيني فيه لكونه يؤلف جزءا من ساحة الحرم الشريف التى هى أملاك الوقف، وللمسلمين أيضا تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط وأمام المحلة المعروفة بمحارة المغاربة للحائط لكونه موقوفا حسب احكام الشرع الإسلامى لجهات البر والخير، عن ذلك راجع عبد الحميد زايد : القدس الخالدة، ص ١٨٩، ١٩٠ .
- Wright: early Travels in palestine P. 174 (١٤٠)
- Lees: Op. Cit. P. 198 (١٤١)
- Charles dudly: In the levant. PP. 97-98 (١٤٢)
- (١٤٣) الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .
- Charles Dudley: Op. Cit. 97-98 (١٤٤)
- Lees: Op. cit. PP. 213-214 (١٤٥) راجع عن الطرق الأخرى
- The Book of.. Vol. 11, p. 117 (١٤٦)
- (١٤٧) اللقيمى : موالح الأنس، ورقة ٣٣ - ٣٤ مخطوط .
- The Book of.. Vol. I. P. 242 (١٤٨)
- Prescott: Op. Cit. P. 181 (١٤٩)
- Hinckley: op. cit. vol. I , P 35 (١٥٠)
- (١٥١) لجنة من الأدباء : نفس المرجع، ص ١٥٩ .
- Lees: op. cit. P. 112. (١٥٢)
- The Travels of. vol. I, p. 462 (١٥٣)
- Treatis on the Holy.. pp. 203- 204 (١٥٤)
- Palestine Exploration fund (1855- 86) London 1889, P- 85. (١٥٥)
- (١٥٦) الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٣١ .
- Wilkinson: Op. cit. P. 129. (١٥٧)
- Ibid, P. 84. (١٥٨)
- عمر صالح الرعوثى : تاريخ فلسطين، ص ١٩٩ - ٢٠١، حول بيت المقدس ص ٣٤٤ . (١٥٩)
- (١٦٠) محمود العابدى : قدسا، ص ١٢٢ - ١٢٣ .
- (١٦١) عمر صالح الرعوثى : نفس المرجع، ص ٢٠١ .
- (١٦٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى، ص ١٧٧ نقلا عن ابن الحاج : المدخل، ج١، ص ٢٨٩ .
- (١٦٣) العمرى : مسالك الأبصار، ج١، ص ٣٥، أحمد رمضان : المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام ص ٢٤٢ .
- (١٦٤) الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٦٨ .
- (١٦٥) المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٨٥، رشاد الأمام : نفس المرجع، ص ١٧٥ .
- (١٦٦) المقرئى : السلوك، ج٤، قسم ١، ص ٤٢١ .

- (١٦٧) مجر الدين : نفس المصدر ، ج٢ ، ص٣٨٥ ، رشاد الأمام : نفس المرجع ، ص١٧٥ .
- (١٦٨) ابن بطوطة : الرحلة ، بيروت ١٩٦٤ ، ص٣١ ، سعيد عاشور : المجتمع المصري ، ص١٨٥ .
- (١٦٩) سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص١٨٥ ، ١٨٦ .
- (١٧٠) محمد محمد أمين : نفس المرجع ، ص١٤٢ - ١٤٨ .
- (١٧١) صبح الأعشى ، ج٢ ، ص٤١٩ - ٤٢٥ .
- (١٧٢) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٤١٥ .
- (١٧٣) يوسف الدبس : الجامع المفصل ، ص٤٠٥ .
- (١٧٤) الدمشقي : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، طبع بطرسبرج ١٨٦٥ م ، ص٢٧٩ .
- (١٧٥) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ، ج٢ ، ص٢٠٨ .
- (١٧٦) لجنة من الأدباء : لبنان مباحث علمية واجتماعية ، ص٦٥ .
- (١٧٧) ابن الوردي : تاريخ ، ج١ ، ص٨٠ .
- (١٧٨) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ، ج٢ ، ص٦٠٨ .
- (١٧٩) المرجع السابق نفسه والصفحة ذاتها .
- (١٨٠) ابن الوردي : نفس المصدر ، ج١ ، ص٨٠ ، القلقشندي : نفس المصدر ، ج٢ ، ص٤١٥ .
- Avoyage. P. 12
- (١٨١) رشاد الأمام : نفس المرجع ، ص١٨٠ ، ١٨١ .
- (١٨٢) صبح الأعشى ، ج٢ ، ص٤١٥ - ٤١٦ .
- (١٨٣) يوسف الدبس : نفسه ، ص٤٠٦ .
- (١٨٤) جرجس فيلوثاؤس : تصحيح حساب الأيام ص٤ ، ٥ ، ٦٣ - ٦٩ .
- A voyage Beyond The Sea, P. 22
- (١٨٥)
- (١٨٦) لجنة من الأدباء : نفس المرجع ، ص١٦٦ .
- (١٨٧) الدمشقي : نخبة الدهر ، ص٢٨٠ .
- Murray: Op. Cit. vol. I, P. 77.
- (١٨٨)
- (١٨٩) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٢ ، ص٤١٦ .
- (١٩٠) يوسف الدبس : الجامع المفصل ، ص٤٠٥ .
- (١٩١) الدمشقي : نفس المصدر ، ص٢٨١ .
- (١٩٢) المسعودي : مروج الذهب ، القاهرة ١٣٤٦ هـ ، ج١ ، ص٣٥١ .
- (١٩٣) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ، ج٢ ، ص٢٠٩ .
- (١٩٤) فرح أنطون : أورشليم الجديدة ، الإسكندرية ١٩٠٤ ، ص٤ .
- (١٩٥) لمزيد من المعلومات عن الأعياد راجع القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص٤١٥ - ٤٩٥ .
- (١٩٦) سعيد عاشور : المجتمع المصري ، ص١١٩ .
- (١٩٧)
- Adler: Op. Cit. P. 194
- (١٩٨) السخاوي : الثبر المسبوك ، ص٣٩١ .
- (١٩٩) سعيد عاشور : المجتمع المصري ، ص١٢٠ .
- (٢٠٠) رحلة ابن بطوطة ، ص٦٣ .
- (٢٠١) السخاوي : الثبر المسبوك ، ص٣٠٢ ، ابن تقي هردي : منتخبات من حوادث الدهور ، ج١ ، ص٦٦ - ٦٧ ، سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص١٢١ .
- (٢٠٢) المرجع السابق ، ص١٢١ .
- (٢٠٣) أسعد منصور : تاريخ الناصرة من أقدم أزمانها إلى أيامنا الحاضرة ، طبع القاهرة ١٩٢٤ م ، ص٢٧٦ .
- (٢٠٤) نعمان القساطلي : الروضة الغناء في دمشق الفحاء ، بيروت ١٨٧٩ ، ص١٢٧ .
- (٢٠٥) كرد علي : خطط الشام ، ج٦ ، ص٢٩٣ .
- Bliss: Op. Cit. P. 145
- (٢٠٦) عن درجات التحريم هذه راجع ،
- Ibid: P. 147.
- (٢٠٧)

Less: Op. Cit. P. 118

(٢٠٨)

(٢٠٩) لجنة من الأدباء : نفس المرجع ، ص ١٥٣ .

(٢١٠) أسعد منصور : تاريخ الناصرة ، ص ٢٢٧ .

(٢١١) المرجع السابق نفسه والصفحة ذاتها .

(٢١٢) لجنة من الأدباء : نفس المرجع ، ص ١٥٤ .

(٢١٣) أسعد منصور : نفس المرجع ، ص ٢٧٨ .

(٢١٤) المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .

(٢١٥)

(٢١٦) لجنة من الأدباء : نفس المرجع ، ص ١٥٦ .

(٢١٧) كرد على : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

(٢١٨) نعمان القساطلي : الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، ص ١٢٨ .

(٢١٩)

(٢٢٠) لجنة من الأدباء : نفس المرجع ، ص ١٤٩ .

(٢٢١) أسعد منصور : تاريخ الناصرة ، ص ٢٧٥ .

(٢٢٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .

(٢٢٣) المرجع نفسه ، ص ٢٧٥ .

(٢٢٤) سعيد عاشور : المجتمع المصري ، ص ١٢٤ .

(٢٢٥)

(٢٢٦) سعيد عاشور : نفس المرجع السابق ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢٢٧) لجنة من الأدباء : نفس المرجع ، ص ١٤٩ .

(٢٢٨) أسعد منصور : نفس المرجع ، ص ٢٧٥ .

(٢٢٩) المقرئزي : ذكر دخول قبط مصر دين النصرانية ، ص ١٦٦ .

(٢٣٠)

(٢٣١) لجنة من الأدباء : المرجع نفسه ، ص ١٥٠ .

(٢٣٢) المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٢٣٣)

Treatise, p. 205

The Travels of. pp. 13- 14

(٢٣٤)

Ne wett: Op. cit. pp. 257- 259

(٢٣٥)

(٢٣٦) سعيد عاشور : المجتمع المصري ، ص ١٢٧ .

(٢٣٧) لحد صعب ، مختصر تاريخ طائفة الروم ، بيروت ١٩١٤ ، ص ٢٠٣ .

(٢٣٨)

Lees: op. cit. pp. 108- 113

(٢٣٩) لجنة من الادباء : لبتان مباحث علمية واجتماعية ، ١٤٧ .

(٢٤٠)

lees. Village life. pp.120-197;

Ibid Op cit pp.92-157 Bartlett: Jerusalem. p. 15.

(٢٤١)

(٢٤٢) الحضرة الأنيسية في الرحلة القدسية ، ص ٥٥

Aamiry: op. cit. p. 9, Dudley: op. cit. p. 35

(٢٤٣)

(٢٤٤) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ١٦١ .

(٢٤٥) مسالك الأبصار ، ج ٥ ، ص ١٨٠ مخطوط .

(٢٤٦) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ .

(٢٤٧)

P.P.T.S. vol. 1x, p. 226

- Ray john: op. cit. p. 22 (٢٤٨)
- Conder: op. cit. p. 185 (٢٤٩)
- Lees: op- cit. p. 104 (٢٥٠)
- Smail: The crusaders In Syria. p. 79 (٢٥١)
- (٢٥٢) يوشع براور : عالم الصليبيين ، ص١٤٤ .
- Ray jahon: op. cit. p.22 ، ص٢٦٧ ، المرجع : نفس الأديباء : (٢٥٣)
- (٢٥٤) يوشع براور : نفس المرجع ، ص١٤٣ .
- Fabri: p.p.t.s. vol. v 11, p 261 (٢٥٥)
- Prescott: op. cit. p. 178. (٢٥٦)
- (٢٥٧)
- Murray: op. cit. vol. I, p 136, Smith: op. cit. p.112 (٢٥٨)
- (٢٥٩) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص٢٠٣
- (٢٦٠) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج١ ، ص٣٩٣ - ٣٩٤ ، ج٢ ، ص٥٠٨
- Smail: op. cit. p. 87 (٢٦١) أسعد منصور : نفسه ، ص١٥ ،
- Lees: op. cit. p. 82 (٢٦٢)
- Joshua prawer: op. cit. pp. 336- 367 (٢٦٣)
- Lees: op. cit- p. 95 (٢٦٤)
- Lees: op. cit. pp. 103- 105 (٢٦٥)
- Ibid: PP. 82o 83 (٢٦٦)
- (٢٦٧) ابن جبير : الرحلة ، ص٢٨٣ .
- Ibid: op. cit. p. 84 (٢٦٨)
- (٢٦٩) عن كثير من هذه الأمراض الاجتماعية راجع سعيد عاشور : المجتمع المعدي ، ص٢٢٥ - ٢٣٥ .
- (٢٧٠) تاريخ ابن قاضي شهية ، ص ٦٦٦ في ذكر حوادث سنة ٨٠٠ هـ .
- (٢٧١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤١٨
- (٢٧٢) أحمد عبد الرازق أحمد : النيل والبرحلة زمن سلاطين المماليك : دراسة عن الرشوة ، طبع الهيئة المصرية العامة لكتاب ، ١٩٧٩ ، ص ٥٥ .
- (٢٧٣) المرجع السابق والصفحة ذاتها .
- (٢٧٤) أحمد عبد الرازق أحمد : نفس المرجع ، ص ٩٧ .
- (٢٧٥) المرجع السابق ، ص ١٣٣ - ١٣٩ .
- (٢٧٦) مجمر الدين الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٢٧٦ ؛ المرجع السابق ، ص ٥٠ .
- (٢٧٧) أحمد عبد الرازق أحمد : المرجع السابق ، ص ٦٥ .
- (٢٧٨) الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٢٩٧ ؛ المرجع السابق ، ص ١١٦ .
- (٢٧٩) الضوء اللامع ، ج٩ ، ص ١١٠ ؛ الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ ؛ أحمد عبد الرازق : المرجع السابق ، ص ١١٦ .
- (٢٨٠) إنباء القمر ، ج٢ ، ص ٩٢ ؛ أحمد عبد الرازق : المرجع نفسه ، ص ١٢٦ .
- (٢٨١) الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٩٢ .
- (٢٨٢) أحمد عبد الرازق : النيل والبرحلة ، ص١٤٨ ، ص ١٤٩ .
- (٢٨٣) المخطوط ، ج٢ ، ص٢١٤ ، المرجع السابق ، ص١٣٢ .
- (٢٨٤)
- (٢٨٥) أحمد عبد الرازق : نفس المرجع ، ص١٣٣ - ١٣٤ .
- Treatise on the holy land, p. 207.

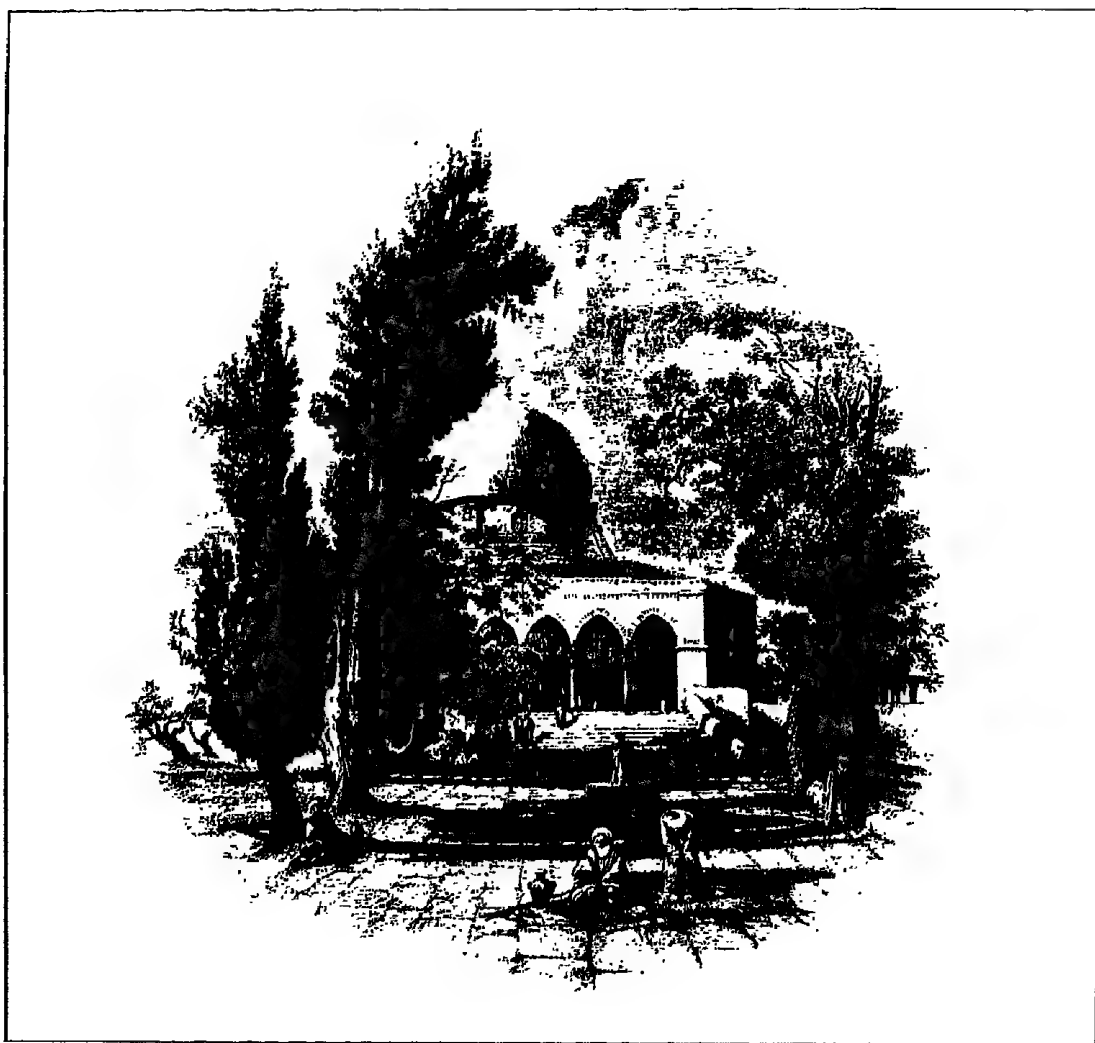
(٢٨٦) المرجع السابق ، ص ١٣٤ - ١٣٨ .

(٢٨٧) أديب لحود : العادات والأخلاق اللبنانية ، ص ١٤٤ .

(٢٨٨)

Treatls on the Holy and p. 233.

ملاحق الكتاب



ملحق رقم (١)

أسماء أمراء المماليك الذين نفوا إلى القدس والسنوات التي ورد ذكرهم فيها والمصدر .

اسم الأمير	السنة	المصدر والصفحة
الأمير علاء الدين أيدغوى الكيكى	٦٨٨	ابن حبيب : تذكرة النبیه ج ١ ص ١٢٨
الأمير بلبعاء التركمانى	٦٩٨	ابن تغرى بردى : النجوم ج ٨ ص ١٧٣
الأمير خاص ترك	٦٩٨	ابن تغرى بردى : النجوم ج ٨ ص ١٧٣
الأمير أيدمر المرتجى	٦٩٨	المقريزى السلوك ج ٢ قسم ١ ص ٣٥
الأمير كراى	٧٠٧	المقريزى السلوك ج ٢ قسم ١ ص ٣٧
جماعة منن الأمراء	٧٠٧	المقريزى السلوك ج ٢ قسم ١ ص ٣٧، ٢٣٨، ٢٥٥، ٤٧٠
الأمير كافور الهندى	٧٤٧	المقريزى السلوك ج ٢ قسم ٣ ص ٧٠٦
الأمير عنبر السحرقى	٧٤٩	المقريزى السلوك ج ٢ قسم ١ ص ٧٩٦
الأمير سيف الدين حارس الطير	٧٥٦	المقريزى الخط ج ٢ ص ٤٠٧
الأمير أرغون الكاملى	٧٥٨	المقريزى السلوك ج ٣ قسم ١ ص ٥٨
الأمير فخر الدين ماجد	٧٦٢	المقريزى السلوك ج ٣ قسم ١ ص ٥٨
الأمير طاز	٧٦٢	المقريزى السلوك ج ٢ قسم ١ ص ٩٥
الأمير طيغنا الطويل	٧٦٤	ابن تغرى بردى : النجوم ج ١١، ص ٣٢
الأمير طيغنا الطويل	٧٦٧	ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ قسم ٢ ص ٢٨
الأمير أرغون القشمى	٧٦٨	ابن حجر الدور الكامنة ج ١ ص ٣٥٣
الأمير أرغون الأحمدي	٧٦٨	

اسم الأمير	السنة	المصدر والصفحة
الأمير تمريغا المنجكي	٨٠٣	ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج ٢ ص ٨٠
الأمير أقبغا الجمالي	٨٠٣	البدر العيني: السيف المهندس ٢٤٤
الأمير تغرى بردى	٨٠٤	ابن حجر، إنباء الغمر ج ٢ ص ٢٠٦
الأمير أقبغا نائب الشام	٨٠٤	المقريزي: السلوك ج ٣ قسم ٣ ص ١٠٨٧
الأمير شيخ الأطروش	٨٠٥	ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج ٢ ص ١٥٧
الأمير أقبغا الجمالي	٨٠٥	ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج ٢ ص ١٥٧
الأمير سيف الدين آقبغا	٨٠٦	ابن تغرى بردى: النجوم ج ١٣ ص ٣٦ .
الأمير نوروز الحافظي	٨٠٨	المقريزي السوك ج ٤ قسم ١ حوادث ٨٠٨
الأمير تغرى بردى	٨١٣	ابن تغرى بردى: النجوم ج ١٣ ص ١١٧
الأمير جرباش كباشة		
والأمير ارغمون من يشبغا	٨١٧	ابن تغرى بردى: النجوم ج ١٤ ص ٢٣
الأمير الطنبغا العثماني	٨٢٠	ابن اياس بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٩
		ابن تغرى بردى: النجوم، ص ١١٤، ص ٥٩ .
الأمير سيف الدين بيسق بن عبدالله الشيخى الظاهر، أحد الأمراء الطبلخانات وأميرا آخورثاني	٨٢١	ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٣٩٥
الأمير قرا مراد خججا	٨٢٢	ابن اياس بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٨ .
الأمير يشبك الساق الظاهري	٨٢٤	ابن تغرى بردى: النجوم، ص ٩٠
الأعرج	٨٢٤	ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج ٢ ص ٤٤٩
الأمير شرباش قاشق	٨٢٤	ابن تغرى بردى: النجوم، ج ٢، ص ١٤٩
والأمير أبطنبغا المرقبي	٨٢٤	ابن تغرى بردى: النجوم، ج ٢، ص ١٧٩
الأمير طوغان أمير آخور	٨٢٥	ابن اياس بدائع الزهور ج ٢، ص ٦٦ .
الأمير أيماش الخصري	٨٢٥	ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج ٢ ص ٥٠٨
الأمير سودون الفقيه الجركي	٨٢٦	ابن تغرى بردى، النجوم ج ١٤ ص ٢٢٦
		ص ٢٣١
		ابن اياس بدائع الزهور ج ٢ ص ٧٨ .
		ابن اياس بدائع الزهور ج ٢ ص ٨٥

اسم الأمير	السنة	المصدر والصفحة
الأمير مغلبى ازن سقل الظاهرى الخشقدمى من مقدمى الألووف بمصر .	٨٧٤	ابن أياس بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣٩ .
الأمير برديك بن عبدالله الأمير سيف الدين الفارسمى الظاهرى جقمق كافل المملكة الحلبية والشامية .	٨٧٥	ابن الصرقى : إنباء الصهر بأنباء العصر ص ٣٠٠ - ٣٠١ .
الأمير تانى بك المحمدى		ابن الصيرفى إنباء الصهر ص ٢١٥
الأمير خليل بك الخشقدمى	٨٧٨	ابن إياس بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٩٠
الأمير شادبك أتسابك	٨٨٥	ابن طولون : مفاكهة الخلان القسم الأول ص ٢٦ .
الأمير قانصوه اليجياوى	٨٨٦	ابن طولون : مفاكهة الخلان القسم الأول ص ٥١
جماعة من مماليك السلطان	٩٠٣	ابن طوون : فاكهة الخلان القسم الأول ص ٢٦ .
الناصر محمد بن قايتباى		ص ١٨٨ .
جماعة من أمراء الشام	٩٠٥	ابن طولون : مفاكهة الخلان القسم الأول ص ٢٦٦ .
نائب الكـرك	٩١٢	ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ص ٩٤ .

هذا بخلاف ماتشير إليه بعض المصادر المعاصرة من أن بيت المقدس كانت مأوى لكثير من القارين والمستأمنين من الأمراء المماليك ، عن ذلك راجع ابن الصيرفى إنباء الصهر فى ذكر حوادث سنة ٨٧٦ هـ .

ملحق رقم (٢)

رسوم الحج كما أوردها د . أحمد دراج في وثائق دير صهيون ص ٧٥ - ٧٨ وهي الرسوم التي كان معمولاً بها منذ سنة ١٣٦٥ م ووفقاً للمعاهدة التي أبرمت بين فرسان القديس يوحنا والسلطان فرج سنة ١٤٠٣ م ، حيث كان لهم رعاية الحجاج .

١ درهم	بحارة يافا
١ درهم	الشاد واللمباشرون بالرملة
٣ دراهم	نائب القدس
١٥ دراهم	حارس كنيسة صموئيل
١ درهم	حارس كنيسة المهد بيت لحم
٢ دراهم	حارس برج سيدنا داود
٢ دراهم	الحارس عند مكان عبور نهر الأردن
١٥ دراهم .	حارس بيت عنيا وقربة لعاذر

غير أن الحقيقة أن مجموع الرسوم والإتاوات التي كان يدفعها الحاج تتجاوز هذه المبالغ بكثير ، فكلما ازدادت الحالة الاقتصادية في البلاد سوءا وازدادت حاجة الدولة إلى المال ، ازدادت بالتالي الرسوم التي كانت تجبى من كل حاج .

موجب السلطان ٥ دوكات ذهبية وكل دوكات ذهبية تساوى ٢٢ دوكات فضية ، والدوكات الفضية تساوى درهما فضيا ، أى أن كل حاج كان يدفع ١١٠ درهما موجب السلطان عند زيارته لكنيسة القيامة الأولى .

٤ دراهم	رسم الزيادة الثانية لكنيسة القيامة
٢ دراهم	رسم الزيارة الثالثة لكنيسة القيامة
٢٢٠ درهما	رسم زيارة القبر المقدس فيما عدا الزيارات الثلاث

هذا عدا ما كان يتحمله الحاج من أتاوات يدفعها لإرضاء ناظر كنيسة قيامة ومن تبعه من حراس الكنيسة والذي بلغ عددهم خمسة عشر حارسا .

ملحق رقم (٣)

رسوم الحج كما يرويها لنا الأب سوريانو رئيس طائفة الرهبان الفرانسيسكان ، والذي عاش في بيت المقدس فترة طويلة ، إن الرسم كانت على النحو التالى ، راجع

Treatise on The Holy hand P. 34.

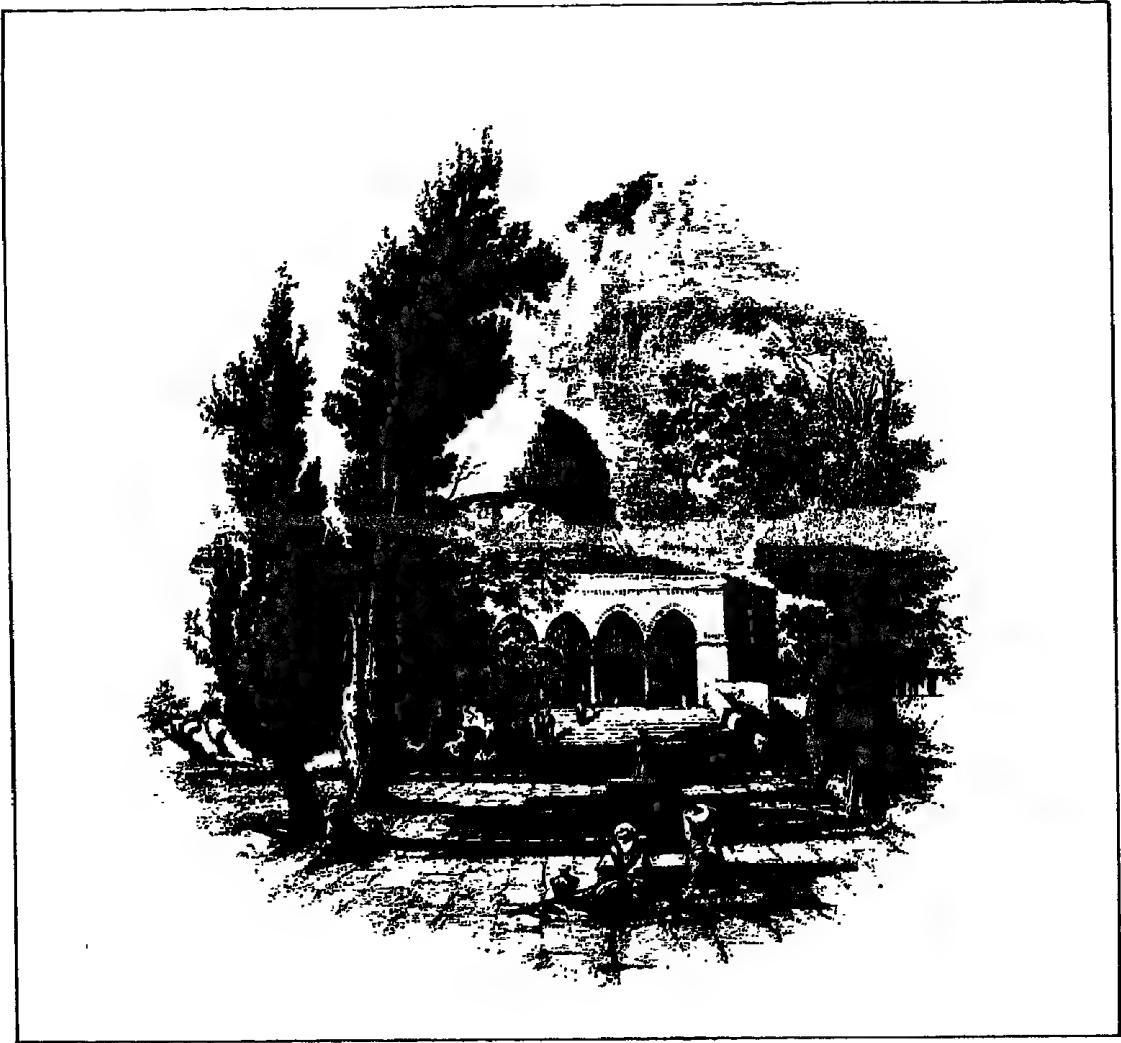
ضريبة السلطان (موجب السلطان) ٧ دوكات ذهبية ، ١٧ جروسي

١ دوكات ذهبية	مترجم السلطان
٢٧٥ جروسي	حارس باب كنيسة القيامة
٣ دوكات ذهبية	لزيرة المنطقة الجبلية كلها
٦ دوكات فضية	لستة أماكن يزورها الحاج
٨ دوكات فضية	للمرشد الذي يرشدهم في هذه الأماكن
٤ جروسي	نزل الرملة
١ جروسي	حارس يافا
٣ جروسي	حاكم الرملة
١ جروسي	كنيسة القديس جورج

ومجموع هذه المصاريف كان يبلغ ١٣٥٠ دوكات ذهبية أي ما يعادل ٢٩٧ درهما فضيا .

أما الستة أماكن التي كان يقوم الحاج بزيارتها ، ويدفعون عن كل مكان منها جروسي واحد كرسوم ، وآخر للمرشد هي : بيت لحم ، بيسان ، عين كارم ، جبل الزيتون ، قبر العذراء ، والبرك .

الخاتمة



إن التاريخ يشهد على أن الفوضى وسوء الأحوال وانتشار الأخطار والخاوف كثيرا ما ينتهي بظهور أحد المصلحين الذى يضع حدا لتلك الفوضى والأخطار ، ويوفر الأمن والاستقرار بعد كثرة المعاناة من القلق . ومن خلال دراستنا لمدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ، يتضح لنا أن هذا ما ينطبق تماما على أحوال المدينة فى عهد خلفاء صلاح الدين الأيوبي ، حيث عاشت المدينة فى حالة من الترقب والقلق ، تتطلع إلى اليوم الذى يتحقق فيه الأمن والاستقرار ، وقد تحقق لها هذا على يد دولة سلاطين المماليك الناشئة فى مصر وبخاصة عقب موقعة عين جالوت ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م . حيث عجلت هذه الموقعة بزوال الامارات الصليبية ، إذا استعاد المسلمون قدرتهم بسرعة فائقة ، وأصبح بإمكانهم العمل للتخلص نهائيا من أعدائهم . وبذلك يمكننا القول أن معركة عين جالوت كانت نقطة التحول الحاسمة فى الصراع ضد الصليبيين والمغول فى وقت واحد ، وهنا تبدو أهمية هذه الموقعة فى نتائجها المباشرة على بيت المقدس ، اذ أدخلتها وبلاد الشام تحت سيطرة القوة الناشئة لدولة المماليك فى مصر ، والتي بقيامها بطرد البقايا الصليبية حققت للمدينة بصفة خاصة ما كانت تتوق إليه من زمن بعيد من أمن واستقرار .

ولكنى لا أرى بدا من الملاحظة من أن مدينة بيت المقدس — وقد كانت القبلة الأولى فى الاسلام ، وكان مسجدها الأقصى الذى تم الاسراء إليه ، وقد شهد فتحها عمر بن الخطاب — لم تحظ باهتمام المؤرخين المسلمين بالدرجة التى حظيت بها مدينتا القاهرة ودمشق وبعض المدن الأخرى ذات الأهمية الإدارية أو السياسية ، وكأنهم يريدون إشعارنا بأن الاهتمام بها قد انتهى برجوعها لحوزة الإسلام ، هذا على عكس ما ملاحظة فى الغرب الأوربي فى تلك الفترة بالذات من الاهتمام بمدينة بيت المقدس ، والذى يتجلى بوضوح فى كتابات كثير من الحجاج والرحالة الغربيين ، سواء المسيحيين منهم أم اليهود ، والذين أفردوا كثيرا من الكتب للحديث عنها ، وهذا يعكس لنا مدى الاهتمام بها بعد فقدانها ، ولعل هذا يفسر لنا أيضا أن السر فى عظمة هذه المدينة وشهرتها فى جميع أنحاء العالم قديمه وحديثه يرجع إلى قدسيتها فى نظر أبناء الديانات السماوية المختلفة ، ولذا فلا غرابة فى أن تكون بمثابة القلب بالنسبة لكل البلدان العربية والأوربية فى تلك العصور التى تميزت بوضوح

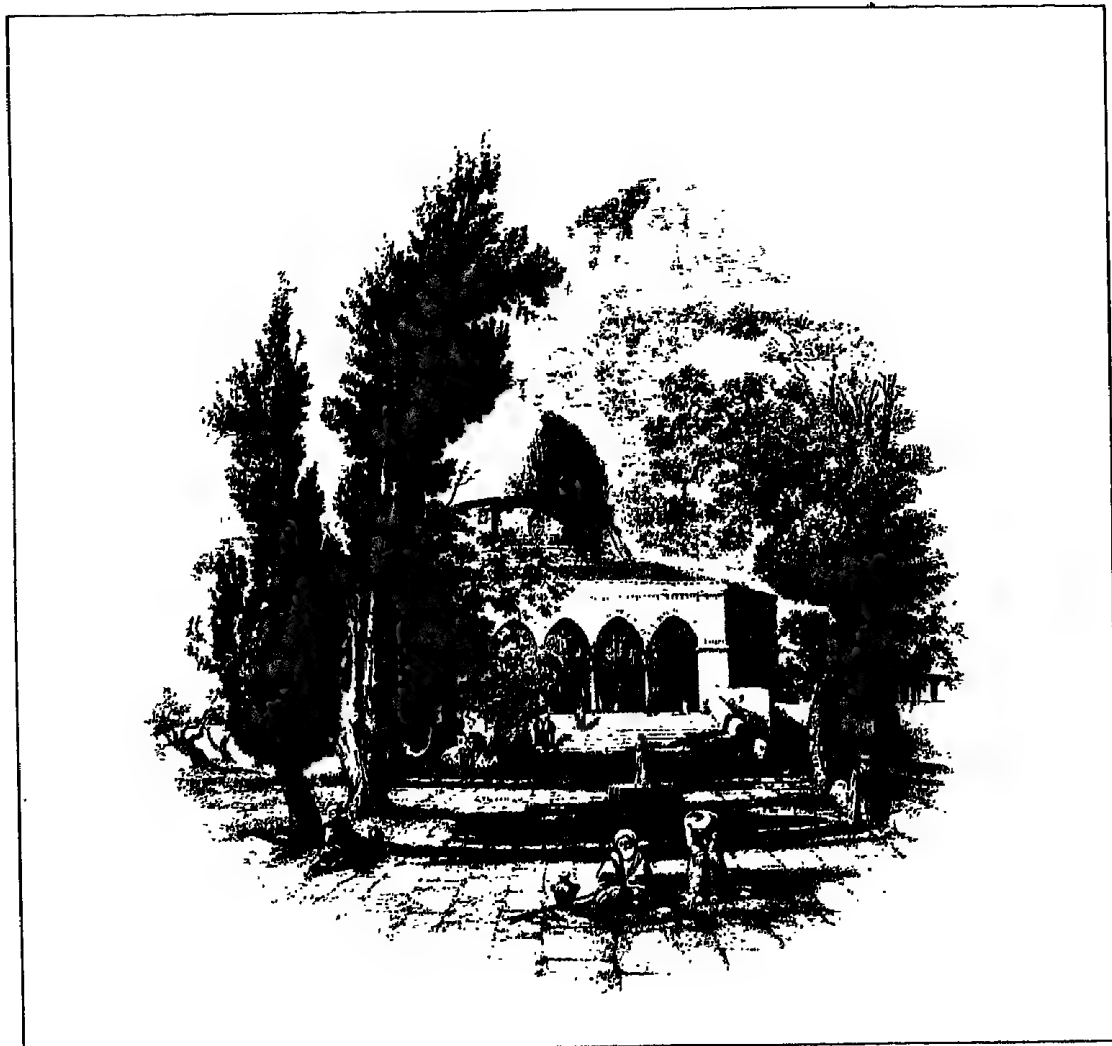
النزعة الدينية وسيطرتها على المعاصرين . فالقدس الشريف معظم عند جميع المسلمين واليهود والنصارى ، ومكان زيارة لهم أجمعين وإنما اختلافهم في أماكن الزيارة .

ومدينة بيت المقدس التي تتعرض لمحنة التهويد في القرن الحالى أى القرن العشرين لم تعرف يوما التعصب والانحياز في ظل العصر الاسلامى بوجه عام وطوال عصر سلاطين المماليك بوجه خاص ، وقد ظل أهلها يستقبلون الحجاج من كل دين وكل مكان ، ولا نغالى إذا قلنا أن أحدا من حكامها — طوال تلك الفترة من تاريخها التي نتحدث عنها والتي امتدت لأكثر من قرنين ونصف من الزمان — لم يتعرض لدمى في ممارسة شعائر دينه أو أنه حدث اعتداء على أى من دور العبادة الخاصة بأهل الذمة ، بل إن المؤرخين النصفين وبخاصة من الحجاج المسيحيين واليهود الذين زاروها في تلك الفترة من تاريخها قد أشادوا بحسن المعاملة التي كانوا يلقونها منذ أن تطفأ أقدامهم الأراضى المقدسة الى حين عودتهم لأوطانهم ، فضلا عما لقيه أبناء أهل الذمة المحليين والوافدين على المدينة من السلطات المملوكية من رعاية وعناية تشهد بها كتب المعاصرين من الحجاج المسيحيين واليهود ، كذلك لم يستطع أحد أن ينكر على المسيحيين شوقهم للحج إلى الأماكن المقدسة التي شرفت برسالة عيسى عليه السلام . تماما كما لم ينكر أحد على اليهود يوما ما يربطهم بالقدس . وبذلك عاش كل من المسيحيين واليهود مع السكان المسلمين تحت لواء الحكم المملوكى الإسلامى في أمن وحرية وطمأنينة . وليس أدل على العناية التي أولاها السلاطين أو الأمراء المماليك للمدينة من أنها لم تكن في يوم من الأيام أقل مكانة من الأماكن المقدسة الاسلامية الأخرى في مكة والمدينة ، من أنها ظلت تحمل أسم القدس الشريف مثل « مكة المشرفة » والمدينة « المدينة المشرفة » كذلك كان يطلق على القدس ومقام الخليل عليه السلام « الحرمان الشريفان » .

وبعبارة أخرى يمكننا القول أن سلاطين المماليك من خلال سياستهم الدينية التي لم تعرف التعصب ، والتي حرصوا فيها على تأكيد نفوذهم في الأماكن المقدسة الاسلامية ، والتي تجلت أيضا في العناية وعدم التفريق بين المؤسسات الدينية المختلفة ، فكما عنوا بالمقدسات الاسلامية باعتبارهم حماة الاسلام والمسلمين ، فقد كفلوا لأبناء الديانات السماوية الأخرى حرية العبادة ورعاية مقدساتهم ومؤسساتهم الدينية وعماريتها كلما دعت الحاجة إلى ذلك .

كذلك يمكننا القول أنه من خلال سياستهم الدينية ، والتي حرصوا فيها على تأكيد نفوذهم في نظر المعاصرين أفادوا بيت المقدس كثيرا ، يظهر هذا من حرص الكثيرين منهم على زيارتها والعناية بمقدسات الاسلام والمسلمين ، فضلا عن تشجيعهم الدائم للنشاط العلمى في المدينة بما شيدوه من مؤسسات تشهد على ذلك ، بحيث صارت المدينة بمدارسها وعلمائها الكثر قبلة طلاب العلم والمعرفة في العالم الإسلامى ، وخاصة فيما يتعلق بالعلوم الدينية على مختلف فروعها ، فضلا عن كثرة الأوقاف المحبوسة على المؤسسات الدينية والخيرية المختلفة والتي كانت من أهم عوامل ازدهار الحياة العلمية في ذلك العصر ، والتي امتد أثرها حتى أواخر عصر سلاطين المماليك .

قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية



المصادر العربية

أولاً : المخطوطات :

- ١ - ابن دقماق « صارم الدين ابراهيم بن محمد ت ٨٠٩ هـ »
الجوهري الثمين في سير الملوك والسلاطين ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٢٢ .
- ٢ - الخيارى : تحفة الأدباء وسلوة الغرباء المعروف برحلة الخيارى ، مخطوط بدار الكتب برقم ٥٤٥ جغرافياً .
- ٣ - العطار الشامى : رحلة العطار الشامى من دمشق إلى القدس ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥١٨ تاريخ تيمور .
- ٤ - الشيخ العلمى : « من علماء القرن الثانى عشر الهجرى » كتاب ناءت الموسى إلى زيارة القدس المحروس ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٤ تاريخ حليم ، كتبه سنة ١١٢٧ بالقدس الشريف .
- ٥ - ابن غانم المقدسى : « الشيخ نور الدين على » : مختصر الأعلام في فضائل القدس والشام ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٢٩٧١ ح .
- ٦ - ابن غانم المقدسى : « الشيخ عز الدين عبد السلام » : كتاب ممانح الكنوز وحل الرموز ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٤٠ تصوف ملعت .
- ٧ - ابن فضل الله العمرى : « شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى ت ٧٤٢ هـ » كتاب مسالك الأبصار في مسالك الأمصار ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ج ٤٣٧٦ .
- ٨ - القليوبى : « الشيخ أحمد شهاب الدين الأزهرى الشافعى من علماء القرن الحادى عشر

الهجرى : نبذة لطيفة في مباحث شريفة مشتملة على ما لا يستغنى عن معرفته
مما يتعلق بمكة المشرفة والمدينة المنورة وبيت المقدس ، مخطوط بدار الكتب برقم
١٤٠٨ تاريخ تيمور .

٩ - المقدسى : « شهاب الدين أحمد بن محمد ت ٧٦٥ هـ » : مثير الغرام إلى زيارة القدس
والشام ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٤ تاريخ .

١٠ - المقدسى : « الشيخ مرعى بن يوسف الحنبلى » : نزهة الناظرين في تاريخ من ولى مصر من
الخلفاء والسلاطين ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٣٠٣ تاريخ تيمور .

١١ - المقدسى : « الشيخ العلامة المشرف بن المرجى بن ابراهيم من علماء القرن التاسع
الهجرى » : كتاب مجموع نفيس فيه فضائل بيت المقدس والخليل عليه الصلاة
والسلام وفضائل الشام - المسمى فضائل بيت المقدس ، مخطوط بدار الكتب
المصرية برقم ٢٥٤٢ تاريخ .

١٢ - المقرئى : « تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ » : كتاب شذور العقود في ذكر
النقود ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٢٠٣٦ ح .

١٣ - اللقيمى : « الشيخ مصطفى أسعد ، سبط العلامة نور الدين على بن غانم المقدسى
ت ١١٧٨ هـ » : كتاب لطايف أنس الجليل في تحاييف القدس والخليل ،
مخطوط بدار الكتب برقم ٥٥٢٥ تاريخ وموانخ الأنس برحلتى الوادى المقدس ،
مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٥٣ جغرافية .

١٤ - النهاجى السيوطى : « أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين أحمد بن على ت ٨٨٠ هـ » :
اتحاف الأتخضا بفضائل المسجد الأقصى ، مخطوط بدار الكتب
المصرية برقم ٤٠٨ تاريخ .

١٥ - ابن الهائم : « أبو العباس بن محمد ت ٨١٥ هـ » :
- كتاب نزهة النفوس في بيان التعامل بالفلوس ، مخطوط بدار الكتب برقم
٢٥٨٧١ .

- مرشدة الطالب إلى أسنى المطالب في علم الحساب بدار الكتب برقم
ك ٣٨١٥ .

- المعونة في الحساب ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٦٨ حساب
ورياضة .

- اللمع وهى رسالة في علم الحساب ، مخطوط بدار الكتب برقم ك ٣٨١٥ .
- المناسخات ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٠٥ .

١٦ - مؤلف مجهول : رحلة إلى فلسطين والقدس ونابلس والخليل وما في بلاد الشام ، مخطوط
بدار الكتب برقم ٧٥٤ جغرافية .

ثانياً : المصادر العربية المطبوعة :

- ١ - ابن الأثير : « الشيخ العلامة عز الدين أئى الحسن علي ت ٦٣٠ هـ » كتاب الكامل فى التاريخ ، أجزاء ١١ - ١٢ ، طبع دار صادر بيروت ١٩٦٦ م .
- ٢ - ابن الأخواة : « محمد بن محمد بن أحمد القرشى ت ٧٢٩٠ هـ » : كتاب معلم القرية فى أحكام الحسبة ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٦ م .
- ٣ - ابن أيلك الصفدى : « صلاح الدين خليل ت ٧٦٤ هـ » : كتاب الوافى بالوفيات ، نشر جمعية المستشرقين الألمانية - استانبول ١٩٣١ م .
- ٤ - ابن إياس : « محمد بن أحمد بن إياس الحنفى ت ٩٣٠ هـ »
- صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، نشره د . محمد مصطفى - الجمعية الملكية للدراسات التاريخية بالقاهرة ١٩٥١ م
- بدائع الزهور فى وقائع الدهور أجزاء ١ - ٤ ، تحقيق د . محمد مصطفى ، نشر جمعية المستشرقين الألمانية - القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٧٢ م .
- ٥ - ابن تغرى بردى : « أبو المحاسن جمال الدين يوسف ت ٨٧٤ هـ »
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة أجزاء ٧ - ١٥ طبع دار الكتب المصرية ١٩٣٩ - ١٩٧٢ م
- المنهل الصافى والمستوفى بعد الدوافى ج ١ تحقيق أحمد سيف نخاى - طبع دار الكتب المصرية ١٩٥٦ م
- منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ٤ أجزاء نشر وليام بوير - كاليفورنيا ١٩٣٠ - ١٩٤٢ م .
- ٦ - ابن أجا : « شمس الدين محمد بن محمود بن خليل الحلبى ت ٨٨١ هـ » تاريخ الأمير يشبك الظاهرى ، تحقيق د . عبد القادر أحمد طليمات دار الفكر العربى ١٩٧٣ .
- ٧ - ابن الجوزى : « الشيخ أبو الفرج ت ٥٩٧ هـ » : فضائل القدس ، نشر دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٨٠ م .
- ٨ - ابن أبى أصيبعة : « موفق الدين أئى العباس أحمد ت ٦٦٨ هـ » : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، نشر دار الفكر ، بيروت ١٩٥٦ .
- ٩ - ابن بطوطة : « أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتى ت ٧٧٩ هـ » : تحفة النظر فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة بالرحلة ، نشر دار صادر بيروت ١٩٦٤ م .

- ١٠ - ابن الحاج : « أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي ت ٧٣٧ هـ » المدخل إلى الشرع الشريف ، ٣ أجزاء طبع المطبعة العامرة الشرقية بالقاهرة ١٣٢٠ هـ .
- ١١ - ابن حبيب : « الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ت ٧٧٩ هـ » تذكرة النية في أيام المنصور وبنه ج ١ ، تحقيق د . محمد محمد أمين - القاهرة ١٩٧٦ م .
- ١٢ - ابن حجر : « شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن علي بن أحمد ت ٨٥٢ هـ » - الدور الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ٤ أجزاء ، طبع حيدر آباد الدكن ١٣٤٨ هـ .
- أنباء الغمر بأبناء العمر جزءان ، تحقيق د . حسن حبشي - القاهرة ١٩٦٩ - ١٩٧١ م .
- ١٣ - الحيمى : « الحسن بن أحمد لم تعلم سنة وفاته » : سيرة الحبشة ، تحقيق د . مراد كامل ، مطبعة دار العلم العربى بالقاهرة ت ٨٠٨ هـ .
- ١٤ - ابن خلدون : « عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر ت ٨٠٨ هـ » - تاريخ ابن خلدون ٧ أجزاء ، طبع دار الطباعة العامرة ببولاق مصر القاهرة ١٢٨٤ هـ - المقدمة ، المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣٢١ هـ .
- ١٥ - ابن شيلكان : « أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي البركات ت ٦٨١ هـ » : كتاب وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق د . احسان عباس ، ٦ أجزاء - بيروت ١٩٦٨ م .
- ١٦ - الدمشقى : « شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب الأنصارى الدمشقى المعروف بشيخ الربوة ت ٧٢٧ هـ » : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر - طبع لبيزج ١٩٢٣ م .
- ١٧ - الدوادارى : « أبو بكر بن عبد الله بن أيك ت ٧٣٤ هـ » : كنز الدرر وجامع الغرر - الجزء الثامن وهو « الدرة الزكية في أخبار الدولة البركية » تحقيق أوليرخ هارمان - القاهرة ١٩٧١ والجزء التاسع وهو « الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر » تحقيق هانس روبرت روبر - القاهرة ١٩٦٠ م .
- ١٨ - الذهبى : « شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ » : سير أعلام النبلاء ، ٣ أجزاء ، نشر معهد المخطوطات العربية ودار المعارف بمصر .
- ١٩ - السبكى : « تاج الدين عبد الوهاب ت ٧٧١ هـ » : معبد النعم ومبيد النقم - دار

الكتب العربى بمصر ١٩٤٨ م .

٢٠ - سبط ابن الجوزى : « أبو محمد يوسف ت ٦٥٤ هـ : « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان - القسم الأول والثانى من الجزء الثامن - الطبعة الأولى طبع حيدر أباد الدكن - الهند ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م .

٢١ - السخاوى : « شمس الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٩٠٢ هـ : « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، أجزاء ٥ - ١٢ طبع مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٤ - ١٣٥٥ هـ - التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ١٩٧٤ م .

٢٢ - السيوطى : « جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١ هـ : « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة جزءان ، القاهرة ١٣٢٧ هـ : نظم العقيان فى أعيان الأعيان ، تحقيق د . فيليب حتى - نيويورك ١٩١٧ : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .

٢٣ - ابن شاکر الکتبى : « فخر الدين محمد بن شاکر بن أحمد ت ٧٦٤ هـ : « فوات الوفيات ، جزءان ، طبع بدار الطباعة العامرة ببولاق مصر - القاهرة ١٢٨٣ هـ .

٢٤ - أبو شامة : « شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل ت ٦٦٥ هـ : « - الروضتين فى أخبار الدولتين ، جزءان ، القاهرة ١٢٨٧ هـ - الذيل على الروضتين ، الطبعة الثانية ، نشر دار الجليل ١٩٧٤ م .

٢٥ - ابن شاهين : « غرس الدين خليل ت ٨٧٣ هـ : « كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك تصحيح بوليس راويس ، باريس ١٨٩٤ .

٢٦ - ابن شداد : « القاضى بهاء الدين ت ٦٣٢ هـ : « كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، طبع مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧ هـ .

٢٧ - ابن صرى : « محمد بن محمد ت كتاب الدرة المضئية فى الدولة الظاهرية - تحقيق وليم مريبنر بركلى ١٩٦٣ .

٢٨ - ابن الصيرفى : « على بن داود ابراهيم المعروف بالخطيب الجوهري ت ٩٠٠ هـ : « نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان أجزاء ١ ، ٢ تحقيق د . حسن حبشى - القاهرة ٧٠ - ١٩٧١ م .

: أنباء المصر بأبناء العصر - تحقيق د . حسن حبشى - القاهرة ١٩٧٠ .

٢٩ - ابن طولون : « شمس الدين محمد بن على بن محمد الصالحى الحنفى ت ٩٥٣ هـ : «

- إعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى أو تاريخ الشام من قيام دولة المماليك فى مصر إلى صدر العهد العثمانى - تحقيق عبد العظيم حامد خطاب - مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٣
- مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان - قسمان ، تحقيق د . محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٦٢ .

٣٠ - عبد الفنى النابلسى : الحضرة الأنيسية فى الرحلة القدسية - طبع جريدة الاخلاص بمصر ١٩٠٢ م .

٣١ - ابن عبد الظاهر : « محبى الدين أبو الفضل عبد الله السعدى ت ٦٩٢ هـ »
- تشرىف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور - تحقيق د . مراد كامل القاهرة ١٩٦١ م .
- الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر - نشر وتحقيق فاطمة صديق ، اكسفورد ١٩٥٦ م .
- الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر - نشر عبد العزيز الخويطر ، الرياض ١٩٧٦ م .

٣٢ - ابن العبرى : « غر يغوريوس الملطى ت ١٢٨٦ م » : تاريخ مختصر الدول - نشر الأب أنطون صالحانى اليسوعى - بيروت ١٩٥٨ م .

٣٣ - ابن العماد الحنبلى : « أبى الفلاح عبد الحى ت ١٠٨٩ هـ » : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ثمانية أجزاء - نشر مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥١ هـ .

٣٤ - العماد الأصفهائى : « أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبى الفرج محمد ت ٥٩٧ هـ »
- سنا البرق الشامى - تحقيق د . فتحية النبراوى - القاهرة ١٩٧٩ م

- الفتح القسى فى الفتح القدسى - القاهرة ١٩٠٣ م .
٣٥ - العينى : « بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى ت ٨٥٥ هـ » : السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد « شيخ الحمودى » القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٦٧ م

٣٦ - أبو الفدا : « الملك المؤيد اسماعيل ت ٧٣٢ هـ »
- كتاب تقديم البلدان ، حققه م . رينود والبارون ماك كوكين دى سلان ، باريس ١٨٤٠ م
- المختصر فى أخبار البشر ، ٤ أجزاء فى مجلدين - المطبعة الحسينية بالقاهرة ١٣٢٥ هـ

- تاريخ أبى الفدا - أجزاء ٣ ، ٤ طبع القسطنطينية ١٢٨٣ هـ .

٣٧ - ابن فضل الله العمرى : « أحمد بن يحيى ت ٧٥٥ هـ »

- التعريف بالمصطلح الشريف - طبع بمطبعة العاصمة بمصر سنة ١٣١٢ هـ .

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ج ١ تحقيق أحمد زكي باشا ، طبع دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م .

٣٨ - ابن الفوطى : « كمال الدين أبى الفضل عبد الرازق بن الفوطى البغدادى ت ٧٣٢ هـ » :
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة - بغداد ١٣٥١ هـ .

٣٩ - ابن قاضى شهبة : « تقى الدين أبو بكر بن أحمد ت ٨٥١ هـ » : تاريخ ابن قاضى
شهبة - الجزء الثامن من المخطوط ، تحقيق عدنان درويش - دمشق
١٩٧٧ م .

٤٠ - القزوينى : « زكريا بن محمد بن محمود ت ١٢٨٣ م » : آثار البلاد وأخبار العباد - نشر
دار صادر بيروت ١٩٦٠ م .

٤١ - القلقشندى : « أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢١ هـ » : نهاية الأرب في معرفة أنساب
العرب - منشورات دار البيان بغداد ١٩٥٨ م
- صبح الأعشى في صناعة الانشا أجزاء ٤ - ١٠ طبع المطبعة الأميرية
بالقاهرة ١٩١٤ م .

٤٢ - ابن كثير : « الإمام الحافظ عماد الدين أبى الفدا اسماعيل ابن عمر بن كثير القرشى
الدمشقى ت ٧٧٤ هـ » : البداية والنهاية في التاريخ ، أجزاء ١٣ ، ١٤ ، طبع
مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٣٩ م .

٤٣ - مجير الدين الحنبلى : « أبو اليمن ت ٩٢٧ هـ » : الأنس الجليل بتاريخى القدس والخليل ،
جزءان طبع المطبعة الوهية بالقاهرة ١٢٨٣ هـ .

٤٤ - المقرئى : « تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ »
- البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب - تحقيق عبد الحميد عابدين
القاهرة ١٩٦١ م

- إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشر د . مصطفى زيادة ود . جمال الدين
الشيال - القاهرة ١٩٤٠ م

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك الجزء الأول والثانى فى ستة أقسام طبعة
ثانية ، تحقيق د . محمد مصطفى زيادة - طبع القاهرة ١٩٤٢ - ١٩٧١ .
والجزء الثالث والجزء الرابع فى ستة أقسام ، تحقيق د . سعيد عبد الفتاح
عاشور - القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٢ م

- الخطط المقرئية - المسماة بالمواعظ والاعتبار ٣ أجزاء طبع بولاق بمصر
١٢٧٠ هـ .

٤٥ - ناصر خسرو على : سفر نامه - نقله للعربية وقدم له د . يحيى الخشاب - طبعة أولى - القاهرة ١٩٤٥ م .

٤٦ - النعمى : « عبد القادر بن محمد النعمى الدمشقى ت ٩٢٧ هـ » : الدارس فى تاريخ المدارس - الجزء الأول - تحقيق جعفر الحسنى - مطبعة الترقى بدمشق ١٩٤٨ م .

٤٧ - الهروى : « أبو الحسن على بن أبى بكر ت ٦١١ هـ » - كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات - تحقيق جانين سورديل - طومين دمشق ١٩٥٣ م .

٤٨ - الواسطى : « أبو بكر محمد بن أحمد - من علماء القرن الخامس الهجرى » : فضائل البيت المقدس - نشر معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية الجامعة العبرية - أورشلیم ، حققه وقدم له ا . حسونه - القدس ١٩٧٩ م .

٤٩ - ابن واصل : « جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ » - مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب الأجزاء من ١ - ٣ تحقيق د . جمال الدين الشبال القاهرة ٥٣ - ١٩٦٠ م والأجزاء ٤ ، ٥ تحقيق د . حسنين ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ - ١٩٧٧ م .

٥٠ - ابن الوردى : « الشيخ زين الدين عمر ت ١٣٣١ م » - تاريخ ابن الوردى ، ج ٢ طبع النجف ١٩٦٩ م .

٥١ - ياقوت الحموى : « شهاب الدين أبو عبد الله ت ٦٢٦ هـ » : معجم البلدان - مجلد ٨ طبع القاهرة ١٩٠٦ م .

٥٢ - المؤلف المجهول : « حوليات دمشقية ، نشر وتحقيق د . حسن حبشى - القاهرة ١٩٦٨ م .

ثالثاً : مراجع عربية حديثة :

١ - ابراهيم على طرخان : « دكتور » : النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى - القاهرة ١٩٦٨ م .

٢ - أحمد دراج : « دكتور » : حجة وقف الأشرف برسباى - مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية - القاهرة ١٩٦٣

- وثائق دير صهيون بالقدس الشريف - مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٨
- الممالك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى - الخامس عشر الميلادى - دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٦١ م .

- ٣ - أحمد رمضان : « دكتور » : المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية - القاهرة ١٩٧٧ م .
- ٤ - أحمد عبد الرازق أحمد : « دكتور » : دراسات فى المصادر المملوكية المبكرة - القاهرة ١٩٧٤ م المرأة فى مصر المملوكية - القاهرة ١٩٧٤ م البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك « دراسة عن الرشوة » طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٩ م .
- ٥ - أحمد عيسى : « دكتور »
- تاريخ البيمارستانات فى الإسلام - المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٣٩
- معجم الأطباء من سنة ٦٥٠ هـ إلى يومنا هذا (ذيل عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) لابن أبى أصيبعة القاهرة ١٩٤٢ م .
- ٦ - أحمد مختار العبادى : « دكتور » : قيام دولة المماليك الأولى فى بلاد الشام - الاسكندرية ١٩٨٢ .
- ٧ - آدم ميتز : « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جزآن - تعريب محمد عبد الهادى أبو ريه القاهرة ١٩٤٠ م .
- ٨ - أديب لحود : العادات والأخلاق اللبنانية - طبع بيروت ١٩٥٣ .
- ٩ - اسماعيل باشا بن سليم : « إيضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون - جزآن - القاهرة ١٩٤٥ م .
- ١٠ - الباز العرينى : « دكتور » : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، الجزء الأول القاهرة ١٩٦٣ م .
- ١١ - البغدادى (اسماعيل باشا) : هدية العارفين - أسماء المؤلفين وآثار المصنفين فى مجلدين = استانبول ٥١ - ١٩٥٥ .
- ١٢ - بلاشير وهدمون : « منتخبات من آثار الجغرافيين فى القرون الوسطى الطبعة الثانية ، باريس ١٩٥٧ م .
- ١٣ - الخالدى : « أحمد سامح »
- رجال الحكم والإدارة فى فلسطين من عهد الخلفاء الراشدين إلى القرن الرابع عشر الهجرى - طبع المطبعة العصرية بالقدس بدون تاريخ .
- المعاهد المصرية فى بيت المقدس - القدس ١٩٤٦ م .
- أهل العلم بين مصر وفلسطين - القدس ١٩٤٧ م .
- ١٤ - الخربوطلى : « على حسنى دكتور » : العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود فى العصور القديمة الإسلامية - القاهرة ١٩٦٩ م .

- ١٥ - خليل سرقيس : « تاريخ أورشليم أى القدس الشريف بيروت ١٨٧٤ م .
- ١٦ - رشاد الإمام : « دكتور » : مدينة القدس فى العصر الوسيط - تونس ١٩٧٦ م .
- ١٧ - رقسيمان : « : تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ أجزاء ترجمة د . السيد الباز العرينى - بيروت ١٩٦٩ م .
- ١٨ - الزركلى (خير الدين) : « الإعلام - قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعمرين والمستشرقين ، عشرة أجزاء ، الطبعة الرابعة بيروت ١٩٧٩ م .
- ١٩ - سعيد عبد الفتاح عاشور : « دكتور »
- « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس » بحث مقدم للمؤتمر الدولى الثالث لتاريخ بلاد الشام ابريل ١٩٨٠ م
- الناصر صلاح الدين ، من سلسلة أعلام العرب - طبع القاهرة ١٩٦٥ م
- الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام طبع القاهرة ١٩٧٠ م
- الحركة الصليبية - جزآن - طبع القاهرة ١٩٦٣ م .
- ٢٠ - عارف العارف (الباشا) : « : تاريخ القدس ، طبع دار المعارف بالقاهرة ١٩٥١ م ، الفصل فى تاريخ القدس - مطبعة المعارف ١٩٦١ م .
- ٢١ - عبد الحميد زايد : « دكتور » القدس الخالدة - طبع دار الكتب المصرية ١٩٧٤ م
- ٢٢ - عبد اللطيف ابراهيم : « دكتور » وثيقة السلطان قايتباى - دراسة وتحليل المدرسة بالقدس والجامع بغزة - القاهرة ١٩٦١ م
- من الوثائق العربية - دراسات فى الكتب والمكتبات الإسلامية القاهرة ١٩٦٣ م .
- ٢٣ - عبد اللطيف حمزة : « دكتور » الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوونى والمملوكى الأول - طبعة أولى - دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٤٧ م .
- ٢٤ - على محمد على وابراهيم الحمصانى : فلسطين فى ماضيها العربى وحاضرها الصهيونى ، طبع الدار القومية للطباعة والنشر تاريخ طباعه .
- ٢٥ - عمر صالح البرغوثى : تاريخ فلسطين - طبع القدس ١٩٢٣ م .
- ٢٦ - عمر عبد السلام تدمرى : الحياة الثقافية فى طرابلس الشام فى العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٠ م .
- ٢٧ - عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، تراجم مصنفى الكتب العربية ٥ أجزاء دمشق ١٩٥٧

- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ٥ أجزاء - دمشق ١٩٤٠
- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة . دمشق ١٩٤٩
- ٢٨ - فرج أنطون : أورشليم الجديدة - أو فتح العرب بيت المقدس ، الاسكندرية ١٩٠٤
- ٢٩ - فتحة النبراوى : « دكتور »
- العلاقات السياسية والإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى القاهرة ١٩٨٢
- ٣٠ - قاسم عبده قاسم : « دكتور »
- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٩
- الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين دار المعارف القاهرة
- ٣١ - كامل جميل العسلى : « دكتور » : وثائق مقدسية تاريخية ، ج ١ طبع عمان ١٩٨٣
- ٣٢ - كرد علي محمد : « : خطط الشام ، ٦ أجزاء - طبع دمشق ١٩٢٥
- ٣٣ - لجنة التعريف بالإسلام : حول بيت المقدس ، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٩
- ٣٤ - لحد صعب : « مختصر تاريخ طائفة الروم - بيروت ١٩١٤
- ٣٥ - محمد أبو الهدى الصيادى الرفاعى : كتاب الروض البسام في أشهر البطون القرشية بالشام - طبع مطبعة الاقدام بالاسكندرية ١٨٩٢
- ٣٦ - محمد الحبيب بن الخوجة : « دكتور » : يهود المغرب العربى ، جامعة الدول العربية - قسم البحوث والدراسات الفلسطينية ١٩٧٣ م .
- ٣٧ - محمد أديب العامرى : عروبة فلسطين في التاريخ - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت ١٩٧٢
- ٣٨ - محمد جمال الدين سرور : « دكتور » : دولة بنى قلاوون في مصر - نشر دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٤٧ م
- ٣٩ - محمد محمد أمين : « دكتور » : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م دار النهضة بالقاهرة ١٩٨٠
- ٤٠ - محمد عبد الله عثمان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين - طبعة ثانية - مطبعة مصر ١٩٥٨ .
- ٤١ - محمود العايدى : قدسنا ، من منشورات جامعة الدول العربية قسم البحوث والدراسات الفلسطينية ١٩٧٢
- ٤٢ - ميخائيل مكس اسكندر : القدس عبر التاريخ - دراسة جغرافية تاريخية أثرية للمدينة

المقدسة - القاهرة ١٩٧٢

- ٤٣ - ظفر الإسلام خان : تاريخ فلسطين - الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٩ .
- ٤٤ - نعمان القساطلي : الروضة الغناء في دمشق الفيحاء بيروت ١٨٧٩
- ٤٥ - نعيم زكى : « دكتور » : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٣
- ٤٦ - نقولا زيادة : « دكتور »
- رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى - بيت المقدس ١٩٤٣ م
- دمشق فى عصر المماليك - مكتبة لبنان - دمشق ١٩٦٦
- لمحات من تاريخ العرب - بيروت ١٩٦١
- ٤٧ - نظير حسان سعداوى : « دكتور » : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي - القاهرة ١٩٦١
- ٤٨ - وليم فهمى : الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة من منشورات جامعة الدول العربية ١٩٧١
- ٤٩ - يوشع براور : عالم الصليبيين - ترجمة وتقديم د . قاسم عبده قاسم و د . محمد خليفة حسن - نشر دار المعارف القاهرة ١٩٨١

رابعاً : الدوريات :

- ١ - :المجلة التاريخية المصرية المجلد السادس ١٩٥٧ ، المجلد السابع ١٩٥٨ المجلد الثامن ١٩٥٩ ، المجلد الحادى عشر ١٩٦٣ ، المجلد الرابع والعشرين ١٩٧٧
- ٢ - مجلة كلية الآداب - المجلد الثامن والعشرين ١٩٦٦

خامساً - رسائل علمية :

- ١ - سليمان اسحق عطية :
- تاريخ التعليم فى فلسطين على عهد سلاطين المماليك - رسالة دكتوراه من جامعة القاهرة ١٩٥٧
- ٢ - عبد الغنى محمود عبد العاطى : - التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك - رسالة ماجستير بجامعة القاهرة ١٩٧٥ .

المصادر الأجنبية

- 1) Adler "Elkan Nathan": Jewish Travellers, 1st, Published London 1930.
- 2) Baumgarten "Martin": The travels of Martin Baumgarten through Egypt, Arabia, Palestine and Syria, 3 vols. N.D.
- 3) Bertvandon De La Brocquiere: The Travels of Betrandon De La Brocquire to Palestine (1432-33 AD, Trans., By Thomas Johnes" Esa, at the hated Press. 1807.
- 4) Bernhard von Breydenbach and his Journey to the Holy land (1483-4) A Bibliography compiled by W.M. Davis, London, 1911.
- 5) Burchard of Mount Sion (A.D. 1280) In P.P.T.S. Vol. XII Trans from the Original Latin By, Aubery Stewart London 1896.
- 6) Canon Pietro Casola's Pilgrims to Jerusalem in the year 1494 By, M. Margaret Newett, Manchester, The university Press 1907.
- 7) Felix Fabri: "The Book of the Wanderings of Brother Felix Fabri (circa 1480-1483 A.D.) 2 Vols. Trans. by Aubrey Stewart London 1892.
- 8) Palestine Pilgrims Text-Society Vol., 9-10 London 1897
- 9) Foster "William"; The Travels of John Sanderson In the Levant London, 1931.
- 10) Francesco Souriano: Treatise on the Holy Land Trans. From the Italian By. Fr. Theophilus Bellowini, Jerusalem 1948.
- 11) Frescobaldi, Gucci and Sigoli: A visit to the Holy Places Trans from the Italian By, Theophilus Bellowini-Jerusalem 1948.
- 12) Henry Maundrell. A Journey from Aleppo to Jerusalem in 1697, Birut, 1963.

- 13) Joinville & Villehardouin: Chronicles of the Crusades, Penguin classics-London 1963.
- 14) Ludovico De Varthema: The Travels of Ludovico Di Varthema in Egypt, Syria, Arabia Desert and Aralia Felix.
In Persia, India, And Ethiopia (AD 1503-1508) Trans from the Italian By John Winter Esa, F.S.A; London 1863.
- 15) Nicolo of Poggibonsi (1346-1350 AD): A voyage Beyond the seas, Jerusalem, The Franciscan Press, 1945.
- 16) Pero Tafur: Travels and adventures (1435-1439) Published by George Routledge & Son Ltd., London 1926.
- 17) Thomas Wright: Early Travels in Palestine, London 1886.

- 18) Amiry (M.A.): Jerusalem, Arab Origin and heritage, London 1948.
- 19) Alexander, R. Khoori: Jerusalem, How to see it, London 1927.
- 20) Alexander, Max,: Studies In Jewish History and Booklore, New York, 1944.
- 21) Ali Ibrahim (Dr.) Jews of the Arabs countries, Palestine Liberation organization research centre Beirut 1971.
- 22) Amnon cohen and Bernard Lewis: Population and Revenue in the towns of palestine in the sixteenth century Princeton University Press-New Jersey 1978.
- 23) Andrew Gray: A pilgrimage to Bible Lands, London 1903.
- 24) Annual of the American school of Oriental Research in Jerusalem vols., I-8, New Haven Conn. 1920-1927.
- 25) Aziz Suryal Atiya: The crusade in the Later Middle Ages: London, 1938.
- 26) Bartlett (W.H.): Jerusalem Revisited ed. Thomas Nelson, London, 1854.
- 27) Bayard Dodge: Muslim Education in Medieval Times-The Middle East Institute Washington D.C., 1962.
- 28) Ben-Sason: Jewish Society Through the Ages. New York 1973.
- 29) Charles Dudley: In the Levant. Cambridge 1907.
- 30) Charles Warren and Conder: The survey of Western Palestine, Jerusalem Published for the committee of the Palestine Exploration Fund, London, 1884.

- 31) Conder: The city of Jerusalem - London 1909.
- 32) The Latin Kingdom of Jerusalem 1099-1291, London 1897.
- 33) Cunningham Geikie: The Holy Land and the Bible. Vol. 1, New York James Patt. 1888.
- 34) De Saulcy: Jerusalem Paris 1882.
- 35) Eothen: A Classic of Travel in the Middle East. University of Nebraska Press, Lincoln 1970.
- 36) Goitein (S.D.): Jews and Arabs-their contacts through the Ages, Third revised Edition Schocken Books New York, 1974.
- 37): "the Social and Religious History of the Jews" Speculum Vol., 36, 1961.
- 38) Graham (Stephen): With the Russian Pilgrims to Jerusalem, London, 1927.
- 39) Henry Formly (Rev): A visit to the East London. 1843.
- 40) The Jewish Encyclopedia - Art Jerusalem Vol., VII New York and London, MD CCC VI.
- 41) Joshua Prawer: The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1973.
- 42) "The settlement of the Latins In Jerusalem" Speculum Vol. XXVII, PP 490-503.
- 43) Joh Wilkinson: Jerusalem Pilgrims-England 1977.
- 44) Kathleen M. Kerryon: Digging up Jerusalem, London Tonbridge 1974.
- 45) Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages London 1925.
- 46) Lapidus (Ira. Marvin): Muslim cities in the Later Middle Ages, Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts 1967.
- 47) Lees (Robinson): Village Life in Palestine, London 1905.
- 48) Le Strange (Guy): Palestine under the Muslims, Florance 1890.
- 49) Margoliouth: Cairo, Jerusalem and Damascus, Three chief cities of the Egyptian sultans-London 1907.
- 50) Marie-Joseph De Geramb: A Pilgrimage to Palestine, Egypt and Syria London 1840.
- 51) Marmorosch: Old And New Places in Palestine, Syria and Lebanon-A New Guide-Jerusalem 1946.
- 52) Murphy-O'Connor J: The holy Land. Oxford University Press 1980.
- 53) Murray: Syria And Palestine 2 vols, London 1858.
- 54) Nicola A. Ziadeh: Urban Life in Syria under the Early Mamluks,

American University of Bierut-Bierut 1953.

- 55) Palestine Exploration Fund; Twenty one years work in the Holy land, June 22, 1865-June 22, 1880-London 1889.
- 56) Palestine Digest Vol., 8. No. 4 - July 1978.
- 57) Prescott: Once to Sinai, The further pilgrimage of Friar Eelix Fabri - London 1957.
- 58) Jerusalem, Journey - Pilgrimage to the Holy Land in the Fifteenth Century, London 1954.
- 59) Ray John: A collection of Curious Travels and Voyages - London 1693.
- 60) Recueil Des Historien Des Croisades. Historiens Orientaux Tomes 105 Paris 1967.
- 61) Richard Pococke: A Description of the East and some other countries Vol. 11 Part I. London MD CCXL V.
- 62) Runciman: The Historical Role of the Christian Arab of Palestine, London 1970.
- 63) Samuel Hanning (Rev): Those Holy fields. London the Religious Tract Society 1874.
- 64) Sauvaget et G. Wiet: Repertoire chronologique D'Epigraphie Arabe - 16 tomes - Le Caire 1941-1946.
- 65) Smail: The Crusades in Syria and the Holy land, southampton 1973.
- 66) Smith (George Adam): Jerusalem, The topography, Economic and History from the Earliest times to A.D. 70; 2 vols. Hodder and Stoughton London MCM VII.
- 67) Standshut: Jewish communities in the Muslim countries of the Middle East, A survey Published by the Jewish Chronicle, London 1950.
- 68) Stewart Perown: The pilgrim's companion in Jerusalem and Bethlehem - London 1964.
- 69) Tweedie: Jerusalem and its environs-Nelson and sons. London MD CCCLXII.
- 70) Van Berchem (Max): Materiaux Pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Syrie Du Sud, Jerusalem ville, Vol. 43 pt. 1, Vol. 44 pt. 1, Le Caire 1922.
- 71) William T. Ellis; Bible Lands Today. New York, London 1927.
- 72) Wolf-Dieter Hütteroth, Kamal Abdulfattah: Historical Geo-

graphy of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Late 16th century-Erlangen 1977.

- 73) Wolf Leslau: "Ethiopian Itineraries Ca. 1400-1524" *Speculum*, vol. XXXIV, No., 2, 1959.

٥	تقديم
٩	مقدمة المؤلف
١١	دراسة للمصادر الخاصة بهذا البحث
١٩	الفصل الأول : الحياة السياسية في مدينة بيت المقدس
٦٥	الفصل الثاني : سكان مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك .
١١٩	الفصل الثالث : الحياة العلمية في مدينة بيت المقدس
١٨٧	الفصل الرابع : الحياة الاقتصادية في بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك .
٢٣٩	الفصل الخامس : الحياة اليومية في مدينة بيت المقدس
	ملاحق
٣٠٣	خاتمة
٣٠٧	قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية

رقم الايداع ٨٦/٤٤٢٤

القدس في العصر المملوكي

القدس ليست مجرد مدينة من عشرات الألوف من مدن الأرض ، ولكنها رمز دار من حوله الصراع على مدى أجيال عدة في تاريخ المنطقة العربية .

والقدس اليوم رمز في صراع جديد قديم بين القوى العربية في المنطقة وقوى البغي والعدوان ، الآتية من خارج المنطقة تفرض منطق الاستيطان العنصري التسريبل برداء الدين .

والقدس في ماضيها القريب كانت رمزاً لصراع بين العرب والقوى الصليبية التي وفدت إلى المنطقة تزرع فيها كيانا دخيلا ، فما أشبه اليوم بالبارحة !

من هنا ، كانت أهمية هذا البحث المستفيض — الذي يقدم صورة شاملة للقدس خلال قرنين ونصف قرن من الزمان إبان العصر المملوكي — حيث يكشف لنا جميعا ، أن المدينة المقدسة ليست بالنسبة لحضارتنا وماضيها وحاضرنا مجرد مدينة احتلها العدو ، وإنما هي قطعة حية من تاريخنا ، ومعرض حي لإنجازات الحضارة العربية .

Bibliotheca Alexandrina



0222368

الشمس

دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع



القاهرة - باريس

القاهرة: ش. مشاويب - رقم ٤٤/٢٥
مدينة نصر - المنطقة الثامنة

To: www.al-mostafa.com